

تاريخ سورية الدنيوي والديني

سورية في أيام السلاطين العثمانيين

راجعه ودققه
الدكتور مارون رعد

إشراف
نظير عبود



دار نظير عبود




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



تاريخ سورية



المطران يوسف الدبس

تاريخ سورية

الديني والدنيوي

الجزء السابع

سورية في أيام السلاطين العثمانيين

راجعه ودققه

الدكتور مارون رعد

إشراف

نظير عبود

دار نظير عبود



فهرس

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن السادس عشر

الفصل الأول

بطاركة انطاكية وأورشليم في القرن السادس عشر

الفصل الثاني

المشاهير الدينيون في القرن السادس عشر

الفصل الثالث

الأحداث الدينية في هذا القرن

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن السادس عشر

الباب السابع عشر

تاريخ سورية في القرن السابع عشر

القسم الأول

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأول

السلاطين العظام الذين تولوها بهذا القرن وما كان في أيامهم

الفصل الثاني

مشاهير القرن السابع عشر

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن السابع عشر

الفصل الأول

بطاركة انطاكية وأورشليم في هذا القرن

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدينيين السوريين وغيرهم في القرن السابع عشر

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن السابع عشر

الفصل الأول

أعيان الموارنة الدنيويون في القرن السابع عشر

الفصل الثاني

بطاركة الموارنة في القرن السابع عشر

الفصل الثالث

أساقفة الموارنة في القرن السابع عشر

الفصل الرابع

المشاهير من علماء الموارنة وفضلائهم في القرن السابع عشر

الفصل الخامس

الأديار والكنائس التي أُنشئت للموارنة في هذا القرن

ذيل

الباب الثامن عشر

تاريخ سورية في القرن الثامن عشر

القسم الأول

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأول

السلاطين العثمانيون العظام الذين تولوا سورية في هذا القرن

وما كان في أيامهم

الفصل الثاني

بعض المشاهير في القرن الثامن عشر



المجلد السابع

تاريخ سورية

أيام السلاطين العثمانيين

عد ٩٥٨

أصل السلاطين العثمانيين وملوكهم إلى السلطان سليم الأول فاتح سورية

إنّ العثمانيين فصيلة من الأتراك سموا بهذا الاسم نسبةً إلى عثمان بن ارطغرل ابن سليمان شاه ، وكان سليمان جد عثمان سلطاناً في بلاد ماهان قرب بلخ ، ولما ظهر جنكيزخان التتري وأخرب بلاد بلخ وأخرج منها خوارزم شاه أي سلطان خوارزم سنة ٦١١ هـ (سنة ١٢٥١ م) ارتحل سليمان في عشيرته إلى جهة بلاد الروم فغرق في أحد الأنهر عند عبوره به ، وعاد ابنه ارطغرل فقام في جهات ارزروم ، وكان ينجد علاء الدين السلجوقي سلطان قونيه في حروبه . فكافأه باقطاعه اياه عدّة أعمال ومدن ، وهو أخذ لنفسه من ملك الروم مدينة قرهحصار وغيرها . ثم توفي ارطغرل في سنة ١٢٨٨ م على رواية القرماني ، وسنة ١٢٩٩ م على رواية الاسحاقي ، فخلفه ابنه عثمان جدّ سلاطيننا العثمانيين العظام . وأخذ يجد في توسيع نطاق اقطاعاته وملكه ، ولما أغار التتر على آسيا الصغرى سنة ١٣٠٠ وقتل علاء الدين السلجوقي سلطان قونيه ، استقلّ عثمان بما كان في يده وسمي باديشاه (أي سلطان) آل عثمان ، وجعل قصبة ملكه ايكي شهر، وأخذ في

تحصينها وتحسين أبنيتها وتوسيع مملكته. وحارب الروم في نيكومدية وظفر بهم. وفي سنة ٧٠٧ هـ (سنة ١٣٠٧ م) فتح ناحية مرمرة، ومنذ سنة ٧١٧ هـ (سنة ١٣١٧ م) أخذ في حصار بورصه ودام هذا الحصار سنين إلى أن فتحها ابنه اورخان سنة ١٣٢٦. وفي هذه السنة توفي السلطان عثمان وخلفه ابنه اورخان المذكور، وجعل بورصه قصبة ملكه، وسنّ نظاماً جديداً للعسكر وسماه بالتركية يكيجارى ويُلفظ يني تشاري. وحُرّف بالعربية فصار انشكاري أي الجيش الجديد. وحارب ملك الروم وأخذ نيقية سنة ١٣٣٠ وساقس سنة ١٣٣٤ وابتدأ يشنّ الاغارات على تراسة سنة ١٣٣٥ وهدّد القسطنطينية بالفتح سنة ١٣٣٧، وأخذ كليبولي سنة ١٣٥٩ إلى غير ذلك من غزواته، وتوفي السلطان اورخان الغازي سنة ١٣٦٠ وعمره إحدى وثمانون سنة ودُفن بمدينة بورصه.

وخلفه ابنه مرادخان الأول وكانت باكورة أعمَاله فتحه مدينة أنقورة وأدرنه (ادريانوبل) وفيلبه (فيليبوبولي) قصبة الروملي الشرقية، وتتالت غزواته وحملاته على المدن التي لم يكن ملكها في آسيا الصغرى وعلى البلغار والصرب في أوروبا، فملك أكثر المدن الآسيوية، وأزال استقلال الروملي الشرقية والبلغار والصرب، على أنه بعد وقعة قوص اوه التي قهر بها الصربيين سنة ١٣٨٨ مرّ السلطان بين القتلى فقام من بينهم جندي اسمه ميلوك كوبلوفتش فطعن السلطان بمدية فكانت الطعنة قاضية. هذا ما رواه محمد فريد بك صاحب تاريخ الدولة العلية، والذي رواه القرماني والاسحاقي أنّ أحد أمراء النصارى اسمه دبلوش أو بلواشي أتى إلى السطان مظهراً الطاعة، ولما همّ بتقبيل يده ضربه بمدية كانت في كمه فقتله. فصار من الرسوم العثمانية أن لا يدخل أحد بسلاح على السلطان وأن يُفتّش قبل دخوله. وكانت وفاة السلطان مراد سنة ١٣٨٨ وعمره خمس وستون سنة ومدة ملكه ثماني وعشرون سنة شمسية.

وخلف السلطان مراد ابنه السلطان بايزيد الأول ويقال له يلدرم. وولّى الأمير اسطفان بن ملك الصرب على بلاده، وأجازه أن يحكم بلاده بحسب قوانينهم بشرط دفعه جزية معيّنة وتقديمه عدداً معيّناً من الجنود ينضمون إلى جيش السلطان وقت الحرب. ثم حارب الملك عمانويل باليولوغوس وحاصر القسطنطينية وترك حولها جيشاً، وأغار على بلاد الفلاخ وأكره أميرها على التوقيع على معاهدة يعترف بها بسيادة الدولة العثمانية على بلاده، ويتعهد لها بدفع جزية سنوية. ثم

ضمّ بلغاريا إلى الأملاك العثمانية فصارت ولاية عثمانية . وخشي ملك المجر واستمد بعض ملوك اوروبا لمقاومة المسلمين ، فلبى بعضهم دعوته ، وكانت وقعة هائلة بين الفريقين سنة ١٣٩٦م على نيكوبولي كان النصر فيها لعساكر السلطان بايزيد . ثم عاد يشدّد الحصار على القسطنطينية ، وبلغته أخبار اغارة تيمورلنك على آسيا الصغرى فاضطرّ إلى ابرام الصلح مع ملك الروم والاكتفاء بأنّ هذا الملك يدفع له كل سنة عشرة آلاف ذهب . وأن يجيز المسلمين اقامة جامع ومحكمة تفصل دعاويهم الدينية . ثم أسرع لمناوأة تيمورلنك فالتقى الجيشان في سهل انقوره، وخان السلطان بعض عسكره إذ كان أمراؤهم مع تيمورلنك ، وأبدى السلطان آيات الشجاعة النهار بطوله ووقع أخيراً أسيراً بيد تيمورلنك فأحسن معاملته لكنه توفي سنة ١٤٠٣م .

وبعد وفاة بايزيد ردّ تيمورلنك على بعض أمراء آسيا الصغرى ولاياتهم وعاد أهل البلغار والصرب والفلاخ إلى استقلالهم . واختلف ابنا بايزيد على الملك وتنازعوه مدّة طويلة إلى أن استقلّ به محمد الأول سنة ١٤١٣ م . وعدّه أكثر المؤرخين الخامس من السلاطين العثمانيين مسقطين اخوته من عديدهم . وكانت مدة سلطنته موعبة بالحروب الداخلية لاسترداد الامارات التي استقلّت بعد موت السلطان بايزيد مأسوراً . وعند منازعة الاخوة أحدهم الآخر ، وبعد أن أمّن السلطان محمد المملكة من الشغب والانقسامات صرف قصارى جهده في وضع نظام يتكفّل بمحو الفتن واعادة الدولة إلى رونقها السابق ، ولكن فاجأته المنية سنة ٨٢٤ هـ (سنة ١٤٢١ م) بادرنه وعمره ٤٣ سنة . وأوصى بالملك لابنه مراد وكان حينئذٍ بأماسيا فأخفى الوزير خبر موت السلطان إلى أن حضر ابنه واستلم مقاليد الدولة . والأظهر أنّ السلطان محمد الأول هو أول من أرسل من العثمانيين الصرة السنوية إلى أمير مكّة وهي عبارة عن مبلغ من المال يرسله السلطان إلى أمير مكّة ليوزعه على فقراء مكّة والمدينة . ولكن لم تكن تبلغ ما تبلغه الآن ، وقيل إنّ السلطان سليماً الأول هو أول من ابتدأ في ارسال الصرّة بعد أخذه سورية ومصر .

وخلف السلطان مراد خان الثاني الغازي أباه السلطان محمد سنة ١٤٢١ م . المذكورة وكان عمره ثماني عشرة سنة . ومن بواكير أعماله صلحه مع أمير قرمان وعقده هدنة مع ملك المجر إلى خمس سنين . وقد طلب منه عمانويل ملك الروم أن يتعهّد له بأن لا يحاربه مطلقاً وأن يسلمه اثنين من اخوته رهينة لقيامه بهذا

التعهّد ، وإلّا فيطلق سبيل الأمير مصطفى عم السلطان مراد الذي كان في حوزة هذا الملك ، وإذ لم يجبه السلطان إلى طلبه أطلق الملك الأخير مصطفى وأعطاه عشرة مراكب حربية بأمرة ديمتريوس لاسكاريس فأتى مصطفى بها وحاصر كليبولي فسلمت إليه القلعة فتركها وقصد ابن أخيه السلطان مراد بادرنه ، فخانه بعض قوّاده وتركه أكثر جنوده فاضطرّ إلى الانهزام وعاد إلى كليبولي فسلمه بعض أتباعه إلى ابن أخيه فكان آخر العهد به .

وسار السلطان مراد إلى القسطنطينية ليأخذ بثأره من ملك الروم الذي أطلق عمه فحاصر هذه المدينة في ١٤ آب سنة ١٤٢٢م فلم يتمكن من فتحها لعصيان أحد اخوته عليه واستعانته عليه ببعض أمراء آسيا . فأخمد السلطان مراد هذه الفتنة أيضاً بقتل أخيه وارهاب محازبيه ، واستردّ الولايات التي كان تيمورلنك قد أعادها إلى استقلالها ، وصرف عزمه إلى استرداد ما كان للعثمانيين في أوروبا ، فكانت له محاربة شديدة مع ملك المجر فانتصر عليه وأجبره على معاهدة من فحواها أن يتخلّى ملك المجر عن كل ما له على عدوة نهر الدانوب اليمنى ليكون هذا النهر فاصلاً بين أملاك الدولة العلية والمجر . ولما رأى أمير الصرب جرج برنكو فيتش عجزه عن مناوأة السلطان مراد عاهده أن يدفع إليه كل سنة خمسين ألف دوكا ذهباً ، وأن يقدّم له فرقة من جنوده في وقت الحرب . وفي سة ١٤٣٠م أعاد السلطان فتح سالونيك التي كان ملك الروم قد تخلّى عنها إلى جمهورية البندقية ، وقصد البانيا فأطاعه سكان يانية وغيرهم مشترطين عدم التعرض لهم في أمور دينهم وعوائدهم . وفي سنة ١٤٣٣م اعترف أمير الفلاخ بسيادة العثمانيين عليه تخلصاً من غوائل الحرب ، ثم ثار هو وأمير الصرب على السلطان مراد بتحسين ملك المجر لهما الانتقاض على السلطان فحاربهما وقهرهما ، وحارب ملك المجر وأثخن في أهل مملكته وعاد سنة ١٤٣٨م من هذه الحرب بجم غفير من الأسرى ، ثم حاصر بلغراد عاصمة الصرب ولم يتوفق إلى فتحها ، فأغار على بلاد ترانسلفانيا وكانت له حروب فيها مع جيوش ملك المجر ، فتغلّب هونياد قائد جيش المجر على عساكر السلطان في وقعات كثيرة . ثم عُقد الصلح على أنّ يتخلّى السلطان عن سيادته على بلاد الفلاخ ويردّ إلى أمير الصرب بعض المدن التي كان قد أخذها منه . وأن يهادن ملك المجر عشر سنين . ووقّع على هذه المعاهدة في ٢٦ ربيع الأول سنة ٨٤٨ الموافقة ١٢ تموز سنة ١٤٤٤م .

وتوفي أكبر أولاد السلطان مراد فوجد عليه كثيراً، فتنحّى عن الملك وسلمه إلى ابنه محمد واعتزل في جهات ايدين، ولم يمكث إلّا واتاه الخبر بأنّ ملك المجر أخلّ بالهدنة وأتى وحاصر فارنه فهبّ السلطان مراد وجميع عساكره، فبدّد المجر عن فارنه وقتل ملك المجر لاوسلاس. وبعد انتصاره عاد إلى خلوته، لكنه لم يلبث فيها إلّا قليلاً لأنّ الانكشارية ازدروا ملكهم محمد وعصوه ونهبوا ادرنه. فعاد السلطان مراد فأخمد فتنتهم سنة ١٤٤٥م ولكي يشغلهم بالحرب أغار على بلاد اليونان وقصد مدينة قورنثية،وكانت محصّنة ففتحت مدافع العثمانيين (هذا كان أول استعمال العثمانيين المدافع) ثلماً في أسوارها دخلت بها الجنود إلى هذه المدينة وملكوها، لكنهم لم يتمادوا بأخذ باقي البلاد لأنّ اسكندر بك الشهير أحد أبناء جورج كستريو أمير البانيا الشمالية واغتنم فرصة محاربة السلطان لملك المجر فدخل البانيا، ودعا رؤساء قبائل الالبانيين فوافقوه على استخلاص بلادهم من يد العثمانيين، وجمعوا الرجال وطردوا العثمانيين من أكثر مدن بلادهم، فسار السلطان إليهم في جيش كثيف واستردّ منهم مدينتين من أهم المدن سنة ١٤٤٧م وردّه عنهم عود المجر إلى الحرب واشتغال عساكر السلطان بها. وبعد أن انتصر على المجر سنة ١٤٤٨م عاد لمحاربة اسكندر بك. وأراد أن يصالحه على أنّ السلطان يقلده ولاية البانيا فأبى اسكندر بك إلّا مواصلة القتال. وكان عسكر السلطان قليلاً ومضموناً في تواصل الجهاد، فعاد إلى ادرنه ليريح عساكره ويجمع غيرها فتوفي بها في ٥ المحرم سنة ٨٥٥ الموافق ٩ شباط سنة ١٤٥١ م.

وخلفه ابنه محمد الثاني الغازي فاتح القسطنطينية وكان مولده سنة ١٤٢٩م وعمره حين استوى على عرش الملك اثنتان وعشرون سنة فنقل جثة أبيه إلى بورصه، وأخذ يتأهّب لفتح ما بقي من بلاد البلقان ومدينة القسطنطينية، ثم حاصر هذه المدينة سنة ١٤٥٣م من جهة البرّ بجيش لا يقلّ عن المايتي ألف جندي، ومن جهة البحر بأسطول مؤلف من مئة وثمانين سفينة. وكان ملك الروم اسمه قسطنطين فاستمد ملوك أوروبا فلبّى دعوته جمهورية جنوا. وأرسلت أسطولاً بأمرة جرستينياني فكانت حرب هائلة بين الأسطولين انتصر فيها الجنويون، ورفع الروم لهم السلاسل الحديدية المانعة لدخول سفن العثمانيين، فدخلت سفن جنوا وأعادوا تلك السلاسل وراءهم، فمهد السلطان محمد طريقاً في البرّ ورصفه بألواح صبّ عليها زيتاً ودهناً لتزلق السفن عليها، فتمكن في ليلة واحدة أن يُدخل سبعين سفينة

إلى البحر داخل السلاسل. وفي اليوم التالي هاجم المدينة بجيشه البري وبمن كانوا بالسفن فافتتحها في ٢٠ جمادي الأول سنة ٨٥٧ هـ (٢٩ أيار سنة ١٤٥٣ م) وأرّخ بعض الشعراء هذا الفتح بقوله:

رام أمـر الـفـتـح قـومٌ أوّلـون حـازه بـالـنـصـر قـومٌ آخـرون

فأحرف أخرون بحساب الجمل ٨٥٧ وأرّخ ذلك غيره بقوله بلدة طيبة. ودخل السلطان كنيسة اجيا صوفيا وأمر أن يؤذن فيها اعلاناً بجعلها جامعاً للمسلمين. وبعد الفتح أباح النصارى اقامة شعائر دينهم وحريتهم فيه وحفظ أملاكهم وأعطاهم نصف الكنائس وجعل النصف الآخر جوامع. وأذن لهم باقامة بطريرك وفرض عليهم الجزية مستثنياً منها أئمة الدين.

وبعد فتح السلطان القسطنطينية سار قاصداً فتح المورة ،فأرسل ديمتريوس وتوماس أخو قسطنطين الملك حاكما المورة يعرضان عليه قبول دفع جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دوكا، فاكتفى السلطان بذلك وسار إلى الصرب فسأل أميرها الصلح مع السلطان على أن يدفع كل سنة ثمانين ألف دوكا، فأجابه السلطان إليه، وكان ذلك سنة ١٤٥٤م لكنه أعاد الكرة في السنة التالية على بلغراد عاصمة الصرب وحاصرها، وكان هوياد القائد المجري الشهير قد دخل إليها فدافع عنها حتى اضطر السلطان إلى رفع الحصار عنها سنة ١٤٥٥م. وكان هونياد أصيب بجراح مات بسببها بعد رفع الحصار، فأرسل السلطان بعد موته الصدر الأعظم محمود باشا فأتمّ فتحها من سنة ١٤٥٨ إلى سنة ١٤٦٠م وزال استقلال الصرب قطعاً. وفي هذه المدة عاد السلطان إلى المورة فاستحوذ عليها، وهرب توماس إلى ايطاليا، ونفى ديمتريوس أخوه إلى جزيرة في الأرخبيل. وبعد عوده من المورة صالح اسكندر بك المذكور وترك له ولاية البانيا وايبيروس وسار إلى آسيا الصغرى يدوخ ما بقي بها غير خاضع له ففاز بما تمنّى، ودخل مدينة طرابيزون دون مقاومة شديدة وقبض على الملك وأولاده وزوجته وأرسلهم إلى القسطنطينية.

وقصد السلطان بعد ذلك بلاد الفلاخ فتظاهر ملكها بطلب الصلح على أنه يدفع كل سنة عشرة آلاف دوكا فأجابه السلطان إلى ذلك، لكن هذا الملك اتحد مع ملك المجر وانتقض على السلطان فسار إليه بمائة وخمسين ألف مقاتل فهزمه وشتت جمعه وانتهى إلى بوخارست عاصمة ملكه، وانهزم ملك الفلاخ إلى ملك

المجر فعزله السلطان ونصب أخاه مكانه، وضمّ بلاده إلى أملاك الدولة العلية. وفي سنة ١٤٦٢م حارب السلطان أمير البشناق لامتناعه عن دفع الجزية وأسره هو وابنه وأمر بقتلهما فدانت له البشناق. وفي سنة ١٤٦٤م حاول ملك المجر أخذ البشناق فهزمته جيوش السلطان وأصبحت البشناق ولاية عثمانية وخسرت ما كان لها من الامتياز. ومنذ سنة ١٤٦٣م ابتدأت العداوة بين السلطان وجمهورية البندقية فاستحوذ العثمانيون على مدينة ارغوس. وكانت للبنادقة فأرسلت الجمهورية أسطولاً إلى المورة فثأر سكانها وقاتلوا الحامية التي بها، وحاصروا قورنثية واستردوا ارغوس، فهبّ السلطان اليهم في ثمانين ألفاً، فأرجعوا ما كان البنادقة قد أخذوه. ولكن ثار اسكندر بك الشهير والي البانيا وحارب العثمانيين في مواقع كثيرة لكنه توفي سنة ١٤٦٧م بعد أن حارب خمساً وعشرين سنة. واستؤنف القتال بين العثمانيين والبنادقة فافتتح العثمانيون اجريبوس مركز مستعمرات البنادقة في بحر الروم سنة ١٤٧٠م. وفي هذه السنة ضمّ السلطان بلاد قرمان إلي ممكلته. وفي سنة ١٤٧٥م حاربت العساكر العثمانية بلاد البغدان فلم تفز بالنصر. فعزم السلطان على فتح بلاد القرم ليستعين بفرسانها على فتح البغدان، فدانت له بلاد القرم وأصبحت ولاية من ولاياته. وعاد جيشه إلى البغدان فاشتهر اسطفانوس الرابع أميرها بالمدافعة سنة ١٤٧٦م فلم تنل العساكر العثمانية مأرباً من هذه البلاد. ثم جرت معاهدة صلح بين السلطان والبنادقة سنة ١٤٧٩م بعد تخليهم عن أشقودره للسلطان. وفي سنة ١٤٨٠م فتحت عساكر السلطان الجزر الواقعة بين بلاد اليونان وايطاليا ومدينة أوترانت في جنوبي ايطاليا، وحاولت فتح جزيرة رودس التي كانت حينئذٍ بيد فرسان القديس يوحنا فلم تتمكن من فتحها.

وفي سنة ١٤٨١م توفي السلطان محمد الثاني صاحب هذه الفتوحات الكثيرة وعمره ثلاث وخمسون سنة ومدة ملكه إحدى وثلاثون سنة .وسنّ نظامات كثيرة في المملكة وخلفه في الملك ابنه بايزيد الثاني الذي كان حاكماً بأماسية، وكان ميالاً إلى السلم أكثر من ميله إلى الحرب، ولكن كان له أخ يسمى جم ويسميه الفرنج زيزيم كان حاكماً بقرمان. ولما بلغه خبر وفاة أبيه سار في من لاذ به فدخل مدينة بورصة عنوة، وراسل أخاه أن يقتسما المملكة بينهما فلم يجبه السلطان بايزيد إلى ذلك بل حاربه وهزمه إلى تخوم مملكة مصر وسورية، فأقام جم مدة بالقاهرة وعاد إلى حلب، وسار في محازبيه لحصار قونية فصدّه واليها عنها،

وراسل أخاه في أن يقطعه بعض الولايات فأبى ، فالتجأ الأمير جم إلى فرسان القديس يوحنا برودس طالباً أن يساعدوه على نيل أغراضه فقبلوه بالتجلّة والاكرام ، فأرسل السلطان بايزيد إلى رئيس هؤلاء الفرسان أن يبقي أخاه عندهم ويتعهد له بعدم التعرّض لاستقلال جزيرتهم مدّة ملكه ، ويدفع لهم كل سنة خمسة وأربعين ألف دوكا . فقبل الفرسان ذلك ووفوا بعهدهم ، وأرسلوا الأمير محفوظاً إلى نيس ثم إلى شمبري ، وبقي متنقلاً في فرنسة إلى سنة ١٤٨٩م . ثم انتقل إلى روما . وفي هذه الأثناء حاصر ملك فرنسة روما وطلب من البابا تسليم الأمير جم فسلمه اياه وبقي مع جيش فرنسة إلى سنة ١٤٩٥م حين توفي بنابولي ونُقلت جثته إلى بورصة .

أما السلطان بايزيد الثاني فقلّ ما كان له من الفتوحات ، ولكن كانت له وقعات مع بعض المتاخمين لمملكته فصدّهم عن السطو عليها . وحصلت وحشة بينه وبين سلطان مصر وسورية فأصلح باي تونس بينهما تفادياً من حرب بين سلطانين مسلمين . ثم افتتحت عساكر بايزيد بلغراد عاصمة الصرب وكانت كنقطة سوداء بين أملاك الدولة العلية والمجر ، وكانت للسطان بايزيد علاقات حسنة مع روسيا ثم مع بولونيا ولكن تكدّر صفاء السلم بينه وبين هذه الدولة الأخيرة لادعاء كل من الدولتين السيادة على البغدان . وأغار ملك بولونيا على هذه البلاد فصدته عساكر بايزيد وسطت على تخوم بولونيا . وكانت مخابرات بين السلطان وبين البابا اسكندر السادس وملك نابولي ودوك مديولان وجمهورية فلورنسا طمعاً بمساعدة العساكر العثمانية لهم بشؤونهم . واستجد الخلاف بين السلطان والبنادقة ، وأرسل البنادقة فحاصروا جزيرة مدلي ليمنعوا العثمانيين عن السطو على بلادهم ولاح الظفر للعثمانيين، ولكن عصا في تلك المدة على السلطان بعض أولاده فاشتغل عن الحرب في خارج المملكة .

وكان للسلطان بايزيد ثمانية أولاد مات خمسة منهم صغاراً وبقي له ثلاثة: وهم كركود وأحمد وسليم . وكان كركود من أهل العلم والأدب لا يهتم بالسياسة والحرب ، وكان أحمد يحبه الأعيان والأمراء ، وأما سليم فكانت عامة الجنود والانكشارية خاصةً يميلون إليه ، وخشي والدهم أنّ اختلاف النزعة بينهم يؤدي بهم إلى النزاع ، فنصّب كلٌ منهم في ولاية . وكان منصب سليم طرابزون فلم يرضه وطلب إلى أبيه أن يوليه إحدى ولايات أوروبا فأبى السلطان اجابة طلبه .

فانتفض سليم على والده وجاهر بالعصيان وسار في جيش من قبائل التتر إلى الروملي، وأرسل والده جيشاً لارهابه فلم يرهب ، وسار إلى ادرنه وسمى نفسه سلطاناً عليها . فأرسل أبوه جيشاً فانهزم منه لكن أرغم والده على العفو عنه لالحاح الانكشارية فعفا ونصّبه والياً على سمندرية ، فالتقاه الانكشارية في طريقه وأتوا به إلى القسطنطينية باحتفال عظيم ، وساروا به إلى القصر وسألوا السلطان أن يتنازل عن الملك لابنه سليم ، فاستقال سنة ١٥١٢م وسافر للاقامة بديموتيقا فتوفي بطريقه في ١٠ ربيع الأول سنة ٩١٨ هـ (في ٢٦ أيار سنة ١٥١٢ م) وكان عمره ٦٧ سنة ومدّة ملكه ٣٢ سنة .

وبعد أن أخمد السلطان سليم ثورة أخوته وأبنائهم عليه سار إلى ادرنه وأتاه سفراء من قِبل البندقية والمجر والروس وسلطنة مصر فأبرم معهم هدنات لمدات طويلة لخوفه من تقدّم الفرس وملكهم شاه اسماعيل الشيعي الذي كان قد فتح عدة ولايات . وانبسطت مملكته واستفحل أمره فعالنه السلطان سليم بالحرب وسافر بجيوش من ادرنه قاصداً تبريز ، وكانت له وقعات مع شاه العجم انتصر بها على عدوّه ودوّخ قسماً كبيراً من بلاده وعاد إلى القسطنطينية وترك قوّاده يستكملون فتح باقي مدن الشاه اسماعيل . ففتحوا ماردين وأورفة والرقة والموصل وكان ذلك سنة ١٥١٥م . ثم عاد سنة ١٥١٦م قاصداً الشام ومصر والتقى مع سلطان مصر قانصوه الغوري في مرج دابق وكانت بينهما الواقعة التي ذكرناها في عد ٩٥٧ حيث تشتتت عساكر الغوري ومات هو كمداً . وأخذ السلطان سليم سورية ومصر سنة ١٥١٧م كما مرّ في الاعداد الأخيرة من المجلد السادس . وسنذكر في ما يلي باقي أعماله والأحداث التي كانت في أيامه . انتهى ملخصاً عن القرماني والاسحاقي وكتاب تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد بك وعن تاريخ العثمانيين للعالِم دي لاكروا .

تاريخ سورية في القرن السادس عشر

الفصل الأول

السلاطين الذين تولوا سورية في هذا القرن وما كان في أيامهم

عد ٩٥٩

تكملة أخبار السلطان سليم الأول

استوفينا قبلاً الكلام في فتح السلطان سليم سورية ومصر، وقد قام بمصر بعد فتحها مدة دبر بها مهام هذه البلاد ووضع نظاماً لادارتها على هيئة ولاية من ولايات السلطنة العثمانية، نصب فيها خير بك أحد أمراء المماليك الذين خانوا طومان بك وانضموا إليه، وتخلّى له الخليفة المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين عن الخلافة الدينية. فصار السلطان سليم الأول وجميع خلفائه العثمانيين إلى اليوم سلاطين وخلفاء دينيين وأمراء المؤمنين. وقد ذكرنا قبلاً أنه بعد سقوط بغداد مقرّ الخلفاء العباسيين بيد التتر انتقل هؤلاء الخلفاء إلى مصر فكان بها منهم خمسة عشر خليفة آخرهم محمد المتوكل على الله المذكور. وكان منهم في العراق سبعة وثلاثون خليفة، وفي مصر خمسة عشر فجملتهم اثنان وخمسون خليفة. وابتدأت خلافتهم سنة ٧٥٠ م وانقضت سنة ١٥١٧م فمدته[1] ٧٦٧ سنة شمسية.

وسار السلطان سليم من مصر إلى سورية مستصحباً معه آخر الخلفاء من بني العباس، فبلغ إلى دمشق في ٢٠ رمضان سنة ٩٢٣هـ الموافق ٧ تشرين الأول سنة ١٥١٧ م. ونصب جان بردي الغزالي نائباً للسلطنة بدمشق، وأضاف إليها القدس

وغزة وصفد والكرك، وأقام عمالاً لحلب وحمص وطرابلس والمدن البحرية ، وكتب إلى أمراء لبنان يؤمنهم ويدعوهم إليه، فحضر إليه الأمير قرقماز ابن الأمير يونس بن معن ، والأمير جمال الدين اليمني، والأمير عساف التركماني وغيرهم ، وأما أمراء الغرب التنوخية فلم يحضروا لأنهم كانوا من محازبي المماليك الجراكسة فاختشوا من السلطان ، فولّى الأمير قرقماز بلاد الشوف والأمير جمال الدين الغرب ، والأمير عساف كسروان وبلاد جبيل . وأمرهم أن يحسنوا السياسة ، ويجروا العدالة كلاً في قومه ، وأن يبذلوا الجد في تعمير البلاد ونجاح أحواله . وفرض على بلادهم مالاً قليلاً رحمةً منه لرعاياه، فقد جعل مثلاً على كسروان سبعماية سلطاني ، والسلطاني ثلثا القرش الأسدي ، وأعطاهم بذلك خطاً شريفاً . هذا ما رواه البطريرك اسطفانوس الدويهي في تاريخ سنة ١٥١٧م . وروى الأمير حيدر شهاب في تاريخه الذي طُبع بالقاهرة سنة ١٩٠٠م أنّ الذي حضر من الأمراء آل معن لدى السلطان هو الأمير فخر الدين . ابن الأمير عثمان بن معن وإنه مثُل أمام السلطان وتلا الدعاء الآتي:

« اللهمّ أدم دوام من اخترته لملكك وجعلته خليفة عهدك . وسلّطته على عبادك وأرضك . وقلّدته سلطتك وفرضك . ناصر الشريعة الغراء . وقائد الأمّة الطاهرة الزاهرة سيدنا وولي نعمتنا أمير المؤمنين . الامام العادل والذكي الفاضل الذي بيده أزمة الأمر بادشاه أدام الله بقاه . وفي العزّ الدائم أبقاه وخلد في الدنيا مجده ونعماه . ورفع إلى القيامة طالع سعده وبلغه مأموله وخير قصده . من ملك الملك بالعقل والتدقيق ومدّه الله بالاقبال والتوفيق . أعاننا الله بالدعاء لدوام دولته بالسعد والتخليد . بأنعم العزّ والتمهيد امين » .

ويظهر أنّ حلم السلطان سليم وتوصياته لعماله بالجدّ في تعمير هذه البلاد زادت في عمرانه . فقد روى البطريرك الدويهي أنّ الناس قصدت لبنان من كل جهة . فأتى فريق من المتاولة من بلاد بعلبك وتوطنوا في فاريا وحراجل ويقعاتا .وقدم بعض المسلمون السنة وسكنوا فتقا وساحل علما وفيطرون وفقيع وعرامون والجديدة، كل هذه القرى من أعمال كسروان . وأتى بعض الدروز من جهة الجرد وأقاموا ببرمانا ومزارع كسروان (الذي كان تخمه الجنوبي الجعماني) ونزح بعض النصارى من نوا حي طرابلس، منهم أهل المجدل فقطنوا عرامون وهاجر أهل يانوح فسكنوا في الكفور بالفتوح ، وارتحل الشيخ حبيش بن موسى بن

ميخائيل في عياله من يانوح إلى غزير. وكان الأمراء آل عساف يسكنون أولاً عين شقيق في مدة الصيف وعنطورا في مدة الشتاء. وجماعتهم يقيمون بالأزواق على ساحل البحر. ولما قرّر السلطان سليم الأمير عساف في ولاية كسروان جعل مقامه في غزير، وكان له ثلاثة بنين حسن وحسين وقيتبيه ويروى قيدبيه وقادبيه.

وفي سنة ١٥١٨م توفي الأمير عساف والي كسروان وبلاد جبيل فولّى نائب السلطنة بدمشق مكانه ابنه حسن لأنه كان البكر، ووقعت الفتنة بين الأمير قيتبيه وبين أخويه حسن وحسين فأكرها الأمير قيتبيه أن يفرّ إلى الشويفات عند الأمير جمال الدين حاكم الغرب المذكور، ثم سعى بعضهم بالصلح بينهم ونزل الأمير حسن وأخوه الأمير حسين إلى بيروت فغدر بهما أخوهما قيتبيه وقتلهما، وأراد أن يقتل منصوراً ابن أخيه حسن ثم أحجم عن ذلك ريثما يلد هو ولداً يخلفه. وأخذ الولاية على كسروان وقبض على يوسف وسليمان ابني الشيخ حبيش المذكور لأنهما كانا يخدمان أخويه فحبسهما وغرمهما بمبلغ من المال ونفاهما إلى مصر. واستمر قيتبيه حاكماً في كسروان إلى وفاته. هذا ما رواه البطريرك الدويهي. وجاء في تاريخ الأمير حيدر شهاب أنّ الأمير حسين هو الذي وليَ كسروان بعد وفاة أبيه، وبعد أن توفي هو وليه أخوه الأمير حسن، ونازعه الأمير قيتبيه. وبعد وقوع الصلح بينهما اغتال قيتبيه حسناً وأخذ الولاية على كسروان. ونؤثر نحن رواية البطريرك الدويهي على رواية الأمير حيدر.

وأما السلطان سليم فبعد أن أقام مدة في دمشق زايلها وسار إلى حلب فأقام بها شهرين يدير شؤونها، ثم سار إلى القسطنطينية عاصمة ملكه ولم يقم فيها إلّا عشرة أيام للاستراحة. وارتحل إلى ادرنه وأتاه سفير من قِبل ملك اسبانيا يسأله اباحة النصارى الحجّ إلى أورشليم كما كان في أيام دولة المماليك الجراكسة، فأجابه السلطان إلى ذلك على شرط دفع المبلغ الذي كان يُدفع قبلاً للماليك. وأخذ السلطان في تجهيز عمارة بحرية للحملة على رودس واعداد عسكر لمحاربة شاه العجم ثانية، ولكن عاجلته المنية قبل انجاز ذلك فتوفي في ٩ شوال سنة ٩٦٩هـ (٢٢ ايلول سنة ١٥٢٠ م) وهي السنه التاسعة من سلطنته والحادية والخمسين من عمره.

عد ٩٦٠

السلطان الغازي سليمان خان الأول وما كان في أيامه

وُلد هذا السلطان في غرّة شعبان سنة ٩٠٠ هـ (٢٧ نيسان سنة ١٤٩٤ م) وهو العاشر من السلاطين العثمانيين، وكان غائباً عند وفاة أبيه فعاد بعدها مسرعاً إلى القسطنطينية فاستوى على منصّة السلطنة في ١٦ شوال سنة ٩٢٦ هـ (٣٠ ايلول سنة ١٥٢٠م). ولما وصل خبر ارتقائه تخت السلطنة إلى دمشق سوّلت للغزالي واليها نفسه الخروج، وجاهر بالعصيان واستولى على قلعة دمشق وأرسل أحد أتباعه ليحتلّ بيروت، وجدّ في استمالة خير بك عامل مصر إلى غرضه مبيّناً به سهولة النجاح لبعدهما عن مقرّ الخلافة وحداثة سن السلطان، فلم يجبه خير بك إلى مطلوبه بل أرسل إلى السلطان كتاب الغزالي إليه، وبعث السلطان فرحات باشا أحد وزرائه في جيش كافٍ لكبت الغزالي واخماد نار ثورته قبل امتدادها. فسار فرحات باشا في آخر ذي الحجة سنة ٩٢٦ هـ (تشرين ثاني سنة ١٥٢٠ م) وانتهى إلى حلب في ٢٢ كانون الأول فوجد الغزالي محاصراً لها. فعاد الغزالي دون قتال إلى دمشق فتحصّن بها، فتأثره فرحات باشا وحاصره بدمشق. وخرج الغزالي لقتاله في ٢٨ كانون الثاني سنة ١٥٢٢م فهزمه فرحات باشا وفرّ متنكراً، ولكن خانه بعض أصحابه وقبض عليه وسلمه إلى فرحات باشا فقتله وأرسل رأسه إلى القسطنطينية. ذكر ذلك كثيرون من المؤرخين العرب ودي لاكروا في تاريخ العثمانيين.

ولم يسترح بال السلطان من جهة سورية إلّا وورد له الخبر أنّ ملك المجر قتل السفير الذي كان قد أرسله إليه يطلب دفع الجزية ويهدده بالحرب، فأمر السلطان بتجهيز العساكر إلى المجر وسيّرها بقيادة أحمد باشا، وسار هو بأثرها وحاصر بلغراد وفتحها بعد دفاع شديد. وأخلت عساكر المجر قلعتها في ٢٩ آب سنة ١٥٢١ فدخلها السلطان، وصلّى الجمعة في إحدى كنائسها التي حُوّلت جامعاً. وكان فتح بلغراد أكبر مساعد على فتح ما وراء الدانوب. وأرسل السلطان يخبر ملوك أوروبا بانتصاره وهنأه بعضهم. وفي سنة ١٥٢٢م وقّع السلطان وجمهورية البندقية على معاهدة تجارية تأييداً للمعاهدة السابقة وزيد عليها أنّ قنصل الجمهورية في الآستانة يلزم تبديله كل ثلاث سنين. وإنّ دعاوى التركات ترى في ديوانه ويحق

له أن يرسل ترجماناً يحضر المرافعة في الدعاوى التي تكون لرعيته أمام المحاكم العثمانية . وكانت هذه المعاهدة أساساً لحقوق القناصل ببلاد الدولة العلية .

ثم أخذ السلطان يعدّ العساكر والعدد لفتح رودس منتهزاً فرصة الخلاف والحروب التي كانت بين ملوك اوروبا ولا سيّما فرنسيس الأول ملك فرنسة وشارل الخامس ملك اسبانيا . وكانت رودس بيد فرسان القديس يوحنا الأورشليمي ، وكان رئيسهم حينئذٍ فيليب دي فيليا الفرنسي . وأرسل السلطان قبل الحصار يعرض على رئيس الفرسان أن يتخلّى عن الجزيرة متعهداً بأنه يؤمنهم على نفوسهم وأموالهم فأبى الرئيس الاذعان لهذا الاقتراح ، فسيّر السلطان جيشاً كثيفاً يحاصر الجزيرة براً ، وأسطولاً كبيراً يحاصر قصبتها بحراً . وأمّر على جيشه مصطفى باشا ، فأقام الحصار على مدينة رودس وتمكّن من انزال بعض الجيش إلى البرّ فشدّ الحصار عليها بحراً وبراً، ولم يكن فيها إلّا نحو ست مئة فارس وخمسة آلاف أو ستة من الجنود فدافعوا مدافعة الأبطال وأبدوا آيات البسالة . ويقال أنّ النساء أنفسهنّ كنّ يساعدنَ الرجال بالقاء الأحجار على المحاصرين ، وصبّ الزيوت الغالية على رؤوسهم .

وفتح العثمانيون بقلل مدافعهم ثلمات في أسوار المدينة وحاولوا الدخول إليها فصدّهم المحصورون . وكان بين الفرسان رجل اسمه اندراوس دامارال كان قد نازع الرئيس الرئاسة فلم ينلها ، فكان يبلغ مصطفى باشا قائد العثمانيين أخبار أصحابه، ثم سار السلطان سليمان بنفسه إلى رودس فعاودت الشجاعة جنوده وتبدّل اليأس بالرجاء ،فكانت وقعة هائلة قُتل بها خلقٌ كثير من الفريقين لكنها لم تكن الفاصلة ، فعزل السلطان مصطفى باشا عن قيادة الجيش ، وولّى مكانه بيرى باشا فاتخذ طرقاً أخرى للتضييق على الفرسان كمنع وصول الأقوات إليهم ، وألغم تحت أسوار المدينة ومواصلة ايقاد نار المدافع والبنادق حتى يئس الرودسيون وتولاهم القنوط ، واكتشفوا حينئذٍ على خيانة اندراوس المذكور فقتلوه كيلا يثبيه السلطان . وراسلوا السلطان بالتسليم فأجابهم إليه وقبل شرطهم أن يخلوا المدينة في مدة اثني عشر يوماً ، وأن تبعد الجيوش العثمانية عنها مسافة ميل من كل هجماتها كيلا يضروا بهم عند خروجهم . فخرجوا وساروا إلى مالطة وتنازل لهم عنها شارل الخامس ملك اسبانيا فسكنوها إلى أن احتلها نابوليون بونابرت عند حملته على مصر سنة ١٧٩٨م ، وقدمنا أنه كان بين هؤلاء الفرسان جماعة من الموارنة . وامتلك السلطان سليمان رودس وعاد ظافراً إلى الآستانة .

وكانت في تلك الأثناء حروب بين فرنسيس الأول ملك فرنسة وشارل الخامس ملك اسبانيا وهولاندا وعاهل المانيا ، وأخذ ملك فرنسة أسيراً فراسل بعد تخلية سبيله السلطان سليمان في عقد محالفة بينهما الغرض منها أن يحارب السلطان شارل الخامس من جهة المجر ويشغله من جهة المشرق ليقوى عليه ملك فرنسة من جهة المغرب . وأرسل ملك فرنسة سفيراً إلى السلطان فاحتفى بقبوله وأجاب ملك فرنسة جواباً لطيفاً أثبته جودت باشا في الجزء الأول من تاريخه . وسار السلطان في جيش كثيف لمحاربة المجر في ٢٥ نيسان سنة ١٥٢٦م فأخذ عدّة قلاع ، ثم كانت واقعة هائلة بين العثمانيين والمجر قُتل فيها لويس ملك المجر وتشتت جيشه شذر مذر ، وحصلت فوضى في المجر لاختلافهم في اقامة ملك ، فأضاعت هذه البلاد استقلالها . وفي سنة ١٥٢٧م ادّعى فردينان ملك النمسا وأخو شارل الخامس أنّ مُلك المجر يحق له لأنه نسيب الملك لويس الذي قُتل، وسار في جيش لمحاربة جان زابولي الذي نصبه السلطان ملكاً على المجر ، فاستنجد هذا بالسلطان فأمدّه سنة ١٥٢٨م بجيش أمّر عليه ابراهيم باشا ، ثم سار السلطان بنفسه في جيش عرمرم وانتهى إلى مدينة بود حيث كان محتلاً فردينان ملك النمسا . وحاصر المدينة ففرّ ملك النمسا إلى ڤيينا فتتبعه السلطان إليها وحاصرها وسلّط مدافعه على أسوارها ، ولكن طال الحصار وأقبل الشتاء والبرد المعهود في تلك الجهات فعاد السلطان في جيشه إلى المجر ثم إلى الآستانة .

وفي سنة ١٥٣١م أرسل ملك النمسا جيشاً لمحاصرة مدينة بود واستخلاصها فلم يقوَ على فتحها ، فسار السلطان قاصداً ڤيينا ثانيةً وأخذ في طريقه إليها عدة قلاع وحصون . ولاقاه في مسيره سفير من قبل ملك فرنسة فاحتفى السلطان به احتفاء لم يسبق مثله لغيره ، فقد صفّ لاستقباله عدداً عظيماً من الجنود وأطلقت المدافع تحيةً بقدومه ، وتوطّد الاتحاد بين السلطان وملك فرنسة على محاربة شارل الخامس ، ولكن جمع هو جيوشاً كثيرة للمدافعة عن ڤيينا ، ودنت أيام الشتاء فعاد السلطان إلى الآستانة . وفي سنة ١٥٣٣م راسل ملك النمسا السلطان بعقد الصلح فقبل السلطان أن يعقد أولاً هدنة على شروط اختارها ، ولما قُبلت عُقدت معاهدة الصلح في ٢٢ حزيران سنة ١٥٣٣م ومن بنودها أن تردّ النمسا مدينة كورون للسلطان ولا يردّ السلطان شيئاً مما فتحه في المجر .

وفي سنة ١٥٣٤م أرسل السلطان ابراهيم باشا إلى بلاد العجم للتنكيل بشريف

بك خان مدينة بدليس ، وقبل وصوله كان شمس الدين ابن والي أذربيجان قد قتل شريف المذكور ، وجاء برأسه إلى ابراهيم باشا فمضى الوزير فصرف أيام الشتاء في حلب ثم سار منها إلى تبريز فدخلها بالامان وبنى بها قلعة ، وأقام بها حامية عثمانية ، ثم سار إليها وفتح تلك السنة بغداد وأقام بها أربعة أشهر وعاد إلى الآستانة سنة ١٥٣٦م، فوفد عليه سفير من قِبل ملك فرنسة اسمه لافورى فعُقدت معاهدة بين السلطان وملك فرنسة مشعرة باتحاد المملكتين ، وتقررت امتيازات القناصل وحقوق الرعايا الفرنسيين في المملكة العثمانية . وقد أثبت هذه المعاهدة بنودها محمد فريد بك في كتابه تاريخ الدولة العلية صفحة ٩١ وما يليها .

وكان من المتفق عليه في هذه المعاهدة أنّ السلطان يجعل وجهة حروبه بلاد نابولي وجزيرة صقيلة واسبانيا بدلاً من مهاجمات النمسا التي تتحد جميع امارات المانيا وممالكها للمدافعة عنها لأنها مع استقلالها جزء من التحالف الألماني ، وإنّ فرنسة تدخل ايطاليا من جهة اقليم بيامونتي عندما تدخل عساكر السلطان من جهة نابولي ، على أنّ عدم دخول جمهورية البندقية في التحالف العثماني الفرنسي كان مانعاً من لجاح هذا التحالف وأضرّ به كثيراً. وعاب النصارى محالفة ملك مسيحي لسلطان مسلم ، وأراد السلطان أن ينتقم من جمهورية البندقية لمقاومتها محالفته لفرنسة مع رعايته جوارها وتحاشيه غزو بلادها .

وكان السلطان سليمان قد استدعى خير الدين باشا المعروف عند الفرنج بباربا روسا (أي ذي اللحية الحمراء والصهباء وأصله من أروام جزيرة مدلي وكان من لصوص بحر الروم يسطو على مراكب الفرنج ، ودخل في خدمة محمد الحفصي صاحب تونس وتزلّف إلى السلطان سليم الأول وأرسل إليه مركباً كان قد أسره ، فأرسل السلطان إليه خلعاً سنية وعشر سفن يستعين بها على غزو مراكب الفرنج ، فاستحوذ خير الدين وأخ له على بعض المدن في جزائر الغرب وتونس باسم السلطان . وسار ينزل على بعض شواطئ ايطاليا وفرنسة واسبانيا ويأخذ ما تصل إليه يده من المال والناس. فاستدعاه السلطان سليمان سنة ١٥٣٣م واتفق معه على انشاء مراكب لفتح اقليم تونس . وبعد انشائها سار بها خير الدين سنة ١٥٣٤م وحاصر تونس سنة ١٥٣٥م واحتلّها ، ولكن طرده منها شارل الخامس ملك اسبانيا . وفي سنة ١٥٣٧م أرسله السلطان سليمان في سفن كثيرة فحاصر جزيرة كورفو ليأخذها من البنادقة فلم يتمكن من فتحها بل فتح كثيراً من جزائر الروم .

وفي سنة ١٥٣٨م جمع السلطان جيشاً كبيراً في البانيا قاصداً شنّ الاغارة على ايطاليا من جهة الشرق وأقام خير الدين باشا بالاسطول بمرفأ اوترنت ليهاجمها من جهة الجنوب ويثبت عليها ملك فرنسة من جهة الغرب . ولكن حصلت هدنة بين ملك فرنسة وشارل الخامس فنجت ايطاليا . ثم صالح السلطان جمهورية البندقية سنة ١٥٣٨م على تركها بعض مدن له .

وفي سنة ١٥٤٠م مات زابولي والي المجر من قِبل سليمان فأغارت جيوش النمسا على المجر واحتلوا بست ، وحاصروا مدينة بود المقابلة لها ، فنهض السلطان سليمان بنفسه فرفع حصار النمساويين عن بود ودخلها وجعل بلاد المجر ولاية عثمانية وتعهّد خطاً لأرملة زابولي أنه لا يحتلّ المجر إلّا مدة طفولة ابنها فإذا بلغ رشده ردها إليه .

وفي سنة ١٥٤١م عاد النزاع بين ملك فرنسة وشارل الخامس وأرسل ملك فرنسة الموسيو بولان إلى الآستانة يستنجد السلطان ، فتردد السلطان أولاً لرؤيته تقلّب فرنسيس الأول لكنه سيّر أخيراً خير باشا في أسطوله مع السفير ، فبلغ الأسطول العثماني مرسيليا فانضمّ إلى أسطول فرنسة وأقلعوا إلى مدينة نيس ففتحوها سنة ١٥٤٣م ولكن لم يحتلوها للخلاف بين العسكرين . وفي سنة ١٥٤٤م أبى ملك فرنسة مساعدة الأسطول العثماني له لهياج النصارى عليه ونسبتهم له إلى المروق لاستعانته بالمسلمين ، وعقد الصلح مع شارل الخامس في معاهدة كريسي ، وعاد خير الدين باسطوله إلى الآستانة فتوفي بها سنة ١٥٤٦م . وفي سنة ١٥٤٧م عُقد الصلح بين السلطان وملك النمسا بعد مغالبات حربية على شرط أن يدفع لملك النمسا جزية سنوية ثلاثين ألف دوكا لقاء ما بقي بيده غير بلاد المجر ، وأن تبقى المجر لابن زابولي بوصاية أمه ايزابل وتحت رعاية السلطان . وفي سنة ١٥٥١م استؤنفت الحرب بين السلطان سليمان وملك النمسا لأنّ ايزابل وصية ملك المجر تخلّت لملك النمسا عن اقليم ترانسلفانيا خلافاً للعهدة . وفي سنة ١٥٥٢م انتصرت العساكر العثمانية على النمساويين في عدة مواقع وأكرههم فصل الشتاء على العود إلى الآستانة . وفي سنة ١٥٥٣م بعد وفاة فرنسيس الأول ملك فرنسة وخلافة ابنه هنري الثاني عُقدت بين السلطان سليمان وهنري الثاني المذكور معاهدة على ضمّ الأسطول العثماني إلى الأسطول الفرنسي لفتح جزيرة كورسيكا . وترى مواد هذه المعاهدة مثبتة في كتاب تاريخ الدولة العلية صفحة ١٠٣ نقلاً عن

مجموعة البارون دي تستا ، فسارت مراكب الدولتين وفتحت الجزيرة ، ولم يستمر الاحتلال بها لوقوع النفرة بين القائدين ، وعاد الأسطول العثماني إلى الآستانة. وفي سنة ١٥٦٥م أرسل السلطان سليمان الأسطول العثماني مؤلفاً من نحو مايتي سفينة لفتح مالطة ، وحاصروها ولكن توفي أمير البحر طغرول فعاد الأسطول العثماني إلى الآستانة . وفي سنة ١٥٦٦م عاد السلطان إلى البحر لأنّ مكسيميليان بن فردينان ملك النمسا أخذ مدينة توكاي من الشاب أمير المجر فقصد السلطان كبت ملك النمسا وسار ليأخذ قلعة ارلو الشهيرة ، ولكن بلغه في طريقه أمير سكدوار (في المجر) تغلّب على فرقة في جيشه فأراد أن يكبحه قبل حصر ارلو ، فحاصر مدينته فأخلاها أهلها وتحصنوا بقلعتها ومرض السلطان وتوفي في ٢٠ صفر سنة ٩٤٧ هـ (سنة ١٥٦٦م) وكتم الوزير خبر موته خوفاً من فشل الجيش . وبعد ثلاثة أيام فتح العثمانيون القلعة ودخلوها وكان المحاصرون لغموها فانفجرت الأرض وسقط بناء القلعة فأهلك من كان بها ومن دخلها . فكانت مدة ولاية السلطان سليمان ثماني وأربعين سنة قمرية صرفها في توسيع نطاق الدولة واعلاء شأنها .

ومن الأحداث في بلادنا هذه في أيام السلطان سليمان أنّ الأمير قيتبيه ابن الأمير عساف المار ذكره توفي سنة ١٥٢٣م في غزير وخلفه الأمير منصور ابن أخيه حسن . وانبسطت ولايته إلى عكار ، فإنّ ولاية طرابلس كانت لنائب من قبل السلطان، وإذا لم يكن نائب التزمها محمد آغا ابن شعيب من أهل عرقا وأجر الأمير منصور المذكور بلاد جبيل والبترون وجبّة بشري والكورة والزاوية والضنيّة . وردّ الأمير منصور الشيخين يوسف وسليمان ابنَي حبيش اللذين كان عمه قيتبيه قد نفاهما ، ونصب الشيخ هاشم العجمي عاملاً في بلاد جبيل ، وجعل ابن عمه عبدالمنعم بن سيف الدين قيّماً على أملاكه وبنى له داراً في غزير .

وفي سنة ١٥٢٨م وقعت النفرة بين بني شعيب من عرقا وبني سيفا أمراء التركمان في عكار ، واتصلوا إلى القتال فارتحل بنو سيفا من بلاد عكار إلى الباروك إلى حمى الأمير قرقماز بن معن ،وأخذ الأمير منصور المذكور يناصر بني سيفا ، وأرسل معهم ثلاث مئة رجل فكبسوا بني شعيب في عرقا وقتلوا أكثرهم وتولّوا بلاد عكار، فحنق محمد آغا ابن شعيب حاكم طرابلس على الأمير منصور وادعى عليه بمال فأرسل إليه الأمير منصور عبد المنعم وابنَي حبيش المذكورين وصحبتهم نحو من خمس مئة رجل كمنوا عند حارة الحصارنة بطرابلس . وطلب

معتمدو الأمير اجراء المحاسبة على المال المطلوب واجتمعوا بحضرة القاضي مع محمد آغا في جامع طليان ، فوثب عبد المنعم وابنا حبيش على محمد آغا فقتلوه ، وكان ابنه معه فألحقوه به وأصلحوا أمورهم مع القاضي فسلمهم تقريراً بأنهم أبرياء من قتل محمد آغا .

وفي سنة ١٥٣٢م قصد عبدالساتر الكردي حاكم البترون العصيان على الأمير منصور بن عساف ، فأرسل إليه الأمير أربعين رجلاً فقتلوه وألحقوا به أباه ، ونصب مكانه يوسف بن شكيبان الحصاراتي وصرفه في بلاد البترون ، وكان شجاعاً باراً ، وكان يوسف هذا مارونياً على ما يظهر . ثم قتل الأمير منصور حاكم جبيل لخيانة أبداها ، ونصّب مكانه أبناء الحسامي . ولم يزل في جبيل جماعة مسلمون يسمون بيت الحسامي فربما كانوا من نسل أولئك .

وفي نحو سنة ١٥٣٣م كانت منازعة بين مالك شيخ العاقورة من اليمنية وهاشم العجمي (الذي مرّ أنّ الأمير منصور نصبه عاملاً في بلاد جبيل) وكان من القيسية . وكان أهل البلاد مقسومين إلى قيسية ويمنية، فكبس مالك جبّة المنيطرة وأحرقها فاتفق أهلها مع القيسية الذين كانوا في العاقورة وكمنوا لمالك في طريق الجرد وقتلوه، فرفع حنش وحرفوش أخوا مالك الشكوى إلى نائب السلطنة بدمشق ، فكتب النائب إلى الأمير منصور أن يقبض على القاتلين ويرسلهم إليه ، فأمر الأمير منصور عبدالمنعم المذكور أن يقتل ابن عمه هاشم فأذعن لأمره وتوجّه إلى محل هاشم ففرّ وقتل عبدالمنعم أحد أبناء عمه وسار مع أخوي مالك متتبعاً هاشم والقاتلين، فانهزم هاشم إلى كرك بعلبك إلى الأمراء الحرافشة ، ونهب عبدالمنعم ورجاله لاسا وأحرقوها وغيرها من قرى جبّة المنيطرة . وخاف القيسية الذين بالعاقورة وهربوا إلى طرابلس ونواحيها ، فنهب عبد المنعم بيوتهم وأحرقوها وخلت العاقورة من السكان. واستوحش الأمير منصور من عبد المنعم المذكور ودرى هو بذلك فراسل الأمراء الحرافشة على قتل هاشم ، وتعهّد لهم بقتل الأمير منصور وتسليمهم ولايته ، فقتل الحرافشة هاشم فوق الكرك وطرحوا جثته في بئر يسمى إلى اليوم بئر هاشم . وكان له أخ لجأ إلى الأمراء الشهابيين ،وأما عبدالمنعم فأخذ يغتاب أبناء حبيش وينم بهم ويسعى بهلاكهم توسلاً لنيل غرضه من اهلاك الأمير منصور . واكتشف ابناء حبيش على دخيلته ودخلوا على الأمير ليلاً وأخبروه بالمؤامرة عليه بين عبد المنعم والحرافشة ، فأباحهم اغتياله فوثبوا عليه في داره التي

كان الأمير منصور قد بناها له قرب السراي فقتلوه وألحقوا به أحد عشر نفساً من أنسبائه. فطاب خاطر الأمير منصور وجعل أبناء حبيش كواخيه وصرفهم في تدبير أمور حكومته. وكان من سكان العاقورة الشيخ أيوب وأخوه فضول ابنا الشماس توما، فلما ارتحل اليمنية منها إلى الشام، والقيسية إلى طرابلس سكنا هما عند دير مار اذنه كرسي أسقف العاقورة ووفقهما الله في أخذ أوامر من نائب دمشق لتعمير العاقورة وارجاع أهلها إليها فعمرّت بعد خرابها سبع سنين. وأخذ أيوب وفضول المشيخة عليها. ومن تقليدات المشايخ آل هاشم المسمين إلى الآن بهذا الاسم أنّ هاشم المذكور هو جدّهم الأول وإنه نُسب إلى العجم لأنه أتى من بلاد العجم إلى لبنان. ولكن قد عثرت على وريقة في كتاب تاريخ الدويهي الذي كان بيد الصالح الذكر البطريرك بولس مسعد وهي بخطه الذي أعرفه حق المعرفة كتب عليها ما يأتي بحروفه: «الشيخ أيوب ابن الشماس توما وَلَدَ هاشم وضهر ورعد ومن هاشم هذا ابن الشيخ أيوب تكنى أولاده وأولاد أخويه ضاهر ورعد ببيت الهاشم لأنه كان الأشهر فيهما». وليس من ينكر عظم مخبرة هذا البطريرك بأنساب الموارنة.

في سنة ١٥٤١م ائتمر المقدم ميخائيل المتكلم على زوق مكائيل وأولاده حنش أمراء فتقا على قتل الأمير منصور عساف وساروا إلى غزير يضمرون الغدر به، فدرى بمكرهم وبسط لهم سماطاً ليغتذوا وأمر رجاله فقتلوهم. انتهى مأخوذاً عن تاريخ البطريرك اسطفانوس الدويهي وقد نقل عنه ذلك الأمير حيدر شهاب في تاريخه. ولينتبه قارئ هذا التاريخ الذي طُبع حديثاً في مصر أنّ فيه من سهو الناسخ عدّة أغلاط منها قوله الأمير منصور سيفا وهو من آل عساف.

عد ٩٦١

السلطان الغازي سليم خان الثاني وما كان في أيامه

هو ابن السلطان سليمان الأول وُلد في ٦ رجب سنة ٩٣٠ هـ (١٠ أيار سنة ١٥٢٣ م) وخلف أباه بعد وفاته واستوى على أريكة الملك في ٩ ربيع الأول سنة ٩٤٧ هـ أي ٢٤ كانون الأول سنة ١٥٦٤ م. فأقام بالآستانة يومين وأسرع إلى سكدوار للاحتفال بنقل جثة المغفور له والده إلى القسطنطينية، وقد أرّخ أحد

الشعراء ملكه بقوله: «سليم تولّى الملك بعد سليمان سنة ٩٤٧». ومما كان في أيامه عقد الصلح بينه وبين النمسا بمعاهدة مؤرخة في ١٧ شباط سنة ١٥٧١، ومن شروطها حفظ النمسا أملاكها في المجر ودفعها الجزية السنوية المقررة بالعهود السابقة، واعترافها بمتابعة أمراء ترنسلفانيا والفلاخ والبغدان للدولة العلية، ثم تجديد الهدنة مع ملك بولونيا باعتراف الباب العالي بالتحالف الذي حصل بين ملك بولونيا وأمير البغدان، واستئناف الاتفاق مع شارل التاسع ملك فرنسة تأييداً لما كان بين ملوك فرنسة والسلطان سليمان الأول. وزيد على ذلك اتفاق الدولتين على ترشيح هنري دي فالوا أخي ملك فرنسة لعرش بولونيا ليكون لهما نصيراً ضدّ النمسا من جهة وروسيا من جهّة أخرى.

وفي سنة ١٥٧٠م أمر السلطان سليم الثاني بفتح جزيرة قبرص وكانت بيد البنادقة وتوجهت إليها المراكب الحربية ،وقيل إنّ عدد ما حملته من العساكر كان ماية ألف جندي يقودها مصطفى باشا، فأخذوا الملاحة أولاً ثم انتقلوا إلى حصار الأفقسية وبنوا عليها برجاً، ودام الحصار عليها من أول الصوم إلى آخر شهر آب، ثم حاصروا الماغوصة وقيل أنه كان فيها نحو ألف مدفع، ودافع أهلها والحامية التي كانت فيها مدافعة الأبطال، ودنا فصل الشتاء فخمدت نار الحصار ثم اضطرمت في نيسان سنة ١٥٧١م. ولم تفتح إلّا في ٦ آب من السنة المذكورة إذ عاز المحاصرين القوت والبارود فألجئوا إلى التسليم. وروى البطريرك الدويهي أنّ الذين أخذوا أسرى من النصارى كانوا نحو مئة وثمانين ألفاً، والذين قُتلوا كانوا نحو خمسين ألفاً، وكان الموارنة حينئذٍ كثيرين في قبرص فقُتل منهم نحو ثمانية عشر ألفاً. وكان قد تحصّن منهم نحو اثني عشر ألفاً في قرية اسمها كاليسباسي فخادعهم الأعداء حتى سلموا ثم أهلكوهم عن آخرهم. وكان حينئذٍ من النهب والحريق والفظائع ما الصمت عنه أولى. وقتل من العساكر خلق كثير واستمرت قبرص تحت ولاية الدولة العلية إلى أن احتلها الانكليز سنة ١٨٧٨م.

ولما رأى البنادقة تغلّب العثمانيين واختشوا انبساط سطوتهم في غير قبرص من أملاكهم اتفقوا مع ملك اسبانيا وفرسان مالطة وجهزوا أسطولاً يزيد على مئتي سفينة وقصدوا الأسطول العثماني الذي كان نحو ثلاث مئة سفينة، وتسعرت نار الحرب بين الأسطولين بالبحر بقرب ليبانتا فانتصر المتحدون على العثمانيين وأخذوا منهم نحو ثلاثين سفينة وغرّقوا سفناً أخرى، وأخذوا ثلاثماية مدفع وبعض

الأسرى. ولما بلغت هذه الأخبار إلى الآستانة همّ المسلمون بقتل المرسلين فتدارك الأمر الوزير محمد باشا صقلي وأخرج المرسلين آمنين بحسب طلب سفير فرنسة ،وأخذ الوزير ينشيء سفناً حديثة وبذل قصارى جهده في تجهيزها وتسليحها حتى جهّز في سنة واحدة نحو مئتين وخمسين سفينة. ووقع الخلاف بين الأميرال البندقي والأميرال الأسبنيوي، وسعى البنادقة بالتقرب إلى الدولة العلية فتمّ الصلح بينهما في ١٧ آذار سنة ١٥٧٣م على أن تتخلّى البندقية عن قبرص للدولة العلية وأن تدفع لها غرامة حربية ثلاثماية ألف دوكا. وأما الأسبنياويون فقصد أسطولهم تونس في آخر سنة ١٥٧٢م، فاحتلوها دون معارضة ولا مقاومة وأعادوا إليها سلطانها حسناً الذي كان قد لجأ إليهم عند احتلال العثمانيين بلاده. ولكن لم تمضِ ثمانية أشهر حتى استردها سنان باشا للدولة العلية.

وفي ٢٧ شعبان سنة ٩٨٢هـ (١٢ كانون الأول سنة ١٥٧٤م) توفي السلطان سليم الثاني وعمره ٥٢ سنة قمرية ومدة ملكه ثماني سنين وخمسة أشهر. ومما كان من الأحداث في أيامه في بلادنا هذه أنّ الأمير منصور بن عساف انبسطت ولايته من نهر الكلب إلى حمص وحماه بمقتضى براءة سلطانية، وكان ينصّب العمال في هذه النواحي، وأنشأ له داراً ببيروت وأخرى بجبيل وسراي بغزير وبنى بجانبها جامعاً ومئذنة وحماماً وجنّة فسيحة وأجرى الماء إلى غزير من نبع المغارة.

عد ٩٦٢

السلطان الغازي مراد خان الثالث

هو ابن السلطان سليم الثاني وُلد في القسطنطينية في ٥ جمادي الأول سنة ٩٥٣ هـ (٤ تموز سنة ١٥٤٦ م) وقد أرّخ بعضهم ولادته بقوله: «خير النسب سنة ٩٥٣». وخلف أباه سنة ٩٨٢ هـ سنة ١٥٧٤ م. كما مرّ. وكانت باكورة أعماله أنه حظّر شرب الخمر الذي كان قد استطرق وفشا استعماله ولا سيما عند الانكشارية، فثار هؤلاء وباعة الخمر وصانعوه حتى غضّ النظر عن تناول مقدار منه لا يتأتى عنه ذهول العقل والاخلال براحة العموم. ونصب رئيساً على الانكشارية

رجلاً اسمه شيكالا كان قد أسلم من عهد قريب، فازداد الشغب والقلق في هذه الجوقة. وكان بين الدولة العلية والنمسا في ذلك الحين نوع من السلم، وإن طرأت حيناً بعد حين مناوشات بين عساكر الأمتين لكنها لم تكن لتفضي إلى اعلان الحرب، بل كانت مصلحة الفريقين تقضي عليهما ببقاء الوفاق وأبرمت بينهما مهادنة لمدة ثماني سنين بدؤها سنة ١٥٧٧م. وكانت العلاقات بين السلطان مراد ودولة فرنسة حسنة جداً وكذلك بينه وبين جمهورية البندقية. وأيّد لهما الحقوق القنصلية والتجارية بل زادها وأضاف إليها مواد أهمها أن يكون سفير فرنسة مقدماً على سائر سفراء الدول في المقابلات والحفلات الرسمية. واتفق مع ايزابل ملكة انكلترا أن ترفع مراكب الانكليز العلم الانكليزي عند دخولها المرافئ العثمانية. وكانت جميع السفن الأوروبية لا تدخل بلاد الدولة إلّا وعليها العلم الفرنسي بمقتضى عهود كانت في أيام السلطان سليمان وابنه السلطان سليم الثاني.

وأهم الحروب التي كانت في أيام السلطان مراد الثالث هي حربه مع العجم فكانت المناوشات بين رجال الدولتين قد تواترت من مدة طويلة على التخوم. وكان السلطان يرغب في ابعاد الانكشارية عن العاصمة واشغالهم بالحروب عن سطوتهم وشغبهم فيها. وكان شاه العجم المسمى طهماسب قد توفي سنة ١٥٧٦م وخلفه ابنه حيدر فقُتل للحال وخلفه أخوه اسماعيل فمات مسموماً سنة ١٥٧٧م وخلفه أخوه محمد وكانت البلاد منقسمة عليه فرأى محمد باشا صقلّي الصدر الأعظم حينئذٍ انتهاز فرصة هذا القلق فحسن للسلطان اعلان الحرب فأرسل السلطان جيوشه بامرة مصطفى باشا فسار فيها إلى بلاد الجركس التابعة للعجم ففتحها واحتلّ مدينة تفليس سنة ١٥٧٨م ونصب في هذه البلاد عمالاً من أمراء الكرج ومضى يصرف فصل الشتاء في مدينة طرابيزن. فحشد ملك العجم في الشتاء جيشاً أمّر عليه حمزه مرزا، فاسترد بعض المدن من العثمانيين ولم يقوَ على أخذ تفليس، وتوفي مصطفى باشا قائد الجيش العثماني فأقام السلطان مكانه سنان باشا، فأخذ طاغستان على شاطئ بحر الخزر سنة ١٥٨٢م وبعد أن انتصر في حروب أخرى عاد إلى الآستانة فنصبه السلطان صدراً أعظم وقائداً للجيش الذي في بلاد الكرج، فسار في جيش يربو على مايتي ألف مقاتل، فدخل مدينة تبريز عاصمة العجم بعد انتصاره على الأمير حمزة مرزا. وبعد أن استمرت هذه الحرب سجالاً ست سنين، عُقد الصلح بين الدولة العلية والعجم في ٢١ مارت سنة

١٥٨٥م وتخلّت دولة العجم للدولة العلية عن أعمال الكرج وشروان ولورستان وبعض أذربيجان ومدينة تبريز ، وعاد بعض الجيش إلى الآستانة .

وعاد الانكشارية إلى تعنّتهم وشغبهم وثاروا على ناظر المالية مدّعين أنه دفع إليهم دراهم ناقصة العيار وأنه لم يوفهم كل ما لهم ، فقتلوه في داره ثم ثاروا مرة أخرى سنة ١٥٩٣م . ذكر ذلك القرماني وقال إنه كان شاهداً هذه الحادثة وإنّ الانكشارية اتفقوا مع غيرهم من العساكر ودخلوا إلى ديوان السلطان وأرسلوا يطلبون محمداً الشريف الدفتري يومئذٍ مدّعين أنه لم ينقدهم جوامكهم ، فامتنع السلطان من تسليمه إليهم خيفة أن يقتلوه ، فأصرّوا على طلبهم فخرج عليهم بعض الحامية والخدم والغلمان وأخذوا يرمونهم بالحجارة ، فاندفعوا مذعورين وتراكموا في الباب ، ووطئ بعضهم بعضاً وقُتل منهم مئة وسبعة عشر رجلاً ، وتمرّد الانكشارية مرة أخرى في بودبست وقتلوا واليها وصنعوا كذلك في القاهرة وفي تبريز . وكثر الشغب والقلق في المملكة كلها وغلت أيدي الولاة وضعفت سلطتهم .

ولم يجد السلطان مراد حيلة للتخلّص من هذه الحال إلّا بأن يشغل الانكشارية والعسكر بالحرب ، فأعاد سنان باشا إلى منصب الصدارة العظمى لاعتماده على بسالته وذكائه واتفقا على اعلان الحرب للنمسا التي كانت قد لمّت شعثها وجددت قواها في مدة ثلاثين سنة قضتها بالسلم . وأوعز سنان باشا إلى حسن باشا والي البشناق أن يخترق بعسكره تخوم المجر اعلاناً للحرب ، واتقدت نار الحرب في المجر سنة ١٥٩٣م فكانت سجالاً وكان النصر طوراً للعثمانيين وطوراً للمجريين والنمساويين . فقُتل من العثمانيين حسن باشا والي الهرسك . وانهزم إلى بودبست وفتحت جيوش النمسا عدة قلاع عثمانية ، ثم استرد بعضها سنان باشا سنة ١٥٩٥م . وزاد في الطين بلّة وفي الطنبور نغمة اشهار الفلاخ والبغدان وترنسلفانيا العصيان على الدولة ومحالفتهم لرودلف الثاني ملك النمسا وامبراطور المانيا ، فسار إليهم سنان باشا إلى مدينة بوخارست سنة ١٥٩٥م ولكن انتصر عليه ميخائيل أمير الفلاخ ، ودخل بعض المدن العثمانية وقت حاميتها ونكّل بأهلها ، فاضطر العثمانيون إلى التقهقر إلى ما وراء الدانوب ، وتبعهم الأمير ميخائيل المذكور وانتصر عليهم مرة أخرى ،وأخذ عدة مدن منها مدينة نيكوبولي . ذكر ذلك كثيرون منهم أبو العباس القرماني في أخبار الدول ، ومحمد فريد بك في تاريخ الدولة العلية .

وأما ما كان في بلادنا السورية في أيام السلطان مراد الثالث، فمنه ما ذكره العلامة البطريرك الدويهي في تاريخ سنة ١٥٧٦م أنه حدث زلزال عظيم في جزيرة قبرص استمر ساعتين وسقطت به كنيسة القديس ميخائيل في ساماتو، وكنيسة القديس الياس، والمئذنة التي كانت في الجامع في الافقسية وكنائس أخرى وقرى.

وقال في تاريخ سنة ١٥٧٩م إنه حدث طاعون في الديار المصرية والشامية وقحط حتى بلغ ثمن شنبل القمح في أعمال طرابلس إلى مئة وخمسين غرشاً، وشنبل الحمّص مئة وأربعين وقلّة الزيت إلى ثلاث مئة وأربعين. وأنه في هذه السنة شكا بعضهم الأمير منصور بن عساف إلى الباب العالي بسبب قتله ابن شعيب حاكم طرابلس وأمراء فتقا وعبدالساتر وغيرهم (مرّ ذكر هذه الأحداث في عد ٩١١) فأمر السلطان أن يكون والي طرابلس باشا لكسر شوكة بني عساف وولّى عليها يوسف باشا ابن سيفا التركماني فتعقّب أتباع الأمير منصور فهرب الشدياق خاطر الحصروني الذي كان مقدماً على جبّة بشري في بلاد بعلبك والمقدم مقلّد من ناحية الشوف، فمات هناك وله ولد اسمه جمال الدين يوسف وبنت اسمها ست البنات. على أنّ يوسف باشا والي طرابلس كاتب الشدياق خاطر وأمّنه ورده إلى ولاية جبّة بشري وجعل الشدياق باخوس بن صادر الحدشيتي شريكاً له في الولاية. وفي السنة التالية أي سنة ١٥٨٠م توفي الأمير منصور بن عساف وخلفه في ولايته بغزير ابنه الأمير محمد.

وفي سنة ١٥٨٤م وثب جماعة من الأردياء على حاملي خزينة السلطان في جون عكار فانتهبوا المال. فصدر الأمر إلى جعفر باشا الطواشي والي طرابلس أن يجمع العسكر من ساحل البحر من صيدا إلى حمص ويصادر يوسف باشا بن سيفا الذي كان قد اعتزل عن طرابلس وأقام في عكار فنهب العسكر بلاد عكار وأحرق كثيراً من قراها، ورفع جعفر باشا الشكوى إلى السلطان بأنّ الأمير محمد ابن الأمير منصور عساف وأمراء بلاد الدروز إنما هم الذين نهبوا الخزينة، فصدر الأمر إلى ابراهيم باشا والي مصر أن يجمع العساكر من حلب والشام ومصر فجمعها وقطع طرق البحر والبقاع على الدروز، وأرسل يطلب الغرماء من الأمير قرقماز بن معن، فحضر إلى ابراهيم باشا الأمير محمد بن جمال الدين من عرمون الغرب وابن عمه الأمير منذر من اعبيه، والأمير محمد بن عساف من غزير، واستسلموا إلى الوزير. فلما رأى الأمير قرقماز بن معن أنّ باقي الأمراء انصرفوا عنه وأمسى

منفرداً هرب إلى مغارة في ناحية جزين، فاختبأ بها وأصابه مرض أودى به إلى الموت، وكان له ابنان فخر الدين ويونس. ولما بلغ الوزير انهزام الأمير قرقماز سار في عسكره إلى عين صوفر واستدعى إليه عقال الدروز، فحضروا وقتل منهم خمس مئة رجل ثم سار إلى طرابلس وصحبه الأمراء الذين استسلموا إليه فمضى بهم إلى الآستانة العلية فأكرمهم السلطان وأنعم عليهم. وقرّر كلاً منهم في بلاده فأعاد إلى أمراء الغرب كل ما كان بيدهم، وردّ الأمير محمد عساف إلى ولايته في غزير فعادوا إلى وطنهم مسرورين شاكرين. وقدم الأمير محمد عساف عنده الشيخ أبا قانصوه محمد بن حماده ووهبه داراً في غزير واستحضر معه من الآستانة رجلاً خبيراً بالبناء أقامه على تكملة بناء السراي في غزير. فأكملها وكانت من أحسن الأبنية في بلاد الشام في ذلك العصر. وأما الأميران فخر الدين ويونس ابنا الأمير قرقماز معن فأرسلتهما والدتهما إلى كسروان فاختبأا عند آل خازن، ولما صفا كأس السياسة رجعا إلى دار الأمير سيف الدين التنوخي من أمراء الغرب. ثم وليا بعد ذلك بلاد الشوف كما كان أبوهما.

وفي سنة ١٥٩٠م خرج الأمير محمد بن عساف من غزير إلى مقاتلة يوسف باشا بن سيفا في عكار، وعرف يوسف باشا بذلك فجمع عسكره وكمن للأمير محمد بين البترون وعقبة المسيلحة فقتله هناك وبدّد عسكره. ولم يكن للأمير محمد ولد فانقرضت به دولة بني عساف الذين سكنوا غزير منذ سنة ١٣٠٦م بعد جلاء الصليبيين كما مرّ. فكانت ولايتهم هناك مئتين وأربع وثمانين سنة. وضبط يوسف باشا بن سيفا بعد ذلك أملاك بيت عساف وأخذ أموالهم وتزوّج بأرملة الأمير محمد، وقبض على أبي يونس سليمان وأبي سعد منصور حبيش وقتلهما ونهب دارهما، وفرّ ابناها يونس وحبيش إلى الشويفات لاجئين إلى الأمير محمد بن جمال الدين، وأقام يوسف باشا بالنيابة عوضهما أبناء حمادة، فانتقلوا مع يوسف باشا من غزير إلى طرابلس. ووجس يوسف باشا من آل حماده فألقى الفتنة بينهم وبين المستراحية الذين كانوا بجبّة المنيطرة. وكانوا من أنساب آل حمادة. فقتل قانصوه حمادة أناساً من المستراحية في طرابلس. ثم قتل منهم بعضاً كانوا يسكنون بكفرحلدا، وصعد إلى المنيطرة بعسكر يريد اهلاك أحدهم المسمى جمال الدين سيالة. فأصابته رصاصة فقُتل وحملته جماعته إلى كفتين فدُفن فيها. انتهى منقولاً عن تاريخ الدويهي وتاريخ الأمير حيدر شهاب.

ثم توفي السلطان مراد الثالث سنة ١٥٩٤م وكانت مدة سلطنته عشرين سنة وأشهر، وخلفه ابنه السلطان محمد خان الثالث.

عد ٩٦٣

السلطان محمد خان الثالث وما كان في أيامه

هو ابن السلطان مراد الثالث وُلد في ٧ ذي القعدة سنة ٩٧٤ هـ (٢٦ أيار سنة ١٥٦٦ م) ورقي منصة الملك بعد وفاة أبيه سنة ١٥٩٤م كما مرّ. وكانت المملكة محفوفة بالمخاطر من الخارج، ومرتبكة في الداخل من قبل ركاكة الوزراء ومطامعهم وتعنّت الانكشارية وغيرهم من الجنود. وكان ميخائيل أمير الفلاخ قد طرد العثمانيين إلى ما وراء نهر الدانوب بمساعدة جنود النمسا، واضطر السلطان يوم جلوسه على العرش أن يقاول الانكشارية على ما يرضيهم من الحلوان لذلك. فلم يعيّنوا مبلغاً رجاء أن يدفع لهم السلطان فوق ما أملوا إلى أن املأ فرهاد الوزير الأعظم أكياساً من الدراهم ونسقها في صحن الدار، واستدعى الانكشارية والفرسان وقال: هذا هو حلوانكم اقتسموه بينكم. فأحرز الانكشارية كل تلك الأكياس لأنهم كانوا أكثر عدداً. فانخرط الفرسان في المدينة يهددون الوزير بالقتل، وأدرك السلطان محمد أنّ اشغال جنوده بالحرب خير وسيلة لكفهم عن الشغب، وللذب عن المملكة فسيّر الصدر الأعظم لمحاربة النمسا وأحلافها، ولكن لم يسر معه إلّا فريق من الجنود وأبى الآخرون أن يصحبوه، فاضطر السلطان أن يستأتي سنان باشا من حيث كان منفياً ويجعله قائداً للجيش، فاقتنع الجنود المتمردون بالمسير معه، فسار فيهم، وعلم فرهاد باشا بذلك فعاد إلى الآستانة. ولما بلغ سنان باشا إلى آخر تخوم المملكة التقاه الأمير ميخائيل وعساكر النمسا ومن اتحد معهم فرأى من نفسه العجز عن المقاومة لهم فأرسل يطلب نجدات، فاستهزت الحمية والنخوة السلطان محمد فنهض بنفسه فسار في جيش كثيف إلى بلغراد، ثم إلى ساحة الحرب آخذاً بنفسه قيادة جيوشه. فعاودتهم الحمية والبسالة والرغبة في الاستماتة أمام سلطانهم، ففتح قلعة ارلو الشهيرة سنة ١٥٩٧م وانتصر على جيوش النمسا والمانيا. وكانت له وقائع أخرى مع عساكر المتحدين، ولكن لم تكن الوقائع فاصلة. ومات سنان باشا، وأراد السلطان العود إلى العاصمة فترك قيادة

جيشه لسيكالا المعروف عند العرب والأتراك بجفالة ، وهو ابن القائد جفالة باشا الجنوي الأصل الذي قُتل في الحرب الأخيرة مع العجم وكان قد أسلم.

أما جفالة باشا فسرح فريقاً من الجيش وهو من آسيا الصغرى ليعودوا إلى أوطانهم. وقيل وقعت له مظنّة فيهم فطردهم، وفي الحالين أضعف قوة جيشه. وهؤلاء الخونة شرعوا راية العصيان على الدولة وبمقدمتهم رجل يسمى قره يازيجي ، وتغلبوا على بعض ولاية قرمان فاتعبوا الدولة مع انشغالها بحرب المجر والنمسا خاصةً، وأرسلت إليهم الجنود فجُرح قره يازيجي ومات من جراحه. ولكن قام أخوه والي حسن بالأخذ بثأره ، وأخذ عدة مدن ، فحاربته الجيوش السلطانية وأكرهته أخيراً أن يرمي سلاحه ، وعيّن والياً في البشناق فسار إليها في اخلاط من جنوده حيث بادوا في حربهم مع المجر والنمسا ، وعصا أيضاً والي القرم فأرسل السلطان ابراهيم باشا الذي كان محافظاً على تخوم المملكة فنكل بأهل القرم ونهب بلادهم، وثار في العاصمة الفرسان طالبين التعويض عما فاتهم من اقطاعاتهم في الاناضول بسبب ثورة قره يازيجي وأخيه والي حسن ، وحاولوا نهب ما في المساجد من التحف الذهبية والفضية فأخمدت الدولة ثورتهم بواسطة الانكشارية.

وأما ما كان في بلادنا السورية في أيام السلطان محمد الثالث فمنه ما ذكره البطريرك اسطفانوس الدويهي ونقله عنه الأمير حيدر شملان الشهابي في تاريخه ، وهو أنه في سنة ١٥٩٨م كانت وقعة بنهر الكلب بين الأمير فخر الدين بن معن ، وبين يوسف باشا بن سيفا بسبب الولاية على كسروان ، ودارت الدوائر على يوسف باشا وقُتل ابن أخيه الأمير علي وتشتت شمل عساكره، فتولّى فخر الدين ببيروت وكسروان. ولكن لم يستمر ذلك إلّا سنة واحدة لأنّ فخر الدين تركهما برضاه لابن سيفا وعاد فخر الدين إلى الشوف.

وقال الدويهي أيضاً قد فشا في هذا القرن استعمال شرب التبغ في الأمصار المصرية والشامية، وفي سنة ١٦٠٢م كبس الأمير موسى بن الحرفوش مع جماعته جبّة بشري فنهبوا البيوت واستاقوا الماشية . وكان أهل الجبة بالسواحل ، ولما بلغ ذلك يوسف باشا جمع جنوده وأهل الناحية نحو خمسة آلاف رجل وسار فيهم فكبس مدينة بعلبك يوم عيد القديس يوحنا المعمدان فهرب أهل المدينة فنهبوا وقتلوا من أدركوا . واحتمى شلهوب بن نبعا مع بعض الحرافشة وكثير من أهل المدينة في

قلعة بعلبك، فحرق يوسف باشا قرية الحدث في بلاد بعلبك، وحاصر القلعة خمسين يوماً، ثم ملكها وقتل ابن فاطمة ورعد ابن نبعا لأنه كان مع الأمير فخر الدين في وقعة نهر الكلب، وقتل ابن أخيه الأمير علي ثم نادى بالأمان، ثم توفي السلطان محمد الثالث في ١٣ رجب سنة ١٠١٢هـ التي توافق ١٦ كانون الأول سنة ١٦٠٣م وعمره سبع وعشرين سنة بعد أن وُلّي تسع سنين.

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدنيويين في القرن السادس عشر

عد ٩٦٤

بعض المشاهير السوريين في هذا القرن

أبو عبدالله محمد بن قاسم الغزي

وُلد ونشأ في غزة وتوفي سنة ٩١٨ هـ (سنة ١٥١٢ م)، وله شرح على كتاب أحمد الأصفهاني بالفقه المعروف بالمختصر بالتقريب، وقد طُبع في لايدن سنة ١٨٥٩م، وسمى محمد شرحه: «الفتح القريب المجيب في شرح التقريب». وقد علّق عليه محمد نوري بن عمر حواشي كثيرة الفائدة، وسمى كتابه: «قرب الحبيب الغريب في شرح التقريب». وطُبع هذا الشرح مع الحواشي بالقاهرة سنة ١٣٠١ هـ ويعول عليهما في تدريس الطلبة الشافعية بمكة المكرمة. وذكر له ملاّ كاتب في كتابه الموسوم بكشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون حاشية على كتاب عقائد النسفي وهو الشيخ نجم الدين أبو عفص عمر المتوفي سنة ٥٣٧هـ. فقال والشيخ محمد بن قاسم الغزي الشافعي المعروف بابن الغرابيلي المتوفي سنة ٩١٨هـ صنّف حاشية على كتاب العقائد المذكور كاملة أولها «أما بعد حمد الله الذي الخ».

عبد البر الحلبي

هو عبد البر بن الشحنة الحلبي المتوفي سنة ٩٢١ هـ (سنة ١٥١٥ م) ذكره صاحب «كشف الظنون»، وقال إنّ له شرحاً على كتاب «جمع الجوامع في أصول الفقه» لتاج الدين عبدالوهاب بن علي السبكي الشافعي المتوفى سنة ٧٧١ هـ (سنة ١٣٦٩ م).

برهان الدين المقدسي

ذكره صاحب الكشف أيضاً القاضي برهان الدين ابراهيم بن محمد بن أبي شريفة المقدسي توفي سنة ٩٢٢ هـ (سنة ١٥١٦ م) له شرح على كتاب «الأعراب عن قواعد الأعراب» للشيخ أبي محمد عبدالله بن يوسف الشهير بابن هشام النحوي المتوفي سنة ٧٦٢ هـ (سنة ١٣٦٠ م).

عائشة الباعونية الدمشقية

هي بنت يوسف بن أحمد بن ناصر بن خليفة الباعوني وأم عبدالوهاب الدمشقية توفيت سنة ٩٢٢ هـ (سنة ١٥١٦م). والباعونية نسبةً إلى قرية باعون في قضاء عجلون في شرقي الأردن، ولها من التآليف «الفتح المبيّن في مدح الأمين» وهي بديعية بديعة مطلعها:

في حسن مطلع أقمار بذي سلم أصبحت في زمرة العشاق كالعلم

وشرحتها هي نفسها، وأول شرحها الحمد لله محلي جياد الافهام بعقود مدح الشفيع. إلى أن قالت هذه قصيدة صادرة عن ذات قناع شاهدت بسلامة الطباع سافرة عن وجوه البديع سامية بمدح الحبيب الشفيع. وقد طُبعت مع شرحها على هامش خزانة الأدب لابن حجة الحموي بالقاهرة سنة ١٣٠٤هـ. ولها أيضاً منظومة بمولد النبي طُبعت بدمشق سنة ١٣٠٤ هـ.

زين الدين عمر الحلبي

ذكره صاحب كشف الظنون فقال هو الشيخ زين الدين عمر بن أحمد الشماع الحلبي المتوفي سنة ٩٣٦ هـ (سنة ١٥٢٩ م) له كتاب عنوانه: «تنبيه الوسنان إلى شعب الايمان». وهو مختصر كتاب آخر له سماه «مورد الظمآن»، وذكر له كتباً أخرى منها كتاب سماه «سفينة نوح» عليه الصلاة والسلام، وكتاب آخر سماه «سلوة»، وكتاب آخر وسمه «بعرف الند في المنتخب من مؤلفات بني فهد». وله أيضاً «فتح المنان في تخميس رائية الشيخ علوان». وذكر له أيضاً كتاباً في الفقه عنوانه: لفظ المرجان من مسند أبي حنيفة النعمان». وكتاباً آخر عنوانه: «اليواقيت المكلّلة في الأحاديث المسلسلة».

محمد بن يوسف الدمشقي

هو الشيخ محمد بن يوسف بن علي الدمشقي الصالحي وُلد بدمشق ثم ارتحل إلى مصر فأقام بالبرقوقية، وتوفي سنة ٩٤٢ هـ (سنة ١٥٣٥ م) ومن أشهر كتبه «الآيات العظيمة الباهرة في معراج سيد أهل الدنيا والآخرة». وأوله الحمدلله الذي رفع سيد خلقه الخ رتبه على سبعة عشر باباً ثم ظفر بأشياء فألحقها بكتابه وسماه «الفضل الفائق». قيل أنه جمع كتابه من ثلاثمائة كتاب، ويُعرف كتابه «بالسيرة الشامية» وعنه أخذ برهان الدين علي الحلبي كتابه «انسان العيون في سيرة الأمين والمأمون» المعروف بالسيرة الحلبية، وقد طُبع بمصر سنة ١٢٨٠م ثم سنة ١٣٠٤م. وجاء في كشف الظنون أنّ له كتاباً عنوانه: «عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان». أوله الحمدلله الذي جعل العلماء ورثة الأنبياء وقال إنه أشيع سنة ٩٣٨ هـ كتاب ما هو فيه غير لائق في حق الامام أبي حنيفة رحمه الله، فصنفت هذا الكتاب ورتبته على مقدمة وستة فصول وخاتمة. وفرغ من تأليفه سنة ٩٣٩ هـ (سنة ١٥٣٢ م).

محمد بن علي الحموي

ذكره صاحب كشف الظنون وقال كتاب عنوانه: «تحفة الحبيب» في ما يبهجه من رياض الشهور والتقريب في علم الطريقة أوله الحمدلله الذي أعجم حرف الوجود بسقطة الوجود الخ ألفه سنة ٩٤٣ هـ (سنة ١٥٣٦ م).

الشيخ بدر الدين محمد الغزي

ذكره صاحب كشف الظنون أيضاً وقال هو الشيخ بدر الدين بن رضي الدين محمد الغزي العامري عالِم دمشق ونقيبها المتوفي سنة ٩٤٩ هـ (سنة ١٥٤٢م). له كتاب: «جواهر الذخائر في شرح الكبائر والصغائر» وهو قصيدة رائية ألفها سنة ٩٤٠هـ سنة ١٥٣٣ م مطلعها:

الحمـد لله ربـي الـواسـع الـبـر ء الغافر السيئات الواسع البر

وشرح هذه القصيدة الشيخ رضي الدين محمد بن يوسف بن أبي اللطف المقدسي الحنفي المتوفي سنة ١٠٢٨ هـ (سنة ١٦١٨م). وأول شرحه الحمدلله غافر الكبائر وساتر الصغائر لمن رجع عما صنع واعترف الخ. والقصيدة والشرح تأليفان بديعان أجاد فيهما مؤلفاهما. هذا ما كتبه صاحب كشف الظنون في حرف الجيم صفحة ٤٠٩ من المجلد الأول من كتابه. ثم ذكره في مواضع أخرى من المجلد المذكور، وأرّخ وفاته سنة ٩٨٤ هـ (سنة ١٥٧٦م). وأظن هذا التاريخ الأخير هو الصحيح. فقد قال في صفحة ٣٢٦ إنّ للشيخ بدر الدين محمد بن رضى الدين محمد الغزي مفتي الشام المتوفي سنة ٩٨٤ هـ شرح شواهد كتاب: «تخليص المفتاح في المعاني والبيان». ثم قال في صفحة ٤٧٨ إنّ للشيخ بدر الدين محمد بن رضى الدين محمد الغزي مفتي الشام المتوفي سنة ٩٨٤ هـ كتاباً عنوانه: «الدرّ الثمين في المناقشة بين أبي حيان والسمين». فقد جرى بين بدر الدين وقاضي دمشق بحث في المناقشة بين هذين العالمين، ورجّح البدر كلام أبي حيان وزيّف اعتراضات السمين. ثم كتب كتاباً في ذلك وأرسله إلى القاضي، فلما وقف عليه

انتصر للسمين ورجّح كلامه على كلام أبي حيان ورد اعتراضات بدر الدين. وكتب في ذلك رسالة وقف عليها علماء الشام فرجحوا كلام القاضي على كلام بدر الدين.

شمس الدين بن طولون الدمشقي

ذكره صاحب كشف الظنون أيضاً فقال هو شمس الدين محمد بن طولون الدمشقي المتوفي سنة ٩٥٣ هـ (سنة ١٠٥٤٥م). وله رسالة عنوانها: «ظرائف النخلة في لطائف النحلة» أولها الحمد لله الذي خصّ النحلة بنخلة أدوية الشفاء في الأبدان ورسالة عنوانها غاية الحرص في جواب سؤال أهل حمص. أولها الحمد لله الذي هدانا لهذا الخ. أجاب فيها عن مسألة قبر خالد بن الوليد المدفون بحمص ورسالة موسومة: «غاية الوفاء في ختم الشفاء». وله كتاب «تنقيح لحديث التسبيح» مختصر في الكلام على الحديث الأخير للبخارى.

ابراهيم الحلبي

وُلد بحلب ثم رحل إلى القسطنطينية وولي الخطابة في جامع السلطان محمد خان، وتوفي سنة ٩٥٦ هـ (سنة ١٥٤٩ م) وأشهر مؤلفاته ملتقى الأبحر في الفقه طُبع بالقسطنطينية سنة ١٢٥١م ثم ببولاق سنة ١٢٦٣م. ويعول عليه وهو مختصر مفيد جمع فيه كل ما يحتاج إليه في غيره من كتب الفقه، وأجمع الحنيفة على قبوله وفرغ من تبييضه سنة ٩٢٣ هـ (سنة ١٥١٧م)، وشرحه عبد الرحمن بن محمد سليمان المعروف بشيخ زاده، وسمى شرحه «مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر». وطُبع هذا الشرح في مجلدين بالقسطنطينية سنة ١٢٨٧م. ولحاجي اسماعيل حاشية عليه طُبعت في القسطنطينية سنة ١٣٠٤م، وذكر له صاحب كشف الظنون شروحاً كثيرة منها شرح تلميذه الحاج علي الحلبي المتوفي سنة ٩٦٧هـ (سنة ١٥٥٩ م) وشرح محمد المعروف بابن البهنسي من مشايخ دمشق، إلى كتاب البيع. وتوفي سنة ٩٨٧ هـ (سنة ١٥٧٩ م) ثم شرح تلميذ البهنسي

الشيخ نور الدين البافاني القادري ويسمى «مجرى الأنهر على ملتقى الأبحر». ثم شرح الشيخ علاء الدين بن ناصر الدين الامام بجامع بني أمية بدمشق وسمى شرحه: «سكب الأنهر على فرائض ملتقى الأبحر» واتمّ شرحه سنة ٩٩٠ هـ (سنة ١٥٨٢م). ثم شرح العلامة محمد بن علي الملقب بعلاء الدين الحصكي الدمشقي الذي توفي سنة ١٠٨٨ هـ سنة ١٦٧٧ م. وسمى شرحه: «الدر المنتقى في شرح الملتقى». ثم شرح مصطفى بن عمر بن الشيخ محمد الحلبي المتوفي سنة ١٠٩٣ هـ سنة ١٦٨٢ م. ثم السيد محمد بن محمد الحلبي المتوفي سنة ١١٠٤ هـ سنة ١٦٩٢م. ويعرف شرحه بشرح السيد الحلبي إلى غير هؤلاء.

ولابراهيم الحلبي أيضاً كتاب آخر كبير شَرْحٌ على كتاب: «منية المصلي» لسديد الدين الكاشفري. قال صاحب كشف الظنون هو كتاب معروف ومتداول بين الحنفية شرحه ابراهيم بن محمد شرحاً جامعاً كبيراً في مجلد سماه «غنية المتملي في منية المصلي». وأقبل عليه الناس وتلقاه الفضلاء بالقبول. أوله الحمدلله جاعل الصلاة عماد الدين الخ، ثم اختصره تسهيلاً للطالبين. ويعزى إليه أيضاً مختصر لكتاب طبقات الحنفية الذي أول من ابتدأ في كتابته الشيخ عبد القادر بن محمد القرشي المتوفي سنة ٧٧٥ هـ (سنة ١٣٧٣م)، وكتاباً آخر عنوانه: «مصابيح أرباب الرئاسة ومفاتيح أرباب السياسة». ونظنه الكتاب الذي عزاه إليه صاحب كتاب «اكتفاء القنوع». لكن روى أنّ عنوانه أرباب الرئاسة ومفاتيح أبواب السياسة. وربما كان هذا العنوان هو الصحيح وقد وقع غلط من مرتبي الحروف في طبع كشف الظنون كما غلطوا بتعيين سنة وفاته سنة ٩٥٩هـ وقد مرّ عنه أنها كانت سنة ٩٥٦هـ. وقال صاحب كشف الظنون أنّ لابراهيم أيضاً تلخيص كتاب التاتار خانية في الفقه انتخب منه ما هو غريب أو كثير الوقوع.

برهان الدين الحلبي

ذكره صاحب كشف الظنون وقال هو الشيخ برهان الدين ابراهيم بن يوسف ابن عبد الرحمان الحلبي المعروف بابن الحنبلي المتوفي سنة ٩٥٩ هـ (سنة ١٥٥١م) وله كتاب عنوانه ثمرات البستان وزهرات الأغصان.

شمس الدين محمد الحلبي

ذكره صاحب الكشف فقال هو شمس الدين محمد بن ابراهيم الحلبي الشهير بابن الحنبلي المتوفي سنة ٩٧١ هـ (١٥٦٣م) وهو على ما يظهر ابن برهان الدين السابق ذكره، وله ديوان يعرف «بديوان ابن الحنبلي». ومما ذكره له من التآليف كتاب عنوانه «الشراب النيلي في ولاية الجيلي» ألفه حين قال بعضهم أنّ المهدي سيظهر عن قريب أو على رأس التسعماية. وأول هذا الكتاب نحمدك يا من رفع شأن أوليائه. ثم رسالة عنوانها العرف الوردي في نصرة الشيخ الهندي في تآليفه على قوله فسحقاً لأصحاب السعير. ثم حاشية على حاشية شمس الدين محمد بن هلال النحوي الحلبي (المتوفي سنة ٩٣٣هـ سنة ١٥٢٦م) في شرح كتاب التصريف لعز الدين الزنجاني، وسمى ابن هلال حاشيته: «التطريف على شرح التصريف» وسمى ابن الحنبلي: «حاشية التصريف على تغليط التطريف». وله حاشية أخرى سماها: «مستوجبة التشريف بتوضيح شرح التصريف». ولسعد الدين مسعود التفتزاني شرح لكتاب التصريف للزنجاني ولشمس الدين أيضاً منظومة في المعمى، ووضع لها شرحاً سماه غمز العين إلى كنز العين. وله أيضاً حاشية على السراجية وهي كتاب في الفرائض لسراج الدين محمد السجاوندي. وسمى شمس الدين حاشيته: «زبالة السراج على رسالة السراج». «أولها نحمدك يا واجب الوجوب ومفيض جود الجود». وفي نسخة «الحمدلله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى» إلى أن قال هذه روضة دوح نشأت من رفع الفواشي عن بعض الحواشي على كلام الشريف وهي ممزوجة بالمتن كالخسروية. وله كتاب في الحديث سماه «الأثبت»، وله أيضاً شرح القصيدة الميميّة للمولى أبي السعود بن محمد العمادي ومطلعها:

«أبعد سليمى مطلبٌ وغرامُ»

وسمى شرحه لها المنثور العودي على المنظوم السعودي إلى غير ذلك من التآليف التي عدّها له صاحب كشف الظنون، في جملتها كتابه الموسوم «بدر الحبب في تاريخ أعيان حلب. وقد ذكر له صاحب الكشف هذا الكتاب في حرف الذّال وأرّخ وفاته سنة ٩٧٦هـ فتوهمنا أنه محمد آخر حلبي. ثم راجعنا كتابه في حرف الباء فوجدنا هذا الكتاب معزواً إليه. وقد أرّخ وفاته سنة ٩٧١هـ كما ذكرنا فتحقق أنّ تاريخها في حرف الذال غلط من مرتبي الحروف.

شمس الدين محمد الغزي

هو الشيخ شمس الدين محمد بن عبدالله بن أحمد بن الغزي وجاء في كتاب اكتفاء القنوع أنه توفي سنة ٩٩٥ هـ (سنة ١٥٨٧م). ولكن جاء في كشف الظنون أنّ وفاته كانت سنة ١٠٠٤ هـ (سنة ١٥٩٥م)، وإنّ كتابه الآتي ذكره فرغ من تأليفه سنة ٩٩٥ هـ المذكورة، وأظن هذا الصواب. ولشمس الدين المذكور كتاب «تنوير الأبصار وجامع البحار» في الفقه وهو مشهور وضعه أولاً في مجلد واحد أوله حمداً لمن أحكم أحكام الشرع جمع فيه مسائل المتون المعتمد عليها عوناً لمن ابتلى بالقضاء والفتوى، ثم شرحه في مجلدين ضخمين وسماه: «منح الغفار في تنوير الأبصار». وهذا الكتاب عني بشرحه جماعة من العلماء منهم العلامة علاء الدين الحصكفي مفتي الشام المتوفي سنة ١٠٧٧ هـ (سنة ١٦٨٨م) وسمى كتابه «الدر المختار في شرح تنوير الأبصار»، وطُبع بكلكته سنة ١٢٤٣هـ ثم وضع محمد الأمين الشهير بابن عابدين (المتوفي سنة ١٢٥٢هـ (سنة ١٨٣٦م) حاشية سماها «رد المحتار على الدر المختار» وشرح تنوير الأبصار في فقه مذهب الامام أبي حنيفة النعمان. وطُبعت هذه الحاشية في خمسة أجزاء بالقاهرة سنة ١٢٧٢هـ مع فهرست مستوفٍ. ووضع أيضاً الطحطاوي المتوفي سنة ١٢٣١هـ حاشية على الدر المختار طُبعت ببولاق سنة ١٢٥٤، ثم طُبعت ثانية سنة ١٢٨٢هـ. وممن شرحوا تنوير الأبصار أيضاً المنلا حنين بن اسكندر الرومي نزيل دمشق، والشيخ عبد الرزاق مدرس الناصرية بدمشق. وكتب عليه العلامة شيخ الاسلام بالديار الرومية الانكوري تعليقات في غاية التحرير والنفع، وكتب عليه شيخ الاسلام خير الدين الرملي حواشي مفيدة ونظمه المولى موسى بن أسعد بن يحي المحاسني الدمشقي نظماً لطيفاً على بحر الرجز. وكان موسى المذكور حياً سنة ١١٥٩هـ (سنة ١٧٤٩ م) وسمى نظمه: «خلاصة التنوير وذخيرة المحتاج والفقير». وعدد أبيات هذا النظم خمس مئة وثمانية آلاف بيت.

شمس الدين الرملي

هو شمس الدين محمد بن العباس أحمد بن حمزة الرملي المتوفي سنة ١٠٠٤هـ (سنة ١٥٩٥ م) له شرح على كتاب «منهاج الطالبين» في الفقه لأبي

زكريا يحيى المتوفي سنة ٦٧٦هـ (سنة ١٢٧٧م) وسمى شمس الدين شرحه: «نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج». وقد طُبع بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ في ثمانية أجزاء مع حاشيتين عليه، الأولى لعلي الشبراملسي والثانية لأحمد بن محمد عبد الرزاق الرشيدي، وضعها سنة ١٠٨٦هـ (سنة ١٦٧٥م). وقد ذكر صاحب كشف الظنون شروحاً كثيرة لكتاب منهاج الطالبين. من شاء الاطلاع عليها فليطالعها في كتابه في حرف الميم.

داوود الانطاكي الضرير

هو الشيخ داوود عمر الانطاكي ويُعرف بالشيخ الصوري الانطاكي المتوفي بمكة سنة ١٠٠٥هـ (سنة ١٥٩٦م) ألّف كتاباً عظيماً في الطب سماه: «تذكرة أولي الألباب في الجامع العجب العجاب». أوله سبحان مبتدع مواد الكائنات ذكر فيه أنه أنفق عمره في تحصيل الطب، وألّف فيه كتباً منها هذه التذكرة وهي مطوّلة في الطب النظري والعلمي طُبعت بالقاهرة في ثلاثة أجزاء سنة ١٢٩٤هـ، وبهامشها كتاب آخر له: «سماه النزهة المبهجة في تشميذ الأذهان وتعديل الأمزجة». وللتذكرة ذيل طويل لأحد تلاميذه سماه ذيل التذكرة. وطُبعت هذه المؤلفات الثلاثة معاً بالقاهرة سنة ١٣٠٢ هـ في جزئين، ثم أعيد طبعها سنة ١٣٠٩ في أربعة أجزاء. وله كتاب سماه «المفيد» وهو مختصر رتبه على خمسة عشر باباً لم يُطبع بعد. وذكر له صاحب كشف الظنون عدا ما مرّ كتاب بغية المحتاج أشار هو إليه في أول تذكرته، وقال إنه نظم قانون الشيخ الرئيس ابن سينا وشرحه وذكر في شرحه أنه تكفل بحل هذه الفنون واستقصاء المباحث الدقيقة بحيث لم يحتج مالكه إلى كتاب سواه وإنّ له أيضاً مختصر هذا القانون.

تقي الدين الغزي

ذكره صاحب كشف الظنون فقال هو المولى تقي الدين بن عبد القادر التميمي الغزي الحنفي المتوفي سنة ١٠٠٥هـ (سنة ١٥٩٦م). له كتاب «الطبقات السنية

في تراجم الحنفية» فيه فوائد هامة بفن التاريخ لا يسع المؤرخ جهلها . وصوّر كتابات باسم السلطان مراد خان بن السلطان سليم خان، ثم سيرة النبي، ثم مناقب الامام أبي حنيفة . ثم رتب الاسماء على الحروف وأكثر في بعض التراجم من الاشعار قاصداً أن لا يخلو كتابه من الأدب . وذكر في أوله أنه أورد باباً للأنساب والألقاب في آخر الكتاب .

عد ٩٦٥

بعض من عاصر هؤلاء من المشاهير غير السوريين

جلال الدين السيوطي

هو جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال الخضيري السيوطي الشافعي كان فقيهاً عالماً وركناً من أركان الاسلام، وُلد سنة ٨٤٩هـ (سنة ١٤٤٥م) وتوفي سنة ٩١١هـ (سنة ١٥٠٥م). أخذ عن جماعة من علماء عصره ودرس الفلسفة والرياضيات فكان أطول باعاً من فضلاء زمانه .وله مؤلفات كثيرة في علوم وفنون وافرة منها كتاب: «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» طُبع سنة ١٨٣٥م . باوبسلا ثم طُبع بالقاهرة سنة ١٢٩٩هـ وهو في كتب مكتبتي وقد استشهدت بأقواله مرات ، وأراه أحسن مؤلف للوقوف على تاريخ مصر من حيث السياسة والحضارة . وله أيضاً كتاب «لبّ الألباب في تحرير الأنساب». طُبع بليدن سنة ١٨٤٠ إلى سة ١٨٤٢م . وطُبعت له زيادات وملحق بعد التصحيح والمعارضة بنسخ أخرى بليدن أيضاً سنة ١٨٥١م ، مضافاً إليها مقتبسات من كتاب الانساب للسمعاني ومن كتاب «اللباب» لابن الأثير الجزري .

وله كتاب «تاريخ الخلفاء» وهو موجز مفيد طُبع في كلكته سنة ١٨٥٧ م . ثم بمصر سنة ١٣٠٥ هـ . ولديّ نسخة منه ويعول عليه في تاريخ الخلفاء الأخيرين من العباسيين وهم الذين تولّوا الخلافة الدينية بمصر دون الملك بعد سقوط بغداد . وقد طُبع على هامش طبعته المصرية كتاب «آثار الأول في ترتيب الدول» للحسن بن عبدالله العباسي. وله أيضاً كتاب «مفحمات الأقران في مبهمات القرآن »، وهو

موجز مفيد طُبع بليدن سنة ١٨٣٩ م. ثم ببولاق سنة ١٢٨٤ هـ. وله أيضاً كتاب «لباب النقول في أسباب النزول» في الكتاب المعروف بتفسير الجلالين للقرآن، وهما جلال الدين الحلبي وجلال الدين السيوطي. هذا فالحلبي فسر إلى آخر سورة الأسراء والباقي فسره السيوطي، وقد طُبع هذا الكتاب بكلكته سنة ١٢٥٦ هـ. ثم ببمباي سنة ١٢٨٢ هـ. ثم ببولاق سنة ١٢٩٣هـ وبالقاهرة سنة ١٣٠٨هـ. وعلى هامش هذه الطبعة كتاب «معرفة الناسخ» لمحمد بن حزم المتوفي سنة ٤٥٦ هـ (سنة ١٠٣٦م) وله كتاب أيضاً عنوانه «الاتقان في علوم القرآن» طُبع بكلكته سنة ١٨٤٩م، ثم بها سنة ١٨٥٦م ثم طُبع بالقاهرة سنة ١٣٠٦هـ. وله أيضاً كتاب عنوانه «الحليل في استنباط التنزيل» طُبع على الحجر بدهلي سنة ١٢٩٦ هـ على هامش كتاب البيان في تفسير القرآن شرح لمعين الدين بن صفي الدين المتوفي سنة ٩٠٥ هـ (سنة ١٤٩٩م).

وله كتاب أيضاً سماه «زهر الربى» شرح به سنن أحمد النسائي المتوفي بمكة سنة ٣٠٣ هـ (سنة ٩١٥ م) وطبع هذا الكتاب مع شرح السيوطي له بكنفور سنة ١٨٤٧م، ثم طبع بها ثانية سنة ١٨٨٢م. وله أيضاً مصباح الزحاجة في شرح سنن أبي ماجة، وهو كتاب في الحديث لأبي عبدالله محمد بن ماجة القزويني المتوفي سنة ٢٨٣ هـ (سنة ٨٩٦م). وقد طُبع هذا الكتاب مع شرح السيوطي له، وشرح آخر له بدهلي سنة ١٢٨٢هـ. وللسيوطي أيضاً كتاب سماه «تدريب الراوي في شرح تقريب النووي»، والنووي هذا هو محيي الدين يحيى النووي من نوى ببلاد الشام، وقد توفي سنة ٦٧٦ هـ (سنة ١٢٧٧م). وله كتاب يعرف «بالتقريب والتيسير في مصطلح الحديث». وقد طُبع شرح السيوطي بالقاهرة سنة ١٣٠٧م. وللسيوطي أيضاً كتاب «الجامع الصغير في الحديث» اختصره في كتابه المطوّل المرسوم «بجميع الجوامع»، وطُبع الجامع الصعير ببولاق سنة ١٢٨٦ هـ. وله كتاب سماه «ديوان الحيوان» في المواد الطبية اختصره من كتاب «حياة الحيوان» للدميري. وذكر فيه منافع الحيوان، ألّفه وهو يدرس بمدارس القاهرة. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية وطُبعت ترجمته بباريس بعناية ابراهيم الحاقلي. وله مقالات أدبية وطبية طُبعت مع مختصر ترجمته بالقسطنطينية بمطبعة «الجوائب» سنة ١٢٩٨ هـ. وله أيضاً كتاب سماه: «المزهر في علوم اللغة» جمع فيه فقه اللغة وآدابها وسائر علومها طُبع ببولاق سنة ١٢٨٢ هـ. وله أيضاً كتاب عقود الجمان في المعاني والبيان وهو

ارجوزة ذيّلها بشرحه لها، وقد طُبع هذا الكتاب ببولاق سنة ١٢٩٣هـ ثم بالقاهرة سنة ١٣٠٣ . وله أيضاً كتاب الوسائل إلى معرفة الأوائل أخذ عنه علي ذاده المعروف بشيخ التربة المتوفي سنة ١٠٠٧هـ (سنة ١٥٩٨ م) كتابه «محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر». وله رسالة عنوّنها «الشماريخ في علم التاريخ» طُبعت بليدن سنة ١٨٩٤م . وله كتاب طبقات المفسرين طُبع بليدن سنة ١٨٣٩م مع شروح لاتينية وسيرة المؤلف.

ومما ذكره له صاحب كشف الظنون عدا ما مرّ «الاعتماد والتوكّل على ذي التكفّل» وهو عنوان رسالة من رسائله الحديثية على ما ذكره في فهرست مؤلفاته . ثم «أعذب المناهل في حديث من قال أنا عالم، فهو جاهل» وهي رسالة أوردها في كتابه «الحاوي». ثم «أعلام الأديب بحدوث بدعة المحاريب» وهي رسالة ألّفها لبيان أنّ محراب المساجد بدعة. ثم «الاعلام بحكم عيسى عليه السلام». رسالة كتبها جواباً لسائل سأله عن ذلك. ثم أفاده الخبر بنصّه في زيادة العمر ونقصه وهي من رسائله أيضاً . ثم «الاغضاء من دعاء الاعضاء» من رسائله الحديثية ذكرها في فهرست تأليفه. ثم «انافة في الخلافة» رسالة أخرى له . ثم «أبناء الازكياء لحياة الأنبياء» من رسائله أيضاً . ثم «انتصار بالواحد القهار» مقامة له ضمّنها رواية لرجل من أهل عصره ثم «انصاف في تمييز الأوقات» مقالة له. ثم «أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب» مختصر لخّصه من كتابه الكبير في الخصائص. ثم «نواهد الأبكار وشواهد الأفكار» وهي حاشية على أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ضمّنها في مجلد واحد. ثم «الآية الكبرى في شرح قصة الأسرى» مقالة له، ثم «الباحة في السباحة» رسالة له. ثم «بارق قطع يد السارق» رسالة كتبها لما سرق بعض المعاصرين كتاباً ونسبه إلى نفسه ولم يكن لديه غيره فأراد بيان ذلك. ثم «البدر الذي انجلى في مسألة الولاء» رسالة له. ثم «البدورالسافرة في أمور الآخرة» كتاب له أوله الحمدلله الذي خلق السماوات والأرض ذكر فيه أنه أنجز ما وعد به في خطبة كتاب البرزخ. ثم نظم البديع وهي بديعة له مع شرحها. ثم «بذل العسجد لسؤال المسجد» رسالة له. ثم ما «رواه الماعون في أخبار الطاعون» وهو مختصر أوجز فيه كتاب بذل الماعون في فضل الطاعون لأحمد بن حجر العسقلاني. ثم «بزوغ الهلال من الخصال الموجب للظلال» رسالة جمع فيها الأحاديث الواقعة في الخصال الموجبة لظل العرش ثم «لبط الكف في اتمام الصف»

رسالة له . ثم «بلبل الروضة» مقامة أنشأها في وصف روضة مصر . ثم «بلغة المحتاج في مناسك الحاج» مقالة له . ثم «تأخير الظلامة إلى يوم القيامة» وهي رسالة ألّفها شكاية ممن آذاه . ثم «تبييض الصحيفة بمناقب الامام أبي حنيفة» كتاب له إلى غير ذلك مما ذكره صاحب كشف الظنون وقد مللت من استقرائه وحاذرت ملل القارئين .

أحمد القسطلاني

هو شهاب الدين أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني المصري الشافعي المتوفي سنة ٩٢٣هـ (سنة ١٥١٧م) ومن مؤلفاته «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية في السيرة النبوية» وهو كتاب جليل ليس له نظير في بابه ، رتّبه على عشرة مقاصد وشرحه محمد الزرقاني المتوفي سنة ١١٢٢ هـ (سنة ١٧١٠م)، وطُبع هذا الكتاب مع شرحه المذكور ببولاق سنة ١٢٧٨ ثم أعيد طبعه سنة ١٢٩١. وجُمعت فيه فوائد كثيرة في تاريخ صدر الاسلام . وعلى هذا الكتاب عدة حواشٍ إحداها لنور الدين علي القاري المكي المتوفي سنة ١٠١٤ هـ (سنة ١٦٠٥م) وحاشية أخرى للشيخ ابراهيم الميموني المصري المتوفي سنة ١٠٧٩ (سنة ١٦٦٨م) ثم حاشية في خمسة مجلدات للشيخ أبي الضيا علي الشبراملسي المتوفي سنة ١٠٨٧هـ (سنة ١٦٧٦م). وللقسطلاني أيضاً شرح على «الجامع الصحيح» للبخارى وهو شرح كبير مختلط بالمتن في نحو عشرة أسفار كبار أوله الحمدلله الذي شرح بمعارف عوارف السنّة النبوية. وقد طُبع الجامع الصحيح وعلى هامشه شرح القسطلاني في أربعة أجزاء بالقاهرة سنة ١٣٠٩. وقد طُبع للقسطلاني كتاب «ارشاد الساري إلى صحيح البخاري» ببولاق سنة ١٢٦٧هـ ثم بالقاهرة سنة ١٣٠٤هـ ولا نعلم أهو شرحه المذكور آنفاً أم هو شرح آخر.

أبو يحيى زكريا الانصاري

هو القاضي زكريا بن محمد الانصاري المصري المتوفي سنة ٩٢٦هـ (سنة ١٥١٩م). ومن تأليفه كتاب سماه «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن

الكريم»، أوله الحمدلله الذي نوّر قلوب العارفين بكتابه العظيم وهو مختصر في ذكر الآيات المتشابهة مختلفة وغير مختلفة. وفيه أنموذج من أسئلة القرآن وأجوبتها أخذه عن كتاب الرازي وألحق به أشياء. طبع ببولاق سنة ١٢٩٩هـ على هامش «السراج المنير» لمحمد الشربيني المتوفي سنة ٩٧٧هـ (سنة ١٥٦٩م) وله أيضاً كتاب «متن المنهج» وهو مختصر من منهاج الطالبين للنووي المتوفي سنة ٦٧٦هـ (سنة ١٢٧٧م) في الفقه على مذهب الشافعية وهم يعولون عليه، وقد طُبع هذا الكتاب ببولاق سنة ١٢٨٥هـ ثم طُبع بالقاهرة سنة ١٣٠٥ في خمسة أجزاء مضافاً إليه شرح وحاشية، أما الشرح فهو لزكريا المؤلف نفسه وأما الحاشية فهي لسليمان الجمل فرغ من تأليفها سنة ١١٨٤هـ (سنة ١٧٧٨م) وسماها «فتوحات الوهاب على شراح زكريا الانصاري على متن منهج الطلاب». وقد طُبع منهاج الطالبين للنووي ومتن المنهج لزكريا معاً بالقاهرة سنة ١٣٠٨هـ.

وله أيضاً شرح على ليساغوجي (منطق) الابهري المتوفي في نحو سنة ٧٠٠هـ. وقد طُبع هذا الشرح مع شرحين آخرين: الأول للابهري نفسه والثاني ليوسف الحفناوي ببولاق سنة ١٢٨٣ هـ. وله أيضاً كتاب سماه «المقصد لتخليص ما في المرشد»، والمرشد كتاب للحسن العماني في الوقف والابتداء. وقد طُبع المقصد ببولاق سنة ١٢٨٢ هـ. وبالقاهرة سنة ١٣٠٥هـ وكان قد طُبع بالقاهرة سنة ١٢٩٠هـ على هامش كتاب «تنوير المقياس في تفسير ابن عباس» للفيروزبادي صاحب القاموس، وله شرح على الجامع الصحيح للبخاري طُبع بالقاهرة سنة ١٣٠٩هـ على هامش الجامع المذكور. وله كتاب سماه «فتح المبدع في شرح المقنع»، والمقنع منظومة في الحساب لابن الهائم الذي ذكرناه قبلاً. وله كتاب آخر سماه: «ملخّص تلخيص المفتاح» للقزويني المعروف بخطيب دمشق. وقد توفي سنة ٧٣٩ هـ (سنة ١٣٣٨ م) وقد طُبع كتابه مرات منها ببيروت سنة ١٣٠٢هـ وطُبع ملخّص زكريا المذكور ببولاق سنة ١٣٠٥هـ.

ومما ذكره له صاحب كشف الظنون حاشية على كتاب «أنوار التنزيل» للبيضاوي سماها «الفتح الجليل ببيان خفي أنوار التنزيل» وشرح على جامع الصحيح للامام القشيري النيسابوري المتوفي سنة ٢٦١هـ (سنة ٨٧٤م) ثم حاشية على شرح جلال الدين المحلى لكتاب «جمع الجوامع في اصول الفقه» لتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي المتوفي سنة ٧٧١هـ (سنة ١٣٦٩م). ثم شرح له كتاب

«الصغير في الفروع» للشيخ نجم الدين عبد الغفار القزويني المتوفي سنة ٦٦٥هـ (سنة ١٢٦٦م). ثم شرح آخر على «البهجة الوردية» وهي منظومة في الحاوي المذكور لزين الدين عمر بن الوردي شرحها زكريا المذكور وسمى شرحه «الغرر البهية للبهجة الوردية». ثم شرح على الرسالة القشيرية في التصوّف للامام أبي قاسم المتوفي سنة ٤٦٥هـ (سنة ١٠٧٣م) ثم شرح لكتاب «الشافية في التصريف» لعثمان بن الحاجب المتوفي سنة ٦٤٦هـ (سنة ١٢٤٨م) وسمى زكريا شرحه «مناهج الكافية في شرح الشافية». ثم مقالة في شرح «البسملة والحمدلة»، ثم شرح لكتاب «طوالع الأنوار في علم الكلام» للقاضي عبدالله البيضاوي المتوفي سنة ٦٨٥هـ (سنة ١٢٨٤م) ثم شرح لفصول ابن الهائم المار ذكره سماه «غاية الوصول إلى شرح الفصول» ثم مختصر لكتاب «قرة العين في الفتح والامالة بين اللفظين» لعلي بن عثمان المقري المتوفّي سنة ٧٠١هـ (سنة ١٣٠١م) ثم شرح القصيدة الخزرجية في العروض للعلامة ضياء الدين عبد الله الخزرجي. ثم شرح الفية ابن الهائم المذكور الموسومة بكفاية. وسمى شرحه «الهدايا في الكفاية» ثم «مختصر تنقيح اللباب» واللباب لأحمد الحاملي المتوفي سنة ٤١٥هـ (سنة ١٠٢٤م) وتنقيحه لأحمد العراقي المتوفي سنة ٨٢٦هـ (سنة ١٤٢٢م) فاختصر زكريا هذا التنقيح وسماه «تحرير تنقيح اللباب». انتهى .

محمد بن اياس المصري

هو محمد بن أحمد بن أياس الحنفي المصري توفي سنة ٩٣٠ هـ (سنة ١٥٢٣ م) وله تاريخ مشهور سماه بدائع الزهور في وقائع الدهور ينتهي سنة ٩٢٨ وهو حاوٍ تاريخ مصر في مدة دولة المماليك البحرية والجراكسة وتاريخ بعض السنين في أيام السلاطين آل عثمان العظام، أوله الحمدلله الذي فاوت بين العباد وذكر في أوائله ما جاء في القرآن، والحديث من فضائل مصر وما اشتملت عليه من العجائب ومن نزلها ومن دخلها من الأنبياء وجعل تاريخه على ترتيب الشهور والأعوام. على أنّ ذكره الأحداث على هذا الترتيب كان مرتبكاً متعباً يلجئ القارئ في استقراء خبر الحادثة الواحدة إلى مطالعة صفحة من كتابه كما خبرت

ذلك بنفسي، إذ لديّ نسخة من هذا التاريخ مطبوعة ببولاق سنة ١٣١٢هـ وقد استشهدت بأقواله مرات كما رأيت. وهذه الطبعة أصحّ من طبعته الأخرى التي طُبعت بالقاهرة سنة ١٣٠٩هـ. وتاريخ ابن اياس أتمه عبدالرحمن الجبرتي الحنفي المتوفي سنة ١٢٣٧هـ (سنة ١٨٢٢ م) إلى أيامه وسوف يأتي ذكره.

محمد الخضري

هو الشيخ جمال الدين محمد بن عمر بن مبارك الخضري وجلّ ما عرفناه من تآليفه شرح «لامية العجم» لمؤيد الدين اسماعيل الطغرائي المتوفي سنة ٥١٤هـ (سنة ١١٢٠م) وقد ذكر ترجمته. وأول شرح الخضري الحمدلله الكريم المنّان. وذكر فيه أنه جرّد أكثره من شرح صلاح الدين الصفدي المتوفي سنة ٧٦٤هـ (سنة ١٣٦٢م) وقال أنّ الصفدي شرح هذه القصيدة فأوعى فيها وأوعب وأطنب وأسهب وأعجب وأغرب وأطلق أعنّة الأقلام وجرّ ذيول فضول الكلام وأسهل وأوعز وأنجز واستطرد من فنون إلى فنون واسترسل من شجون الجدّ إلى المجون حتى صار ذلك التطويل سبباً للعجز عن التحصيل، هذا مع ما خرج فيه عن الحدّ وطغا الماء في المدّ من مستهجنات هزله التي لا تليق بقلمه وفضله بما لا يحلّ ذكره وايداعه بل تخل بالعدالة روايتة وسماعه. انتهى منقولاً عن كشف الظنون.

عبد الرحيم العبادي

هو عبد الرحيم بن أحمد العبادي العباسي الشافعي المتوفي سنة ٩٦٣هـ (سنة ١٥٥٥م) وله كتاب سماه «معاهد التنصيص على شواهد التخليص»، وهو كتاب «تلخيص المفتاح في المعاني والبيان» للشيخ جلال الدين القزويني المار ذكره آنفاً. وأول كتاب العبادي الحمدلله الذي اطلع في سماء البيان آهلة المعاني ذكر فيه معاني الأبيات وتراجم قائليها ووضع كل فن مع ما يناسبه من نظائره الأدبية ومزج فيه الجد والهزل وأهداه إلى أبي البقا محمد بن الجيعان ثم لخصه واقتصر على شرح الشواهد وقد طبع كتابه معاهد التنصيص ببولاق سنة ١٢٧٤هـ.

حسين بن محمد الديار بكري

هو حسين محمد بن الحسن الديار بكري المالكي نزيل مكة والمتوفي بها سنة ٩٦٦هـ (سنة ١٥٥٨م) له تاريخ سماه «تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس» وهو تاريخ للاسلام جمعه من مؤلفات كثيرة أسهب بايراد أخبار ما كان في صدر الاسلام وأوجز في أخبار الخلفاء والملوك وبذل جهده في تحقيق الأخبار وتمييز صحيحها من فاسدها. وقد طُبع بالقاهرة سنة ١٢٨٣هـ في جزئين ثم أعيد طبعه بها سنة ١٣٠٢هـ وعلى هامشه شروح لغوية كثيرة الفائدة علقها مصحح الطبع.

ابن نجيم المصري

هو زين العابدين ابراهيم بن محمد نجيم المصري الحنفي المتوفي سنة ٩٧٠هـ (سنة ١٥٦٢م). أشهر مؤلفاته «الاشباه والنظائر في الفقه» أوله الحمدلله على ما أنعم، ذكر فيه كتاب التاج السبكي للشافعية وإنه لم يرَ للحنفية مثله وإنه لما وصل في شرح الكنز إلى البيع الفاسد، ألّف مختصراً في الضوابط والاستثناءات منها وسماه «بالفوائد الزينية» انتهى إلى خمس مئة ضابط فأراد أن يضع كتاباً على النمط السابق مشتملاً على سبعة فنون: ١- معرفة القواعد وهو أصل الفقه. ٢- فن الضوابط قال وهو أنفع الاقسام للمدرّس والمفتي والقاضي. ٣- فن الجمع والفرق ولم يتم هذا الفن فأتمه أخوه الشيخ عمر. ٤- فن الالغاز. ٥- فن الحيَل. ٦- الأشباه والنظائر وهو فن الحكام. ٧- ما حُكيَ عن الامام الأعظم أبي حنيفة وصاحبه والمشايخ وقد طُبع الأشباه والنظائر بكلكته سنة ١٢٤١هـ وبمصر سنة ١٢٩٨هـ.

وعلى كتاب ابن نجيم المذكور تعليقات أحسنها وأوجزها تعليقة الشيخ علي ابن غانم الخزرجي المقدسي سنة ١٠٣٦هـ (سنة ١٦٢٦م) ومنها تعليقة محمد ابن محمد المشهور بجوى زاده المتوفي سنة ٩٩٥هـ (سنة ١٥٨٦م)، وتعليقة مصطفى بن محمد المشهور بعزي زاده المتوفي سنة ١٠٣٧هـ (سنة ١٦٢٧م) إلى غيرها. ولمحمد بن محمد التمرتاشي حاشية عليه سماها «بزواهر الجواهر في شرح الأشباه والنظائر» إلى غير ذلك من الشروح والترتيب لهذا الكتاب. ولابن نجيم

أيضاً كتاب يُعرف بالرسائل الزينية منها رسالة في الافعال التي تفعل بالصلاة على مذاهب الأربعة ، وقد شرح أحمد محمود الحموي المتوفي سنة ١٠٩٨هـ (سنة ١٦٨٦م) هذه الرسائل وكتاب «الاشباه والنظائر» في كتاب سماه «غمز عيون البصائر على محاسن الاشباه والنظائر» طُبع بالقسطنطينية سنة ١٢٩٠هـ في جزئين .

عبد الوهاب الشعراني

هو الشيخ أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الشافعي المتوفي سنة ٩٧٣هـ (سنة ١٥٦٥م) من تآليفه كتاب «لواقح الأنوار في طبقات السادة الأخيار». أوله الحمد لله الذي خلع على أوليائه خلع انعامه . ذكر فيه من الصحابة أربعة وعشرين، ومن التابعين خمسة وعشرين، ومن النساء سبع عشرة، ومن المشايخ مائتين، ومشايخ عصره ستة وثمانين فجملة من ذكرهم ٤٢٢ نفساً، ثم ذيّله بكتاب مختصر ذكر فيه جماعة من مشايخ مصر في عصره ، وقال في آخره والباقون ذكرناهم في كتاب «المفاخر والمآثر في علماء القرن العاشر». وقد طُبع كتابه لواقح الأنوار بالقاهرة سنة ١٢٩٢ ثم أعيد طبعه بها سنة ١٣٠٥هـ .

. وله أيضاً كتاب عنوانه «الميزان الكبرى في المذاهب الأربعة» طُبع بالقاهرة سنة ١٢٧٩هـ سنة ١٣٠٢هـ، ثم سنة ١٣٠٦هـ. وعلى هامشه كتاب: «رحمة الأمّة في اختلاف الأئمة» للدمشقي العثماني الذي فرغ من وضعه سنة ٧٨٠هـ (سنة ١٣٧٨م) وعرف صاحب كشف الظنون مؤلف كتاب رحمة الأمة بأنه صدر الدين ابي عبدالله محمد بن عبد الرحمن الدمشقي العثماني . وللشعراني أيضاً كتاب «اليواقيت والجواهر في تبيان عقائد الكبائر» ألفه في العقائد وحاول فيه المطابقة بين عقائد أهل الكشف وعقائد أهل الفكر ولم يسبقه إليه أحد. ثم اختصره واختصر المختصر فحصل منه ثلاثة كتب ، وقد طُبع اليواقيت في القاهرة سنة ١٢٧٧هـ ثم أعيد طبعه سنة ١٣٠٥هـ وعلى الهامش كتاب «الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر» للشعراني أيضاً. والشيخ الأكبر هو محيي الدين بن العربي المالكي الصوفي المتوفي سنة ٦٣٨هـ (سنة ١٢٤٠م) بدمشق ، وله أيضاً كتاب

«منح المنّة في التلبس بالسنّة» وهو في العقائد وطُبع بالقاهرة سنة ١٢٧٦ هـ وله أيضاً كتاب تنبيه المغتربين في الآداب الدينية طُبع بالقاهرة سنة ١٢٨٧. وله أيضاً «مختصر التذكرة في أحوال الآخرة» اختصره من تذكرة القرطبي وطُبع بالقاهرة سنة ١٣٠٤ انتهى.

أحمد الهيتمي

هو أحمد بن حجر الهيتمي وُلد بمحلة أبي هيتم من نواحي مصر سنة ٩٠٩هـ (سنة ١٥٠٣م) وتوفي بمكة المكرمة سنة ٩٧٤هـ (سنة ١٥٦٥م) وله عدة تآليف منها كتاب سماه «الخيرات الحسان في مناقب الامام الأعظم أبي حنيفة النعمان» ردّ به مطاعن الغزالي بأبي حنيفة النعمان، وطُبع هذا الكتاب بمصر سنة ١٣٠٤هـ. ومنها «الفتح المبين في شرح الأربعين» أي الأربعين حديثاً، ذلك أنه جاء في حديث: «من حفظ على امتي أربعين حديثاً في أمر دينها بعثه الله تعالى يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء». فصنّف كثيرون من العلماء المسلمين كتباً بهذا الباب فمنهم من اعتمد على ذكر أحاديث التوحيد ومنهم من اعتمد على ذكر أحاديث الأحكام ومنهم من أختار المواعظ إلى غير ذلك، وسموا كتبهم أربعين منسوبة إلى مؤلفيها: كأربعين الأصفهاني وأربعين النيسابوري وأربعين ابن الجزري الخ. ومن أحسنها أربعين النووي وهو الامام محيي الدين يحيى النووي منسوباً إلى نوى ببلاد الشام وكان محدث الشام، وتوفي سنة ٦٧٦هـ (سنة ١٢٦٨م) فالهيتمي شرح أربعين النووي وطبع شرحه بالقاهرة سنة ١٣٠٧ وعلى هامشه حاشية لحسن علي المدابغي.

وللهيتمي أيضاً «شرح مختصر الفقه» لعبدالله الحضري وطبع المتن والشروح ببولاق سنة ١٣٠٩هـ ولمحمد بن سليمان الكردي المتوفي سنة ١١٩٤هـ (سنة ١٧٨٠م) حاشية على شرح الهيتمي سماها «الحواشي المدنية» طُبعت بالقاهرة سنة ١٣٠٧هـ. وله أيضاً شرح كتاب الارشاد الذي هو لشرف الدين اسماعيل بن أبي بكر المقري المتوفي سنة ٨٣٧هـ (سنة ١٤٣٣م) وسمى الهيتمي شرحه «فتح الجواد في شرح الارشاد» وطُبع بالقاهرة سنة ١٣٠٥. وله أيضاً كتاب «الزواجر عن

اقتراف الكبائر» طُبع ببولاق سنة ١٢٨٤هـ، وبالقاهرة سنة ١٣١٠هـ. وعلى هامشه رسالتان له أيضاً. وله أيضاً مواعظ منتخبة سماها «النخب الجليلة» طُبعت بالقاهرة سنة ١٣١٠هـ. وله أيضاً «الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة». طُبع بمصر سنة ١٣٠٧هـ. وله شرح على قصيدة البوصيري الهمزية سماه «المنح الملكية في شرح الهمزية» طُبع ببولاق سنة ١٢٩٢هـ.

محمد البيركلي

هو محمد بن بير على المشهور باسم بيركلي المتوفي سنة ٩٨١هـ (سنة ١٥٧٣م). له كتاب «الدرّ اليتيم في التجويد» طُبع بالقسطنطينية سنة ١٢٥٣هـ وشرحه الشيخ أحمد الرومي. واشهر كتبه اظهار الأسرار في النحو رتّبه على ثلاثة أبواب: الأول في العامل، الثاني في المعمول، الثالث في الاعراب. وشرح هذا الكتاب حسين بن أحمد الشهير بزيني زاده الذي نبغ نحو سنة ١١٦٨هـ (سنة ١٧٥٤م). وسمى شرحه على «أسرار الأخيار على اعراب اظهار الأسرار»، ويُعرف بمعرب الاظهار طُبع بالقسطنطينية سنة ١٢٢٢هـ وببولاق سنة ١٢٦٩هـ ولمصطفى ابن حمزة من علماء القرن الحادي عشر للهجرة شرح لهذا الكتاب سماه «نتائج الأفكار في شرح الاظهار» طُبع ببولاق سنة ١٢٦٦هـ وبالقسطنطينية سنة ١٣٠٠هـ وله كتاب سماه «ماية عامل في النحو»، طُبع مع مجموعة في كلكته سنة ١٨٠٥م. وذكر له صاحب الكشف كتاب ايقاظ النائمين. كتب أولاً رسالة في «عدم جواز أخذ الأجرة للقراءة» و «عدم جواز وقف النقود». وأفتى المولى أبو السعود بالجواز فصنّف جواباً دحض به ردّه ثم ذكر له كتاب فرائض يسمى «فرائض بركلي».

أبو السعود العمادي

هو شيخ الاسلام المولى أبو السعود بن محمد العمادي المتوفي سنة ٩٨٢هـ (سنة ١٥٧٤م): ومن أشهر مؤلفاته «ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»

في تفسير القرآن طُبع ببولاق جزئين سنة ١٢٨٥هـ وعظّم صاحب كشف الظنون قدر المؤلف وقدر مؤلفه ، وذكر من التعليقات عليه تعليقة الشيخ أحمد الرومي المتوفي سنة ١٠٤١ هـ (سنة ١٦٣١ م) وتعليقة الشيخ رضى الدين بن يوسف المقدسي إلى نحو نصف الكتاب وتفسير العمادي هو أشهر تفسير بعد تفسير البيضاوي والكشاف الزمخشري. اعتمدت في التراجم التي ذكرتها في هذا الفصل على كتاب كشف الظنون لملا كاتب وكتاب «اكتفاء القنوع بما هو المطبوع» لادوار فان ديك الأميركاني.

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن السادس عشر

الفصل الأول

بطاركة انطاكية وأورشليم في القرن السادس عشر

عد ٩٦٦
بطاركة انطاكية في هذا القرن

فرغنا من الكلام في هؤلاء البطاركة في القرن الخامس عشر بذكر دوروتاوس الثالث ، وذكر لكويان بعده يواكيم الرابع ثم ميخائيل السادس ثم مكاريوس الثاني ثم يواكيم الخامس ثم ميخائيل السابع ثم يواكيم السادس. وقال جاء في جدول السمعاني إنّ دوروتاوس الذي كان قد ذكره خلفه يواكيم (الرابع الذي ذكره لكويان) ثم ميخائيل (السادس) ثم يواكيم (الخامس) ثم يواكيم (السادس) ثم

ميخائيل (السابع) ثم يواكيم الآخر (السابع) فكان الفرق بين رواية لكويان ورواية السمعاني، أن السمعاني لم يذكر مكاريوس الذي ذكره لكويان، وهذا لم يذكر يواكيم السابع الذي ذكره السمعاني. ثم قال لكويان والذي جاء في الجدول الفاتيكاني أنّ دوروتاوس الثاني خلفه ميخائيل وهذا خلفه يواكيم مطران بيروت وكان مترئساً على كرسي انطاكية سنة ١٥٦٤م على ما يظهر من رسالة يواصاف القسطنطيني إلى توادوسيوس مدبر كنيسة القسطنطينية. وجاء في هذا الجدول أيضاً أنه لما كان يواكيم الرابع أو الخامس لا يزال حياً دبر كنيسة انطاكية أسقف اسمه مكاريوس لا أعلم من هو، وإنّ يواكيم استمر حياً إلى سنة ١٥٧٦م. قلت قد رأيت في أحد الكتب الذي لا أثق بصحته أنّ يواكيم الرابع لم يستطع الاقامة في انطاكية لشدّة التضييق عليه، فزايلها وسار إلى القسطنطينية وتوفي بها سنة ١٥٢٩م فإن صحّ هذا فلا يكون يواكيم المذكور يواكيم الخامس الذي روى لكويان أنه استمر حياً إلى سنة ١٥٧٦م بل يواكيم الرابع. وجاء في الكتاب المذكور أنّ يواكيم الخامس أصدر منشوراً ١٥٦٠م نهى به عن كل كلمة افتراء على الحبر الروماني وبيّن تقدّمه ورياسته على سائر البطاركة مستشهداً بأقوال المجامع والقوانين البيعية، وأنه توفي سنة ١٥٧٩م.

روى لكويان أنّ يواكيم الخامس خليفة ميخائيل ووصفه بالسادس أو السابع، وقال إنّ الدمشقيين انتخبوا وهو في قيد الحياة يواكيم أسقف طرابلس بطريركاً على انطاكية وهذا مطابق لما جاء في جدول السمعاني من أنّ دوروتاوس الذي كان معاصراً لأرميا بطريرك القسطنطينية خلفه يواكيم ثم ميخائيل ثم يواكيم الآخر، ولم يغفل السمعاني إلّا ذكر مكاريوس الذي ارتقى إلى البطريركية في حياة يواكيم الرابع كما مرّ (وربما أغفل السمعاني ذكره لأنه لم يكن شرعياً). ومما يؤكد أنّ ميخائيل السادس أو السابع خلف يواكيم الخامس سنة ١٥٦٧م (وهذا يخالف ما ذكرناه نقلاً عن الكتاب المذكور أنّ يواكيم الخامس توفي سنة ١٥٧٩م) رسالة كتبها ميخائيل المذكور تلك السنة وهي مثبتة في كتاب تركي يوناني صفحة ٢٩٥ من المجلد الثاني منه، ترى فيه توقيعه (ميخائيل برحمة الله بطريرك مدينة الله انطاكية وسائر المشرق).

وفي سنة ١٥٨٢م طرد والي دمشق البطريرك ميخائيل المذكور من كرسيه وعمره ثمانون سنة، فسار إلى القسطنطينية يشكو متظلماً، ويظهر أنه بقي في

القسطنطينية معروفاً بطريركاً انطاكياً إلى سنة ١٥٨٥م. كل هذا مأخوذ عن الكتاب التركي اليوناني المار ذكره وهو مشعر بأنّ تشكّي الدمشقيين على بطريركهم ميخائيل وايثارهم عليه يواكيم أسقف طرابلس كان نحو سنة ١٥٨٢م .

وجاء في الجدول الفاتيكاني أنّ يواكيم السادس الذي غصب كرسي ميخائيل السادس أو السابع توفي فخلفه يواكيم السابع وكان أسقفاً على حمص. وفي جدول السمعاني أنّ يواكيم هذا يُعرف بابن زيادة وهو بلا مراء البطريرك الانطاكي الذي شهد مجمعاً في القسطنطينية سنة ١٥٩٣م عقده البطريرك ارميا الثاني القسطنطيني، أيّد به حقوقه البطريركية على رئيس أساقفة موسكو. هذا وقد أثبت اسطفانوس اللوسينياني في جدول المشاهير أنّ يواكيم بطريرك انطاكية كان مترئساً على هذا الكرسي سنة ١٥٩٣م. وبعد وفاة البطريرك يواكيم هذا خلفه دوروتاوس الرابع وهذا اتفق فيه الجدولان الفاتيكاني والسمعاني، وجاء فيهما أنه استمر في البطريركية إلى سنة ١٦١٠م. انتهى.

عد ٩٦٧

بطاركة أورشليم في القرن السادس عشر

فرغنا من كلامنا على بطاركة أورشليم في القرن الخامس عشر بذكر غريغوريوس الثالث وقال دوزيتاوس في كتابه في بطاركة أورشليم أنّ دوروتاوس الثاني خلف غريغوريوس المذكور واستمر على البطريركية ثلاثاً وأربعين سنة، ثم قال أنّ جرمانوس خلف دوروتاوس. وقد جاء ذكر جرمانوس هذا في رسالة كتبها يواصاف الثاني بطريرك القسطنطينية سنة ١٥٦٥م إلى توادوسيوس مدبر كنيسة هذه المدينة. ويظهر من تاريخ جنبرادوس أنّ جرمانوس بقي حياً في البطريركية إلى سنة ١٥٧٢م، بل قال اسطفانوس اللوسينياني في جدول المشاهير الذي وضعه أنّ جرمانوس هذا كان بطريركاً للروم في أورشليم سنة ١٥٧٩م. وقال دوزيتاوس في ك ١٢ من تاريخ بطاركة أورشليم أنّ جرمانوس استقال تلك السنة أي سنة ١٥٧٩م من البطريركية.

وبعد استقالة جرمانوس من البطريركية خلفه صفرونيوس الخامس، وروى

دوزيتاوس في المحل المذكور أنه انتخب بالقرعة في اليوم التالي لاستقالة سالفه وكان صفرونيوس من المورة، وكان خادماً في إحدى كنائس القسطنطينية فاستقدمه جرمانوس إليه ليخلفه بعد استقالته، وأصلح كنيسة القسطنطينية، وأمه هيلانة التي كانت في داره. وشهد سنة ١٥٩٣م مجمعاً في القسطنطينية أثبت فيه للبطريرك القسطنطيني الحقوق البطريركية على تدبير كنيسة روسيا، وعُقد مجمع آخر في ذلك العهد نبذ الروم فيه قبول اصلاح الحساب الذي أمر به غريغوريوس الثالث عشر. وفي سنة ١٦٠٢م أخذ صفرونيوس يجدد كنيسة القبر المقدّس واتمّ ذلك خليفته توافان لأنّ صفرونيوس تنازل عن البطريركية سنة ١٦٠٨م وخلفه توافان الذي سوف نذكره في تاريخ القرن السابع عشر، فهذا ما أمكن التوصل إلى معرفته من تاريخ بطاركة أورشليم في القرن السادس عشر.

الفصل الثاني

المشاهير الدينيون في القرن السادس عشر

عد ٩٦٨

يوحنا سلوقا بطريرك الكلدان

كان من المشاهير الدينيين في هذا القرن يوحنا بن دانيال، وكان يسمى قبل ارتقائه إلى السدّة البطريركية سلوقا بالسريانية وصعوداً بالعربية وحملته مناصبة النساطرة له أن يعتنق المذهب الكاثوليكي، وسماه بعضهم سمعان بدلاً من يوحنا. واغتر ابراهيم الحاقلي بمتابعتهم فسماه سمعان في مقدمته على قصيدة عبد يشوع الصوباوي، وقد روى اندراوس ماسيوس أخبار ترقيته إلى البطريركية وكان قد رآه في رومية وحدثه عند شخوصه إليها فقال ماسيوس المذكور أنه في سنة ١٥٥١م توفي بطريرك النساطرة الذي كان اسمه سمعان ماما فانتخبوا مكانه سلوقا، وكان من عادتهم القديمة أنه لا بد في ترقية البطريرك من أربعة متريبوليتية أي رؤساء

أساقفة ، ولا أقلّ من ثلاثة وكان من تقليداتهم القديمة أنه إذا لم يوجد في ملّتهم ثلاثة رؤساء أساقفة فيلزم الالتجاء إلى الحبر الروماني ليرقي البطريرك . وكان البطريرك المتوفي لم يرقِ أحداً إلى المتربوليتية حرصاً على حفظ البطريركية في أنسبائه، وأرسل سلوقا أصحابه إلى روما ، وصحبه منهم سبعون رجلاً إلى زيارة أورشليم . وبعد اتمام زيارتهم رافقه منهم ثلاثة رجال في سفره إلى روما فتوفي أحدهم في الطريق ، وأصاب الثاني مرض فاحتجم عن المسير وبلغ الثالث معه إلى روما وكان اسمه غالباً .

وقد رفع أعيان النساطرة إلى الحبر الروماني يوليوس الثالث عريضة مع بطريركهم ومما قالوه فيها، إننا نحن عبيدكم النساطرة أيتام لا أب لنا ولا مدبر ، ولم يبقَ لدينا شيء من خمير الآباء ولا رئيس أساقفة ، بل بقي أسقفان أو ثلاثة فقط ، فقد قام فينا بطريرك من مئة سنة لم يكن يرقّي إلى مقام رئيس أساقفة إلّا من كان من أسرته وأنسبائه . واستطرقت هذه الأسرة ظلماً هذه العادة من مئة سنة إلى الآن وبقي اليوم منهم أسقف واحد يريد أن يستسير كما استسار من كانوا قبله من ذوي قرباه ، فلم نرضَ نحن ذلك ولم نشأ انتخابه، بل اجتمعنا من جميع أصقاع المشرق من المدن والقرى أعياناً وكهنة ورهباناً وغيرهم من المؤمنين . واقترعنا بحسب العادة ورسوم القوانين المرعية فأصابت قرعتنا سيدنا صعود المفضال إذ لم نجد غيره رجلاً مجملاً بالمحبة والذكاء ، عالماً ومعلماً ومتسامياً بالعفة والطهر، مزداناً بنقاوة الأعمال وحسن الخصال فاستقدمناه من محل سكناه واقمناه في وسط المجتمعين، فوجده جميعهم أهلاً لهذا المقام وقالوا إنما هذا هو الرجل الذي يصلح لذلك ، ورفعنا جميعنا إلى سموكم هذه العريضة ، وإن لم نكن أهلاً لذلك وأرسلناها لتلقى لدى قدميكم المقدّستين صحبة ثلاثة أعيان من كبار ملّتنا وهم آدم وتوما وغالب ، فنبتهل إلى أبوّتكم السامية الجلال أنهم إذا بلغوا إليكم وعرضوا عليكم ما نبتغي لا تدعونا عاراً وسخرية للأمم حتى لا نستطيع أن نرفع رأساً أمام أحد بل تنعطفوا إلى اجابة تضرعنا إليكم وإلى من أولاكم هذه المرتبة السامية وترقوا بطريركنا إلى مقام البطريرك والجاثليق لئلا نبقى أيتاماً لا أب لنا ولا مدبر وكالخراف التي لا راعي لها ». وكتب أيضاً الأعيان الذين صحبوا البطريرك إلى أورشليم رسالة أخرى على هذا النمط .

قال العلامة السمعاني الذي أخذنا هذه الترجمة عنه (في المجلد الأول من

المكتبة الشرقية صفحة ٥٢٣) لدينا في سفر سلوقا إلى روما واقامته بطريركاً وعوده إلى بلاد الكلدان تاريخان: الأول مثبت في الكتاب التاسع والعشرين من الكتب السريانية في المكتبة الواتيكانية وفي الكتابين التاسع والثالث عشر المأتي بهما من آمد. والثاني في كتاب مجهول المؤلف وهو نثر لا نظم، ثم في قصيدة نظمها عبد يشوع أسقف الجزيرة الذي خلف سلوقا المذكور. وأثبت السمعاني تاريخ هذا البطريرك نقلاً عن أحد الكتابين المأتي بهما من آمد، لأنه أوجز فنلخصه عنه «لما كانت سنة ١٨٦٤ لاسكندر (سنة ١٥٥٣م) سار سيدنا ومعلمنا سلوقا من دير هرمزدا إلى أورشليم، وبعد أن سجد فيها وتبارك بالقبر المقدّس سافر إلى روما وأهداه في طريقه بحراً وبراً من دعاه لهذا السفر، وبلغ روما سالماً في ١١ من تشرين الثاني، ونوّله الله حظوة في أعين الرومانيين ولا سيما البابا وحاشيته. وزار معبد القديسين بطرس وبولس، وأقام في هذه المدينة العظمى نحواً من ستة أشهر وفي نهار الأحد الجديد الواقع حينئذٍ في الثالث من نيسان رقاه الكرادلة بأمر البابا إلى الأسقفية والمتربوليتية. وفي الثامن والعشرين من الشهر المذكور حضر البابا يوليوس إلى كنيسة القديسين بطرس وبولس محمولاً بعرش مذهّب يحف به كثيرون من رؤساء الأساقفة والاساقفة وجمّ غفير من الكهنة والرهبان والعامة وبيديه المقدستين رَسَم سيدنا سلوقا جاثليقاً وبطريركاً ودفع إليه رسائل ليكون مقبولاً في أمصار المشرق كافة، وفي أنحاء الهند جميعها، وأمر أن يُصنع له أربع حلل مقدّسة مذهّبة وتاجاً مذهباً وأن يعطى كأساً ذهبياً، وأرسل معه رجلاً علامة وحكيماً لاهوتياً وفيلسوفاً اسمه ابروسيوس وراهباً متواضعاً ووديعاً وعالماً اسمه انطونيوس، وعاد بالسلامة والاقبال على مدينة آمد سنة ١٨٦٥ لاسكندر (١٥٥٤م) في ١٢ تشرين الثاني، فاستقبله أهل آمد جميعهم بالتجلّة والتكريم. وفي نهار الأحد الثّاني رقى إلى درجة الأسقفية المتربوليتية هرمزدا الآمدي المعروف باسم حبيب وسماه ايليا ورقى بعد ذلك عبد يشوع أسقف الجزيرة وجعله متربوليتاً في كنيسة القديس فتيون بآمد.

وروى خبر موته عبد يشوع أسقف الجزيرة المذكورة الذي خلفه فقال ما ملخصه: «في سنة ١٨٦٥ لاسكندر (سنة ١٥٥٤م) لما انتشر خبر قدوم البطريرك سلوقا وبلغ إلى ابن ماما(وهو ابن أخي البطريرك ماما سابق سلوقا) أخذ هذا الشرير يخترع حيلاً لاهلاك البطريرك، ووشى به إلى والي آمد مورداً عليه تهماً لا

أصل لها غير ضانٍّ بشيء مما يبلغه مأربه، فقبض عليه الوالي وزجّه في السجن وغلله بالقيود، وكان يجلده ويعذبه كل يوم من دون شفقة، وأبقاه على ذلك أربعة عشر يوماً وهو صابر متجلّد إلى أن خنقه حراس السجن وأشاعوا أنه انهزم. وأخذوا جثته إلى البرية ثم طرحوها في النهر». وكان ذلك سنة ١٥٥٥م ولم يبقَ في تدبير كنيسة الكلدان إلّا سنة وشهرين.

وكان سلوقا قد كتب وهو بروما دستور ايمانه وترجمه ماسيوس المذكور عن السريانية إلى اللاتينية وطبعه سنة ١٥٦٩م وأوله اقراري بالايمان أنا الراهب صعود ومما يجدر ذكره في هذا الدستور: أولاً قوله كانت العبادة عندنا أن نعترف بخطايانا، ولكن قام بيننا ظالم شرير أبطل هذه العادة، ثانياً قوله في سرّ التثبيت لا أعلم إذا كان قدماؤنا استعملوا هذا السرّ فأنا راهب ومن علمني ذلك. قال السمعاني إنّ النساطرة بعد انفصالهم عن الكاثوليكيين كان في جملة أغلاطهم خلوهم من سرّ التثبيت فلا نجد له ذكراً ولا أثراً في كتب طقوسهم، ولا أثراً له رتبة التعميد عندهم، ثالثاً قوله: «إننا نكرم ونعظّم ونمدح الكنيسة الرومانية ورئيسها البابا الأقدس وجميع حاشيته المباركين فإنه قد كتب في كتبنا أنّ الكهنوت عندنا من هذه الكنيسة الرومانية، ولذلك أتينا نأخذ خميراً منكم كما هو مدوّن في رسالتنا» يريد الرسالة التي صحبه بها ذووه. وقد قيل في هذه الرسالة «إنّ كهنوتنا من أقدم الأيام من روما التي هي كرسي بطرس زعيم الرسل، ولكن لما تشوّش نظام المسيحيين انقطع طريقنا إليكم من مدة ثلاثماية سنة إلى الآن». وروى ماسيوس إنه سمع من سلوقا ورفيقه أنّ بطريركاً آخر من ملّتهم اسمه مارو أو آرام أتى إلى روما من نحو ثلاثماية سنة، وجعله الحبر الروماني بطريركاً على ملّته. وذكر عبد يشوع المذكور في قصيدته على ترقية سلوقا أن العادة القديمة جداً عندهم أنّ بطريرك ملّتهم يترقى في انطاكية أو روما، وذكر كثيرين ممن رقوا في روما وانطاكية. على أنّ العلامة السمعاني المدقق أنكر صحة ترقية بطاركتهم في روما إلّا آرام المار ذكره آنفاً وسلوقا وخليفته عبد يشوع، وأما تعلقهم ببطريركية انطاكية فهو من أقدم الأيام وجاثليق سلوقية التي هي مركز بطاركة الكلدان كان خاضعاً لبطريركية، انطاكية وذلك ظاهر من قوانين المجامع المقدّسة. انتهى ملخصاً عن المجلد الأول من المكتبة الشرقية صفحة ٥٢٣ وما يليها.

عد ٩٦٩

موسى الماردينى

هو كاهن من ماردين أرسله اغناطيوس بطريرك السريان اليعاقبة إلى البابا يوليوس الثالث سنة ١٥٥٢م، فقدم دستور اقراره بالايمان الكاثوليكي من قبل نفسه، ونيابة عن البطريرك المذكور. وترجم اندراوس ماسيوس هذا الدستور من السريانية إلى اللاتينية وأذاعه، فقبل البابا البطريرك اغناطيوس وموسى رسوله في حظيرة الكنيسة الرومانية، وكان البطريرك يرغب في طبع كتاب العهد الجديد بالسريانية فتوجه موسى إلى جرمانيا واهتم بطبع الكتاب المذكور بڤيينا وتعرّف إلى يوحنا البرتوس ودمنستاديوس الذي كان درس بعض مبادئ اللغة السريانية على سمعان أسقف السريان الكاثوليكي، وأتمّ يوحنا المذكور دروسه السريانية على يوحنا الماردينى. هذا واشتركا بنشر هذه اللغة في أوروبا كما أثبت ودمنستاديوس نفسه في مقدمته على العهد الجديد الذي طُبع بالسريانية سنة ١٥٥٥م حيث قال ما ملخصه: «لما كنت مهتماً بطبع السريانية أتى إليّ كاهن كاثوليكي اسمه موسى الماردينى كان اغناطيوس البطريرك الانطاكي قد أرسله إلى روما لمهام كبرى ولطبع العهد الجديد، وأخذ نسخاً منه إلى سورية. ولما لم يجد بروما ولا بالبندقية من يتجشم عبء هذه المهمة هداه بعضهم إليّ، فوفد عليّ ومعه رانبالدرس بولس الذي أشتهر بقداسته وسمو علمه».

وقد اغترّ ماركارينوس بينيوس فظنّ موسى هذا وموسى بركيفا أسقف بيت رمان والموصل واحداً، مع أنّ بركيفا توفي سنة ١٢٢٤ لاسكندر التي توافق سنة ٩١٣ للميلاد، وموسى الماردينى كان في أواسط القرن السادس عشر يعنى بطبع الكتب السريانية بڤيينا كما رأيت في كلام دومنستاديوس الذي ذكرناه آنفاً. وكما أثبت اندراوس ماسيوس الذي كان موسى الماردينى معلماً له في اللغة السريانية، وقد صرّح ماسيوس بذلك في مقدمته على كتاب موسى بركيفا في الفردوس. وقد ترجم ماسيوس من السريانية إلى اللاتينية دستور الايمان الذي تلاه موسى الماردينى حيث بعد اقراره بكل ما رسم في المجمع الخلكيدوني وجحوده ضلال ديوسقورس قال: «ابتهل إلى أبي الآباء وراعي الرعاة الحبر الأعظم يوليوس الثالث أن يتعطّف ويقبل اقراري هذا من قبل نفسي ونيابةً عن بطريركنا وأسألكم أنتم أيها الآباء

المختارون ، أنتم رجاء الكنيسة المقدّسة الكرادلة المتسامون بالقداسة أن تقبلوا اقراري هذا بالايمان الذي صرحت به بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن بطريركنا الذي أمرني أن أقرّ أمامكم بايمانكم هذا القويم والصحيح ، وأصرّح بأنه يقبل الاقرار الذي أقرّ به أنا ، ولم أقدم على اقراري على فور بلوغي إلى هنا لأنه أمرني أن لا أعجّل باقراري ، بل أن أتدبر واتبصّر بما أقرّ به . وقد رأيت الآن بعد التروي أنّ ايمانكم إنما هو كالسراج الموضوع على منارة لا يحجب نوره ظلام حتى لو أمسى العالم كله ظلاماً لبقي منيراً كالشمس للعالم كله ، ولا أقبل شيئاً يزيد على هذا الايمان ولا أنقص منه شيئاً » .

على أنه ظهر بعد ذلك أنّ اغناطيوس بطريركه لم يعتقد الايمان الكاثوليكي صحيحاً ، وداود خليفته في بطريركية اليعاقبة لم يعقد على هذا الايمان قلبه وضميره وإن تظاهر به . فقد روى بطرس ستروزا في كلامه على عقائد الكلدان أنّ البابا غريغوريوس الثالث عشر أرسل إلى هذا البطريرك داود سفيراً رسولياً وهو لاونرودس أسقف صيدا سنة ١٥٨٣م وأرسل إليه معه براءة تثبيته في البطريركية والدرع البطريركي آملاً أن يحمله بذلك على مصالحة الكرسي الرسولي ، ورفع البطريرك مع الأسقف المذكور دستور ايمانه إلى الحبر الروماني (وهو مثبت في الكتاب ١٦٩ من الكتب العربية في المكتبة الواتيكانية) ، إلّا أنّ السفير المذكور قرّر لدى عودته أنه لم ينجح بسفارته .

وقد أذاع ماسيوس المذكور مقالة لاهوتية في الثالوث الأقدس وقال إنّ موسى المارديني كتبها سنة ١٥٥٢م ، على أنّ العلامة السمعاني أنكر أن تكون هذه المقالة تصنيف موسى المذكور وأثبت أنها مأخوذة عن كتب فروض السريان التي تتلى في كنائسهم يوم عيد الثالوث الأقدس كما يعلم كل خبير بطقوس السريان . انتهى ملخصاً عن المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٣٥ .

عد ٩٧٠

عبد يشوع بطريرك الكلدان

ذكر ترجمته السمعاني (« مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥٣٦ » فنلخصها عنه قال: إنه عبد يشوع بن يوحنا قد رقاه يوحنا سلوقا إلى أسقفية جزيرة دجلة ،

ثم خلف هذا البطريرك بعد مقتله فدبر كنيسة الكلدان أحسن تدبير وأقدسه . وقال في حقه بنفينيوس في ترجمة البابا بيوس الرابع ما ملخصه : « كان في هذا العصر عبد يشوع بطريرك النصارى الشرقيين الساكنين في عبر الفرات ، وكان رجلاً عالماً ضليعاً باللغات الكلدانية والعربية والآشورية ، وتمتد رئاسته على الكلدان إلى الهند . عانى السفر الشاق مع بعض أصحابه لزيارة الأعتاب الرسولية ، فثبته الحبر الروماني ومنحه درع الرئاسة مأخوذاً عن ضريح القديس بطرس الرسول ، ولما قابله البابا وعد بحفظ الطاعة له ما دام حياً ، وأبرز بواسطة مترجم دستور ايمانه الذي تُلي في المجلس ٢٢ من المجمع التريدنتيني فكان كما يأتي : « أعترف بقلبٍ نقي واعتقاد لا غشّ فيه أمام كرادلة الكنيسة الرومانية الفائقي الاحترام أنا عبد يشوع بن يوحنا من بيت مرشيا (وفي النسخة السريانية من بين مارون) من مدينة جزيرة دجلة المنتخب جاثليقاً أو بطريركاً في مدينة الموصل أقسم على أني أعتقد بقلبي وأعترف بلساني بايمان الكنيسة الرومانية المقدّسة ، وأثبت جميع العقائد التي تثبتها وأرذل كل ما ترذله وأتعهد وأعد بأني أعلّم جميع أخوتي الأساقفة وكل من هم خاضعون لسلطتي بأي نوع كان أن يعتقدوا هذا الايمان ويتشبثوا فيه ، وأجهد نفسي باقناعهم بذلك بكل ما في طاقتي من الوسائل أعانني الله على ذلك . وتشهد عليّ به هذه الأناجيل المقدّسة . وبياناً لذلك وقّعت بيدي على اعترافي هذا وعلى يميني في ٧ من آذار سنة ١٥٦٢م» .

وقال بنفينيوس بعد ذلك ، ثم ألقي على البطريرك عدة مسائل عويصة ، فأجاب عليها بفقاهة وسداد وقال إنه قد طالع أسفار العهدين القديم والحديث وكتب الآباء الأقدمين اليونان واللاتين التي تتداولها أيدينا نحن الكاثوليكيين مترجمة إلى الكلدانية والعربية والآشورية . وذكر كتباً أخرى لا نعرفها ، وحقق أنّ عندهم أكثر طقوس الكنيسة الرومانية وأسرارها ، والتمس أن ترسل إليه مراسيم المجمع التريدنتيني ، وأقرّ أنّ قدماءهم تلقّوا الايمان بالمسيح على يد الرسل توما وتادي وتلميذهما ماري ، وإنهم الآن محافظون عليه . ولما أراد العود إلى بلاده أثقل البابا كاهله بالهدايا والمنح . وقد رأيت رسائله التي أنفذها إلى روما بعد عوده إلى وطنه . انتهى كلام بنفينيوس فيه . وكتب مثل ذلك الكردينال اموليوس الذي كان يساعده بروما في رسالة أنفذها إلى المجمع التريدنتيني ، وذكرها رانيلدوس في تكملة تاريخ بارونيوس في سنة ١٥٦٢م .

وقد اغترّ ابراهيم الحاقلي إذ زعم في مقدمته على فهرست الكتبة السريان لعبد يشوع الصوباوي أنّ عبد يشوع الصوباوي وعبد يشوع البطريرك الذي نكتب ترجمته هما واحد. فقال الصوباوي أتى إلى البابا يوليوس الثالث وهو شيخ، وجحد بدعة نسطور واعتقد المعتقد الكاثوليكي ثم عاد في أيام البابا بيوس الرابع إلى روما فمنحه هذا البابا درع البطريركية. وجرى مثل هذا السهو لمرهج بن نيرون الباني في كتابه افوبليا (سلاح) الايمان صفحة ١١٦ و١١٧ وكذا كان لرينودوسيوس في كتابه في دوام الايمان مجلد ٥ صفحة ٦٥٦ على أنّ اغترار هؤلاء العلماء ظاهر لأنّ بين عبد يشوع الصوباوي وعبد يشوع البطريرك أكثر من مئتي سنة، فالبطريرك ثبته البابا بيوس الرابع سنة ١٥٦٢م وعبد يشوع الصوباوي كان حياً سنة ١٣٠٠م، إذ شهد على نفسه في مقدمة ديوانه الذي سماه «الفردوس» بقوله: «من سنة ١٦٠٢ لاسكندر (توافق سنة ١٢٩١ للميلاد) التي كتبت بها هذا الكتاب أنا عبد يشوع مطران صوبا وارمينية إلى هذه السنة التي هي سنة ١٦٢٧ لاسكندر (توافق سنة ١٣١٦ لليملاد). ثم مات الصوباوي سنة ١٣١٨م كما يظهر من كتاب الإنجيل القديم السرياني المحفوظ بمكتبة مجمع نشر الايمان حيث ذكر وفاة الصوباوي سنة ١٦٣٠ لاسكندر في أوائل تشرين الثاني (التي توافق سنة ١٣١٨ لليملاد). وقد علّق عبد يشوع البطريرك وهو أسقف حاشية على ديوان عبد يشوع الصوباوي سنة ١٨٥١ لاسكندر (سنة ١٥٣٩ للميلاد) وكان هذا الكتاب في منزل الرهبان الموارنة حذاء كنيسة القديسين مرشلينوس وبطرس بروما. وكتب في هذه الحاشية بالعربية والأحرف السريانية: «إنّ هذا الكتاب ألّفه عبد يشوع أسقف صوبا من نحو مائتي سنة يخص القس ابراهيم بن يعقوب، اشتراه من القس عبدالله بن زين الدين». ثم ألحق بذلك عبارة سريانية هذه ترجمتها: «كتبته بيدي أنا الحقير عبد يشوع من الجزيرة وكل من قرأه يصلّي من أجل حقارتي صلاةً قلبية حباً بربنا». فلا يبقى إذاً شك في أنّ عبد يشوع الصوباوي غير عبد يشوع الجزري البطريرك.

وأما ما ألّفه عبد يشوع البطريرك فهو أولاً ثلاث قصائد سريانية طويلة في يوحنا سلوقا سالفه: أولاها في مسيره إلى روما وترقيته إلى بطريركية الكلدان وتثبيته بها، والثانية في عوده من روما إلى بلاد الكلدان ومقتله بوشاية برماما بطريرك النساطرة وحيله، والثالثة رثاء له وتعداد لصفاته. وهذه القصائد الثلاث

مثبتة في ثلاثة كتب سريانية في المكتبة الواتيكانية وهي السابع والعشرون من الكتب السريانية. ثم الكتابان التاسع والثالث عشر من الكتب المأتي بها من آمد. ولعبد يشوع قصيدة في مدح البابا بيوس الرابع قد ترجمها إلى اللاتينية المطران اسحق الشدراوي الماروني صاحب الغراماطيق المشهور. ونشرها بالسريانية واللاتينية بطرس ستروزا في كتابه في مجامع وعقائد الكلدان صفحة ١٢٥ وهي مثبتة في الكتاب السرياني في مكتبة نشر الايمان المقدّس. وكان هذا الكتاب يخصّ مدرسة الموارنة برافنّا. وله أيضاً دستور ايمانه الذي تلاه بحضرة الكرادلة كما مرّ. ويسمي نفسه بكلامه السرياني عبد يشوع بن يوحنا من بيت مارون، كما أشرنا إلى ذلك. وقد شكا العلامة السمعاني من أنّ الترجمة إلى اللاتينية لهذا الدستور لا تطابق أصلها السرياني، ومن أنّ ترجمة هذا الدستور من اللاتينية إلى السريانية التي وضعها سركيس الرزي مطران دمشق الماروني سنة ١٦٣٣م وأثبتها في كتاب في مكتبة مجمع نشر الايمان المقدّس هي بعيدة عن الأصل السرياني. انتهى.

الفصل الثالث

الأحداث الدينية في هذا القرن

أهم الأحداث الدينية في هذا القرن ظهور مدّعي الاصلاح المعروفين بالبروتستانت، فلم تنشأ بدعة هؤلاء في سورية ولم تتصل إليها في بادئ بدئها، لكن تطرقت إليها ولا سيما في القرن الخالي، وانتشر في بلادنا البروتستانت من أميركيين وانكليز وألمانيين، وكثرت معاهدهم العلمية وتوفر عدد مرسليهم بيننا وعظمت مطابعهم وتوافر نشرهم الكتب، وقلّما خلا كتاب منها عن بث شيء من تعاليمهم المخالفة لايماننا القويم. وأتبعوا الرعاة الكاثوليكيين بالمحافظة على رعاياهم أكثر مما استفادوا هم بكسب نفر منهم فإنهم وإن نجحت مطابعهم بنشر المئات بل الألوف من الكتب وإن وفقت مدارسهم في أن دخلها جمّ غفير من الطلّاب والطالبات إلّا أنّ من جذبوهم لاتباع بدعتهم ولا سيما من الكاثوليكيين كانوا أقلّ

من القليل في جانب ما يبذلونه لذلك من الأموال والأتعاب والمعدات، وما ترسله جمعياتهم من اميركا وانكلترا وجرمانيا إلى سورية لهذه الغاية. كل ذلك كان داعياً لنا لنفرد هذا الفصل من تاريخ سورية للكلام في هذه البدعة، فنذكر أولاً الذين انشأوها، وأخصّ تعاليمهم المخالفة الايمان الكاثوليكي ونلحق بذلك شيئاً من الردّ عليها، ثم نأتي على ذكر شيء من مراسيم المجمع التريدنتيني الذي عُقد لمناصبة هذه البدعة.

عد ٩٧١

لوتار وتلاميذه

وُلد مرتينوس لوتار بايسلابان أحد أعمال المانيا سنة ١٤٨٣م وكان أبوه من عامة الناس، ودرس العلوم في بعض مدارس المانيا ونال بعض المراتب العلمية سنة ١٥٠٥م. وبينما كان يوماً في تلك السنة في البرية انقضت صاعقة على أحد رفقائه فارتعش لوتار من هذه النازلة ونذر أن يدخل الرهبانية. وانضوى بعد ذلك إلى رهبان القديس اغوسطينوس ورقي إلى درجة الكهنوت سنة ١٥٠٧م، وأقيم معلماً للفصاحة والطبيعيات في كلية ويتنبرك سنة ١٥٠٨م، ثم أخذ يدرس الأسفار المقدّسة سنة ١٥٠٩م وسافر إلى روما سنة ١٥١١م مكلفاً أن يسعى بضمّ أديار الأغوسطينيين كلها تحت سلطة النائب العام، فعاد وفي قلبه حزازات لأنه لم ينل ما طلب. وأخذ في رهبانيته رتبة ملفان واكب على التعليم فكسب شهرة فيه، وفي سنة ١٥١٧م أصدر البابا لاون العاشر براءة يحثّ المؤمنين بها على التبرع بشيء من المال مساعدةً لنصارى المشرق وتكملةً لبناء كنيسة القديس بطرس برومة. ومنح من يتبرعون بدفع مبلغ غفرانات، وعهد باذاعة البراءة في المانيا إلى أحد رهبان القديس عبد الأحد، فامتعض الرهبان الأغوسطينيون، فأخذ لوتار يندد أولاً بسوء استعمال الغفارين، ثم كتب مقالة ضمّنها خمساً وتسعين قضية ضد الغفرانات فكان له محازبون. وردّ رئيس رهبان القديس عبد الأحد قضايا لوتار بمئة وسبع عشرة قضية، وبيّن أنّ قضايا لوتار بدعة، فأجابه لوتار بأكثر جرأة، وأرسل مقالته إلى البابا في كتيّب عنوّنه: «حلّ المجادلات في قوة الغفرانات». وأكثر من التذلل وظواهر الطاعة للبابا آملاً أن يتسامح له. ولما بلغ البابا ما كتبه إليه لوتار رأى ما في كلامه

من البدع ، فدعاه إلى روما فاعتذر بضعف جسمه وبعد المسافة ، فعهد البابا بالأمر إلى الكردينال كاتيانوس سفيره إلى جرمانيا ، وأفرغ الكردينال مجهوده ليحمل لوتار على الارعواء عن غوايته فلم ينل منه مأرباً . وعُقدت مفاوضة في ليبسيك سنة ١٥١٩م فأنكر بها لوتار رئاسة البابا وأصرّ على غلطه وكابر وتعنّت .

وفي سنة ١٥٢٠م أشهر لوتار اعلاناً إلى شرفاء المانيا ومقالة سماها بسبي بابل ومقالة أخرى في الحرية المسيحية أكثر فيها من الطعن والتنديد بالبابا وبالكنيسة الرومانية وبالنذور الرهبانية وتبتل الكهنة وسلطة الكنيسة ومقتنى الاكليرس أملاكاً عالمية ، وأنكر جواز تكريم القديسين ووجود المطهر ووصايا الكنيسة وعقيدتي الاعتراف والاستحالة الجوهرية في الأوخاريستيا ، وقداس الكاهن وحده وتناول الخبز المقدّس دون الخمر . ولم يبقَ من الأسرار إلّا المعمودية والأوخاريستيا على مفهومه . فحرم البابا لاون العاشر تعاليمه هذه في براءته المبرزة في ٣ كانون الثاني سنة ١٥٢١م فأحرق لوتار براءة البابا في ويتنبرك مع جميع الأحكام الصادرة من الكرسي الرسولي ، ودعي لوتار للنظر في حججه في جمعية عُقدت في قورم سنة ١٥٢١ فأبى أن يأتي إليها إلّا أن يؤمنه الملك كرلوس الخامس عاهل جرمانيا ، فأمّنه وحضر لكنّه استمر مصرّاً على غيّه فسلم إلى ضمانة العاهل ، ففرّ وأخفاه والي ساكس الذي كان يناصره بقصر ورتبورك أكثر من تسعة أشهر تفرّغ فيها لنشر تآليف يبثّ بها أضاليله . وعني سنة ١٥٢٢م بترجمة الأسفار المقدّسة إلى اللغة الألمانية . وأدخل في ترجمته ما يوافق غرضه وتأييد أضاليله ، ثم دخل ويتنبرك سنة ١٥٢٢م وعاد يبث غواياته ، فتبعه كثيرون من الشعب وأغوى كثيرين من الأمراء والحكام منهم أمراء السويد والدنمرك وبلتيمور، وأهل بعض المدن منها ستراسبورغ وهمبرغ وفرانكفورت، وقد استطاع أن يقرر لأتباعه حرية الضمير أي أن يعتقد كل ما يراه في جمعيات لورنبرك سنة ١٥٢٣م وسنة ١٥٢٤م، وفي جمعية سبيرا سنة ١٥٢٦م، فاضطر العاهل كرلوس الخامس أن يسمح بأن يعتقد كلّ بما يراه إلى أن يبتّ بالأمر المجمع المزمع عقده عن قرب . ونقض هذا السماح في جمعية أخرى عُقدت بسبيرا أيضاً سنة ١٥٢٩م، وأمر باقامة القدّاس في البلاد المصابة ببدعة لوتاروس أيضاً ، إلى غير ذلك من فروض الدين . فاستاء من ذلك فريديريك أمير ساكس وغيره من الأمراء اللوتاريين فأجمعوا ورفعوا إلى العاهل احتجاجاً (بروتسطو) على ذلك ، وهذا أصل تسمية اللوتاريين بروتستانت أي محتجين .

وكان لوتار قد طغى راهبة اسمها كاترين دى بورا وأخرجها من ديرها وتزوج بها سنة ١٥٢٥م، وكانت من أسرة شريفة وترهبت ليأسها من الزواج ، وكان نتائج تعاليم لوتار أنّ كثيرين من الأمراء المغويين ببدعته ضبطوا الأوقاف واستحوذوا على أملاك الكنائس. وظنّ بعض الشرفاء أنّ هذه وسيلة تصيّرهم أغنياء وتكسبهم استقلالاً حديثاً ، وكثر الهرج وعظم القلق واضطرّ العاهل سنة ١٥٣٢م أن يعقد الصلح مع الأمراء البروتستانت ، على أن تبقى لهم الحرية في دينهم الحديث إلى أن يُعقد المجمع المزمع. وصرف لوتار ما بقي من عمره في اذاعته أضاليله بمؤلفاته وخطبه وفي مناصبته البدع الكثيرة التي نشأت بين أتباعه أنفسهم ، إلى أن قضى الله عليه وتوفي سنة ١٥٤٦م بعد عقد المجمع التريدنتيني سنة ١٥٤٥م، وقد دُعي لوتار إليه فلم يحضر. وكان قد استغاث من سفير البابا بالبابا نفسه الذي يجهل كنه أمره إلى البابا الذي يعلمه ثم من هذا المجمع. ولما عُقد هذا المجمع لم يحضر إليه مكتفياً بحكم نفسه ، واقتفى أصحابه آثاره فلم يشخصوا إلى المجمع ، وطلبوا منشور الامان فأعطاهم الملك اياه ، وكررت الدعوة لهم إلى المجمع فأبوا إلّا الاصرار.

أما تلاميذ لوتار فكانوا كثيرين ولكن قلّ منهم من تابعه على غوايته كلها ، وأول هؤلاء فيلبس مالنطون وُلد سنة ١٤٩٧م ببراتان من جرمانيا ، وكان مغوياً بأضاليل لوتار ، لكنه كان ليّن العريكة مبغضاً للخصام ، ولهذا كان يلطف جهده تعاليم لوتار ، وكان يشكو من أنه متشبث بنقض ما تعلمه الكنيسة . وألّف مالنطون سنة ١٥٣٠م دستور الايمان الذي قدّمه اللوتاريون إلى عاهل جرمانيا كارلوس الخامس في جمعية أوغوسطا ولطف به بعض تعاليم لوتار ووافق تعليم الكنيسة في عدة عقائد منها أنّ الانسان لا يتبرر بالايمان وحده ، وإنّ الكنيسة لا تحتوي المنتخبين فقط بل على المرذولين أيضاً ، وإنّ للانسان مطلق الحرية وإن لم يدرك البرّ خلواً من النعمة ، وإنه يجوز تكريم القديسين ، وإنّ للأساقفة سلطاناً تجب الطاعة له إلى غير ذلك. وروى فاريلا في المجلد الأول من تاريخه (صفحة ٤٤٥) أنّ مالنطون كتب إلى فرنسيس الأول ملك فرنسة أنّ رئاسة البابا وسلطانه لا بدّ منهما لثبوت وحدة التعليم في الكنيسة ، وعرف لوتار بذلك فحنق منه ووبخه وصرّح له بأنّ قوله هذا يلاشي الديانة التي جدّ بانشائها عشرين سنة. وتوفي مالنطون سنة ١٥٥٦م على رواية فنرنست أو سنة ١٥٦٠م على وراية كوتي. وروى كثيرون من

المؤرخين أنّ أم مالنطون قالت له وهو مدنف: «يا ابني أنا كنت كاثوليكية فصيّرتني أغيّر عقيدتي وأنت الآن قريب من اداء الحساب لله فقل لي أي دين هو أحسن للخلاص: الدين الكاثوليكي أو اللوتاري»؟ فأجابها ابنها إنّ الدين اللوتاري الذّ للحواس وأما الكاثوليكي فأسلم للخلاص «فذاك ألذّ وهذا أسلم».

ومن تلاميذ لوتار أيضاً يوحنا اكريكولا وُلد بايسلابان مولد أستاذه وتتلمذ له أولاً ثم أنشأ بدعة على حدة يُعرف أصحابها بناقضي السنّة، لأنه كان يقول كن زانياً ولصاً وسارقاً وآمن فتخلص. ففحصت كلية ويتبرغ غوايته ونبذتها فارعوى عنها، لكنه سار بعد وفاة لوتار إلى برلين واستأنف بث تجديفه ومات مصرّاً عليه، وقيل إنّ أتباعه ينكرون وجود الأرواح.

ومن تلاميذ لوتار أيضاً نيقولاوس ستوركيوس وتوما منشيروس فهذان تابعا استاذهما أولاً على أضاليله، ثم صارا رئيسي بدعة تُعرف بالاناباتيستا أي منكري معمودية الأطفال، لأنّ أول غواياتهم كان منعهم تعميد الأطفال قبل بلوغهم سن التمييز. أخذوا ذلك من قول لوتار إنّ ترك الأطفال دون تعميد أولى من تعميدهم وهم لا شيء لهم من الايمان الخاص. ولم يلتفت هؤلاء إلى قول المخلّص دعوا الأطفال يأتون إليّ فإنّ ملكوت الله لمثل هؤلاء، فإن حقّ لهم دخول ملكوت السماء فيحق لهم قبول المعمودية التي لا يدخل السماء أحد دونها. وتعميد الأطفال أخذته الكنيسة عن الرسل بالتقليد الذي أثبته الآباء الأقدمون منهم اوريجانوس الذي قال في مجلد ٢ من تأليفه صفحة ٣٥: «أنّ الكنيسة أخذت بالتقليد عن الرسل أن تعمد الأطفال أيضاً». وكذلك قال القديس ايريناوس وترتوليانوس وقد أخذ توما المذكور يطعن بلوتار ويقبّح عليه خصاله الذميمة، فطرده لوتار من ساكس مع اتباعه، فمضى إلى مونستر وأخذ يعظ رعاع الشعب أن يخلعوا طاعة الأساقفة والولاة فاحرنجموا جماً غفيراً وأبدوا تعديات، فوثب عليهم عسكر الحكومة فقتل بعضهم وشتت من بقي منهم، ثم جمع توما بعضهم وكانت لهم وقعات مع الجنود إلى أن انهزموا وضربتهم أيدي سبا، وفرّ توما واختفى ولكن قبض عليه بعد ذلك وحُكم عليه بقطع الرأس. وروى بعضهم أنه قُتل مصرّاً. وروى نطاليس اسكندر أنه ارعوى عن ضلاله واعترف قبل مقتله، وانقسم أصحاب شيعته إلى بدع كثيرة لا محل لذكرها.

ومن تلاميذ لوتار أيضاً اندراوس الكرلوستادي فهذا تابع لوتار على بدعه ثم انشقّ عنه وأنشأ بدعة على حدة تسمى بدعة السريين، وخالف لوتار بزعمه أنّ القربان المقدّس لا يحوي جسد المسيح، ولم يكن لوتار ينكر ذلك، وإن أنكر الاستحالة وخالفه أيضاً بقوله يلزم استئصال صور الصليب والقديسين ونقض المذابح وإبطال القدّاس. وعرف لوتار بذلك وهو مختفٍ عند أمير ساكس فسار إلى ويتنبرغ حيث كان اندراوس فأعاد المذابح والصوَر، ولما لم يذعن له اندراوس جعل الأمير ينفيه مع امرأته فمضى إلى تورنجيا وهناك ألّف كتابه الموسوم بالعشاء الرباني. وقد مضى يوماً لوتار إلى هناك فطرده اندراوس ورجمه بالحجارة إلى أن توفي اندراوس المذكور مصاباً بالفالج.

وكان من مدعي الاصلاح هؤلاء زينليوس وكان تعليمه أشبه بتعليم لوتار وإن خالفه بعقائد كثيرة، وكان خورياً بزوريك من أعمال المانيا، وشرع يبثّ ضلاله ناكراً الغفران كما ابتدأ لوتار، وألحق بذلك أضاليل أخرى منها أنّ القدّاس ليس ذبيحة بل تذكار لذبيحة الصليب، وأنّ لا حاجة إلى شفيع غير المسيح، وإنّ الزواج واجب لكل أحد، وإنّ سلطة البابا والأساقفة لا أسّ لها في الأسفارالمقدّسة. وخالف لوتار بنسبته أمر الخلاص إلى حرية الانسان وقوى الطبيعة. وكان لوتار يعزو ذلك إلى النعمة وحدها وجعل جمعية زوريك سنة ١٥٢٣م تبطل تبتل الكهنة والقداس، وتزوج هو في السنة التالية، وكانت حرب بين الكاثوليكيين ومدعي الاصلاح سنة ١٥٢٩م وسنة ١٥٣١م فقُتل زونيليوس في هذه الحرب الأخيرة.

عد ٩٧٢
كلوين وتلميذه بيزا

وُلد يوحنا كلوين في نوايون (بفرنسة) سنة ١٥٠٩م وأعدّه والده أولاً لخدمة الكنيسة، لكنه تمنع عن خدمتها ومضى يدرس الفقه في اورليان ثم في بورج حيث أخذ يدرس اللغة اليونانية على ملكيور فولمار النمساوي، وكان ملكيار لوتارياً ورأى تلميذه ذكياً فأشربه بدع لوتار شيئاً فشيئاً فشربها وطفق ينشر آراءه في الاصلاح الديني. وأتى إلى باريس وانتشر خبر فساد عقيدته، وكثر العثار

والقلق بسببه فأرسل قاضي الجنايات من يقبض عليه ، ولم يجد وسيلة للهرب إلّا بأن شقّ غطاء الفراش شقفاً وتدلّى بها من الشباك إلى بيت الكرّام، فلبس ثوبه وفرّ به متنكراً ، فجال في بعض مدن فرنسة وأداه تطوافه إلى انكولام، وشرع يعلمهم اللغة اليونانية الذي كان قد درس بعض أصولها كما مرّ . ونزل هناك في بيت لويس تيلات خوري كلاي وكان عنده مكتبة جمعت كثيراً من الكتب، فألف كلوين هناك أكثر مؤلفه المعروف برسوم الدين المسيحي آخذاً أكثر كلامه عن لوتار ومالنطون وأصحابهما، وواضعاً اياه في قوالب لغوية أكثر فصاحة ونظاماً ، فكتب هذا التأليف أولاً باللاتينية ثم ترجم إلى الفرنسية . ومضى كلوين إلى ستراسبورغ وحاول أن يربح أتباعاً لبدعته في جرمانيا ، وتعسّر عليه ذلك فعاد إلى فرنسة سنة ١٥٣٥م وأقام ببواتيا وأخذ يغوي البعض خفية فازداد عدد اتباعه ، فنصب كرسي تعليمه في قاعة المدرسة المسماة محل الخدمة ، فتغلّب على اتباعه اسم الخدام، وبث دعاته في القرى المجاورة فازداد عدد محازبيه ، وأخذ يباشر هناك العشار الرباني كما يسميه . فكان يجتمع في اتباعه فيتلو أحد الخدام فصلاً من أسفار العهد الجديد موضوعه عشاء الفصح، ثم يلفظ خطبة موجزة مدارها غالباً على الطعن بالبابا والتقبيح بالقداس ، ثم يضعون خبزاً وخمراً على المائدة ويقول أحد الخدام: يا اخوتي هلمّ نأكل خبز الرب ونشرب خمره ذكراً لآلامه وموته . ثم يوزع الخادم على كل من الحاضرين جزءاً من الخبز والخمر فيتناولون ذلك صامتين، وينهي الخادم الحفلة بالشكر لله لأنه جعلهم يعرفون الحق ، ووقاهم من ضلال الباباويين. وكانت أوامر الملك صارمة على المبتدعين ففرّ كلوين من بواتيا وأتى إلى نيراك باكويتانيا . وكانت مرغاريتا ملكة نافارّا أخت ملك فرنسة وكانت تناصر المذهب الحديث فلم يستطع أن يختفي مدة طويلة . فمضى إلى باسيلايا (بال بسويسرا) وعني هناك بتنقيح مؤلفه رسوم الدين المسيحي، ثم أذاعه وفي رأسه آية الإنجيل: « ما جئت لألقي في الأرض سلاماً بل حرباً » . ومضى سنة ١٥٣٦م إلى جنيف بسويسرا وكان أهلها خلعوا الدين الكاثوليكي باغواء فاريلوس ، فترحب هذا بكلوين لأنه أمل أن يساعده على حفظ البدعة الحديثة ، وهيّج كلوين اتباعه بجنيف على حرق صور القديسين، ودكّ المذابح في الكنيسة الكبرى . ثم نشأ خلاف بين كلوين وفاريلوس على الخبز الذي يستعمل في العشاء أفطيراً يكون أم خميراً ، فقال فاريلوس يلزم أن يكون فطيراً وكلوين أنه

يلزم أن يكون خميراً، بعداً عن عادة الكنيسة الرومانية. وعظم الخلاف بين الشعب لذلك، فطردت الحكومة كلوين وفاريلوس من جنيف، فسار كلوين إلى بيرنا ولم ينجح فيها، فعاد إلى ستراسبورغ فقبله فيها بوشيرس أحد تلاميذ لوتار. وكان كلوين يعلّم اللاهوت ويخدم جماعة فتبعوا ضلاله وتزوج هناك سنة ١٥٣٨ بارملة اسمها ايداليتا عاشت معه أربع عشرة سنة ولم تلد له ولداً.

وفي سنة ١٥٤١م خلع أهل جنيف حكومتهم وصاروا فوضى فاستدعوا كلوين وجعلوه رئيساً لهم فوطّد غواياته وأصدر أمراً من الديوان أن يتشبث كل واحد بالرسوم التي وضعها. وألّف حينئذٍ كتابه بالتعليم المسيحي بالفرنسية وترجمه اتباعه إلى عدة لغات، ثم أذاع مقالاته في محاماة الدين المسيحي وفي التهذيب وفي اصلاح الكنيسة، وكتاباً في المجمع التريدنتيني سماه الدرياق ضد هذا المجمع. وفي سنة ١٥٥١م كان خصام كبير بين كلوين وايرونيموس بولساكوس، فهذا كان راهباً كرملياً ثم انفصل عن الكنيسة لكنه لم يطق احتمال ضلال كلوين ولوتار إنّ الانسان لا حرية له، وإنّ الله أعدّ بعض الناس إلى الفردوس وبعضهم إلى الجحيم، فسجنه كلوين ثم حمل الحكومة على نفيه وعلى تهديده بالقتل إن عاد. وفي سنة ١٥٥٣م أمات كلوين ميخائيل سرفات محروقاً بالنار، فكان كلوين قد اطلع على كتاب خطب لسرفات بها ينكر سرّ الثالوث الأقدس، وكان يمقت سرفات لأنه أفحمه يوماً ما بالجدال. ومرّ سرفات بجنيف وحمله الفضول أن يسمع خطبة لكلوين دون أن يراه، فدرى بذلك كلوين بعد خطبته فسعى بأن القى سرفات بالسجن، وجرت عليه المحاكمة وثبت عليه ضلاله، فأقنع كلوين القضاة بالحكم عليه بالموت محروقاً ونفذ الحكم في ١٧ تشرين الأول سنة ١٥٥٣م. ولطالما قرّع كلوين بعض الملوك الكاثوليكيين لحكمهم بالموت على بعض المبتدعين وشبههم بوكلنيان. فها هو أحرق سرفات وألّف كتاباً بعد ذلك أثبت به بالكتاب والتقليد جواز قتل المبتدعين المصرّين، ولما ردّ مرتينوس بال كتاب كلوين دحض بيزا تلميذ كلوين ردّ بال فلم يبقَ وجه للوم الهراطقة للكنيسة على تسليمها المبتدعين المصرين إلى الولاة العالميين. وكان كلوين يغري اتباعه بفرنسة باهانة الكاثوليكيين وكنائسهم، بل بالمؤامرة على الملك أيضاً، وحاولوا تنفيذ هذه المؤامرة وسطوا على الكنائس والاكليرس مراراً، وكانت شؤون لا محل لتفصيلها هنا. وبلغ أخيراً يوم انتقام الله من كلوين فمات بجنيف في ٢٦ أيار سنة ١٥٦٤م. وروى كثيرون من

المؤرخين أنه مات داعياً الشياطين لاعناً حياته وكتبه ، وكانت تنبعث من قروحه رائحة نتانة لا تطاق .

وأما تلاميذ كلوين فأخصهم توادورس بيزا فهذا وُلد في مدينة فسلاي بيوركونيا من أسرة شريفة سنة ١٥١٩م، ودرس العلوم الرياضية بباريس ثم اللغة اليونانية في اروليان على فولمار معلم كلوين هذه اللغة والبدعة ، وكان ذكياً حسن المعاشرة لكنه كان طماحاً إلى الملاذ مشتغلاً بالأشعار العشقية، وكان هائماً بعشق امرأة اسمها كلوديا زوجة خياط بباريس وبدد ما ناله من ارث أبيه وعمه، واتصل إلى سرقة الكؤوس والزينة من كنيسة البوركانيين في اورليان ، وكان ناظراً عليها فشكي بهذه السرقة وسُجن، ثم فرّ من باريس إلى جنيف وأخذ معشوقته معه فتزوج بها وزوجها حي . ولما علم كلوين أنه تلميذ فولمار استاذه رحّب به وأقامه معلماً للغة اليونانية بجنيف ، ولهذ كان بيزا يجله حتى دعوه عابد كلوين وكان أكثر كفراً من معبوده . وأفرغ قصارى جدّه في انكار وجود جسد المسيح بالقربان حتى قال في أحد الاجتماعات: «إنّ جسد المسيح بعيد عن القربان المقدّس بعد السماء عن الأرض» . وكتب إلى ملكة انكلترا متباهياً بأنه نشر مذهبهم بفرنسة بالسلاح والملاحم ، واجتمع يوماً بمالنطون اللوتاري فسأله لمَ يقلقون فرنسة كل هذا القلق فأجابه إنما نفعل ما فعله الرسل. فقال له مالنطون: ولما لا تحتمل الاهانة كما احتمل الرسل؟ فأعرض بيزا عنه مغضباً ولم يجبه . وماتت امرأته وعمره سبعون سنة فتزوج بصبية أخرى واستمر إحدى وأربعين سنة بعد موت كلوين يدبر كنيسة جنيف إلى أن أدركته المنية سنة ١٦٠٥م وعمره ٨٥ سنة .

ويجدر بنا أن نروي شيئاً مما كان بين القديس فرنسيس سالس وبيزا من البحث في الدين نقلاً عن ترجمة هذا القديس لبطرس كالس. أنّ البابا اكليمنضوس الثامن أوعز إلى القديس فرنسيس أن يمضي إلى جناف ويحدّث بيزا علّه يتمكن من ردّه إلى الايمان الصحيح فتوجه إليه ووجده في بيت وحده ، واستهلّ حديثه معه أنه لا يصدق ما يرويه له أعداؤه عنه . فقال بيزا إني أحسبك رجلاً فاضلاً ويشق عليّ أن أسمع أنك تحامي دعوى واهنة كدعوى المذهب الكاثوليكي. فسأله القديس أترى إني لا أستطيع أن أخلص وأنا متمسك بالايمان الكاثوليكي؟ فطلب بيزا مهلة ليجيبه، ودخل مخدعه وخرج بعد ربع ساعة فقال: أرى أنّ الانسان يستطيع أن يخلص بالايمان الكاثوليكي . فقال القديس: ولمَ

تبدون كل هذا الجهد حتى بالحرب والأهوال لتردوا الناس عن هذا الايمان؟ فقال بيزا إنّ كنيسة روما تمنع خلاص النفوس بزعمها الأعمال الصالحة لازمة للخلاص ونحن ننقض هذا السياج بقولنا إنّ الايمان يكفي للخلاص. فقال القديس ألا ترى أنّ قولكم هذا ينقض الشرائع الإلهية والبشرية التي تهدد مخالفيها بالعقاب وتعد العاملين بها بالثواب. ونرى الإنجيل يقضي بالنار المؤبدة لا على مرتكبي الاثم فقط بل على من يهملون صنع الخير. واستطرد القديس إلى قوله أن لا بدّ في الكنيسة من قاضٍ يلتزم الجميع بالاذعان لحكمه، وإلّا فتكون المحاورات لا نهاية لها. فقال بيزا: قاعدة الايمان الوحيد إنما هي الكتاب، والمجمع التريدنتيني خالف هذه القاعدة. قال القديس إنّ آيات الكتاب تتحمل معاني كثيرة، فلا بد من قاضٍ يحكم أي هذه المعاني هو الصحيح. فقال بيزا الكتاب واضح والروح القدس يلهم كل فرد إلى المعنى الصحيح. فأجابه القديس إنكم تعتقدون أنّ لوتار ولكوين ملهمان، ونرى لوتار علّم أنّ في القربان جسد المسيح وكلوين أنكر ذلك، ولوتار أنكر أنّ رسالة القديس يعقوب الرسول من جملة الأسفار المقدّسة، وكلوين سلّم أنها من هذه الأسفار. فمن من الاثنين ألهم الروح القدس ومن نصدّق ومن نكذّب؟ فاندفع بيزا إلى الشتائم وفظّ الكلام. فقال له القديس بدعة ما جئت لأكدرك، وانصر من عنده.

وقد أقدم الكلوينيون باغراء كلوين وبيزا لا على قلق فقط، بل على حروب وملاحم أيضاً فيها، انتقاماً من الكاثوليكيين، وثورات على من كان من الملوك أو الولاة كاثوليكياً. ولم ينحصر هذا الفساد في فرنسة بل تخطاها إلى غيرها من ممالك أوروبا، ولا يؤذن المقام بالتطويل بذكر هذه الشؤون. انتهى مقتطفاً من تواريخ عدة مؤلفين كنطاليس اسكندر والكردينال كوني والأب روهربخر وغيرهم.

عد ٩٧٣
تفنيد بعض غوايات مدعي الاصلاح ولا سيما انكار رئاسة بطرس وخلفائه

لا نقصد هنا أن نفنّد أضاليل لوتار وكلوين وأحزابهما كلها، فإنّ ذلك يستوجب مجلدات كثيرة ضخمة، وهو يتجاوز خطة المؤرخ. فجلّ ما عزمنا عليه

إنما هو دحض أشهر هذه البدع بآيات الكتاب وأدلّة العقل بأوجز عبارة وأوضح اشارة. وعلى سبيل العجالة رعاية لمساق تاريخنا كما رأيت في كلامنا على البدع الشهيرة، وليتلطّف بانصافنا من يطالع من البروتستانت كلامنا في هذا الفصل، فأنّى يحق لعلمائهم أن يحبروا المقالات الطويلة لاخراج أبنائنا من حظيرة كنيستنا، ولا يحق لنا بالأولى أن نحافظ عليهم بايضاح الحقايق لهم، ونبتدئ أولاً بالرد على انكارهم رئاسة بطرس وخلفائه الأحبار الرومانيين.

قد أفردنا في عد ٥٠٥ فصلاً مطولاً لاثبات اقامة المخلّص القديس بطرس زعيم الرسل وخلفائه رئيساً عاماً ومطلقاً لكنيسته في المعمور كله. ونزيد على ذلك الآن الأدلّة الآتية القاطعة أنّ المخلّص قال لرسله هأنذا معكم كل الأيام وإلى انقضاء العالم (متى فصل ٢٨)، فنسأل هؤلاء المدعين الاصلاح كيف أهمل المخلّص كنيسته مدة أكثر من خمسة عشر قرناً إلى أيامهم. وهو القائل إنه يكون معها كل الأيام. وأين كانت كنيسة المسيح قبلهم، فكنيسة المسيح يلزم أن تكون ابتدأت في أيامه ودامت وتدوم إلى الأبد. أو يقبل العقل السليم أن يضع المخلّص أس كنيسته ولا يبني عليه إلّا في القرن السادس عشر أو إنه يدع كنيسته ضالة مدة كل هذه القرون ولا يلتفت إلى اصلاحها إلّا في أيامهم. فيقولون إنّ الكنيسة لبثت سالمة من الفساد مدة القرون الثلاثة الأولى، فليكن كقولهم مجاراة ولكن لِمَ لم يصلحها في الاثني عشر قرناً الباقية إلى أيامهم. وكيف أمكن أن تكون سلمت من الفساد مدة ثلاثة قرون. ثم يعروها الفساد بعد ذلك، وهو القائل أن يكون معها كل الأيام. فمتى ثبت أنها كنيسة المسيح ولو يوماً واحداً امتنع بعده أن يدعها تفسد بجملتها، فقد يفسد بعض أعضائها وتقطعهم من جسمها. ولكن أن تفسد بجملتها وتمسي عروسة المسيح زانية فهذا من المستحيل بعد أن صرّح بأنه سيكون معها إلى انقضاء العالم وبأنّ كنيسته تدوم إلى الانقضاء وأبواب الجحيم لن تقوى عليها.

وأيضاً أين كانت كنيسة هؤلاء المصلحين قبل أيامهم، فيقولون أنها كانت في جماعة المبدعين قبلهم، على أنّ هؤلاء المبدعين ضلّ كلّ منهم بعقيدة أو أكثر، وخالف أحدهم الآخر في ما ذهب إليه من الضلال، وفي تسليم بعضهم بما تعتقده الكنيسة الكاثوليكية أو في انكاره. ولا يمكن أن يقال أنّ مجموعهم أو أفرادهم هي كنيسة المسيح التي يلزمها طبعها نفسه أن تكون واحدة، ويلزم المسيح عزّ وجلّ أن

يعلم تعليماً واحداً لا أن يعلم الضدين أو المتناقضين حتى ولو جمعنا بدع المبتدعين قبلهم معاً على اختلافها لما تألفت منهم بدعتهم. فمن البديهي إذاً أنه لا يصح زعمهم إنّ كنيستهم كانت في جماعة المبدعين قبلهم، فلا يبقى إلّا أن تكون كنيستهم ابتدأت فيهم في القرن السادس عشر. وهل من يسمي كنيسة المسيح كنيسة لم تُنشأ إلّا بعده بأكثر من خمسة عشر قرناً، كلا إنّ نشأتهم نفسها بعد المسيح بكل هذه القرون دليل قاطع وبيّنة دامغة على أنّ كنيستهم ليست كنيسة المسيح بل بدعة نشأت حينئذٍ فيها، فقطع أصحابها من جسمها تفادياً من سير الفساد إلى باقي الجسم.

ثم هل اتفق هؤلاء المصلحون على تعليم واحد أو ألفوا جمعية واحدة كما يلزم أن تكون كنيسة المسيح، كلا بل انقسموا إلى جماعات كثيرة يخالف بعضها بعضاً كما هو المشهور، بل اختلف رؤساؤهم أنفسهم في عقائد جوهرية في الايمان. وقد مرّ أنّ لوتار اعتقد أنّ في القربان جسد المسيح وأنكر ذلك كلوين وبيزا تلميذه، ونفى لوتار رسالة القديس يعقوب الرسول وغيرها من عداد الأسفار المقدّسة. وسلّم كلوين بذلك وزعم كلوين أنّ الله أعدّ الناس بعضاً للخلاص وبعضاً للهلاك بمجرد مشيئته، ولم يقل لوتار كذلك. وخالف لوتار تلاميذه في عقائد كثيرة كما مرّ. فأخصّ علامة لكنيسة المسيح إنما هي الوحدة بالايمان وبالرئاسة. فأين المصلحون من ذلك ومن هذه العلامات أيضاً أن تكون كنيسة المسيح رسولية فأين هم من الرسل. نعم أجمع المبدعون والمصلحون على انكار سلطة الكنيسة والحبر الروماني، ولكن هذا الانكار ملازم لطبع كل بدعة ولغاية كل مبتدع لأنهم إذا سلموا بذلك سقطت بدعتهم وبطل مسعاهم بحكم الحبر الروماني إنّ تعليمهم بدعة وضلال. ونقتصر على هذا اليسير بألفاظه السديد ببيانه الشديد بقوته.

عد ٩٧٤

رد زعمهم أنّ لكل فرد الحق في تفسير الأسفار المقدّسة

زعم لوتار أنّ الحق على تفسير الكتاب المقدّس يستوي به العامة والعلماء. وقال لكوين في كتابه: «الدرياق ضد المجمع التريدنتي» لا سلطان لكنيسة روما على

أن تفسر الكتاب المقدّس أو تحكم على المعنى الصحيح لآياته. ولما اعترض الكاثوليكيون على مدّعي الاصلاح بأنّ قول لوتار غير صحيح وإنّ في الكتاب آيات غامضة لا يتوصل كل من العامة إلى كنه معناها، قالوا إنّ الروح يرشد كلاًّ إلى المعنى الصحيح. ثم حجَّهم الكاثوليكيون قائلين أنّى يحق لكلوين أن ينكر على كنيسة رومة السلطان أن تفسر الكتاب أو تحكم على المعنى الصحيح لآياته، ولوتار يجعل مثل هذا السلطان لكل فرد من المؤمنين دون فارق بين العالم والأمي، فتقرّون إذاً لكل فردٍ بما تنكرونه على جماعة منتشرة في كل المعمور ومجمعة في كل عصر على معنى واحد، فهذه الحجة والحق أقول لم أرَ إلى الآن رداً ولو واهناً عليها. وأظنّ ردها مستحيلاً وهلمّ نبسط البرهان.

إنّ الأسفار المقدّسة تشتمل على شريعة نزّلها الله على عباده نشدتكم الله ألا قلتم لي أية شريعة في العالم من أقدم الدهر إلى اليوم ترك الشارع لمن فرضت عليهم أن يفسروها كما يهوى كلٌّ منهم، ويتأولوها بالمعنى الذي يختاره كل واحد، وإذا اختلف اثنان منهم على مفهوم أية واحدة وكل منهما يفهمها بمعنى فمن القاضي؟ وأية قوة تبقى للشريعة؟، وما تكون فائدتها والفريقان يحتجان بها بحق سواء لكلٍ منهما؟ لعمري لم يشترع في العالم من بدئه إلى الآن شريعة مشوبة بهذا النقص في أركانها وقوامها، أما رأى مدعو الاصلاح أن يخصوا بمثل هذا النقص إلّا الشريعة التي هي أكمل الشرائع وإلّا الله عزّ وعلا وابنه الوحيد. أيستليق أحدٌ منهم أن يسنّ شريعة لخدامه أو من هم تحت سلطته ويدعهم يتأولونها كما يطيب لهم؟!.

أما جواب بعضهم أنّ الروح القدس يلهم كل واحد إلى المعنى الصحيح فهو أكثر فساداً من زعمهم الأول نفسه، فنرى أئمتهم اختلفوا في عقائد جوهرية في الايمان كما مرّ. وأصرّ كلٌّ منهم على رأيه إلى الممات فأين كان الروح القدس عنهم حتى لم يلهمهم إلى الصواب. ونراهم منقسمين إلى شيَع عديدة تخالف إحداها الأخرى في مسائل المعتقد، أعلم الروح القدس الضدّين أو النقيضين ونحن نصارى مثلهم ونعتمد على الأسفار المقدّسة نظيرهم ونخالفهم في عقائد كثيرة فلِمَ لم يلهمنا الروح القدس إلى الصواب بحسب زعمهم، ونحن ملايين وكنا في كل عصر كذلك، فلِمَ لم يشفق علينا ويزيل هذا الخلاف من بيننا ويجمعنا لنكون رعية واحدة. وقد جاء الفادي ليجمع أبناء الله المتبددين إلى واحد، وقد سأل الأب ذلك بأخبات لنكون رعية واحدة.

وأما زعم كلوين أن ليس للكنيسة السلطان على تفسير الكتاب أو الحكم بالمعنى الصحيح من آياته فهو باطل ، وأظن أنه لو تدبّر كلوين هذا الزعم لما فاه به ، وأرى أنّ كل من تروى به من اتباعه أنف من هذا الحكم وقضى بفساده، فلا يخلو تفسير هذا الكتاب وفهم معانيه إما أن يكون مباحاً لكل من يؤمنون به وهذا مذهب مدعي الاصلاح ، وإما أن يكون الله منزلة أقام من يفسره ويحكم بالمعنى الصحيح منه ، وهذا المذهب الكاثوليكي ولا ثالث لهذين المذهبين. فإن كان الأول أي أنّ تفسيره مباح لكل مؤمن به فليساوِ كلوين الكنيسة الكاثوليكية ولو بفرد من جماعته ويتلطف بأن يقول إنّ للكنيسة الحق أن تفسر الكتاب كما يحق لكل فرد من أتباعه . وأما أن ينكر على الملايين الذين كانوا في هذه الكنيسة مذ نشأتها إلى الآن ما يرونه . وقد أجمعوا في كل هذه الأعصر على معانٍ واحدة للكتاب . ويفضل على هؤلاء جميعاً كل فرد من شيعته، فهذا لا يقبله عقل ولا يقوله عاقل من المصلحين أنفسهم أو غيرهم. نقول كل هذا مجاراة لهم على صحة زعمهم مع اعتقادنا أياه فاسداً .

وأما المذهب الثاني وهو أنّ الله أقام في بيعته من يفسر الكتاب ويعتمد على حكمه ، فهذا تضطرنا إلى القول به أدلة قاطعة وبيّنات دامغة وآيات واضحة في هذا الكتاب نفسه . فمن هذه الأدلة أولاً إنّ حكمة الله الذي هو الشارع تقتضي أن يقيم لشريعته قاضياً ومفسراً ، أيكون الشارع حكيماً إذا سنّ شريعته وترك لكل أن يفهمها كما أراد ويعمل بها على هواه ، ولم يقم من يحافظ عليها أو يقضي بها عند وجود الخلاف على معناها . لعمري أنّ من جسر على القول بذلك كفر وجدّف بتفضيله كل المشترعين على الله والعياذ به من هذا الكفر، ثانياً إنّ طبع الشريعة يقتضي ذلك فشريعة تتجاذبها أذهان الناس وأغراضهم ولكلٍ منهم الحق على تفسيرها ولا معترض عليه لا تبقى شريعة . ومن المبادئ البديهية أنّ لا أحد قاضٍ في دعواه فيلزم أن يستثنى من ذلك مدعو الاصلاح في دعاوى دينهم، فإنّ كلاً منهم قاضٍ بدعواه ولا حرج . ثالثاً قد علمنا الاختبار الذي لا نكير له إنّ مذهب البروتستانت هذا كان علّة لانقسامهم إلى شيَع تكاد لا تحصى ، ولم يبقَ لهم ضابط يجمعهم أو جامعة تضبطهم في العقائد الجوهرية أيضاً . وهذا بديهي فمن استباح تفسير الكتاب كما يعن له ولم يكن لغيره أن يعترضه بتفسيره كان حرًّا أن يعتقد بما يقوم بذهنه وبما يحمله عليه ميله، وأذهان الناس مختلفة اختلاف

وجوههم، بل اختلاف الوجوه ثابت ومفهوم الذهن يتقلّب تقلّب الأرياح، وأميالهم تعمي بصائرهم، ولذلك رأينا كثيرين منهم اعتقدوا سنداً إلى هذا المبدأ بما ينفر منه العقل السليم ، ثم تمادوا في هذا المبدأ حتى أنكروا أولاً صحة بعض آيات من الكتاب ، ثم أنكر بعضهم أسفار برمتها ثم توصل بعضهم إلى نبذ الكتاب المقدّس بكلّيته ، وانحازوا إلى مذهب العقليين الذين لا يعتقدون إلّا بما يرشدهم إليه عقلهم ، وتطرقوا من هذا إلى غيره من المذاهب الكفرية كالمعتزلة والدهريين إلى غير ذلك من المذاهب التي تخرج أصحابها من عداد الغافلين . فهذا ما أرانا اياه الاختبار من غوائل مذهب لوتار وكلوين وأشياعهما .

وأما آيات الكتاب التي تمحق مذهبهم فكثيرة ومفحمة ، وقد ذكرنا كثيراً منها في اثباتنا رئاسة بطرس وخلفائه في المجلد الثالث حيث أثبتنا أجلّ الاثبات وأقواه أنّ المخلّص جعل بطرس صخرة بنى عليها كنيسته الواحدة وراعياً يرعى خرافه ونعاجه ، ورئيساً يثبت اخوته المؤمنين في الايمان إن أضلّهم ابليس ، ومفسراً للشريعة وقاضياً بها في العالم كله . وأبنّا أنّ المخلّص لم يشأ أن تقوم كنيسته في أيام بطرس فقط ، بل في كل الدهور ، فكان محتماً أن تكون هذه السلطة لكل من يخلفه في كرسي روما . ونزيد على ذلك الآن ما يفنّد زعم البروتستانت مبيّناً أنّ في الكنيسة سلطة ورعاة ومعلمين وقضاة لا أنّ المسيح ترك المؤمنين والكتاب بيدهم ليتأوّله كلٌ منهم، ويقضي كما يحب ويعني له، من ذلك قوله: « وإذا لم يسمع للكنيسة فليكن عندك كوثني وعشّار » . (متى فصل ١٨ عد ١٦). وقال لرسله لا لجماعة المؤمنين: « من سمع منكم فقد سمع مني ومن احتقركم احتقرني ، ومن احتقرني احتقر الآب الذي أرسلني » (لوقا ١٠ عد ١٦) من قبلكم فقد قبلني ومن قبلني فقد قبل الآب الذي أرسلني (متى ١٠ عد ٤٠) وسماهم ملح الأرض ونور العالم (متى ٥: ١٣) وخوّلهم تعليم جميع الأمم (متى ٢٨: ١٩) وأعطاهم سلطان الحلّ والربط وغفران الخطايا وامساكها (يوحنا ٢٠: ٢٢). وقال الرسول (إنّ الله وضع في بيته أولاً الرسل ومن بعدهم المعلمين... (قرنثية ١ صفحة ١٢ عد ٢٨) وهو أعطى بعضهم أن يكونوا رسلاً . .. وبعضهم مبشرين وبعضاً رعاة ومعلمين (أفسس ٤: ١١) وأقسام المواهب موجودة ولكن الروح واحد . .. وأقسام الخدم موجودة ولكن الرب واحد . وكما أنّ لنا في الجسد أعضاء مختلفة وليس لجميع الأعضاء عمل واحد ، هكذا نحن الكثيرون جسد واحد في المسيح وكلّ منا عضو

للآخر (روما ١٢: ٤). وقال لطيطوس تلميذه «لهذا خلفتك في قريطش لتصلح الأمور الناقصة وتقيم في كل مدينة قسوساً كما أوصيتك (طيطوس ١: ٥). فكل هذه الآيات وكثير من أمثالها لم نذكره تفادياً من ملل القارئ تثبت اثباتاً جلياً قاطعاً أنّ المسيح يترك الكتاب وحده لجماعته ليفسره كلٌ منهم ويتأوّله ويقضي به كما يهوى ويتراءى له كما زعم البروتستانت، بل أقام لهم قضاة يقضون بالمعنى الصحيح ورعاة يجنبونهم الضلال، ومعلمين يعلمونهم ما هو الصحيح والقويم. وفي رأس هؤلاء جميعاً بطرس السليح ثم خلفاؤه إلى انقضاء الدهر لحفظ الوحدة بين من صلّى إلى أبيه أن يجعلهم واحداً كما هو وأبوه واحد، لا إنه جعل كنيسته فوضى كما أراد البروتستانت جعلها في القرن السادس عشر مدّعين أن يصلحوها، فأمسى من ادعوا أنهم مصلحوها تائهين ومتقلبين مع كل ريح كسفينة لا ربان بها أو جثة دون رأس.

عد ٩٧٥

تفنيد زعمهم أن ليس للانسان حرية في أعمال الخلاص

إنّ البدعة السادسة والثلاثين من بدع لوتار التي حرمها البابا لاون العاشر في براءته التي أذاعها سنة ١٥٢٠م هي: «إنّ الحرية بعد الخطيئة (أي خطيئة آدم) هي اسم دون مسمى». وقال كلوين (كتاب ٢٠ من رسومه فصل ٢) متكلماً في الأفعال البشرية: «لا حرية للانسان، والحرية في أمر الخلاص اسم لا مسمى له. إنّ الانسان الأول وحده كان حاصلاً على الحرية ولما أخطأ أضاعها هو وذريته كلها، وكل ما يفعله الانسان فإنما يفعله مضطراً إليه لأنّ الله يريد هذا وهو يحمله عليه». وإذا اعترض على زعمه أنّ الانسان إن لم يكن حراً بعمله فلا يترتب عليه عقاب ولا ثواب، فأجاب (في كتابه المذكور فصل ٣) إنّ استحقاق الانسان العقاب أو الثواب يكفيه أن لا يغصبه آخر على الفعل. وإن فعل مضطراً دون حرية». ولما ورد عليه أنه إذا كان الله يحمل الانسان ويضطره إلى عمل الخطيئة فيكون هو تعالى فاعلاً للخطيئة. أجاب إنّ فاعل الخطيئة هو من يرتكبها لا من يأمر بها أو من يحمل الخاطئ عليها، بل اتصل إلى القول الكفري أنّ الخطايا أجمع تصير بارادة الله لا بسماحه فقط، وهذا قوله (في كتابه الانتخاب الأزلي):

« يزعمون أنّ الله يسمح سماحاً فقط بالخطايا، والكتاب يبيّن أنها لا تصير بارادته فقط بل هو يفعلها ». وأورد بعض آيات الكتاب آخذاً اياها بغير معناها الصحيح. ولما قيل له لِمَ يكون الله معصوماً من الاثم المشترك بينه وبين الناس والانسان يدان عليه أجاب (في ك٣ من رسومه فصل ٢٣): « هذا يعسر ادراكه على فهمي الجسدي ».

فمجرد ذكر هذا الأزعام الواضح بطلانها يكفي مؤونة تفنيدها، فلا عقاب ولا ثواب إذا لم تكن حرية، لأنها أسّ كل مجازاة وأسّ كل شريعة فُرضت على العاقلين، وحيث ظهر أنّ الفاعل كان مكرهاً أو مجبراً على الفعل انكفت عنه قوة الشريعة. فسارق أُجبر على السرقة لا تجزيه الشريعة جزاء السارق. ومن أمر بالسرقة أو أكره غيره عليها وهو آمر ذو نفوذ على المأمور جزته الشريعة جزاء السارق، وقل مثل ذلك في الثواب، وأما جعله تعالى آمراً بالاثم أو فاعلاً له فكفر لم يقدم عليه أحد قبل كلوين ولا يتابعه عليه انسان عاقل ولو خلا من الدين. ثم إنّ مزاعم كلوينوس هذه مخافة حسّ الناس العام وحسّ كل واحد منهم، فكلٌّ منا يحسّ ويرى أنه حرّ أن يفعل الخير أو الشرّ وأن يفعل هذا أو ذاك ولا يشعر بنفسه أنّ الله أو غيره من الناس يكرهه على ما يعمله بارادته، ولما كان هذا الحسّ عاماً في كل الناس من آدم إلى اليوم فلا سبيل إلى التكذيب به.

إنّ أسفار العهدين القديم والحديث موعبة بالأوامر لعمل ما هو خير وصالح وبالنهي عمّا هو شرّ وطالح. وذلك جلّ غرض الوحي أو كله. وندر أن تجد صفحة من الكتاب خلت من ذلك، فإن صحّ زعم كلوين أنّ الانسان لا حرية له وإنّ كل ما يفعله يفعله مضطراً محمولاً من الله عليه أصبحت كل هذه الأوامر والنواهي لغواً وعبثاً، لأنّ الانسان لا يفعل إلّا ما حمله الله عليه. فما فائدة الأمر وما نفع النهي، حتى أنّ الوصايا العشر المكتوبة باصبع الله تكون لغواً في هذا المذهب، فإن كان الانسان لا حرية له ليمتنع عن القتل والزنا والسرقة وشهادة الزور فما نفع نهي الله عن ذلك. أو يسلم اتباع كلوين بأنّ الله يحمل الناس ويضطرهم إلى القتل والزنا وشهادة الزور ويهلكهم بعد ذلك لارتكاب هذه الكبائر، فأين عدله وأين قداسته. أعوذ بالله من هذا الكفر. وأتعجب كيف فاه به كلوين وكيف وجد من يتابعه عليه. وهلمّ نرى شيئاً ن شهادات الوحي الناطقة بحرية الانسان وهي كثيرة جداً نقتصر على بعضها مجانبةً لملل القارئ.

«إن أحسنت تنال وإن لم تحسن فعند الباب خطيئة رابضة ... وأنت تتسلط عليها» (تكوين ٤٥ فصل ٤ عد ٧). وهذا قاله الله لقاين بعد معصية أبيه آدم. قد أشهدت عليكم اليوم السماء والأرض بأني جعلت بين أيديكم البركة واللعنة فاختر الحياة لكي تحيا (تثنية ٣٠: ١٩): «إن الله خلق الانسان منذ البدء وتركه بيد مشورته، وسنّ عليه أوامر ووصايا، فإن أردت أن تحفظ الوصايا فهي تحفظك (ابن سيراخ ١٥: ١٤): «فاختاروا لكم اليوم من تعبدون اما الآلهة التي عبدها آباؤكم في عبر النهر، أو آلهة الآموريين الذين أنتم مقيمون بينهم، أما أنا وبيتي فنعبد الرب (يشوع بن نون ٢٤: ١٥). ولم يضطره الأمر بل هو مسلط على ارادته (قرنثية ١ و ٧: ٣٧). كم مرة أردت أن أجمعكم كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدوا (متى ١٣: ٢٣) أنتم في كل حين تقاومون الروح القدس (ابركسيس ٧: ٥١) فإذاً يطلق للانسان أن لا يريد، ولو أراد الله وله حرية أن يقاوم إرادة الروح القدس): «لا تقدرون أن تعبدوا الله والمال» لا يقدر الانسان أن يعبد ربين معاً». فله القدرة إذاً، أى الحرية أن يعبد أحدهما. من أراد أن يحيي نفسه فليهلكها فإذاً له الحرية أن يحييها ويهلكها وأمثال ذلك لا تحصى.

عد ٩٧٦

تفنيد زعمهم أنّ الأعمال الصالحة غير لازمة للخلاص ويكفي الايمان وحده

إنّ بدعة لوتار الحادية والثلاثين في جملة بدعه التي حرمها البابا لاون العاشر في براءته التي أصدرها سنة ١٥٢٠م هي: «إنّ البار يخطئ بكل فعل صالح». قال في بدعة ٣٢: «إنّ الفعل الصالح المفعول كما ينبغي هو إثم بحكم الله». وقال كلوين (في كتاب ٢ من رسومه فصل ٩): «إنّ أفعال الأبرار اثم محض». لعمري أنّ مزاعم لوتار وكلوين في أمر الدين مذهلة ومنافية منافاة ظاهرة لكلام الله المنزل بل للعقل البشري أيضاً، فأي عقل يسلم بأنّ البار يأثم بكل ما فعل صالح، وإنّ كل فعل صالح هو اثم، فكل ذي عقل سليم يرى أنّ ما هذا إلّا هذيان.

ومن قال به لم يميّز بين الخير والشرّ بعكس ما يرشد إليه الطبع جاعلاً فعل الخير شراً واثماً، وفعل الشر خيراً وفضيلة لأنّ الله يحمل الانسان عليه.

وإذا بحثنا عما بعث هذين المبتدعين على هذه المزاعم التي ترى كاضغاث أحلام، رأينا أنهما أدعيا فيها على أنّ المخلّص تألم ومات من أجل خلاص البشر وفتح لهم باب السماء ليدخلوها آمنين وليس عليهم إلّا أن يؤمنوا به فقط، وعليه فمن فعل منهم فعلاً صالحاً أساء إلى المخلّص مدعياً أن يخلّص نفسه بعمله، كأنّ آلام المسيح وموته غير كافية لخلاصه. على أنّ زعمهما هذا ينتج منه نتجاً لازماً أنّ المسيح تألم ومات ليس ليستأصل الرذائل ويسهّل الانتصار عليها ويؤهل التائب لمغفرتها بعد ارتكابها ويقهر ابليس وينجو من الشرير وتجاربه، بل بالعكس ليمكّن الرذيلة في الناس ويطلق لهم ارتكابها ويصدّهم عن التكفير عنها بأعمالهم الصالحة ويقوّي ابليس عليهم ويزجهم في لجّة تجاربه ويدخلهم السماء متمرغين بأقذار آثامهم لا مزية لهم ولا فضيلة سوى أنهم آمنوا بابن الله ايماناً مجرداً عن كل عمل صالح، ولو ملطخاً بقاذورات الرذائل. فهل من عاقل من أي مذهب كان يسلم بأنّ الله إله القداسة وربّ النقاوة والطهارة وينبوع كل خير وصلاح يبيح عبادة الفحشاء والرذيلة ويثيب من انكبّ عليهما بملكوته ويعاقب من تهجّد وتزهّد وتورّع وتخشّع بنار الجحيم الأبدية؟!.

فيحتجّ هؤلاء المبدعون بآيات من الكتاب يتمحلون لها معاني ليست معانيها، منها قول بولس الرسول: «ليس بأعمال برّ عملناها نحن بل برحمته خلصنا». (طيطس ٣: ٥) وقوله «وأما نعمة الله فحياة الأبد بسيدنا يسوع المسيح ربنا (روما ٦: ٢٣) وقوله: «إذ تعلمون أنكم تنالون من الله جزاء الميراث» (كولوسايس ٣: ٢٤) وقوله: «لأنكم بنعمته نجوتم بالايمان ولم يكن هذا منكم لأنه موهبة الله لا بأعمال، لئلا يفتخر أحد» (أفسس ٢: ٨) ومنها قول يوحنا الرسول في انجيله (٣: ٣٦) «من يؤمن بالابن فله الحياة الأبدية» وما جاء في أعمال الرسل (١٣: ٣٩). «وكل من يؤمن به يتبرر». وقول بولس الرسول (روما ١٠: ١١): «ومن آمن به لا يُخزى». وقول المخلّص مرات ايمانك خلّصك.

فقد تعامى هؤلاء المبدعون ومن تبعهم عن المعنى الصحيح للآيات المذكورة وما أشبهها، فالكنيسة الكاثوليكية تعلم، وكل خبير بتعليمها يعلم أن ليس للانسان حق

بطبعه على أن يتمتع بمشاهدة الله ويشترك في مجده. وبعد معصية آدم الانسان الأول سدّ باب السماء بوجهه فانحدر ابن الله من سمائه وصار انساناً ليكسبنا هذا الحق ويفتح لنا باب السّماء المغلق. وعليه فخلاص الانسان ودخوله في السماء لم يكن بأعمال برّ يعملها الناس بل برحمته، والحياة الأبدية في المجد هي نعمة الله بيسوع المسيح لا حق الانسان ولا نتيجة عمره، وميراث السماء ليس لنا من طبعها أو من أعمالنا حق عليه بل نلناه من الله ونجاتنا من تبعة الهلاك لم تكن منا بل هي موهبة الله، ولا يحق لأحد أن يفتخر بذلك. فهذا هو المعنى الصحيح الظاهر للآيات المذكورة لا ما تمحله لها البروتستانت ليثبتوا أنّ الأعمال الصالحة غير لازمة بل أنها مآثم.

وأما الآيات الأخرى التي يقال فيها أنّ من يؤمن بالمسيح فله الحياة الأبدية أو يتبرر أو لا يخزى، أو يخلصه ايمانه. فمن لنا بمن يفسرها لنا تفسيراً صحيحاً أحسن وأعلم من المخلّص نفسه، ومن رسله. فالمخلّص لما سأله ذاك الشاب: «ما الذي أعمله لأرث الحياة الأبدية، فلم يجبه أن تؤمن بل قال له: إن شئت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا، فقال له وما هي؟ فأجابه: لا تقتل لا تزنِ لا تسرق». (متى ١٩: ١٧). وإذ أرسل تلاميذه للتبشير لم يقل لهم علموهم أن يؤمنوا فقط. بل قال: «علموهم أن يحفظوا كل ما أمرتكم به» (متى ٢٨: ١٩) وبولس الرسول الذي قال: »من آمن به (بالمسيح) لا يُخزى، والبار يحيا من الايمان» هو نفسه فسرّ ذلك (قرنثية ١ صفحة ١٣: ١٢) لنفسه بقوله «لو صار فيّ جميع الايمان حتّى أنقل الجبال ولم تكن فيّ المحبة فلست بشيء . . . وأنا كالصنج الذي يطنّ». وقال يعقوب الرسول (في رسالته ف ٢:١٤ وما يليه): «ما المنفعة يا أخوتي إن قال أحد إنّ له ايماناً وليس له أعمال، أترى الايمان يستطيع أن يخلصه؟ . . . أنت تؤمن بالله فالشياطين أيضاً تؤمن وترتعد كما أنّ الجسد دون الروح ميت فكذلك الايمان دون الأعمال هو ميت».

فإذاً حيث ورد في الكتاب أنّ الايمان يبرر أو من آمن فله الحياة الأبدية يتحتم أن يفهم بذلك بموجب تفسير المخلّص ورسله أنفسهم، لا الايمان المجرد عن العمل أو النظري أو الميت، بل الايمان الحيّ بالأعمال أو العملي العامل في المحبة كقول الرسول: «لا يُعدّ الختان شيئاً ولا الغرلة بل الايمان الذي يعمل بالمحبة». (غلاطية ٥: ٥) ثم إنّ بعض أقوال المخلّص لمن شفاهم ايمانك خلّصك أو أحياك يراد به أنّ

ايمانهم بقوّته أبرأهم من المرض. وبقي لنا كلمة أنّ اللوتاريين يحجوننا أنّ رسالة يعقوب الرسول التي استشهدناها آنفاً، أسقطها لوتار من عداد الأسفار المقدّسة القانونية، فنقول أنه لم يسقطها إلّا لأنها تخالف زعمه بما أوردناه منها، خاصةً وكلوين حليفه قد أثبتها، والكنيسة الكاثوليكية لم تمترِ في قانونيتها وإن أسقطناها مجاراة فما يقولون بالباقي. وإليك شيئاً آخر من آي الأسفار المقدّسة التي تثبت أنّ الأعمال الصالحة لازمة للخلاص، ولا يكفيه الايمان وحده: «ليس الذين يسمعون الناموس هم أبرار أمام الله بل العاملون بالناموس يتبررون (رومة ص ٢: ٣). ما كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السماء بل من يعمل ارادة ابي الذي في السماء» (متى ٧: ٢١) فعمل ارادة الله هو عمل الأفعال الصالحة «فليضئ نوركم أمام الناس ليروا أعمالكم الحسنة» (متى ٥: ١٦): «إنما ينبغي لكم الصبر لتعملوا مشيئة الله وتستحقوا الوعد» (عبرانية ١٠: ٣٦): «قد جاهدت جهاداً حسناً وتممت سعيي وحفظت ايماني وحفظ لي مذ الآن اكليل البر (تيموتاوس ٢ فصل ٤: ٧) فإذاً لم يحفظ له اكليل البر» لأنه حفظ ايمانه فقط بل لأنه جاهد وأتمّ سعيه أيضاً: «كل انسان يأخذ أجرته على قدر تعبه» (قرنثية آف ٣: ٨) «لتستحقوا ملكوت الله الذي بسببه تتألمون» (تسالونيكي ٢ صفحة ١: ٥) «طوبى للرجل الذي يصبر على البلوى لأنه إذا امتحن يأخذ أكليل الحياة الذي وعد الله به محبيه». (يعقوب ١: ١٢) بل نرى الديّان يدين المؤمنين في اليوم الأخير ويورثهم ملكوته أو ينفيهم منه، لا لأنهم لم يؤمنوا بل لأنهم أهملوا الأعمال الصالحة: «تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملك المعدّ لكم لأني جعت فأطعمتموني» ... «اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار المؤبدة لأني جعت فلم تطعموني وعطشت فلم تسقوني» الخ (متى ٢٥: ٣٥). ولا ريب في أنّ هؤلاء من المؤمنين إذ يقولون للديّان: «متى رأيناك يا رب جائعاً فلم نطعمك أو عطشاناً فلم نسقك؟».

وما لي أعدد آيات الكتاب المثبتة أنّ الأعمال الصالحة لازمة للخلاص وهي أكثر من أن تعدّ بل هي القسم الأكبر من الكتاب كله في العهدين، فإنّ كل الآيات التي ورد فيها أمر بمعروف أو نهي عن منكر هي مثبتة لما نحن مثبتون، فإن لم يكن ما أمر الله به أو نهى عنه لازماً العمل به كانت جميع تلك الأوامر والنواهي لغواً، وعبثاً أيسلم البروتستانت بهذه النتيجة الحاصلة ضرورة من تعليمهم، لا أظن أنّ من تدبّر منهم هذا المعنى يسلم بما يخالفه. ولذلك ارعوى بعضهم عن

هذا الضلال. وقد أنبأنا بوصويت الشهير (في كتابه ٨ في الاختلافات عد ٣٠) إنّ اللوتاريين قالوا في دستور ايمانهم الذي قدموه إلى المجمع التريدنتيني بعد اجتماعهم في نيتمبرغ «إنّ الأعمال الصالحة لازمة وتستحق من قبل صلاح الله المجاني المجازاة الجسدية والروحية».

عد ٩٧٧

وجود جسد المسيح حقيقة في القربان المقدّس

لم أشأ أن أختتم هذا الفصل دون أن أقول شيئاً في سرّ محبة الله العجيبة للبشر، فلوتار سلّم بأنّ بالقربان المقدّس جسد المسيح، ولكن قال أنه يبقى فيه جوهر الخبز أيضاً. ومن أقواله أنّ جسد المسيح يكون في القربان المقدّس ومعه كالنار في الحديد الحامي. وأما كلوين فتقلّب رأيه بذلك دفعات ولكن جلّ زعمه أنّ جسد المسيح لا يكون بالقربان حقيقة بل بالقوة التي يبرزها فيه، ولذلك كان يضع العشاء الرباني. وأنكر ذلك بيزا وغيره من مدعي الاصلاح، وقد تقدمهم بهذا الانكار بارنجر في القرن الحادي عشر.

لا سبيل إلى اثبات هذه العقيدة بالبراهين العقلية لا من قبيل قدرة الله على أن يحيل الخبز جسداً والخمر دماً فهذا لا مرية فيه والله على كل شيء قدير. ونرى الأقوات فينا تستحيل إلى لحم ودم وعظام، بل من قبيل محبة الله للبشر حتى يغدو خليقته بجسده ودمه. فهذا لا يمكن العقل أن يعتقد به إلّا بالاعتماد على الوحي وكلامه تعالى الذي صرّح به في أسفار العهد الجديد المقدّسة بآيات كثيرة فنقتصر كلامنا على آيات الأناجيل الأربعة وآيات رسالة بولس الرسول الأولى إلى القرنثيين.

إنّ المخلّص لما أنهى الشريعة القديمة بأكله خروف الفصح مع تلاميذه وابتدأ في الشريعة الحديثة أخذ خبزاً ووزعه على تلاميذه قائلاً: «خذوا فكلوا هذا هو جسدي». وكذلك أخذ كأساً وبارك وقال: «خذوا فاشربوا منه كلكم هذا هو كأس دمي». فهذا الكلام ذكره متى الإنجيلي فصل ٢٦ عد ٢٦، ومرقس فصل ١٤ عد ٢٢، ولوقا فصل ٢٢ عد ١٩، وبولس الرسول في رسالته الأولى إلى القرنثيين فصل ١١ عد ٢٤. والقاعدة المجمع عليها والتي يقضي بها العقل أنّ كلام

الكتاب يلزم فهمه بمعناه الحقيقي دائماً ولا يعدل عنه إلى المعنى المجازي إلّا إذا اقتضت ذلك ضرورة أو منافاة ظاهرة، ولو أمكن تأويل كلام الكتاب دائماً بمعنى مجازي لما بقيت عقيدة على سلامتها. فإذاً قول المخلّص في الخبز هذا هو جسدي وفي الكأس هذا هو دمي يلزم أن يفهم بمعناه الحقيقي، أي أنّ هناك جسده ودمه حقيقة لا بالصورة أو القوة أو البركة كما وهم الكلوينيون.

إنّ يوحنا الرسول لم يذكر في انجيله تقديس المسيح جسده ليلة الفصح بل أفرد الفصل السادس في انجيله للكلام على هذا السر العجيب متكلماً أولاً عن تجسده قائلاً: أنا هو الخبز الذي نزل من السماء، ثم أخذ يعد تلاميذه للايمان بهذا السر قبل ابتداعه بكلام صريح مفحم يأبى كل تأويل أو مواربة. فقال (عد ٥٢): «إنّ الخبز الذي سأعطيه أنا هو جسدي الذي أعطيه من أجل حياة العالم». ولو كان أراد بهذا الكلام تجسده كما زعم المبتدعون لما قال الذي سأعطيه بل الذي أعطيه أو أعطيه، وقد فهم السامعون هذا الكلام بمعناه الحقيقي. ولذلك قال الانجيلي عد ٥٣: «فخاصم اليهود أحدهم الآخر قائلين كيف يمكن هذا أن يعطينا جسده لنأكله». ومن البيّن أنّ المخلّص لو أراد بكلامه غير ما فهمه اليهود واستغربوه للزمه ضرورة أن يزيل خصامهم وعثارهم مبيّناً حقيقة قوله. وإليك ما قال لهم حينئذٍ عد ٥٤: «قال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فلا حياة لكم في أنفسكم» (عد ٥٥). «فمن يأكل من جسدي ويشرب من دمي تجب له الحياة الأبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير» (عد ٥٦): «لأنّ جسدي مأكل حقاً ودمي مشرب حقاً». فنسأل البروتستانت أن يجدوا لنا إن قدروا عبارة أخرى أوضح من هذه في بيان هذه العقيدة.

ثم أردف المخلّص قوله السابق بقوله: «من يأكلني فهو يحيا من أجلي . . . من يأكل هذا الخبز يحيا إلى الأبد . . . وكثير من تلاميذه لما سمعوا قالوا ما أصعب هذه الكلمة من يمكنه استماعها». أي فهموا أنه يعطيهم جسده لحماً ليأكلوه ودمه ليشربوه، ولذلك رأوا الكلام صعباً. ففسر لهم يسوع حينئذٍ كلامه وأبان لهم كيفية أكلهم جسده بتناولهم جوهر جسده حياً لا لحمه ميتاً. فقال: «أهذا يشككم (وأنا بينكم جسدي) فكيف إذاً إن رأيتم ابن البشر يصعد حيث كان أولاً ولا يبقى بينكم بالجسد وكنتم مأمورين أن تتناولوا جسده وهو في السماء وأنتم في الأرض إنّ الروح هو الذي يحيي». أي أنّ الروح المقترن بجوهر جسدي هو الذي يحيي

« والجسد لا يفيد شيئاً » أي أنّ الجسد الخالي من الروح كلحم الضأن الذي تبتاعونه من المجزر لا يفيد شيئاً: « والكلام الذي قلته لكم هو روح » أي روحي ويراد به أكل جوهر جسدي حياً بالروح « وهو حياة » تحيا بها النفوس الحياة الأبدية التي أشرت إليها. فهذا هو التفسير الحقيقي الظاهر لهذه الآيات وأما تفسير البروتستانت لها بأنّ في القربان بركة جسد المسيح أو رمزاً إليه أو ذكراً لآلامه لا جسده حقيقة فهو مناقض مناقضة صريحة لكلامه السابق، ولا سيما قوله جسدي مأكل حقاً ودمي مشرب حقاً، ولا يمكن توفيقه مع كلامه هنا ولا مع ما قاله عند ابداع هذا السر ولا مع كلام الرسول الآتي:

قال بولس الرسول في رسالته الأولى إلى القرنثيين (فصل ١١ عد ٢٣ وما يليه): « قد سلمت إليكم ما قبلته من ربنا ». وذكر تقديس المخلّص جسده ودمه ليلة آلامه كما ذكره الانجيليون إلى أن قال: « فإذاً من يأكل من خبز ربنا ويشرب من كأسه وهو لا يستحقه فيذنب إلى دم ربنا وجسده، فمن أجل هذا فليمتحن الانسان نفسه، وحينئذٍ يأكل من هذا الخبز ويشرب من هذه الكأس، لأنّ من يأكل ويشرب منه وهو لا يستحقه فيأكل ويشرب دينونة لنفسه إذ لم يميّز جسد الرب ». فهذه الآيات غاية في الوضوح، فإن لم يكن في خبز ربنا وكأسه غير الخبز والخمر فلِمَ يذنب إلى دم ربنا وجسده من تناوله وهو لا يستحق، ولِمَ يأكل ويشرب دينونة لنفسه إذ لم يميّز جسد الرب. فما من كلام أوضح من هذا في تأدية هذا المعنى ويضاهيه بالوضوح قول هذا الرسول الآخر (في الرسالة المذكورة فصل ١٠ عد ١٦): « فكأس الشكر تلك التي نباركها أليست هي شركة دم المسيح، وذلك الخبز الذي نكسره أليس هو شركة دم المسيح؟.

قد كان سهلاً لدينا أن نثبت هذه العقيدة بشهادات كثيرة من الآباء القديسين من القرن الثاني فصاعداً، ثم بكثير من الآثار القديمة التي وُجدت في مخابئ روما وغيرها دالة دلالة صريحة على اعتقاد المؤمنين الأولين بما نعتقده اليوم بحقيقة وجود جسد المسيح في القربان المقدّس، لكننا أضربنا عن ذلك تفادياً من ملل القارئين ولأنّ خطتنا تاريخية لا لاهوتية أو دينية، وإن أطلنا الخروج عن دائرة غرضنا التاريخي توسعاً وطلباً لزيادة الفائدة.

ولم نرَ للبروتستانت ما يعترضون به لهذه العقيدة ما يستحق رداً إلّا الآية

الأخيرة التي ذكرناها آنفاً ، من بشارة يوحنا . وقد أبنّا معناها الحقيقي وبطلان المعنى الذي تمحلوه لها . وأما زعمهم أنّ قوله هذا هو جسدي معناه هذا يفسر جسدي أو يشير إليه أو هو بركة جسدي فهو تعسف ظاهر، ولا قيام له في جانب قوله جسدي مأكل حقاً. ولهم أضاليل أخرى لم نتعرض لردّها لما قدمناه واكتفينا بأن يكون ما ذكرناه في هذه الفصول مثالاً لباقي تعاليمهم .

عد ٩٧٨
المجمع التريدنتيني

ذكرنا في ما مرّ من تاريخنا أكثر المجامع المسكونية لعلاقات لها بمواضيع كلامنا التاريخي ، فكان متحتماً علينا أن نذكر هذا المجمع أيضاً لأنه أهم المجامع المسكونية، ولأن عقده لنبذ تعاليم مدعي الاصلاح الذين ذكرنا تاريخهم وردنا بعض غواياتهم .

إنّ هذا المجمع دعا البابا بولس الثالث إلى عقده في أول تشرين الثاني سنة ١٥٤٢م في مدينة ترانت أو تريدنتو في اللاتينية في التيرول من مملكة النمسا والمجر ، إلّا أنه تأخر افتتاحه لدواعٍ، وعقد المجمع الأول منه في ١٣ من كانون الأول سنة ١٥٤٥م . وكان البروتستانت قد طلبوا عقده ، ولما عُقد أبوا الحضور إليه ، وقد أعطوا مرّات منشور الايمان الذي طلبوه وأطلق لهم أن يباحثوا آباء المجمع بما أرادوا أن يقيموا في المجمع آمنين ، وأن ينصرفوا عنه متى طاب لهم ومع ذلك لم يحضروا . وقد توقف هذا المجمع مرات ، ثم استؤنف عقد مجالسه ، ونُقل إلى بولونيا سنة ١٥٤٧م ثم عاد الآباء إلى تريدنتو، وكان عدد مجالسه خمسة وعشرون مجلساً. وعني به الأحبار الأعظمون البابا بولس الثالث ثم يوليوس الثالث ثم بيوس الرابع . وكان آخر مجلس منه في الثالث والرابع من كانون الأول سنة ١٥٦٢م فكانت مدته ثماني عشرة سنة .

قد عُقد المجمع الأول منه في ١٣ كانون الأول سنة ١٥٤٥م ولم يكن في هذا المجلس إلّا افتتاح المجمع بحضور نواب الحبر الروماني وهم ثلاثة كرادلة ورؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الرهبانيات العامون ونواب بعض الملوك وكثيرون من

اللاهوتيين. فاجتمع الحاضرون أولاً في كنيسة الثالوث الأقدس بالمدينة المذكورة وساروا بتطواف حافل إلى كنيسة الكاتدرا حيث أقام أحد الكرادلة القداس، ومنح نيابةً عن البابا غفراناً كاملاً لجميع الحاضرين. وأعلن أن يكون الاجتماع التالي في اليوم السابع من كانون الأول سنة ١٥٤٦م بعد انقضاء الأعياد الربانية. ولم يحسب بالاّ فيشينوس في تاريخه لهذا المجمع الاجتماع الأول إلّا افتتاحاً له، وابتدأ في ذكر مجالسه في المجلس الثاني.

المجلس الثاني عُقد في ٧ كانون الثاني سنة ١٥٤٦م وتُلي فيه مرسوم وضعه آباء المجمع أمروا فيه أن يواظب جميع الحاضرين في المجمع وسكان المدينة على الصلوات والابتهالات وتقدمة القداسات ليمنّ الله على كنيسته بالأمان والجلاء غياهب الضلال، وسطوع أنوار الحق. وفرضوا نظاماً للمفاوضات في المباحث التي يبحث المجمع فيها، وأمروا بمجانبة الكلام الناخس والضوضاء إلى غير ذلك.

المجلس الثالث عُقد في الرابع من شباط وأقروا فيه دستور الايمان الذي تستعمله الكنيسة الآن. والمجلس الرابع عُقد في الثامن من نيسان وأقروا فيه عدد الأسفار المقدّسة وأثبتوا صحة كل ما اشتملت عليه، وهي في العهد القديم أسفار موسى الخمسة، ثم أسفار يشوع والقضاة وراعوت وأربعة أسفار الملوك وسفرا الأيام. وسفرا عزرا الأول والثاني المعزو إلى نحميا. ثم أسفار طوبيا ويهوديت واستير وايوب، وزبور داود المابة والخمسون، والأمثال والجامعة، ونشيد الانشاد، والحكمة، وسفر يشوع بن سيراخ، ونبوّات أشعيا وارميا مع بادوخ وحزقيال ودانيال، ونبوّات الأنبياء الصغار الاثني عشر هوشع ويوال وعموص وعبديا ويونان وميخا ونحوم وحبقوق وصفنيا وحجى وزكريا وملاخيا، وسفرا المكابيين الأول والثاني. وفي العهد الجديد الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل الذي كتبه لوقا الانجيلي، ورسائل بولس الرسول الأربع عشرة أي رسالته إلى الرومانيين ورسالتاه إلى قورنثية ورسائله إلى أهل غلاطية وأفسس وفيلبسيوس وتسالونيكي، ورسالتاه إلى طيموتاوس، ورسائله إلى طيطوس وفيليمون والعبرانيين. ورسالتا بطرس الرسول، ورسائل يوحنا الثلاث، ورسالتا يعقوب الرسول ويهوذا الرسول ورؤيا يوحنا. وطعنوا بالحرم كل من لم يعتقد بأنّ هذه الأسفار جميعها وكل ما اشتمل عليه كلّ منها صحيحة وقانونية ومنزلة وكذلك كل من ينبذون التقليدات الرسولية التي أجمع الآباء عليها من مواد الايمان والآداب، وأضافوا إلى ذلك مرسوماً موضوعه طبع هذه الأسفار وتفسيرها واستعمالها.

والمجلس الخامس عُقد في السابع عشر من حزيران بحثوا فيه عن الخطيئة الأصلية ووضعوا عدة قوانين طاعنين بالحرم من يخالفها. منها أنّ من أنكر أنّ الانسان الأول لم يفقد بمعصيته في الفردوس القداسة والبر اللذين كان حاصلاً عليهما، أو لم يقع تحت غضب الله وسخطه ويتسلط عليه الموت الذي هدده الله به، وتسوء حاله بالنفس والجسد فليكن محروماً. ومنها أنّ من يزعم أنّ معصية آدم أضرّت به وحده دون ذريته فليكن محروماً. وكذلك من أنكر أن المسيح صالحنا مع أبيه السماوي بموته، وأنّ المعمودية تمحو باستحقاقه جزيرة الخطيئة الأصلية إلى غير ذلك من القوانين. وألحق بهذه القوانين مرسوماً لاصلاح التهذيب البيعي موضوعه تلاوة الأسفار المقدّسة ولمَ يجوز تفسيرها.

وعُقد المجمع السادس في ١٣ من كانون الثاني سنة ١٥٤٧م وبحث فيه عن تبرير الخاطِئ ووضع الآباء ستة عشر فصلاً لشرح التبرير ومصدره، والوسائل المُبلِغة إليه، وألحقَ بذلك ثلاثة وثلاثين قانوناً، أولها من زعم أنّ الانسان يستطيع أن يتبرر أمام الله بأعماله البشرية وحدها دون نعمة يسوع المسيح فليكن محروماً. ومنها من زعم أنّ الانسان فقد الحرية بعد معصية آدم أو هي اسم بلا مسمى فليكن محروماً، ومنها أنّ من زعم أنّ الخاطئ يتبرر بالايمان دون سعيه مع نعمة الله بأعماله الصالحة فليكن محروماً.

وألحق آباء المجمع بالقوانين المذكورة مرسوماً في اصلاح التهذيب البيعي يشتمل على خمسة فصول موضوعها اقامة الأساقفة في أبرشياتهم وزيارتهم لها ومنعهم عن عمل الحبريات في أبرشيات غيرهم وفروض أصحاب الجعل.

والمجلس السابع عُقد في الثالث من آذار سنة ١٥٤٧م كان البحث فيه عن الأسرار، ووضعوا للأسرار بالاجمال ثلاثة عشر قانوناً، وللمعمودية أربعة عشر قانوناً. وللتثبيت ثلاثة قوانين. وألحقوا بذلك مرسوماً في اصلاح التهذيب اشتمل على خمسة عشر فصلاً في من يدبرون الكنائس وأرزاقهم وفي نوابهم وتكريس الكنائس إلى غير ذلك.

والمجلس الثامن عُقد في ١١ آذار وكان الوباء فشا في تريدنتو وأصدر البابا بولس الثالث براءة بنقل المجمع منها إلى بولونيا، ووضع المجمع مرسوماً بذلك فتُلي في هذا المجمع وأجازه الأكثرون. ونُقل المجمع إلى بولونيا بايطاليا، فعُقد المجلس

الأول فيها وهو التاسع من مجالس المجمع في ٢١ نيسان، وتُلي فيه مرسوم بتأجيل المجلس إلى الثاني من حزيران سنة ١٥٤٧م ريثما يتمّ اجتماع الآباء ببولونيا إذ كان تخلّف بعضهم بداعي الاحتفالات الفصحية في أبرشياتهم وأُجيز هذا المرسوم.

والمجلس العاشر عُقد في ٢ حزيران سنة ١٥٤٧م ولما كان عدد الأساقفة لم يتكامل بعد وضع المجتمعون مرسوماً أقرّوا فيه تأجيل المجلس إلى ١٥ ايلول. وعظم حينئذٍ الخلاف بين الحبر الروماني وبين عاهل المانيا الذي لم يكن يشاء نقل المجمع إلى بولونيا، وسعى برفع احتجاج على اقامة المجمع بهذه المدينة بناءً على أنّ الألمانيين لا يحضرون إليها لأنها من أملاك البابا. فتوقف المجمع أربع سنوات، وتوفي البابا بولس الثالث سنة ١٥٤٩م وانتُدب مكانه الكردينال دي مونتي أحد نوابه في المجمع وسمي يوليوس الثالث فأصدر براءة في استئناف أعمال المجمع في ١٤ آذار سنة ١٥٥٠م.

فعُقد المجلس الحادي عشر في أول أيار سنة ١٥٥١م في تريدنتو، ووضع مرسوماً أقرّ المجتمعون به استئناف المجمع، وعُيّن اليوم الأول من ايلول لعقد المجلس الثاني عشر، ولما عُقد هذا المجلس في اليوم المعيّن وكان يؤمل أنّ عاهل المانيا وغيره من ملوك أوروبا سيوفدون نوابهم إلى المجمع فروي أن تتأجل الأبحاث إلى مجلس آخر يُعقد في ١١ تشرين الأول.

وعُقد المجلس الثالث عشر في اليوم المار ذكره من سة ١٥٥١م وكان مدار البحث في سر الأوخارستيا، فوضع الآباء ثمانية فصول شرحوا بها حقيقة هذا السر وما يتعلّق بتناوله، وفرضوا أحد عشر قانوناً أولها من أنكر أنّ في سر الأوخارستيا الكلي القداسة جسد المسيح حقيقة وذاتاً وجوهراً متحداً بنفسه ولاهوته أي المسيح كاملاً أو زعم أنّ جسده بالقربان مجازاً أو رمزاً أو قوة فليكن محروماً. وأضافوا إلى ذلك مرسوماً في اصلاح التهذيب البيعي مشتملاً على ثمانية فصول في عناية الأساقفة بآداب رعاياهم والاستغاثة من أحكامهم وكيفية تصرفهم بهذه الأحكام، وأن لا يُدعى الأسقف للمحاكمة إلّا بدعوى توجب حطّه أو ابعاده عن وظيفته. وفي صفات من يصلحون للشهادة على الأسقف. وإنّ الدعاوى الباهظة على الأساقفة تناط بالحبر الروماني. ولما كان البروتستانت قد أبانوا رغبتهم في أن يطلعوا على ما يقرره المجمع في سر القربان، وفي أن يحضروا إليه إذا أعطوا منشور الايمان

فأرسل إليهم المجمع منشوراً يؤمنهم به ويطلق لهم أن يوردوا كل ما شاءوا من الأدلة ، وأن يكونوا في المجمع آمنين وينصرفوا منه متى طاب لهم فلم يحضروا .

والمجلس الرابع عشر عُقد في ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٥٥١م وكان البحث فيه عن سر التوبة ومسحة المرضى . وشرح الآباء ما يتعلق بسر التوبة في تسعة فصول وما يتعلق بسر المسحة في ثلاثة فصول ، وفرضوا في سر التوبة خمسة عشر قانوناً وفي سر المسحة أربعة قوانين وألحقوا بذلك مرسوماً في اصلاح التهذيب مشتملاً على ثلاثة عشر فصلاً في سلطان الأساقفة وانزالهم التأديبات ، وفي حق الولاية على الكنائس والأوقاف .

والمجلس الخامس عشر عُقد في ٢٥ كانون الثاني سنة ١٥٥٢م وكان البروتستانت قد طلبوا تأجيل التوقيع على القوانين المختصة بذبيحة القداس وسر الدرجة مظهرين الرغبة في الأتيان إلى المجمع . فتقرر في هذا المجلس أن يؤجل الاجتماع إلى ١٩ آذار . وأرسل المجمع إلى البروتستانت منشور الأمان ثانية بأكثر اسهاب فلم يقبلوه وأبوا الحضور .

والمجلس السادس عشر عُقد في ٢٨ نيسان سنة ١٥٥٢م فتقرر فيه ايقاف المجمع بسبب القلق الذي أثاره البروتستانت ومحازبوهم في جرمانيا وغيرها . حتى روي أنّ الغرض المقصود من المجمع هو ازالة الاختلافات وضمّ المؤمنين في وحدة الايمان أمسى متعذر المنال بل يُخشى من تعاظم القلق والشرور . واضطر أساقفة كثيرون أن يبارحوا المجمع لملافاة أحوال أبرشياتهم ، فأوقفوا المجمع أولاً إلى سنتين ثم بقي موقفاً إلى سنة ١٥٦٢م . ومات البابا يوليوس الثالث سنة ١٥٥٥م وخلفه مرسل الثاني ثم بولس الرابع سنة ١٥٥٩م، فأمر باستئناف المجمع سنة ١٥٦٢م .

فعُقد المجلس السابع عشر في ١٨ كانون الثاني من سنة ١٥٦٢م ولم يكن فيه إلّا تلاوة براءة البابا بالعود إلى تكملة المجمع وحكم المجمع بذلك .

وعُقد المجلس الثامن عشر في ٢٦ شباط سنة ١٥٦٢م فتُلي به مرسوم في تحريم الكتب الحاوية ضلالاً ، وأُقيمت لجنة لفحص الكتب وبيان ما ينبغي تحريمه منها لاقتلاع الزوان من حقل المخلّص . واشتمل هذا المرسوم أيضاً دعوة عامة ليأتي إلى هذا المجمع كل من أراد الوقوف على الحقيقة . وألحق به منشور التأمين للقبيلة الجرمانية حيث دعي إلى هذا المجمع الكهنة والأمراء وأصحاب الاقطاعات والشرفاء

وأعضاء الجمعيات ليشهدوا هذا المجمع آمنين ويطلق لهم أن يوردوا خطاً أو شفاهاً كل ما أرادوا من الآراء مأخوذة من آيات الكتاب وتقليدات الآباء ومراسيم المجامع. ثم عمموا هذا المنشور ليكون شاملاً جميع الذين يخالفون الايمان الكاثوليكي من أية مملكة أو قبيلة أو مدينة كانوا.

وعُقد المجلس التاسع عشر في ١٤ أيار سنة ١٥٦٢م ولما كان سفراء فرنسة الموفدون إلى المجمع لم يصلوا إليه والتمسوا تأجيل المجلس إلى حين بلوغهم. اكتفى الآباء باشهار تأجيل الاجتماع إلى الرابع من حزيران.

وعُقد المجلس العشرون في اليوم المذكور وتُليت فيه الرسائل المؤذنة بنصب سفراء فرنسة. وروي للآباء أنّ الأمثل تأجيل المفاوضات العامة لدواعٍ كثيرة ورغبةً في زيادة التحري والتدقيق، فأمروا أن يؤخر المجلس إلى ١٦ تموز.

وعُقد المجلس الحادي والعشرون في ١٦ تموز سنة ١٥٦٢م وكان البحث فيه عن تناول القربان المقدّس باعراض الخبز والخمر معاً، وعن مناولة الأطفال. وشرح المجمع تعليمه بذلك في أربعة فصول أولها في أنّ العامة والكهنة غير المقدسين لا يلتزمون بالناموس الإلهي أن يتناولوا الخبز والخمر المقدسين معاً بل يكفي تناولهم الخبز وحده، ويكونوا قد تناولوا جسد المسيح كاملاً، وإنّ مناولة الأطفال غير لازمة. وفرضوا لذلك أربعة قوانين وألحقوا بذلك مرسوماً في اصلاح التهذيب اشتمل على فصول أولها أن لا يحق للأسقف أن يأخذ شيئاً من المال بدل من ترقيته أحداً إلى الدرجات المقدّسة، وأن لا يرقي أحداً ما لم يكن له ما يقوم بأوده إلى غير ذلك مما يتعلق بالأسقف وخوارنة الرعايا.

وعُقد المجلس الثاني والعشرون في ١٧ ايلول سنة ١٥٦٢م وكان البحث فيه عن ذبيحة القداس، وشرح المجمعُ التعليمَ الكاثوليكي بهذه العقيدة في تسعة فصول وفرض في ذلك تسعة قوانين. وأضاف إلى ذلك مرسوماً في ما يلزم عمله أو تحاشيه في اقامة القداس. وألحق بذلك مرسوماً في اصلاح التهذيب حاوياً أحد عشر فصلاً في سيرة الاكليركيين، وفي الوصايا الأخيرة، وفي أنّ وكلاء الأوقاف يلزمهم اداء الحساب للأسقف عن وكالتهم إلى غير ذلك.

وعُقد المجلس الثالث والعشرون في ١٥ تموز سنة ١٥٦٣م وكان مدار البحث فيه عن سر الدرجة. وشرح الآباء التعليم الكاثوليكي بذلك في أربعة فصول

وألحقوه بثمانية قوانين، وأضافوا إليها مرسوماً في اصلاح التهذيب مشتملاً على ثمانية عشر فصلاً في لزوم اقامة الراعي في رعيته. وفي عمر المرشحين إلى الدرجات المقدّسة، والفحص عن سيرتهم وعلمهم، وفي نظام المدارس الاكليريكية إلى غير ذلك.

والمجلس الرابع والعشرون عُقد في ١١ تشرين الثاني سنة ١٥٦٣م وكان مداره على سر الزيجة. وفرض المجمع فيه اثني عشر قانوناً وألحق بها مرسوماً في اصلاح التهذيب مشتملاً على عشرة فصول موضوعها كيفية الزيجة والموانع المبطلة لها، ومن يحق له الحلّ منها والأيام الممنوع بها عقد الزيجة الخ. وألحق بذلك مرسوماً آخراً مشتملاً على واحد وعشرين فصلاً في نظام اقامة الأساقفة بأبرشياتهم، وفي لزوم عقد مجمع في الأبرشيات كل ثلاث سنين مرة، وكيفية زيارة الأسقف أبرشيته ولزوم الوعظ ومن يصلح لذلك، واختصاص الحبر الروماني بسماع الدعاوى الجزائية الكبرى على الأسقف، ونظام سماع الدعاوى في المحاكم الكنسية إلى غير ذلك.

والمجلس الخامس والعشرون وهو الأخير عُقد في ٣ و ٤ كانون الأول سنة ١٥٦٣م وتُلي فيه مرسوم المجمع في المطهر وفي الالتجاء إلى القديسين وتكريم الذخائر والصوَر، وأُلحق بذلك مرسوم في اصلاح التهذيب مداره على اصلاح مسير الرهبان والراهبات. وقد اشتمل على اثنين وعشرين فصلاً، وأُضيف إليه مرسوم آخر ينطوي على واحد وعشرين فصلاً في مواد مختلفة منها أنه يلزم الكرادلة والأساقفة القناعة في أثاث دورهم وموائدهم. وأن يتلوّم الأساقفة في الطعن بسيف الحرم، ثم شرح حق الولاية على الكنائس والاوقاف وما يحق للولي ولزوم اعادة اداء العشور إلى غير ذلك.

ولما لم يستتم هذا المجلس أعماله في اليوم المذكور نودي بالاجتماع لتكملتها في اليوم التالي وهو الرابع من كانون الأول، وتُلي حينئذٍ مرسوم المجمع في الغفارين والانقطاع عن المآكل المحرّمة وفي الأصوام والأعياد. وفي فهرست الكتب المحرّمة تلاوتها، وفي كتاب الفرض والقداس. ثم تُليت أعمال هذا المجمع التي كانت في أيام بولس الثالث ويوليوس الثالث فأجازها الآباء. وخُتم المجلس بالدعاء للبابا بيوس الرابع المالك حينئذٍ، ولبولس الثالث، ويوليوس الثالث اللذين عنيا به أيضاً، ولكرلوس

الخامس عاهل المانيا وغيره من الملوك الذين عاونوا على هذا المجمع . ثم وقّع الجميع على مجالس المجمع ورفعوا عريضة إلى الحبر الروماني التمسوا بها تثبيتها . فأصدر البابا بيوس الرابع براءته في اثباتها مؤرخة في السادس من كانون الثاني سنة ١٥٦٤م. وكان عدد الذين وقّعوا على هذا المجمع مئتين وخمسين وهم سفراء البابا أربعة وكردينالان وثلاثة بطاركة وهو بطريرك أورشليم اللاتيني وبطريرك اكلويليا وبطريرك البندقية، وخمسة وعشرون رئيس أساقفة، ومئة وثمانية وستون أسقفاً، وتسعة وثلاثون وكيلاً عن غايبين، وسبعة رؤساء، وسبعة رؤساء عامون للرهبانيات .

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن السادس عشر

عد ٩٧٩
بعض حكامهم وأعيانهم في هذا القرن

كان في هذا القرن كثيرون من مقدمي الموارنة ومشايخهم يلون قومهم من قبل ولاة دمشق أو طرابلس أو غزير وما يليها . وقد ذكرنا في تاريخ القرن الخامس عشر أنّ المقدّم عبد المنعم الثاني مقدّم بشري توفي سنة ١٤٩٤م وخلفه ابنه يوسف، ثم توفي يوسف وخلفه ابنه المقدّم الياس بن يوسف المذكور. ونرى البطريرك اسطفانوس الدويهي روى في تاريخ سنة ١٥١٤م أنّ البطريرك سمعان الحدثي التمس من البابا لاون العاشر في جملة ما التمسه منه أن يكتب رسالة إلى المقدّم الياس بن يوسف من بشري ليكون غيوراً على قومه أهل جبل لبنان . وروى في تاريخ سنة ١٥١٥م أنّ الحبر الروماني أنفذ الرسالة المطلوبة إلى المقدّم الياس المذكور وحثّه بها على أن تكون له العناية بأمر الدين الكاثوليكي واليقظة لسياسة ملّته . ثم

توفي المقدّم الياس سنة ١٥١٩م ولم يكن له إلّا ولد قاصر اسمه يوحنا. فتغلّب على المقدمية كمال الدين بن عبد الوهاب المعروف بابن عجرمة من قيطو، وتزوج بست الملوك ابنة الشيخ علوان بن قمر من بشري، وكانت ذات ثروة عظيمة فبنى برجاً بقيطو وحكم الجهة الشمالية من البلاد. ويظهر أنّ بشري والجهة الجنوبية لبثت بعهدة المقدّم يوحنا، وسُمّي عبدالمنعم أيضاً. ففي سنة ١٥٣٧م كان اجتماع بيلوزا، ولما قدم مقدّم بشري يوحنا المذكور لم يرد ابن عجرمة أن يلاقيه أو يقف عند دخوله، فطعنه المقدّم يوحنا بالرمح فقتله ودُفن بقيطو شرقي كنيسة مار سركيس. وفي سنة ١٥٤٧م كان مقتل المقدّم عبد المنعم يوحنا فإنّ ست الملوك أرملة ابن عجرمة رغبةً في أخذ ثأر زوجها استدعت إليها حماده رئيس الحمادية الذين أتوا من بلاد العجم إلى قهمز بلبنان، واتفقت مع نصارى ملكية من عين حليا فأكمنوا للمقدّم في خارج داره، ولما خرج سحراً وثبوا عليه وقتلوه، ودخل الملكية الدار وقتلوا أولاده. وما انتشر الخبر حتى أسرع أهل بشري في طلب القاتلين فأدركوهم في محل يسمى الحرائص فقتلوا حماده وبعضاً من رفاقه. وانقرضت بمقتل يوحنا هذا ذرية المقدّم سيفا، وانتقلت إلى ذرية قمر، وسمي المقدمون من ذرية قمر العناحلة نسبةً إلى عين حليا، لأنّ رجلاً من عين حليا اسمه عز الدين تزوج ببنت حسام الدين بن أيوب بن قمر مقدم من بشري سنة ١٤٣٠م، فولد منها حسام الدين، وهذا رُزق أربعة أولاد هم: موسى ورزق الله، وداغر، وعاشينا. ولما انقرضت سلالة سيفا أخذ هؤلاء الولاية على جبة بشري. ويظهر أنّ الذي أخذ الولاية منهم هو رزق الله، إذ روى الدويهي في تاريخ سنة ١٥٥٧م أنّ رزق الله هذا مقدم بشري كان حاضراً مع البطريرك وثمانية مطارين ونحو أربعماية كاهن في تقديس الميرون يوم خميس الأسرار من السنة المذكورة. وروى في تاريخ سنة ١٥٧٠م أنّ رزق الله هذا كان قد تولّى المقدمية من قبل الأمير منصور بن عساف، وكان مجدّاً في تعمير البلاد وجباية مال الحكومة، وكانت فتنة بينه وبين أخيه عاشينا لأنّ عاشينا لم يكن حسن السيرة بل كان يسطو على الناس وينهب ويقتل فحنق عليه أخوه المقدّم رزق الله وأنّبه أشد التأنيب فرحل إلى حصرون وكان متزوجاً بامرأة منها وأخذ يهدد أخاه بالقتل، فأصلح البطريرك ما بينهما وأعاد عاشينا إلى البرج الذي كان قد بناه في أسفل بشري، لكنه لم ينكفّ عن طريقته السيئة ونفرت القلوب منه. وشُكي إلى نائب طرابلس بأنه شلح قفلاً في المسيقة فأراد رزق

الله أن يستريح من شرّه فدبر على قتله، ودعاه إليه إلى البرج الذي في أعلى القرية وكان قد تآمر مع رجال من الضنية على قتله ، وكمنوا له في البرج ، ولما دخل إليه اغتالوه . وسمع البطريرك فأتى إلى بشري وحرم رزق الله على مسمع الجمهور. وطلب صاحب القفل إلى المقدّم أن يردّ له ما سلب منه، فتبرأ من ذلك فدعاه إلى المحكمة ونزل المقدّم إلى طرابلس مع مشايخ القرى للمحاسبة على الخراج . وحضر إلى القاضي فلم يقدّم صاحب القفل بيّنة ولا شاهداً، فتأجلت الدعوى إلى اقامة بيّنة . ثم عاد المقدّم بعد مدة إلى طرابلس ورقبه صاحب القفل حتى دخل الحمام فرشا الحارس في الحمام، وختّم طرف عمامة المقدّم بسمة بضاعته ، ولما خرج من الحمام أمسكه بيده وقال لا يحق لك يا مقدّم أن تأكل مال المسلمين . وأخذه إلى أمام القاضي وأراه سمة بضاعته على عمامة المقدّم فحكم القاضي عليه فربطوه في ذنب حصان وجرّروه حتى قضى أجله وهو بريء من تلك التهمة .

وبعد مقتل المقدّم رزق الله تولّى المقدمية سنة ١٥٧٣م أخوه داغر وعساف بن موسى أخيهما من قبل الأمير منصور بن عساف ، وأرسل الأمير رجالاً قتلوا موسى وداود ابني شلندى من بشري حمي المقدّم رزق الله ، وقيل أنهما عملا على قتل صهرهما، وخاف أقارب بني شلندى فنزلوا إلى طرابلس وشكوا المقدّم داغر بأنه تسبب بقتل نسيبهم ، فطيّب نائب طرابلس خاطرهم . ولما أرسل جابي المال إلى بشري أمره بقتل المقدّم داغر ، وبعد أن جبى مال القرية ركب حصانه وطعن المقدّم داغر برمحه فقتله . ثم إنّ الأمير منصور عساف قتل المقدّم عساف ابن أخي داغر ، وولّى على جبة بشري أبا سلهب القريعي . وكان دلك مخالفاً لرضى أبي منصور حبيش مدبر الأمير منصور . وفي سنة ١٥٧٤م وقعت النفرة بين أبي سلهب القريعي المذكور وأنسبائه وبين البشرانية ، وقتل القريعي رجلين مس بشري عند العين التي تحت بقاعكفره ، وقُدّمت الشكوى إلى الأمير منصور فعزل الأمير منصور أبا سلهب القريعي بتدبير الشيخ أبي منصور حبيش عن مقدمية الجبة، وولّى مكانه مقلد ابن الياس ، وأشرك معه في الولاية الشدياق يوسف أبا رعد المعروف بخاطر ابن الشدياق شاهين الحصروني من بيت مشروق . وأما اهدن فكان ثلاثة شمامسة يدبرون أمورها .

وفي سنة ١٥٧٩م قُدّمت الشكوى إلى الباب العالي على الأمير منصور عساف بقتله ابن شعيب حاكم طرابلس ، وامراء فتقا غيرهم فأمر السلطان بجعل

طرابلس باشاوية لكسر شوكة الأمير منصور وجعل يوسف باشا ابن سيفا التركماني والياً عليها. فطلب المقدّم مقلد والشدياق خاطر فهرب الأمير مقلد إلى جهة الشوف فمات هناك وله صبي اسمه جمال الدين يوسف، وبنت اسمها ست البنات. على أنّ يوسف باشا رضي عن الشدياق خاطر وكاتبه وأمّنه وأعاده إلى ولاية جبة بشري، وجعل الشدياق باخوس بن صادر الحدشيتي شريكاً له في الولاية. وتوفي الشدياق باخوس المذكور سنة ١٥٩٤م وخلفه ابنه الشدياق فرج في تدبير جبة بشري مع الشدياق خاطر.

وقد اشتهر بهذا العصر الشيخ حبيش بن موسى بن عبدالله بن مخائيل، فإنه انتقل من قرية يانوح بعياله إلى غزير بعد أن دوّخ السلطان سليم الأول العثماني سورية ومصر وأمنهما، وولّى الأمير عساف على كسروان وبلاد جبيل، فأقام الشيخ حبيش بغزير عند الأمير عساف، وكان له ثلاثة بنين يوسف ومهنا وسليمان. وتوفي الأمير عساف ١٥١٨م وتوفي بعده ابنه الأمير حسن فكان يوسف وسليمان ابنا حبيش مدبري حكمه. ثم قتل الأمير قيتبيه (قايدبيه) ابن الأمير عساف الأمير حسن والأمير حسين أخويه ببيروت، وقبض على يوسف وسليمان ابني حبيش وحبسهما ثم نفاهما إلى مصر. ثم توفي الأمير قيتبيه بن عساف وخلفه الأمير منصور ابن أخيه حسن فردّ الشيخين يوسف وسليمان ابني حبيش إلى خدمته سنة ١٥٢٣م. ولما حنق حمد آغا بن شعيب حاكم طرابلس على الأمير منصور، أرسل الأمير إليه سنة ١٥٢٨م ابني حبيش وعبد المنعم الآتي ذكره ، فقتلوا ابن شعيب وألحقوا به ابنه في جامع طيلان بطرابلس وأصلحوا نفوسهم مع القاضي فحكم أنهم أبرياء. وقد مرّ ذلك.

ولما توزع القشلق (ضريبة للحكومة وقال بعضهم يراد به زمرة من الجند) على ولاية الشام سنة ١٥٧٢م وأصاب جبة بشري منه واحد وعشرون ألف سلطاني، وقيمة السلطاني ثلثا القرش، وأصاب دير قنوبين منه مائتا سلطاني، وضبطت الحكومة الدير، فاستفكه البطريرك ميخائيل الرزي بعناية الشيخ أبي منصور حبيش وهو الشيخ يوسف المذكور على ما يظهر. ولما حصل القتال بين القريعية وبين أهل بشري عني الشيخ أبو منصور جبيش بعزل القريعية عن حكومة الجبة، وولّى عليها مقلد بن الياس كما مرّ. وتوفي الشيخ أبو منصور يوسف حبيش سنة ١٥٨٣م وخلفه في تدبير ولاية غزير أخوه الشيخ أبو يونس سليمان. ولما قتل يوسف باشا

سيفا الأمير محمد العساف وتزوج امرأته ، قبض يوسف باشا على سليمان حبيش المذكور وعلى منصور ابن أخيه مهنا وقتلهما سنة ١٥٩٣م وهرب ولداهما يونس وحبيش إلى الشويفات ملتجئين إلى الأمير محمد بن جمال الدين التنوخي . هذا ما ذكره العلامة الدويهي في تاريخه ونقله عنه الشيخ طنوس الشدياق في تاريخ الأعيان . وفي ذلك نظر فإن كان الشيخ يوسف والشيخ سليمان حبيش انضويا إلى خدمة الأمير عساف سنة ١٥١٨م فلا بد أن كان عمرهما حينئذٍ نحواً من عشرين سنة على الأقل ، فيتعسر تصديق الرواية أنّ الشيخ سليمان خاصة عاش ثلاثة وتسعين سنة . وأظن أنّ في النسب خطأ وأنّ أبا منصور يوسف وأبا يونس سليمان هما غير يوسف وسليمان ابني حبيش اللذين خدما الأمير عساف سة ١٥١٨م والله أعلم .

وكان من أعيان الموارنة وحكامهم في هذا القرن مالك ابو الغيث ذكره البطريرك الدوبهي في تاريخ سنة ١٥٢٣م، فقال كان متكلماً على العاقورة أي حاكماً بها . وكان صاحب همة واقدام وسار إلى دمشق ولبث بها مدة، فاغتنم المتاولة فرصة غيابه وانتقلوا من حراجل إلى قرية تدمر التي فوق يانوح فعمروها واستوطنوا بها . وعلم بذلك الشيخ مالك فحمل عليهم وطردهم من هناك ، وأخذ كل ما كان لهم إلى العاقورة . وروي في تاريخ سنة ١٥٣٤م أنه كان فيها خصام بين مالك شيخ العاقورة وهو من غرض اليمنية ، وبين هاشم العجمي . فكبس مالك جبة المنيطرة مرتين وأحرق قراها ، واتفق أهل هذه القرى ومن كانوا من حزب القيسية في العاقورة وأكمنوا لمالك في طريق الجرد فقتلوه غيلة ، فسار حنش وحرفوش أخوا مالك إلى دمشق يشكون إلى نائبها، فكتب إلى الأمير منصور عساف أن يقبض على الغرماء ويرسلهم إليه ، فأرسل الأمير منصور عبدالمنعم ابن عم هاشم ومعه رجال وأخو مالك للقبض على هاشم وقاتلي مالك . فانهزم هاشم إلى الأمراء الحرافشة لائذاً بهم فخانوه بسعاية عبد المنعم ابن عمه، إذ تعهد لهم بقتل الأمير منصور عساف وتسليمهم اقطاعاته ، فاغتالوا هاشماً ورموه في بئر عند الكرك يسمى باسمه . ووجس أهل العاقورة وفرّ القيسية منهم إلى طرابلس واليمنية إلى دمشق ، وخلت العاقورة من السكان سبع سنين .وقد ذكرنا ذلك في عدد ٩٦٠.

وأما هاشم العجمي الذي ولاّه الأمير منصور عساف على بلاد جبيل وابن عمه عبد المنعم الذي جعله دهقاناً على أمواله ، وبنى له داراً في غزير قُتل فيها كما مرّ

في العد المذكور من كتابنا هذا. فلا نظن أنهما كانا من الموارنة وإنساب آل هاشم في العاقورة إلى هاشم المذكور لا نراه صحيحاً، بل ترى الأظهر ما نقلناه في العدد المذكور عن خط الصالح الذكر الشهير بمعرفة الانساب البطريرك بولس مسعد وهو أنّ نسبة هؤلاء المشايخ إنما هي إلى هاشم أحد أبناء الشيخ أيوب ابن الشماس توما الآتي ذكره.

الشيخ أيوب ابن الشماس توما من العاقورة ذكره العلامة الدويهي في تاريخ سنة ١٥٣٤م فقال وأما الشيخ أيوب وأخوه فضول ابنا الشماس توما فسكنا عند دير القديس أدنا كرسي أسقفية العاقورة وساعدهما الله على تعمير قريتهما، ونالا أمراً من نائب دمشق بأن يجمعا سكانها (الذين كانوا قد تشتتوا كما مرّ) وأن يكونا مشايخ فيها. ووُلد لأيوب ثلاثة بنين وهم هاشم المار ذكره وضاهر ورعد وأشهرهم هاشم جد آل هاشم ومشايخ العاقورة.

وفي سنة ١٥٤٥م انتقل الشدياق سركيس الخازن من قرية جاج ببلاد جبيل إلى قرية البوار بالفتوح لاستحراذ الأمن والراحة في ولاية الأمير منصور عساف، ثم انتقل من البوار إلى قرية بلونه بجوار عجلتون. وتوفي الشدياق سركيس سنة ١٥٧٠م وله ابنان أبو صقر ابراهيم وأبو صافي رباح. وفي سنة ١٥٨٤م توفي الأمير قرقماز المعني في مغارة جزين منهزماً من أمام ابراهيم باشا والي مصر الذي كان السلطان قد أرسله للتنكيل بولاة لبنان لاتهامهم بسلب خزينته في جون عكار. فأرسلت أرملة الأمير قرقماز ابنيها الأميرين فخر الدين ويونس إلى بلونة مع الشيخ كيوان الماروني من دير القمر فخبأهما عند الشيخ أبي صقر ابراهيم الخازن ابن سركيس. ولما انصرف ابراهيم باشا عاد الأميران فخر الدين ويونس إلى اعبيه عند خالهما الأمير سيف الدين التنوخي، ولما بلغا أشدهما ردهما خالهما إلى ولاية أبيهما بالشوف فتذكرا معروف الشيخ ابراهيم الخازن، ودعاه الأمير فخر الدين إليه وجعله مدبراً لحكومته وجعل أخاه رباحاً دهقاناً لأملاكه في آخر هذا القرن سنة ١٦٠٠م، فكان ذلك سبيلاً إلى تقدّم الأسرة الخازنية في المناصب كما سوف ترى.

الشيخ كيوان المارد‌ني هذا من دير القمر كان مدبراً لحكومة الأمير قرقماز ابن الأمير فخر الدين الأول. ولما توفي الأمير قرقماز سنة ١٥٨٤م عنيَ كيوان بتخبئة

ولديه فخر الدين ويونس عند الشيخين ابراهيم ورباح الخازن كما مرّ. ولم نعلم شيئاً آخر من أمر هذا الرجل.

الشيخ يوسف بن شكيبان الحصاراتي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٣٢م، فقال عبد الساتر الكردي حاكم البترون قصد أن يعصو الأمير منصور بن عساف فجهز له الأمير أربعين رجلاً قتلوه وألحقوا به أباه، وولّى مكانه يوسف بن شكيبان الحصاراتي وصرّفه ببلاد البترون لاشتهاره بالنزاهة والعدل والشجاعة.

ومن نكبات الموارنة في هذا القرن قتل جمّ غفير منهم في قبرص عند فتح العثمانيين لها سنة ١٥٧٠م. فقد أنبأنا الدويهي في تاريخ السنة المذكورة أنّ الذين قُتلوا من الموارنة حينئذٍ كانوا نحو ثمانية عشر ألفاً، وكان اثنا عشر ألف رجل منهم قد اعتصموا بقرية اسمها كاليسباسي على قمة الجبل، فحلفوا لهم إذا استسلموا إليهم لم يضرّوا بهم، بل يردون إليهم قراهم ويولونهم عليها، فلما نزلوا إليهم قتلوهم عن آخرهم فكان عدد قتلى الموارنة حينئذٍ ثلاثين ألفاً.

والنكبة الثانية أنه لما وزع القشلق على بلاد الشام سنة ١٥٧٢م وأصاب أهل جبة بشري منه واحد وعشرين ألف سلطاني كناية عن أربعة عشر ألف قرش، فأكثر جباة هذه الضريبة من الصرامة والقسوة على الأهلين حتى اضطر كثيرون منهم إلى الفرار، وخلت قراهم من السكان. وذكر الدويهي من هذه القرى سبعل وبنهران ومتريت والناووس وأدنيت وكفرفو وراس كيفا وسرعل ونيحا وحيرونا وبرحليون ورشديين وبقرقاشا.

عد ٩٨٠
بطاركة الموارنة في القرن السادس عشر
وأولاً في البطريرك موسى العكاري

فرغنا من الكلام على هؤلاء البطاركة في القرن الخامس عشر بذكر البطريرك سمعان الحدثي ووفاته في أواخر شهر تشرين الثاني سنة ١٥٢٤م. وفي الحادي عشر من كانون الأول من السنة المذكورة اجتمع الأساقفة وأعيان الاكليروس والشعب وانتخبوا موسى بن سعادة من قرية الباردة بعكار، وكان راهباً في دير

السيدة بحوقا، وكان البطريرك سمعان الحدثي سالفه قد أرسله سنة ١٥٢٢م إلى البابا أدريانوس السادس. وبعد عودته رقاه إلى الأسقفية كما مرّ. وقال فيه العلامة السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٢٢) نقلاً عن تاريخ الدويهي: «إنه كان ذا عبادة جزيلة وغيرة متقدة دخل إلى روما وأحضر درع التثبيت للبطريرك سمعان (الحدثي) وصنّف قصيدة سريانية في سفره إلى رومية، وقصيدة أخرى في مدح يوسف بن يعقوب، وأنشأ أملاكاً كثيرة لدير قنوبين، وترك له عند وفاته ثروة وافرة، وحزن على موته شعب الموارنة كلهم ودفنوا جسده الطاهر في مغارة القديسة مارينا بالبكاء والنوح. وبعد دفنه جعلوا مخدعه الذي كان قرب باب كنيسة السيدة معبداً، ونصبوا فيه مذبحين على اسم الرسولين بطرس وبولس كي لا يسكن هناك أحد بعده».

وقال السمعاني بعد ذلك أنّ في دير الكرسي الرسولي البطريركي المذكور أربع رسائل من الأحبار الأعظمين منفذة إليه، ولديّ منها أربع نسخ منقولة عن أصولها الأولى من البابا اكليمنضوس السابع مؤرخة في ٢٥ من كانون الثاني سنة ١٥٣١م، والثانية من بولس الثالث مؤرخة في شهر كانون الأول سنة ١٥٤٢م، والثالثة من بولس الرابع مؤرخة في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٥٥٦م، والرابعة من بيوس الرابع مؤرخة في أوائل ايلول سنة ١٥٦٢م. وقد أرسل البطريرك موسى إلى هذا البابا جيورجيوس مطران دمشق لينوب عنه وعن ملّة الموارنة في المجمع التريدنتيني. وهذا ظاهر من رسالة هذا البابا إلي حيث يقول: «قد قابلنا بارتياح أخانا المحترم جيورجيوس مطران دمشق الذي حمل رسالتك إلينا». إلى أن يقول: «وأما رغبتكم في أن نرسل المطران المذكور إلى المجمع التريدنتيني، فلم نرَ الاجابة إليها لازمة ولا سيما لأنه لا يعرف اللاتينية ولا يحسن الكلام بالايطالية، فلا يتمكن من بيان ما يراه ولا من فهم ما يبحث عنه، ولهذا رأينا الأولى أنكم متى سنحت لكم الفرصة ترسلون إلينا رسالة تقرون بها بأنكم خاضعون أنتم وأساقفتكم واكليرسكم لجميع مراسيم المجمع التريدنتيني وتثبتون كل ما أثبته وترذلون كل ما رذله كما صنع أخونا المحترم عبد يشوع بطريرك الكلدان قبل سفره من عندنا عن عهد قريب».

وفي أيام هذا البطريرك جدد وأيّد البابا اكليمنضوس السابع في ١١ ايلول سنة ١٥٢٨م منح الغفران الذي كان سالفه البابا لاون العاشر قد أنعم به على من يزورون كنيسة الكرسي البطريركي في عيد ميلاد المخلّص وختانته وظهوره للتبشير

(الغطاس) وصعوده وحلول الروح القدس (العنصرة)، وأعياد: ميلاد يوحنا المعمدان ، وانتقال العذراء ، والقديسين بطرس وبولس ، ووجود الصليب بحيث أن يعترفوا ويتناولوا القربان الأقدس في تلك الأيام ويتبرعوا بدفع صدقة ما للكرسي البطريركي أو لترميم غيره من كنائس الطائفة . وكذلك منح البابا بيوس الثالث في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٥٤٢م غفران سبع سنين وسبع أربعينات للموارنة كل مرة تلا أحدهم أمام صورة المصلوب خمساً الصلوة الربانية والسلام الملكي ، بحيث أن يكونوا تائبين ومعترفين حقيقة أن يقصدوا الاعتراف في الأزمنة المرسومة ، ثم إنّ البابا بيوس الرابع فوّض إلى البطريرك موسى المذكور في رسالته المنفذة إليه في أول ايلول سنة ١٥٦٢م أن يحل من التأديبات البيعية جميع الهراطقة والمشاقين والمارقين سواء كانوا من الموارنة أو من أية ملّة كانت ، وأثبت الغفارين الممنوحة من سلفائه . وترى هذه المراسيم الحبرية في ذيل المجمع اللبناني المطبوع حديثاً .

ومن أعمال البطريرك موسى المذكور أنه أرسل سنة ١٥٢٧م انطونيوس مطران دمشق لطلب التثبيت من الحبر الروماني ، فوقع بيد اللصوص بالبحر وسلبوا ما كان معه حتى رسائل البابا . ثم استفك نفسه ودخل إلى روما ونال حظوة لدى البابا اكليمنضوس السابع . وسلّم إليه منشور الغفران المار ذكره ، ودفع إليه توصاة إلى المؤمنين ليتصدقوا عليه ، ولم يرسل درع الرئاسة إلى البطريرك لفقدان رسالته . وفي سنة ١٥٣٠م أرسل البطريرك رسالتين إلى البابا اكليمنضوس السابع مع بعض المرسلين يحقق له دوام خضوع ملّته للكرسي الرسولي، ويخبره عن الضنك الحاصل عليهم ، ويسأله أن يكرم عليه بالملابس الكهنوتية ، وأن يجعل الكردينال سنتاكروس وكيلاً عاماً للملّة المارونية ، فأجابه البابا في ٢٥ كانون الثاني سنة ١٥٣١م أنه قد سرّ كثيراً بأنّ شعبه ما برح يزداد عبادة وتقوى واستمساكاً بعرى الايمان الكاثوليكي ، وأنه عيّن الكردينال المذكور وكيلاً بروما لأمة الموارنة وهو الذي ارتقى السدّة البابوية بعداً ، ودُعيَ مرشلوس أو مرسل .

وفي سنة ١٥٤٢م أرسل البطريرك رسالة إلى البابا بولس الثالث مع أحد المرسلين سأل قداسته فيها أن يوصي رئيس الرهبان فرنسيس أن يرسل إليه ستة كهنة لينشئوا مدرسة بلبنان لتعليم بعض الشبان اللغة اللاتينية مبيّناً له أنه من مدة طويلة لم يأتِ أحد من قبل الحبر الروماني لزيارتهم ، ولا استطاع هو أن يرسل أحداً يعرف اللغة إلى قداسته . وأثبت الدويهي ترجمة جواب البابا على هذه الرسالة في

الفصل ١٦ من كتاب رد التهم. وفي سنة ١٥٤٥م أرسل كرلوس الخامس عاهل جرمانيا إلى البطريرك موسى بدلة جميلة لخدمة الاسرار الالهية مع الطبيب ابراهيم العاقوري. قال الدويهي وهي محفوظة إلى الآن في دير قنوبين. وفي سنة ١٥٥٣م أخذ جابي المال في قبل والي طرابلس زيادة المال على المال المطلوب من دير قنوبين، فرفع البطريرك موسى عريضة إلى السلطان سليمان خان الغازي وكان يومئذٍ بحلب، فصدرت إرادته السنية يأمر لقاضي طرابلس أن ينظر في الدعوى ويأمر الجابي أن يردّ على دير قنوبين ما أخذه منه وتاريخ هذا الأمر في ١٥ محرم سنة ٩٦١ هـ (سنة ١٥٥٤ م).

وفي سنة ١٥٥٥م ارتقى إلى السدّة الرسولية البابا بولس الرابع فرفع البطريرك إليه رسالة يهنئه بها ويلتمس بركته ودعاءه. فأجابه البابا في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٥٥٦م وأرسل إليه عدّة كاملة للتقديس. وقد ذكر ذلك الدويهي مفصلاً في الفصل السادس عشر من كتابه ردّ التهم. وفي سنة ١٥٥٧م عقد مجمعاً نهار خميس الأسرار وقدّس الميرون بحضرة ثمانية مطارين ونحو أربعماية كاهن ورزق الله مقدّم بشري وجم غفير. وفي هذه السنة أنشأ البطريرك كنيسة القديس جيورجيوس بقرية شدرة من عمل عكار.

وفي سنة ١٥٦١م اتفق أن وقع رجل في بئر كنيسة الموارنة بأورشليم المعروفة بكنيسة القديس جرجس ومات. فهرب الرهبان الموارنة الذين كانوا في تلك الكنيسة، وأتى جماعة من القبط دفعوا الغرامة التي توجّبت على الكنيسة ووضعوا يدهم عليها. فأخذ البطريرك موسى أمراً من مصطفى باشا والي دمشق إلى قاضي القدس مؤرخاً في شهر محرّم سنة ٩٧٢ هـ الموافقة ١٥٦٤ للميلاد، أن يسمع دعوى البطريرك ويرفع يد القبط عن الكنيسة، فسار البطريرك إلى القدس ومعه الدراهم اللازمة لاسترداد الكنيسة. وكان رئيس رهبان الفرنج اسمه بونيفاس فأقنع البطريرك أن لا يداعي القبط ولا يخسر الدراهم بل أن يقضي جماعته الموارنة فروضهم الدينية عند رهبانه في القدس في كنيسة المخلّص لكونهم قلائل. وكان لهم مذبح في كنيسة العلية الصهيونية، وإذا جار الزمان وخرج الرهبان أي رهبان القديس فرنسيس من القدس فتبقى كنيسة المخلّص بيد الموارنة. فاقتنع البطريرك بذلك، وعدل عن استرداد كنيسة القديس جرجس، ومداعاة القبط. واشترى بالدراهم داراً في القدس لجماعته. وهذا ظاهرمن رسالة كتبها البطريرك موسى إلى

البابا بيوس الرابع وأرسلها مع الأب بونيماس المذكور عندما انقضت مدة رئاسته وعاد إلى رومة.

ودخلت سنة ١٥٦١ ولم ينل البطريرك درع الرئاسة والتثبيت بالنوع المعتاد وإن تواترت عرائضه إلى الأحبار الرومانيين ونعمهم عليه كما رأيت، لأنّ الرسائل المرسلة مع المطران انطونيوس المذكور أتلفها اللصوص، ولم يتيسر له كل هذه المدة أن يرسل أحداً من أبناء ملّته يطلب له التثبيت. ففي هذه السة بلغه أنّ القس جرجس القبرصي يعرف اللغة الايطالية، فدعاه إليه وأمره أن يسير إلى روما، ودفع إليه رسالة منه ورسائل من أساقفة الملّة وأعيانها إلى البابا بيوس الرابع لطلب درع الرئاسة، وأرسل معه ست براءات من أسلافه لبطاركة الموارنة. ولما وقف البابا على هذه الرسائل أنعم على البطريرك بدرع الرئاسة وأرسل له مع قاصده عدة كاملة للتقديس وبراءة الغفران السابق ذكره ومرسوماً يحتم به أن لا يعارض أحد رؤساء الموارنة في الولاية على كنائسهم وأوقافهم، لأنّ البطريرك كان قد شكا إليه تعدي أسقف الأفقسية بقبرص اللاتيني على أوقاف الموارنة.

وكان البطريرك قد سلّم إلى القسّ جرجس المذكور أوراقاً ممهورة بختمه دون كتابة شيء عليها، حتى إذا دعت الحاجة يكتب عليها ما شاء. فكتب على إحدى هذه الأوراق عريضة إلى قداسته يلتمس منه أن يرقّي القسّ جرجس إلى أسقفية دمشق، ويرسله إلى المجمع التريدنتيني لينوب عنه فيه، فأمر البابا بترقيته اكراماً للبطريرك، واعتذر له عن ارساله إلى المجمع لأنه لا يعلم اللاتينية وليس ضليعاً بالايطالية كما رأيت آنفاً. ولما بلغ المطران جرجس إلى قبرص تلبث فيها ولم يصل إلى البطريرك. وبلغت هذه الأخبار إلى البطريرك موسى وهو في القدس كما مرّ. فأرسل إليه اعلاماً بربطه عن الإلٰهيات، وكتب إلى البابا يشكر له لانعامه بدرع الرئاسة ويخبره بما كان من تزوير قاصده.

وفي سنة ١٥٦٧م كانت وفاة البطريرك موسى في ٩ آذار وله من العمر خمس وثمانون سنة، وفي البطريركية اثنان وأربعون سنة وثلاثة أشهر، ودُفن في مغارة القديسة مارينا كما مرّ.

عد ٩٨١

البطريرك ميخائيل الرزي

في اليوم الثاني عشر بعد وفاة البطريرك موسى[1] اجتمع رؤساء الطائفة وأعيانها لانتخاب بطريرك ، فأجمع رأيهم على انتخاب الحبيس ميخائيل بن يوحنا الرزي من قرية بقوفا ، وكان ميخائيل المذكور أولاً رئيساً على دير قزحيا وعلى المحبسة . لكنه رغبةً في العزلة عن الناس ترك رئاسة الدير وأقام بمحبسة القديس بيشاي القريبة من الدير . ولما انتُخب للبطريركية تمنّع جداً من قبولها ، فألحّ عليه الأساقفة والأعيان بأن يخضع لمشيئة الله ، فقبل البطريركية على كره منه ، ثم أرسل أسقفاً يسمى يوليوس لزيارة شعبه بقبرص، وأمره أن يرسل إليه الشماس لوقا من قبرص لعلمه بأنه رجل فصيح خبير بلغات الافرنج . ولما أتى إليه رقاه إلى درجة الكهنوت ومقام البردوط ، وأرسله إلى روما مصحوباً برسائل الطاعة وشهادات رؤساء الملّة إلى الحبر الروماني طلباً لتثبيته . ومرّ لوقا المذكور بقبرص فوجد العساكر العثمانية محاصرة الجزيرة فاضطر أن يبقى فيها سنة كاملة . وبعد رفع الحصار سافر إلى روما ووقعت شبهة برسالة البطريرك لأنها ممهورة بختم جديد وكانت الأفكار متنبهة بسبب التزوير التي كان الخوري جرجس القبرصي قد أقدم عليه قبله . فتوقف تثبيت البطريرك . ثم إنّ الأب ايرونيموس فستاوس رئيس رهبان القديس فرنسيس انقضت مدة رئاسته فمضى يزور البطريرك قبل سفره إلى روما فصحبه البطريرك بعريضة أخرى إلى البابا يبيّن بها طاعته والتماسه ، فقدمها الرئيس إلى قداسته على يد الكردينال كارافا وكيل الموارنة بروما ، فسُرّ بها الحبر الروماني وحاشيته وهمّ بتثبيت البطريرك واجابة مطالبه فإذا كتابات وردت من قبرص قيل فيها أنّ البطريرك الجديد أصله يعقوبي خلافاً لما يقوله عنه ايرونيموس المذكور ، فتشوشت الخواطر وأمر البابا الكردينال كارافا أن يستقصي في هذه الأخبار . وكتب البابا والكردينال كارافا

---

(١) نص الدويهي في تاريخه ان البطريرك موسى توفي في التاسع من اذار ثم قال إنه في اليوم الثاني عشر (يفهم منه بعد وفاته) اجتمع رؤساء الملة وانتخبوا البطريرك ميخائيل فيكون انتخابه في ٢١ اذار. ونقل عنه لكويان في المشرق المسيحي ان انتخابه كان في ٣١ اذار فلا نعلم هل الخطأ في العدد الأول وصوابه في ١٩ اذار أو في العدد الثاني وصوابه في ٢١ اذار والأظهر انه توفي في ١٩ اذار كما رواه الدويهي في كتابه رد التهم اهـ.

والأب ايرونيموس إلى رئيس القدس الأب فرنسيس أن يمضي عاجلاً إلى لبنان ويفحص جيداً عن البطريرك الجديد وسيرته ومعتقده وأصله، وأن يطوف في البلاد يستوضح يقظاً صحة الأخبار عن البطريرك وعوائد ملّته. وكانت رسالة البابا هذه مؤرخة في ٨ حزيران ١٥٦٩م.

فسار الأب فرنسيس المذكور عاجلاً إلى لبنان وأطلع البطريرك ميخائيل على الرسائل الواردة له، فأمر البطريرك في آخر تشرين الثاني من السنة المذكورة باجتماع رؤساء الكهنة وعلماء الأمّة وقصّ عليهم ما ورد عليه من التهم، فهتف جميعهم من فم واحد أن لا أصل لهذه التهمة الشّنعاء وأنّ بطريركهم صحيح المعتقد جزيل التقوى والقداسة. وكتب المجتمعون تقريراً وممن وقّعوا عليه رئيس القدس المذكور والاسقف داود الحدثي، وسركيس الدويهي أسقف اهدن، وجرجس بن صرواص أسقف بشري، وسركيس الرزي أسقف عرقا وغيرهم. وأثبتوا بهذا التقرير أنّ البطريرك قويم الايمان حسن السيرة، حميد الخصال ما زاغ قطّ عن ايمان آبائهم وإنهم أكرهوه على قبول البطريركية. ومما كتبه البطريرك عن نفسه: «إن كنت قد غيّرت عادة من عوائد الكرسي الانطاكي فأكون مواخذاً أمام الله والكرسي الرسولي».

وسبب هذه التهمة أنّ أهل بقوفا قرية هذا البطريرك كان بعضهم وهم سكان المحلة السفلى قد مالوا إلى اليعقوبية باغواء ديوسقوروس بن ضو اليعقوبي، فوثب عليهم أهل اهدن ودكوا منازلهم وطردوهم من البلاد، وأما بيت الرزي الذين كانوا يسكنون المحلة العليا من القرية فصانوا نفوسهم من الضلال، لكنهم اضطروا إلى المهاجرة من قريتهم إلى قرية كفرحورا وما برحوا إلى اليوم يحافظون على ايمان آبائهم، وقام منهم ثلاثة بطاركة دبروا الكرسي الانطاكي نحو إحدى وأربعين سنة. قال الدويهي الذي ننقل هذه الأخبار عن كتابه في رد التهم (فصل ١٦): «وما زال أعقابهم إلى اليوم حكاماً على زاوية رشعين يقومون بمعاضدة الكرسي البطريركي بكل جهدهم كما يفعل الآن الشيخ أبو شديد ضاهر خليفة الشدياق انطونيوس بن الرزي».

ثم إنّ البطريرك ميخائيل أرسل إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر المطران جرجس البسلوقيتي والخوري اقليمس الأهدني مصحوبين برسائل منه ومن رؤساء

الأمّة يؤدون بها فروض الطاعة ويلتمسون درع الرئاسة للبطريرك . ولما اطلع البابا على الرسائل سُرّ بها وأرسل إلى البطريرك رسالة مؤرخة في ١٤ شباط سنة ١٥٧٧م سنذكر ملخصها ، وأرسل مع القاصدين إلى البطريرك الأب جوان باطيستا (يوحنا المعمدان) اليان والأب توماراديوس من اليسوعيين وأمرهما أن يفحصا عن ايمان الموارنة وطاعتهم وكتبهم وعوائدهم ، وأرسل معهما للبطريرك عدة كاملة للتقديس ، ورسالة يوصيه بها بالأبوين المذكورين . ولما بلغا مع القاصدين البطريركيين إلى قنوبين ، رحّب البطريرك بهم وأمر باجتماع الأساقفة ورؤساء الأديار وأعيان الشعب ، فأقرّ أماهم بأنه ماروني ابن ماروني متشبث بالخضوع لصاحب الكرسي الروماني ، وأقسم على أنه يقبل كل ما يقبله ويرذل كل ما يرذله . ثم كتب ذلك في صفيحة وطواها وقال ها هو اعتقادي، عليه أحيا وعليه أموت .

ثم استأذن جوان باطيستا البطريرك أن يطوف ببلاد الموارنة ويطلع على كتبهم وعوائدهم ، وكان يعلم العربية ويُحسن قراءة الخط الكرشوني فسّر البطريرك بذلك ، وكتب رسالة بخط يده إلى الأساقفة ورؤساء الأديار والأعيان ليحسنوا ملتقاه واكرامه ويطلعوه على كل ما يحب من الكتب ، وأمر أخاه المطران سركيس والقس جرجس يونان من ايليج أن يرافقاه ، واستمر نحو سنة يجول في الأديار ويتفقد الكنائس ويطّلع على الكتب . وصنع لنفسه ثلاثة دفاتر يكتب في الأوّل ما يراه من الغلط ، وفي الثاني ما يلزم استشارة البابا فيه ، وفي الثالث ما يلزم الكهنة والعامة التنبيه إلى حفظه . وبينما كان الناس يتوقعون انعقاد مجمع طائفي وفد أمر من رئيس اليسوعيين يطلب به عود جوان باطيستا إلى روما ، فودّع البطريرك في ٢٥ من شباط سنة ١٥٧٩م وسافر ، وأرسل البطريرك معه عريضة للبابا ورسالة إلى الكردينال كارافا ، وبعث معه شابّين وهما جبرائيل الأدنيتي وكسبر القبرصي ليقتبسا العلوم برومة .

وقد حفظ لنا مرهج بن نيرون الباني في كتابه في اسم الموارنة وأصلهم ودينهم فقرة من رسالة من هذا البطريرك إلى الكردينال كارافا مؤرخة في ٢٥ آب سنة ١٥٧٨م في شأن بعض العبارات التي أدخلها الهراطقة على كتبنا . ومما قاله « قد يمكن أن يكتب إليكم أحد أنّ في كتبنا كلمات تخالف معتقد الكنيسة المقدّسة فثق أخي أننا لا نقبل إلّا ما تقبله الكنيسة المقدّسة ، وإن كان في بعض النسخ شيء يخالف ذلك ، فقد أدخله الهراطقة المحدقون بنا على تلك الكتب من زمان

طويل. فدع كل ريبة وشبهة باستقامة ايماننا فنحن مؤسسون من أقدم الأيام على صخرة ايمان الكنيسة المقدّسة الرسولية الرومانية، وقد تشبثنا به دائماً ولا نكلمكم بفمنا فقط بل بالفم والقلب معاً والله شاهد على ذلك».

وأما جوان باطيستا فلما بلغ إلى روما مثُل بحضرة البابا ودفع إليه رسالة البطريرك وأخبره عن أحواله وأحوال ملّته مثنياً على طاعتهم للكرسي الرسولي وصحة ايمانهم وتقواهم. ثم قال إنه بسبب اختلاطهم بأهل البدع اندسّ في كتبهم بعض أغلاط واستطرقوا بعض عوائد غير حميدة. وسأل قداسته أن ينشيء لهم مدرسة في روما يتهذّب بها شبانهم المرشحون للدرجات الكهنوتية. فابتهج البابا بما سمعه منه وشكر الله على أنه حفظ في الايمان الكاثوليكي شعباً بعيداً بعداً شاسعاً عن روما. وفي أول سنة ١٥٨٠م أمر جوان باطسيتا أن يعود إلى لبنان ومعه الأب جوان بردن من اليسوعيين أيضاً، وأرسل للبطريرك معهما براءة التثبيت ودرع الرئاسة وكأساً وحللاً كهنوتية وآنية للميرون وقوالب للبرشان وصوراً ومسابح ورسالة للبطريرك يخوّله بها لبس درع الرئاسة، ورسالة أخرى إلى الأسقف سركيس والأسقف داود ليتوليا تلبيسه الدرع والشهادة على ابرازه يمين الطاعة. والرسالتان بتاريخ ١٢ آذار ١٥٨٠م. وفي عيد انتقال السيدة لبس البطريرك الدرع وحلف يمين الطاعة على موجب الصورة المرسومة في المجمع التريدنتيني. وعُقد بعد ذلك المجمع الطائفي الذي سنفرد له فصلاً مخصوصاً.

أما الرسالة التي أنفذها إليه البابا غريغوريوس الثالث عشر مع قاصديه والأب جوان باطيستا فهي المثبتة ترجمتها في الفصل الحادي عشر من ذيل المجمع اللبناني المطبوع حديثاً صفحة ٣٢ وخلاصة ما قال فيها: «قد بلغنا أنّ قميص الرب غير المخيط الذي حاول أعداء الكنيسة أن يشقوه ما زال محفوظاً على سلامته عند أبناء الروح الذين على بعد رجائهم ثبتوا غير متزعزعين في وحدة الكنيسة الرومانية كما عرفنا مؤخراً من فحوى رسالتك المكتوبة بخط يدك المرفوعة إلينا على يد الأخ المحترم والأسقف جرجس والابن الحبيب الخوري اقليمس اللذين أوفدتهما إلينا، فنحن نسدي الحمد لله الذي عزانا بايمانك ونقبل بعاطفة المحبة الأبوية الطاعة التي أديتموها. ونثني كثيراً على اخلاصكم ونصرّح بأننا قد اتخذناك أنت وجميع الموارنة تحت عهدتنا وحماية السدّة الرسولية جرياً على آثار سلفائنا الأحبار الرومانيين. ونبذل لكم كل ما تفتقرون إليه من المساعدات وإذا كنتم في التماس

خلاص نفوسكم لم تزالوا بحول الله حافظين وديعة الايمان ، فرغبةً في مزيد نموكم في سبيل الخلاص والعمل بوصايا الله والكنيسة وحفظ تقليداتها رأينا من الواجب أن نحثكم بالنصائح الأبوية على الاجتهاد في أن ترعوا سالماً ما عهده إليكم سلفاؤنا ولا سيما اينوشنسيوس الثالث ، واوجان الرابع ، ولاون العاشر فإننا اقتداءً بهم ننبهكم إلى بعض أمور أدخلتموها عندكم على ما علمنا من خطأ منها ، على ما بلغنا أنكم في ذبيحة القدّاس تزيدون على التقديسات الثلاثية يا من وُلدت لأجلنا يا من صُلبت لأجلنا ارحمنا وهي تعزى إلى الثالوث كله ، لذلك نحكم بوجوب حذف تلك الزيادة ، ونأمر أنّ الميرون المقدّس يكون من زيت الزيتون والبلسم الصرف دون أن يُخلط بمادة أخرى ، وأن يكون تكريسه يوم خميس الأسرار وأن لا يُسمح بتوزيع سر التثبيت إلّا للأساقفة . وإنه يلزم مناولة الأطفال سرّ القربان المقدّس ولا يُخفى على درايتك أنّ نصّ الشرع صريح بأنّ درجات القرابة الدموية والإلهية التي يُحرم معها عقد الزواج لا تتعدى الدرجة الرابعة » . فهذا خلاصة ما جاء في هذه البراءة .

على أن زيادة يا من صُلبت لأجلنا على التقديسات كانت من عادة الكنيسة الانطاكية ، متى وجهت هذه الزيادة إلى ابن الله المتجسد لا إذا وُجهت إلى الثالوث . وكذا نصّ على هذه الزيادة القديس يوحنا مارون في شرحه رتبة القداس ، ولذلك استمرت ملتنا تستعمل هذه الزيادة بالمعنى المذكور مقصوداً بها أنّ الله المتجسد . ومن أقدم الأيام اعتاد بعض أهل بطريركية انطاكية أن يزيدوا في آخر التقديسات عند توجهها إلى المسيح ، أيها المسيح الذي صُلبت لأجلنا أو الذي قمت من بين الأموات ارحمنا كما نفعل نحن الآن . وكذلك كان الموارنة كباقي الشرقيين يضيفون في زيت الميرون البلسم وعقاقير أخرى ، فبعد هذه البراءة عدلوا عن أن يضيفوا في الزيت إلّا البلسم ، وكذلك كان كهنتنا يوزعون سر التثبيت كما يصنع باقي الشرقيين إلى اليوم ، إذ يمنحون هذا السر مع سر المعمودية ، وحُفظ بعد هذه البراءة توزيعه للأساقفة وحدهم ، إلّا أن يرخّص البطريرك لأحد الكهنة بتوزيعه كما نصّ مجمعنا اللبناني . وكان كهنتنا أيضاً يناولون الأطفال كباقي الشرقيين ، فامتنع بعدئذٍ هذا الأمر عندنا . ويظهر انّ درجات القرابة المحرمة الزواج كانت تتصل إلى الدرجة الخامسة كما هي اليوم عند الروم فاقتصر بعد هذه البراءة على الدرجة الرابعة .

ومن الأحداث التي كانت في أيام البطريرك ميخائيل أنّ المطران داود الذي كان متوكلاً على دير قزحيا انتقل مع الخوري مارون القبرصي والقس يعقوب بن حويص الحاقلي إلى دير حوقا، وهناك رقّى دون مشورة البطريرك إلى درجة الأسقفية القس يعقوب المذكور واستحضر الحبيس يونان وأخاه القس يوسف ابني جلوان من سمر جبيل راهبَي دير قزحيا فرقاهما أيضاً إلى الأسقفية، فلما علم البطريرك بذلك ربط الحبيس يونان وأخاه وأمر الحاكم بخروجهما من دير قزحيا ،وأخذ الحبيس يونان إلى محبسة القديس سمعان بالفراديس، وأخوه القس يوسف سار إلى سمر جبيل قريته. وبعد ثلاثة أشهر نزل المقدّم مقلد والشدياق خاطر الحصروني وأعيان البلاد فاسترضوا البطريرك عنهم وباركهم وأذنهم بالعود إلى دير قزحيا.

وانتقل البطريرك ميخائيل من هذه الدنيا إلى راحة الأبرار في ٢١ ايلول سنة ١٥٨١م وقد استمر بالبطريركية أربع عشرة سنة وخمسة أشهر وواحداً وعشرين يوماً. ووصفه الدويهي بأنه كان فصيح القلم حسن الخط ليّن العريكة كثير المبرّات.

عد ٩٨٢
البطريرك سركيس الرزي

في اليوم التاسع بعد وفاة البطريرك ميخائيل، اجتمع الأساقفة ورؤساء الأديار والأعيان فانتخبوا أخاه المطران سركيس الرزي إلى البطريركية بحضرة قاصدي البابا جوان باطيستا وجوان برون. ورفع البطريرك والأساقفة العريضة إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر، ورسالة إلى الكردينال كارافا وكيل الملّة. وكلفوا الأب جوان برون أن يتوجه بها إلى رومية لطلب التثبيت ودرع الرئاسة للبطريرك الجديد. فسار الأب جوان وأخذ معه أربعة شبان لاقتباس العلوم بروما: وهم الأول يوحنا بن يعقوب الحصروني وهذا بعد عودته في سنة ١٥٩٠م لبس اسكيم القديس عبد الأحد ثم صار أسقفاً، والثاني مرقس بن اسطفان المطوشي القبرصي، والثالث يعقوب بن سمعان الحصروني، والرابع انطونيوس الحصروني. ولما انتهى الأب جوان إلى أم المدائن قدّم عرائض البطريرك والأساقفة والأعيان إلى الحبر الأعظم فسُرّ

قداسته وأرسل إلى البطريرك براءة تثبيته ودرع الرئاسة، ورسالة إلى أسقف طرابلس ليلبسه الدرع ويقبل منه يمين الطاعة. وتاريخ هذه البراءة الخامس من آذار سنة ١٥٨٢م.

وبعد أن لبس البطريرك درع الرئاسة رفع عريضة الشكر للحبر الروماني مع القسّ يوحنا أيوب الحصروني والقسّ يعقوب الدويهي والشماس ابراهيم الادنيتي، وأرسل عشرة شبان لاقتباس العلوم منهم جرجس بن عميرة الأهدني الذي صار بعداً أسقفاً على اهدن ثم بطريركاً، وسركيس بن موسى أخو البطريرك الذي صار بعداً أسقفاً على دمشق، وموسى العنيسي من العاقورة وصار أسقفاً على الأفقسية، وبطرس بن جبرائيل المطوشي ودخل بعداً شركة اليسوعيين. ثم أرسل البطريرك في السنة التالية أربعة شبان من موارنة حلب حتى صار عدد تلاميذ الموارنة بروما نحو عشرين تلميذاً، فحينئذٍ أنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر مدرسة خاصة للموارنة سنة ١٥٨٤م قال عند افتتاحها: «إنّ الموارنة سكان لبنان هم مستمرون من أعصار كثيرة على الايمان الكاثوليكي والخضوع والطاعة للكنيسة الرومانية دون سائر الطوائف الشرقية غير المؤمنة وغير المتحدة». وأمر البابا بنقل الشبان الموارنة إلى مدرستهم. وكانت النفقة عليهم أولاً من مال قداسته، ولما رقد بالرب سنة ١٥٨٥م وخلفه البابا سيستوس الخامس ولم يكن أقل محبة للموارنة رتّب لهذه المدرسة دخلاً يقيم بأود خمسة عشر تلميذاً، ثم توفي الكردينال كارافا وكيل الموارنة سنة ١٥٩١م فوقف قبل وفاته تركته على مدرسة الموارنة وكانت تبلغ عشرة آلاف ريال رحمه الله وأجزل أجره، فأجدّت هذه المدرسة على الموارنة بل على الكنيسة كلها بفوائد دينية وعلمية لا تقدّر. فإنه قام من تلاميذها بطاركة وأساقفة كثيرون ونبغ منهم جهابذة طبق ذكرهم الخافقين فأناروا المغرب بتواريخ المشرق وكانت كتبهم وما برحت كمرقاة للعلوم ومشكاة يُستنار بنورها في أمور المشرق. وسنأتي على ذكر كثيرين منهم وعلى ذكر تآليفهم الغراء.

ولما ارتقى البابا اكليمنضوس الثامن إلى الحبرية العظمى رقى البطريرك سركيس ابن أخيه إلى الأسقفية. وأرسله سنة ١٥٩٥م لتهنئة البابا واداء الطاعة له، فقبله البابا أحسن قبول. ولما همّ بالعود أرسل البابا معه ايرونيموس دنديني وغابيوس برون اليسوعي وأرسل معهما للبطريرك عدة كاملة للتقديس وأمرهما أن يفحصا عن أمور الطائفة وعوائدها، وكان وصولهم جميعاً في شهر آب سنة ١٥٩٦م. وبلغ

البطريرك أنه شاع في المغرب أنّ الموارنة كانوا ضالين وأنّ الأب جوان باطيستا هداهم في مجمع عقده في أيام البطريرك ميخائيل فتولاّه غيظ شديد، فدعا في الثاني من ايلول الأساقفة والرؤساء والأعيان وعقد مجمعاً تلا فيه رسالة البابا. أمام الأب دنديني عن طائفته، ومما قاله إنه هو كان يقدّم الكتب للأب باطيستا عند تطوافه في جبل لبنان وكان يترجمها له، وأنّ تلك الكتب لم تزل موجودة عند أصحابها ومرسومة بخطه باللاتيني. وأحضرت حينئذٍ تلك الكتب فظهر أنّ الأغلاط التي أشار إليها باطيستا لم تكن بكتب الموارنة بل بكتب اليعاقبة. وبيّن البطريرك صحة ايمان الموارنة في كتبهم حتى تعجب الأب دنديني وأقرّ أنّ ما اتهم به قصاد الباباوات الموارنة هو تجنٍ عليهم كما هو مدوّن في كتاب بعثته إلى لبنان. وكان عقد المجمع المذكور في ١٨ ايلول سنة ١٥٩٦م بحضرة الأب ايرونيموس دنديني اليسوعي المرسل من لدن البابا اكليمنضوس الثامن، وسنفرد للكلام فيه فصلاً مخصوصاً. ثم توفي البطريرك سركيس الرزّي في السابع والعشرين من شهر ايلول تلك السنة بعيد انحلال المجمع بعد أن دبر البطريركية ست عشرة سنة.

عد ٩٨٣

البطريرك يوسف الرزي

في اليوم التاسع بعد وفاة البطريرك سركيس الرزي اجتمع الأساقفة ورؤساء الأديار والأعيان، وانتخبوا خلفاً له المطران يوسف ابن أخيه موسى الرزي، فأوفد البطريرك الجديد سنة ١٥٩٨م الخوري جرجس بن يونان من قرية ايليج، والشدياق يوسف الياس الحلبي إلى روما لاداء فروض الطاعة للحبر الأعظم، والتماس التثبيت ودرع الرئاسة فتعطّف عليه البابا اكليمنضوس الثامن بذلك سنة ١٥٩٩م. وفي سنة ١٦٠٣م رقى البطريرك القس يوحنا الحصروني ابن الشدياق حاتم الحوشبي إلى الأسقفية، وكان من تلاميذ مدرسة روما، وأوفده إلى البابا بولس الخامس ليقدّم له فروض الطاعة، فعاد المطران يوحنا من سفره في سنة ١٦٠٦م، وكان البابا قد أوعز إليه أن يتبع الموارنة الحساب الغريغورياني الجديد. فأمر البطريرك باتباع هذا الحساب فعيّد الموارنة بطرابلس وجبة بشري والبترون وجبيل عيد الرسل مع الافرنج قبل الطوائف الشرقية بعشرة أيام، ثم اتبع باقي الموارنة هذا الحساب في دمشق وحلب

وسائر المدن والقرى إلّا موارنة قبرص فاستمروا مدة على الحساب القديم وحينئذٍ ترك الموارنة أيضاً حساب سني اسكندر الذي كانوا يؤرخون به فصاروا يؤرخون بحساب سني ميلاد المخلّص.

وكان للبطريرك يوسف صداقة وانتماء إلى يوسف باشا بن سيفا، فساعده كثيراً في تدبير طائفته وردّ إلى الطاعة من كان يخالفه من شعبه. وهو الذي أقام الجسر الذي على نهر اهدن بين عنطورين وكفر سغاب. وبنى دير القديس دوميط بأرض داريا وأنفق على ذلك نفقات ضخمة. وأراد حسام الدين أحد خدام يوسف باشا أن يتزوج بامرأة لا يحلّ له الزواج بها، فنهاه البطريرك فلم ينتهِ فطعنه بالحرم فمات بغتة. ولرغبته في اتحاد طائفته بالكنيسة الرومانية والسلوك على آثارها في كل شيء أباح الأساقفة أكل اللحم وأباح العامة أكل السمك وشرب الخمر في الصوم الكبير، وأبطل سبت نينوى وهي أسبوع كانوا يكثرون فيه التقشفات والصلوات، وأوجز مدة الانقطاع عن أكل اللحم قبل عيد الرسل وقبل عيد الميلاد. على أنّ ذلك لم يرق للبابا بولس الخامس كما يظهر من الرسالة التي أنفذها إلى خليفته البطريرك يوحنا مخلوف في ٦ آذار سنة ١٦١٠م حيث ينقض ما تسامح به البطريرك يوسف المذكور، بناءً على أنّ ذلك من العوائد الحميدة التي إتصلت إليهم من آبائهم الأبرار. على أنّ ما ردّ ما صار التسامح به كان صعباً في أمور مثل هذه فقل من رجع إلى العوائد القديمة.

وكان في أيام هذا البطريرك أناس في العرقوب يسمون البياضية يعتقدون النصرانية باطناً ويظهرون الاسلام ويعتمّون بعمائم بيضاء كالمسلمين. فدفع البطريرك مبلغاً كبيراً من المال ليوسف باشا ابن سيفا والي طرابلس فنال منه منشوراً أباح هؤلاء أن يتظاهروا بالمذهب الذي يؤثرونه دون خوف ولا حرج. فتظاهروا بالنصرانية. وفي سنة ١٦٠٧م أرسل أخاه المطران سركيس إلى البابا بولس الخامس وبعث معه القسّ الياس ابن الحاج حنا والقس جرجس مارون من اهدن والشماس يوسف فرحب البابا بهم وأكرم مثواهم، إلّا أنّ البطريرك قضى أجله بعد مدة قصيرة، فحزن عليه البابا وحاشيته حزناً شديداً ،وكتب رسالة إلى الأساقفة والاكليرس والشعب الماروني يثني بها عليهم لحفظهم دائماً الايمان الكاثوليكي سالماً ويعزيهم بوفاة هذا البطريرك ويطنب في الثناء عليه ويأمر بأن يكثروا من الأعمال الصالحة لراحة نفسه. وهذه الرسالة مؤرخة في ٢٨ من تشرين الثاني سنة ١٦٠٨م

وتجدها برمتها في الفصل ١٨ من ردّ التهم للدويهي . ورجع القسّ الياس والقسّ جرجس بهذه الرسالة إلى لبنان وأمر البابا المطران سركيس أن يبقى بروما للعناية بطبع بعض الكتب اللازمة للطائفة وبقضاء بعض حاجاتها .

وكانت وفاة البطريرك يوسف الرزي في شهر آب سنة ١٦٠٨م وله في البطريركية إحدى عشرة سنة .

عد ٩٨٤

المجمع الطائفي الذي عُقد في أيام البطريرك ميخائيل الرزي سنة ١٥٨٠م

لم يذكر العلامة الدويهي هذا المجمع بل قال في الفصل ١٦ من رد التهم أنّ الناس كانوا يتوقعون عقده سنة ١٥٧٩م، ولكن ورد أمر من رئيس اليسوعيين إلى الأب جوان باطيستا ليرجع إلى روما ، فرجع إليها ثم عاد إلى لبنان سنة ١٥٨٠م. بل ورد في الفصل ١٧ من رد التهم أنّ البطريرك سركيس الرزي أخا البطريرك ميخائيل كان يحتج أمام الأب ايرونيموس دنديني سنة ١٥٩٦م أنّ أخاه البطريرك ميخائيل لم يعقد مجمعاً . فلا نعلم أفات الدويهي العلم بهذا المجمع أم أُدخلت يد غير يده على كتابة العبارة السابق ذكرها أنّ البطريرك ميخائيل لم يعقد مجمعاً لأننا وجدنا المطران اسطفانوس عواد السمعاني ذكر في كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية (صفحة ١١٧) نسخة من أعمال هذا المجمع. وكنا قد ترجمنا كلام المطران اسطفان عواد المذكور المشتمل على تلخيص هذه الأعمال وعزمنا أن نرسل نستنسخ أعمال هذا المجمع في المكتبة الماديشية المذكورة وإلّا عثرنا في المجلد الخامس من مكتبة الناموس للعلامة السمعاني (صفحة ٥٢١) على أعمال هذا المجمع برمتها عن نسخة أصلية فاكتفينا بتلخيصها عنه .

قال العلامة المذكور: «لدي نسخة أصلية باللاتينية والعربية من المجمع الذي عقده ميخائيل الرزي بطريرك الموارنة بدير قنوبين في ١٦ آب سة ١٥٨٠م بحضرة يوحنا باطيستا اليان ويوحنا برون اليسوعيين سفيرَي الكرسي الرسولي من قبل البابا غريغوريوس الثالث عشر إلى الموارنة ومذيّل بتوقيع البطريرك والأساقفة الآتي

ذكرهم، وبشهادة يوحنا باطيستا المذكور بأنه ترجم الأعمال العربية إلى اللاتينية في ٢٠ ايلول سنة ١٥٨٠م، والنسخة العربية كتبها الخوري يوحنا الحصروني، وقال إنه نسخها بأمر آباء المجمع والقاصدين الرسوليين.

وفاتحة هذا المجمع أنه لما كان هذا المجمع المقدّس اجتمع للمحافظة على الايمان الكاثوليكي وكان هذا الايمان متضمناً في الأسفار المقدّسة والتقليدات الإلٰهية والمجامع المقبولة من الكنيسة، فلهذا يثبت هذا المجمع ويقبل ويكرم أسفار العهدين العتيق والجديد كما ذكرتها المجامع المقدّسة ولا سيما المجمع التريدنتيني. ويحترم التقليدات الملاحظة الايمان والآداب ويجلّ المجامع وجميع الآباء الذين تقبل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية شهادتهم. ويشتمل هذا المجمع على عشرة عنوانات أو فصول.

العنوان الأول في الايمان الارثوذكسي ويشتمل على سبعة قوانين أولها ما تقدّم ذكره في الفاتحة، ويليه الاعتراف بوحدانية الله: تثليث أقانيمه وانبثاق الروح القدس من الآب والابن. وإنّ في المسيح طبيعتين وأقنوماً واحداً ومشيئتين وفعلين. ثم تحريم زيادة يا من صُلبت لأجلنا ارحمنا موجهة إلى الأقانيم الثلاثة ولزوم الاعتقاد بالمطهر. وإنّ الله يدين بعد الممات كل انسان كأعماله فيحصل الأبرار على السعادة والأشرار على العذاب في الحجيم بعد الموت حالاً.

العنوان الثاني في الأسرار بالعموم وفيه ثلاثة قوانين. إنّ أسرار الشريعة الجديدة سبعة وإنها تكتمل بالأشياء كأنها مادة وبالألفاظ كأنها صورة وبشخص الخادم الفاعل بنية ما تفعله الكنيسة، وإنّ المعمودية والتثبيت والدرجة تجعل في النفس وسماً لا يمحى فلا تعاد.

العنوان الثالث في المعمودية وفيه ثمانية قوانين تبيّن فيها ضرورتها للخلاص مادتها وصورتها وخادمها ومفعولها، وإنّ كل كنيسة تحفظ عادتها في التعميد بالتغطيس أو السكب، وإنّ القرابة الروحية تكون بين القابلين والمعمد وأبيه وأمه وبين المعمِّد والمعمَّد وأبيه وأمه. وإنّ الولد إذا حملته أمه قبل طهرها لا يكتسب نجاسة سواء كان قبل العماد أو بعده.

العنوان الرابع في سر التثبيت وفيه أربعة قوانين تبيّن فيها أنّ مادة هذا السر هي البلسم مع الزيت المبارك وصورته وكونه غير المعمودية وكون خادمه هو الأسقف

ومفعولاته تقوية الروح القدس للمثبت في الحرب الروحية، وإنّ الأولى في تثبيت الأولاد الانتظار إلى السنة السابعة من عمرهم.

العنوان الخامس في سر الأوخاريستيا وفي ثلاثة قوانين تبيّن فيها أنّ مادة هذا السر الخبز القمحي وخمر الكرمة الممزوج بقليل من الماء، وإنّ صورته كلمات المسيح هذا هو جسدي الخ. وإنّ الخبز والخمر يستحيلان إلى جسد المسيح ودمه ويكون تحت كل من الشكلين كاملاً. وإنّ مناولة الأطفال ليست ضرورية للخلاص وإنه يلزم إزالة العادة بمناولة الأطفال تبعاً للكنيسة الرومانية.

العنوان السادس في سر التوبة وفيه ثلاثة قوانين تبيّن بها أنّ مادة هذا السر أعمال التائب وصورته قول الكاهن أنا أحلّك وخادمه الكاهن الحائز على سلطة الحلّ.

العنوان السابع في سر المسحة الأخيرة وفيه قانونان تبيّن بهما أنّ مادته هي زيت الزيتون المبارك من الأسقف وإنه لا يُعطى إلّا للمريض الذي يُخشى موته، وإنه يلزم دهن عينيه وأذنيه ومنخريه وشفتيه ويديه ورجليه وصلب ظهره، وإنّ صورته هي الألفاظ التي يتلوها الكاهن عند دهنه كل عضو من أعضائه المذكورة.

العنوان الثامن في سر الدرجة وفيه ثلاثة قوانين تبيّن فيها أنّ مادته تسليم الشيء الذي تكمل فيه الدرجة مثلاً في الكاهن تسليمه الكأس مع الماء والخمر والصينية، وفي الشمامسة تسليم الأناجيل، وفي الشدايقة تسليم الكأس فارغاً وآنيته الخمر والماء وكتاب الرسائل، وفي الشمعدانية تسليم الشمعدان واطفاء الشمعة، وفي المقسمين كتاب التقسيم، وفي القارئين كتاب القراءات، وفي البواب تسليم مفاتيح الكنيسة. وإنّ صورة هذا السر هي الألفاظ المعيّنة في كتاب الرسامات مع وضع يد الأسقف. وإنّ خادم هذا السر هو الأسقف.

العنوان التاسع في سر الزيجة وفيه خمسة قوانين تبيّن فيها أنّ العلّة الفاعلة في الزواج هي الرضى المتبادل المصرّح به بالألفاظ عن الزمان الحاضر، وإنّ الزيجة غير منحلّة وإن أمكن الافتراق نظراً إلى الفراش، وإنّ الزواج المعقود شرعياً هو صحيح ولو كان دون رضى الوالدين. وإنّ الزواج مرات جائز إذا لم يضاد ذلك مانع آخر، وإنه يسوغ الزواج بين أخين وأختين وزواج الأب بالأم وزواج الابن مع بنتها لأنّ مانع الأهلية لا يكون بين أقرباء المتعاقدين بل بين كل منهما وأقرباء الآخر.

العنوان العاشر في التهذيب يشتمل على اثني عشر قانوناً تبيّن بها أنّ من نال درجة مقدّسة بالرشوة يُمنع من الشركة هو ومن رقاه إليها. وإنّ من نال درجة أو مقاماً بحيلة أو تزوير لزم عزله واقصاؤه عن الشركة، وإنّ من حاز درجة من غير أسقفه يُمنع من رقاه عن ترقية غيره مدة سنة ويربط من ترقى عن مباشرة درجته إلى أن يحسن لأسقفه أن يحله وأن يمنع من الدرجات من لم يقبل سر التثبيت أو لا يعلم مبادئ الايمان والقراءة والكتابة، وأن يجري الفحص على المتدرجين وينالوا الشهادة، وأن لا يرقى أحد من الشدايقة قبل الثانية والعشرين من عمره. ولا إلى الشمامسة قبل الثالثة والعشرين. ولا إلى الكهنوت قبل الخامسة والعشرين وقبل أن يبرز أمام الأسقف اعترافه بالايمان الكاثوليكي. وإنه يلزم من قبل الدرجات المقدّسة أن يتلو الفرض المعتاد أو صلوات غيره تؤلف بصورة عامة من البطريرك أو بأمره. وإنه يلزم أن يكون رعاة في كل قرية أو خورنية، وإنه يلزم البطريرك والأساقفة أن يزوروا رعاياهم بأنفسهم أو وكيلهم العام أقلّه كل سنتين مرة. وإنه يلزم عقد مجامع اقليمية أقلّه كل ثلاث سنين مرة. وإنه يلزم الكهنة أن يعلّموا الأحداث التعليم المسيحي أقلّه في أيام الآحاد والأعياد. وأن لا يقتنى أحد كتباً موضوعها الأشياء المقدّسة ما لم تكن تلك الكتب مفحوصة ومثبتة من السيد البطريرك أو من أشخاص يعيّنهم لذلك، وذلك تحت طائلة الحرم، وكذلك يحظّر على كل أحد أن يكتب كتباً تتعلّق بالأشياء المقدّسة أو يبيعها ما لم تكن مثبتة من الأساقفة. والقانون الأخير من هذه القوانين قيل فيه: «لما كان الحبر الروماني خليفة بطرس السليح رئيس الرسل ونائب المسيح ورئيس الكنيسة كلها وقد حاز بشخص بطرس الأمر أن يرعى ويدبر الكنيسة كلها وسلمت إليه السلطة المطلقة كما تبيّن في المجامع المقدّسة والعامة، فنحن في هذا المجمع المقدّس نأمر بأنه كلما أنتُخب حبر روماني جديد يعيّن الاكليروس الماروني واحداً أو أكثر منهم ليذهب باسم جميعهم ليقدّم الطاعة والاحترام للحبر الروماني واعداً بأنّ كنيستنا هذه تبقى دائماً على هذه العادة كلما انتخب بطريرك للموارنة يتوجه بنفسه أو يرسل غيره ليستمد له تثبيت انتخابه كما جرى من أقدم الأيام إلى الآن.

ويلي ذلك توقيع الآباء الذين شهدوا هذا المجمع هكذا: «أنا ميخائيل بطريرك الموارنة الانطاكي. أنا يوحنا المعمدان اليان اليسوعي قاصد الكرسي الرسولي. أنا يوحنا برون اليسوعي قاصد الكرسي الرسولي. أنا سركيس من كفرحورا أسقف

ورئيس دير قزحيا . أنا يوحنا رئيس أساقفة اهدن . أنا جرجس رئيس أساقفة دمشق . أنا اقليموس من اهدن معاون البطريرك الانطاكي . أنا داود أسقف العاقورة. أنا يوسف رئيس أساقفة قبرص » .

عد ٩٨٥

المجمع الطائفي الذي عقده البطريرك سركيس الرزي سنة ١٥٩٦م

إنّ الأب جوان باطيستا المذكور كان عند تطوافه بلبنان ومطالعته بعض كتب بيعية قد جمع بعض أغلاط عزاها إلى الموارنة ، وكان غيره أيضاً قد عزا إليهم أغلاطاً أخرى ، فعقد بسبب ذلك مجمع البطريرك ميخائيل المذكور ، فكثُرت الأقوال في أوروبا أنّ الموارنة كانوا ضالين فهداهم جوان باطيستا ، فلم يتحمل البطريرك سركيس هذه التقوّلات على ما يظهر ، وسأل البابا أن يوفد إليه قاصداً ليوضح له بطلان هذه التهم ، فأوفد إليه البابا اكليمنضوس الثامن الأب ايرونيموس دنديني البيسوعي ليفحص عن هذه الأمور في مجمع يعقده البطريرك وأساقفته بحضرته . ومذ الثاني من أيلول سنة ١٥٩٦م أمر البطريرك الأساقفة ورؤساء الأديار وعليّة الكهنة والأعيان أن يجتمعوا لديه ، فحضر لديه كل من لم يحل مانع شرعي دون حضوره ، وكان في جملة الحاضرين من الأساقفة والأعيان يوسف رئيس دير قزحيا ويوسف رئيس دير القديس انطونيوس بالفراديس وموسى من بشري والشدياق يوسف خاطر من حصرون والشدياق فرج من حدشيت وكثير من الكهنة . وبعد اجتماعهم وبعد المفاوضات الابتدائية عُقد المجمع في ١٨ ايلول من السنة المذكورة بحضرة الأب ايرونيموس دنديني اليسوعي قاصد الحبر الروماني .

وترى أعمال هذا المجمع مثبتة في ذيل كتاب المجمع اللبناني المطبوع حديثاً (صفحة ٩) وخلاصتها : « إنّ الأغلاط التي كانت تعزى إلى الطائفة هي أنّ في المسيح طبعاً واحداً ومشيئة واحدة وفعلاً واحداً ، وإنّ الروح القدس ينبثق من الآب وحده ، وإنّ التقديسات الثلاث تدل على صلب الثالوث بجملته وإنّ لا وجود للمطهر ولا للخطيئة الأصلية ، وإنّ النفوس لا تنال ثواباً أو عقاباً قبل الدينونة الأخيرة ، وإنه يجوز انكار الايمان ظاهراً . وإنّ سر التثبيت لا يمتاز عن المعمودية

وإنه يلزم خلط الميرون بغير البلسم أيضاً وإنه يلزم التقديس على الخمير، وإنّ المسحة تكون بالزيت الذي يباركه الكاهن لا الذي يباركه الأسقف، وإنّ طلاق الزوجة لعلّة الزنى أو المرض جائز، وإنّ صوَر الأسرار ناقصة وإنها ابتهالية» فهذه هي الأغلاط التي كانت معزوة إلى الطائفة وجرى البحث عنها، وأورد كل من المجتمعين رأيه فيها.

فكانت أراؤهم مجمعة على ما يخالفها أي أنّ في المسيح أقنوماً واحداً إلٰهياً، وطبعين إلٰهياً وبشرياً ومشيئتين وفعلين ، وإنّ الروح القدس ينبثق من الآب والابن وإنّ التقديسات ترد في كتبهم إما مسندة إلى الثالوث الأقدس فلا يزاد عليها شيء وإما مسندة إلى الأقنوم الثاني وحده. وحينئذٍ يزاد عليها ذكر الميلاد والصلب باعتبار الجسد، وإنّ المطهر موجود. ولذلك تصنع الحسنات والصلوات والقداسات عن نفوس الموتى وإنّ الخطيئة الأصلية لاحقة بجميع الناس وإنّ النفوس متى خرجت من أجسادها تثاب أو تعاقب حالاً، إلّا إذا كانت لم تستتم التكفير عن ذنوبها في هذه الحياة فتسجن بالمطهر إلى تمام تبريرها. وإنّ جحد الايمان محرم وإن ظاهراً وإنّ سر التثبيت قائم بنفسه وهو غير سر المعمودية، وإنّ سر الميرون لا ينبغي أن يداف به إلّا البلسم، وإنّ عادتهم المستمرة إنما هي التقديس على الخبز فطيراً، وإنّ مسحة المدنفين يلزم أن تكون بالزيت المكرّس من الأسقف يوم خميس الأسرار، وإنّ الطلاق محظور حتماً وإن جاز لدواعِ الهجر والامتناع عن المساكنة الزواجية، وإنّ صوَر الأسرار عندهم لا تختلف عن صوَرها عند اللاتينيين. وأطلعوا الأب دنديني على كثير من كتبهم المثبتة ما أجمعوا عليه بحضرته وشهد هو أنه لم يعثر فيها على ما يخالف ذلك.

ثم تذاكروا في بعض العادات الذميمة التي طرأت في بعض الجهات إما لجهل الكهنة وإما للاختلاط ببعض المشاقين أو ذوي البدعة، وسنوا القوانين التابعة القانون (١) لا يؤجل التعميد أكثر من عشرة أو اثني عشر يوماً، وعلى الكاهن أن يدوّن أسماء المعمدين وعرابيهم. (٢) يلزم الأساقفة أن يوزعوا سر التثبيت كل سنة في أبرشياتهم. (٣) يلزم اتخاذ عراب للمثبتين. (٤) يلزم أن يرعى ما فُرض في المجمع التريدنتيني في صدد القرابة الروحية الناشئة عن سري المعمودية والتثبيت. (٥) يتحتم على من يرعون الشعب أن يكونوا ممتازين بالعلم، ويلزم تلاوة الفتاوي الذمية أيام الآحاد في الكنائس الكبيرة، ويكلف الكهنة المجاورون الحضور إليها.

(٦) أن تعيّن محفوظات للأساقفة والبطريرك ولا يحل منها غيرهم. (٧) يلزم حظر مناولة الأطفال قبل ادراكهم الرشد. (٨) يتحتم على الكهنة أن يستعملوا كتاب القداس المطبوع بروما ولا يستعملوا غيره إلّا بعد عرضه على البطريرك. (٩) يلزم منع الكهنة من أن يقدّسوا حفاة. (١٠) يلزم الكاهن أن تبقى أصابعه متضامة بعد التقديس لا تلمس شيئاً آخر. (١١) ينبغي على الكاهن أن يناول المؤمنين الجسد والدم. (١٢) يلزم أن تكون الآنية التي يُحفظ بها القربان من فضة أو ذهب ولا أقلّ من أن تكون نحاساً أو قصديراً لا خشباً. (١٣) يحظّر على الفتى الزواج قبل السنة الرابعة عشرة من عمره وعلى الفتاة قبل الثانية عشرة وإن شُمح لهما بعقد الخطبة قبل ذلك. (١٤) يلزم عقد الزيجة بحضرة كاهن الرعية وشهود ويلزم الخوري أن يدوّن أسماء المتعاقدين والشهود وأن ينادي بالزواج ثلاثاً قبل انعقاده. (١٥) يحظّر زواج البنات الهراطقة والمشاقين. (١٦) يلزم ادخال العادة القديمة باستعمال الماء المبارك بالكنائس. (١٧) يلزم أن ترعى أيام الأعياد بالقداسة وتشهر الأعياد المتحتم حفظها ويضاف إليها عيد الثالوث الأقدس وعيد القربان المقدّس وعيد جميع القديسين. (١٨) ينبغي أن يُستأصل من أذهان النساء لزوم امتناعهن عن الاتيان إلى الكنيسة أيام حيضهنّ وأربعين يوماً بعد ولادتهنّ. (١٩) يلزم أن يكون عند البطريرك والأساقفة وسائر ذوي المقامات الشهيرة الكتب المقدّسة. (٢٠) يلزم البحث عن كتب الهراطقة والمشاقين وحفظها عند البطريرك في مكان مغلق ولا يأذن بمطالعتها إلّا للعلماء. (٢١) يلزم الأساقفة والكهنة أن يعتنوا باتخاذ كل الوسائل لحفظ هذه القوانين. ثم أعيدت تلاوة كل ما جرى بهذا المجمع فأقرّه المجتمعون والتمسوا تثبيته في لدن الحبر الروماني فوعدهم قاصده بذلك وانفض المجمع في ٢٠ أيلول سنة ١٥٩٦م.

ولما كان البطريرك الرزي قد توفي بعيد ذلك في ٥ تشرين الأول وانتُخب للبطريركية المطران يوسف الرزي وكان رئيس دير قزحيا، لم يكتفِ باثبات هذا المجمع بل زاد عليه القوانين التالية: القانون الأول يلزم جميع الكهنة أن يقدموا ذبيحة القداس وهم متوشحون بملابس التقديس إذ كان بعضهم يقدمها قبل اتشاحه بها وبعضهم بعده. (٢) مضمونه تحريض الكهنة على التبتل عملاً بمشورة الرسول وترك الخيار لهم. (٣) فحواه الحث للأساقفة أن يلبسوا لبس الأساقفة لا لبس الرهبان والأمر لهم أن لا يقيم منهم أكثر من واحد في مكان واحد إلّا عند

البطريرك . (٤) أن يعيّن واعظون أهل للخطابة ليرشدوا الشعب ولا يُسمح لأحد بذلك إلّا بأمر البطريرك أو الرئيس المحلي . (٥) حظر الاكليريكيين عن اقتضاء الخراج للولاة غير المؤمنين . (٦) منع النساء من الدخول إلى أديار الرهبان إلّا بإذن البطريرك .

وبعد أن عاد الأب دنديني من لبنان ألّف كتاباً في بعثته وأوضح في الفصل الثاني والعشرين منه أنّ الموارنة براء من الأغلاط التي عزيت إليهم . وإنّ ما تدوّن في رسائل الأحبار الرومانيين اينوشنسيوس الثالث ولاون العاشر وغريغوريوس الثالث عشر من نسبة هذه الأغلاط إليهم ، إنما هي مبنية على أخبار تلقاها القصاد من مصادر لا يركن إليها ومطالعات لم يميزوا بها بين كتب ملّة وأخرى ، ولا بين الصحيح والمحرّف . ولما لم يصنع غيري التحري والتحقيق الذي صنعته أنا انخدعوا ولم يهتدوا إلى الحقيقة ورفعوا التقرير إلى السدّة الرسولية كما خيّل لهم ، أما أنا فتحققت أنّ الأمر ليس كما زعموا لأني طالعت بنفسي الكتب التي هي كتبهم حقيقة فلم أجد فيها شيئاً يخالف التعليم الكاثوليكي ولكن القصاد الذين كانوا قبلي لم يمعنوا النظر في كتبهم الخاصة ولم يفرقوا بينها وبين كتب اليعاقبة فعزوا إلى الموارنة من البدع ما هم براء منه ، ولذلك لا أتعجب مما كتب في رسائل الأحبار الرومانيين من هذا القبيل . انتهى .

عد ٩٨٦
أساقفة الموارنة في القرن السادس عشر
وأولاً في المطران جبرائيل اللحفدي

روى العلامة الدويهي في تاريخ سنة ١٤٧١م أنه في هذه السنة دخل جبرائيل ابن بطرس المعروف بابن القلاعي من لحفد إلى القدس ، ولبس اسكيم القديس فرنسيس فأرسله رؤساؤه إلى روما لاقتباس العلوم ، ثم ذكر في تاريخ سنة ١٤٩٣م أنّ جبرائيل عاد من بلاد الافرنج مع رفيق له وهو القس حنا الماروني ، فانضوى أيضاً إلى رهبانية القديس فرنسيس ، وكانا كلاهما متضلعين بالعلوم مجملين بالغيرة على الدين الكاثوليكي ، فالقس حنا غرق في البحر بينما كان مسافراً إلى القدس وأقام

جبرائيل بلبنان مناضلاً بخطبه ورسائله المقدّم عبد المنعم مقدّم بشري ومرشداً الأمين إلى الايمان القويم. وفي سنة ١٤٩٤ ألّف كتاباً يحقق فيه اتحاد الملّة المارونية من أقدم الأيام بالكنيسة الرومانية، وسمى كتابه «مارون الطوباوي» ورفعه إلى البطريرك سمعان الحدثي وأساقفته وحاشيته وعلماء الملّة ليفحصوه ويحجوا به المخالفين، ورقي جبرائيل إلى درجة الكهنوت في رهبانيته سنة ١٤٩٦م، وأقام بدير الصليب في الأفقسية بقبرص.

ولما توفي الأسقف يوسف بقبرص سنة ١٥٠٧م رقاه البطريرك سمعان الحدثي إلى كرسي الأفقسية وأخذ السكنى أولاً في المدينة المذكورة بدير القديسين نهرا وانطونيوس ثم انتقل إلى دير القديس جرجس بطالا فتفانى بالغيرة على رعيته والاجتهاد بنفعها.

وفي سنة ١٥١٦م انتقل هذا المجاهد المتاجر بالوزنات الخمس إلى رحمة ربه لينال الاكليل الذي أهّلته له أتعابه ومبرّاته. قال الدويهي في تاريخ السنة المذكورة يعجز اللسان عن وصف قداسته وعلومه وتفانيه بالغيرة التي سند بها ملّته المحدق بها اولو البدع، ولم ينفعها بحياته فقط بل أفادها بعد وفاته أيضاً بمصنفاته التي نذكر بعضها.

فقد صنّف كتاباً في الناموس البيعي وكتاباً اشتمل على مواعظ كثيرة، وكتاباً في الاعتراف، وكتاباً في رئاسة الأحبار وأخبارهم، وكتاباً في ملوك روما، وكتاباً في معتقد الموارنة واتحادهم دائماً بالكنيسة الرومانية وكتاباً في علم الإلهيات وآخر في الإيمان القويم وأسرار حياة المسيح. وجمع خمس عشرة رسالة منفذة إلى بطاركة الموارنة من الأحبار الرومانيين من اينوشنسيوس الثالث إلى لاون العاشر. وكتب نحواً من خمس مئة رسالة لأبناء ملّته لتثبيتهم في ايمان القديس مارون والكنيسة الرومانية. ونظم قصائد كثيرة وإن كانت منحطة لغةً فهي كثيرة الفائدة. منها قصائد في سر الثالوث الأقدس وفي التجسد الرباني، وفي حياة المخلّص وفي أحزان أمه عند الصليب وفي طبيعتي المسيح ومشيئتيه وأقنومه الواحد، وفي انبثاق الروح القدس من الآب والابن، وفي مديح السيدة العذراء، وفي أخبار الرسل، وفي قسطنطين الكبير ومبادئ النصرانية، وفي المجامع الأربعة الأولى العامة، وفي مدح القديس مارون الانطاكي، وفي ابراهيم الخليل، وفي القديس نهرا السمراني،

وفي القديس جيورجيوس الذي استشهد في اللّدّ، وفي القديس سمعان الجبيلي، والقديس ريشا الروماني، والقديس شينا اللص، والقديسة بربارة البعلبكية، وأفروسينا الاسكندرية وقصيدة في حرب كسروان، وأخرى في من قصدوا زرع الزوان بين الموارنة، ومرثية لرفيقه القس يوحنا المار ذكره، وفي راهبة شردت من ديرها، وقصيدة في معرفة الأفلاك والأبراج والكواكب الثابتة والمتحيرة إلى غير ذلك من القصائد في العلوم وفي النفس والتوبة والموت وأوجه القرابة في الزواج وغير ذلك اقتصرنا عن ذكره. وما ذكرناه كافٍ ليفهم القارئ ما أشدّ ما كانت غيرة الأسقف جبرائيل بن القلاعي. وقال المطران اسطفانوس عواد في فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية بعد أن نقل (صفحة ٣٨٦) عن الدويهي ما رويناه هنا «إنّ مؤلفات ابن القلاعي هذه محفوظة بين الكتب العربية في مكتبة مدرسة الموارنة بروما، وفي المكتبة الواتيكانية عد ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٨١ وتحوي أيضاً غير ما ذكرناه من تآليفه.

عد ٩٨٧
باقي أساقفة الموارنة في هذا القرن

الثاني من أساقفة الموارنة في هذا القرن السادس عشر اللحفدي هو قرياقوس من بيت حبلص من اهدن، رقاه البطريرك سمعان الحدثي إلى الأسقفية سنة ١٥١٣م بعد وفاة يعقوب مطران اهدن الذي ذكرناه في جملة أساقفة القرن الخامس عشر. ووصفه الدويهي بأنه كان رجلاً شجاعاً أصيل الرأي حسن التدبير، وكان يشغل الحبيس جبرائيل الأهدني بنسخ الكتب البيعية وبعنايته أتلف أهل جبة بشري الجراد من بلادهم سنة ١٥٢٦م، ووقوا زروعهم وأشجارهم من مضرّته، وتوفي سنة ١٥٥٠م.

٣ - الأسقف مارون مطران قبرص رقاه البطريرك سمعان الحدثي إلى أسقفية قبرص سنة ١٥١٦م خلفاً لجبرائيل بن القلاعي، وذكره الدويهي في تاريخ السنة المذكورة.

٤ - الأسقف جبرائيل الأهدني وهو ابن أخي المطران قرياقوس بن حبلص

المار ذكره، روى الدويهي أنه رقي إلى الأسقفية سنة ١٥٢٠م وإنه كان يسكن في قرية زغرتا ولم ينبئنا بسنة وفاته.

٥ - انطونيوس مطران دمشق ذكر الدويهي ترقيته إلى أسقفية دمشق سنة ١٥٢٣م. وقال إنّ البطريرك سمعان الحدثي أرسله لزيارة الموارنة بقبرص، فجدد بناء كنيسة القديس جرجس بطالا، وفي سنة ١٥٢٧م أرسله البطريرك موسى العكاري إلى روما فوقع بيد اللصوص، ثم استفك نفسه كما مرّ في ترجمة البطريرك المذكور، ثم توفي سنة ١٥٢٩م.

٦ - المطران يعقوب بن عزيز الحدثي أنبأنا الدويهي بوفاته في تاريخ سنة ١٥٢٤م ولم نعلم متى كانت ترقيته إلى الأسقفية. وذكر الدويهي في تاريخ هذه السنة أيضاً وفاة المطران جرجس بن صدقني من مزرعة الحدث الذي ذكرناه في جملة أساقفة القرن الخامس عشر. وقال إنه كان باراً فاضلاً قضى أجله في قرية اليموني، وهو زائر للرعية. وبعد أن أقام القداس يوم وفاته علم أنّ أجله قد دنا فاستدعى الكهنة وأمر أن يجنزوه حياً وأن يدفنوه في مغارة القديسة مارينا بقنوبين. واستراح بالرب بعد جنازه فحملوه ليلاً إلى قنوبين ودفنوه حيث أوصى أن يُدفن.

٧ - المطران يوسف من كفر حورا بناحية الزاوية، لم يتحفنا الدويهي إلّا بذكر وفاته سنة ١٥٢٧م.

٨ - الأسقف جرجس الحدثي مطران نيقوسية بقبرص لم يذكره الدويهي ولكن ذكره المطران اسطفانوس عواد في فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية صفحة ٧١ حيث قال: «٣٠٣ زبور داود ترجم من السريانية إلى العربية بعناية جرجس مطران نيقوسية السرياني الماروني. وفي آخر المزمور ١٥٠ المزمور المفتتح لما كنت صبياً قاله داود بعد انتصاره على جليات، وتسميه عامتهم الخارج عن عدد الزبور، وألحق بذلك التسابيح التي وردت في العهدين القديم والحديث وعدتها عشر تسابيح والصلوة الربية وقانون الايمان الذي وضعه آباء المجمع النيقوي، وفهرست الأعياد في مدار السنة، وجداول لمعرفة الأعياد المنتقلة وبعض ضوابط لمعرفة يوم عيد الفصح وأول الصوم الأربعيني بحسب طقس الكنيسة الانطاكية السريانية المارونية. وأضيف إلى ذلك أمثال أو حكم أدبية مجموعة من كتب عدة مؤلفين، ثم حساب العشور البطريركية التي جمعها بأمر البطريرك موسى العكاري

جرجس الحدثي مطران نيقوسية مترجم وناسخ هذا الكتاب سنة ١٨٣٩ لاسكندر (سنة ١٥٢٨ للميلاد) في جزيرة قبرص وهي السنة التي فرغ فيها من اشتغاله بهذا الكتاب كما هو بيّن من الحاشية التي علقها بيده على حساب العشور المذكور. ثم إنّ ترجمة الزبور هذه مع الأصل السرياني طُبعا بدير قزحيا سنة ١٥٨٥م بعناية سركيس الرزي بطريرك الموارنة وهو الرابع والأربعون من عداد بطاركتهم، وباهتمام يوسف خاطر من عائلة السماعنة حاكم جبل لبنان. والكتاب يشتمل على ٢٢١ صفحة بقطع الثمن مكتوبة بالأحرف السريانية واللغة العربية بيد جرجس مطران نيقوسية سنة ١٨٣٩ لاسكندر (سنة ١٥٢٨ للميلاد) كما هو مدوّن على آخر هذا الكتاب».

٩ - المطران جرجس الأهدني روى الدويهي إنه بعد وفاة المطران انطونيوس أسقف دمشق سنة ١٥٢٩م صير هذا مكانه، وإنه في سنة ١٥٥٢م أرسله البطريرك موسى العكاري مع الأسقف داود ابن الخوري سمعان الحدثي إلى زيارة الموارنة الذين بقبرص فكرسا عدة كنائس مع فرنسيس أسقف الأفقسية الماروني، ورقوا القس مرقس بن انطون من قبرص إلى الأسقفية وأخذ السكنى في قرية مطوش، وإنّ المطران جرجس توفي سنة ١٥٦٢م.

١٠ - الأسقف سركيس بن نجيم روى الدويهي أنه سار إلى قبرص سنة ١٥٢٩م، وقيل أنه بعثه على هذا السفر تهمة اتهمه بها أهل قرية بكركي التي فوق جونية، فحرمهم وارتحل إلى قبرص، وكانت بكركي قرية كبيرة اعتاد أهلها أن يكونوا مكارين وسعاة وخربت بعد ذلك.

١١ و ١٢ - الأسقف ايليا الحدثي أنبأنا الدويهي بوفاته سنة ١٥٣٠م وأنه خلفه الأسقف تادروس من الحدث أيضاً، وكان معاوناً للبطريرك موسى العكاري في أشغال الكرسي البطريركي وتدبير أملاك دير قنوبين.

١٣ - الأسقف سمعان مطران طرابلس جاء في تاريخ الدويهي أنّ سمعان مطران طرابلس توفي سنة ١٥٣٤م وخلفه الراهب يوسف بن بطرس. ولكن جاء في كتاب فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية للمطران اسطفانوس عواد السمعاني (كتاب ٥٤ صفحة ٩١) «كتاب الفرض الأسبوعي السرياني بحسب طقس الكنيسة الانطاكية المارونية»، يشتمل على ٢٢٢ صفحة بالأحرف واللغة

السريانية كُتب بروما بعناية البابا بولس الثالث الحبر الروماني في اليوم الثاني عشر من نيسان سنة ١٥٤٣م وبيد سمعان أسقف طرابلس الشام الماروني من جبل لبنان كما في الحاشية المعلقة على آخر هذا الكتاب. وقد روى البطريرك اسطفانوس الدويهي أنّ سمعان المذكور رقي إلى أسقفية طرابلس نحو سنة ١٥٣٥م ولما لم يتمكن من الاقامة في هذه المدينة بسبب الاضطهاد الجاري يومئذٍ على الكاثوليكيين سار إلى روما يطلب الترخيص من البابا بولس الثالث بأن يقيم خارجاً عنها، فرخص له بذلك وعاد إلى وطنه وتوفي سنة ١٥٤٧م. انتهى كلام المطران اسطفانوس عواد ومنه يظهر أنّ نسخة تاريخ الدويهي التي بيدنا اعتراها غلط النساخ في ما رويناه آنفاً عنها، وإنّ الصحيح أنّ المطران سمعان رقي سنة ١٥٣٤م أو سنة ١٥٣٥م إلى أسقفية طرابلس لا إنه توفي تلك السنة. وقد رأينا مرات أنّ نسخ كتب الدويهي التي كانت بروما أصح كثيراً من النسخ التي تتداولها أيدينا في المشرق. وقد أنبأنا المطران اسطفانوس عواد المذكور أنّ كتاب الفرض (الشحيمة) الذي عثر عليه في المكتبة الماديشية يطابق النسخ المجاز طبعها بروما في ١٢ تموز سنة ١٦٢١م بعد أن فحصها عدد من العلماء الاعلام، وطُبعت في أيام البابا بولس الخامس ثم غريغوريوس الخامس عشر ثم اوربانوس الثامن ثم اينوشنسيوس العاشر، ثم بعناية البابا اكليمنضوس الحادي عشر. وطُبعت أخيراً بمطبعة نشر الايمان سنة ١٧٣٢م بعد أن نظر فيها وصححها البطريرك يعقوب عواد.

١٤ - الأسقف يوسف الجاجي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٤٠م فقال كان خصام بين أهل عينطورين وأهل بان على دير قزحيا ، وكل من الفريقين يدّعي أنه في خراج قريته، فحكم القاضي أنه في خراج عينطورين وقبل أهلها دفع الخراج المرتّب عليه كل عام وقدره ثلاثمائة درهم. فاعتزل القس حنا بن نمرون الباني عن رئاسة الدير وترأس عليه الخوري يوحنا اللحفدي، ثم خلع نفسه من الرئاسة فترأس عليه الأسقف يوسف الجاجي وكان رجلاً روحانياً كثير الجلد على نسخ الكتب البيعية ثم توفي سنة ١٥٤٤م.

١٥ - الأسقف جبرائيل بن أستيته الأهدني روى الدويهي في تاريخ سنة ١٥٤٤م أنه بعد وفاة الأسقف يوسف الجاجي، خلفه جبرائيل المذكور في رئاسة دير قزحيا، فأنشأ له كثيراً من العقارات وأتمّ بناء القبو والدهليز والمجلس والمطحنة التي على النهر. ووسّع الكنيسة التي في الصخر وأقام بها ثلاثة مذابح للسيدة

العذراء وللقديسَين انطونيوس ومكاريوس وكان كثير الورع والتقشّف، وكان يصنع في كل يوم من الصوم ألف مطانية، وما كان يشرب الماء في مدة الصوم إلى خميس الأسرار. ومع هذا الجهاد لم يكن ينقطع عن نسخ الكتب، فكثرت جداً كتبه في كنائس لبنان. ولم يدع كنيسة أجداده مار جرجس باهدن تحتاج إلى شيء من الكتب فكافأه البطريرك موسى العكاري بترقيته إلى الأسقفية وتوفي سنة ١٥٥٦م.

١٦ - الأسقف انطونيوس الحصروني ابن الحاج فرحات صير أسقفاً على اهدن بعد وفاة المطران قرياقوس المار ذكره سنة ١٥٥٠م وكانت أمه بنت عم المطران قرياقوس من الدويهية، فتربى عند أخواله بدير القديس يعقوب المعروف بدير الأحباش. وتضلّع في اللغات السريانية والعربية والتركية، وكان مقداماً شجاعاً، ولما قدم السلطان سليم الثاني إلى مدينة حلب مثل أمامه في جملة المشتكين الطرابلسيين، فأنعم عليه بخمسة مراسيم سلطانية سُجلت في سجلات طرابلس في أيام واليها حسين بك، منها أنّ غلال الزيتون تقسم تحت أشجارها مناصفة فالنصف للمالك والربع حق وربع ظلم (كذا وجدنا مكتوباً ويتبادر إلى الفهم أنّ المراد بربع حق أنّ الربع للعامل وبربع ظلم أنّ الربع الآخر بدل الخراج). ومنها أن لا يعترض أحد النصارى في دينهم أو زواجهم، ومنها أنه يرخص لهم بترميم كنائسهم ومنها أمر همايوني موجه إلى قاضي طرابلس بأن لا يعترض أحد بطريرك الملّة المارونية في أعمال بطريركيته بل أن يردع ويعاقب كل من تمرد عليه أو عانده. وكانت هذه الأوامر مؤرخة في أول ربيع الأول سنة ٩٥٦ (الموافقة سنة ١٥٤٩ م) فكافأه البطريرك موسى العكاري عن أتعابه وغيرته بترقيته إلى الأسقفية. وكان أنّ أسقف الملكية بعكار استحوذ على دخل الموارنة بناحية عرقا وعكار سبع سنين، فشكاه المطران انطونيوس إلى محكمة طرابلس فأمر القاضي أن يضع يده على مداخيل مطران الملكية سبع سنين ليستوفي حقه، وأكرم البطريرك موسى المطران انطونيوس أن يتصرّف بعشور بلاد عكار ما دام حياً.

١٧ - الأسقف داود ابن الخوري سمعان الحدثي رقاه البطريرك موسى إلى الأسقفية ليكون معاوناً له مع المطران تادروس في تدبير الكرسي البطريركي سنة ١٥٥٢م، ثم أرسله مع المطران جرجس الأهدني المار ذكره لزيارة الموارنة بقبرص فكرسوا عدة كنائس.

١٨ - الأسقف مرقس بن انطونيوس من قبرص رقاه سنة ١٥٥٢م الأسقفان داود وجرجس المذكوران مع أسقف الأفقسية إلى الأسقفية في مدة زيارتهما في قبرص، وكان ورعاً مجاهداً في خير الكنيسة، ونسخ الكتب، وأخذ السكنى بقرية مطوش بقبرص.

١٩ - الأسقف يوسف بن حرواص رقاه البطريرك موسى العكاري سنة ١٥٥٦م إلى الأسقفية، وأقامه بدير القديس اليشاع بأرض بشري مجازاة لتعبه في بناء الدير المذكور.

٢٠ - الأسقف موسى بن أيوب بن قمر ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٥٦م، وقال إنه كان قاطناً بدير القديس ماما في بشري ومتكلماً على القرية.

٢١ - الأسقف ماكا البقوفاوي ذكره الدويهي وقال في حقه إنه لزم الحياة النسكية نحو ستين سنة، فأقام أولاً بدير قزحيا ثم بجانب كنيسة القديس دوميط بداريا، ثم في كنيسة السيدة المنقورة بالصخر تجاه عرجس، ثم في محبسة مار ميخائيل فوق قزحيا. وكان عبرة صالحة لكل ناظر إليه أو سامع به، وكان يطوي الصوم سبة سبة، ويقمع جسده بالصوم والعطش والمشي حافياً. ولم ينظر إلى وجه امرأة. ولم يكن بمحبسة مار ميخائيل ماء ولم يعد له قوة ليستقي من محبسة قزحيا فصلّى إلى الله فأخرج له من الصخر ماءً قليلاً، فنقر له جرناً فصار يجتمع به ما يكفيه ويكفي زايريه. وشرفه البطريرك موسى بدرجة الأسقفية وتوفي سنة ١٥٦٠م.

٢٢ - الأسقف جرجس القبرصي ذكرنا قبلاً أنّ البطريرك موسى أرسله كاهناً إلى رومة ليأتيه بدرع الرئاسة، ودفع إليه أوتاراً ممهورة بختمه، ولم يكتب عليها شيئاً حتى إذا اضطر إلى أمر كتب عليها ما يحتاجه. وبينما كان بروما كتب على إحدى تلك الأوراق رسالة من البطريرك إلى الحبر الروماني يخبره بها بوفاة الأسقف جرجس الأهدني مطران دمشق ويسأله أن يرقي القس جرجس رسوله إلى هذه الأسقفية. فأمر البابا بترقيته إجابةً إلى سؤال البطريرك، فرقي إلى الأسقفية سنة ١٥٦١م. وعاد إلى قبرص فوجد أنّ الأسقف فرنسيس المار ذكره قضى أجله فضبط ما كان له، واستمر عند أهله بقبرص. وكان البابا قد أرسل إلى البطريرك معه غفارة وكانت طويلة فقصّها لتكون ملائمة لقامته، ولما علم

بذلك البطريرك أطلق عليه تأديب الرباط. طالع ما سنقوله في الأسقف جرجس البسلوقيتي.

٢٣ - الأسقف سركيس الأهدني خلف المطران انطونيوس الحصروني أسقف اهدن المار ذكره بعد وفاته سنة ١٥٦٥م وكان الأسقف سركيس ابن القس موسى الدويهي وتوفي سنة ١٥٧٧م بعد أن استمر بأسقفية اهدن اثنتي عشرة سنة. ووصفه الدويهي بأنه كان أصيل الرأي شديد الغيرة على بناء الكنائس والأديار.

٢٤ - الأسقف يوحنا بن عبيد خلف الأسقف سركيس المار ذكره في أسقفية اهدن سنة ١٥٧٧م ووصفه الدويهي بأنه كان ورعاً كثير العبادة مشهوراً بنسخ الكتب.

٢٥ - الأسقف يوسف رقاه البطريرك ميخائيل الرزي إلى مطرانية بيروت سنة ١٥٧٧م مع الأسقف يوحنا المار ذكره.

٢٦ - الأسقف جرجس البسلوقيتي رقاه البطريرك المذكور إلى مطرانية دمشق سنة ١٥٧٧م أيضاً مع الأسقفين يوحنا ويوسف المار ذكرهما. ثم أرسله في اليوم العاشر بعد ترقيته إلى روما مع الخوري اقليمس الأهدني لطلب درع الرئاسة كما مرّ في الكلام على البطريرك ميخائيل الرزي، وعادا من سفرهما سنة ١٥٧٨م مع الأب جوان باطيستا. وقال المطران اسطفانوس عواد في كتاب فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية عند ذكره الكتاب الثاني والخمسين منها: «عدة صلوات» ترجمها من اللاتينية إلى العربية جرجس مطران دمشق الماروني وهذه الصلوات تتلى قبل القداس وبعده. وقد منح الأحبار الأعظمون غفران سنين كثيرة لمن يتلوها. فجرجس الماروني هذا هو ابن سليمان من قرية كليبين بقبرص غير بعيدة عن نيقوسية، رقاه البطريرك ميخائيل الرزي إلى أسقفية دمشق وأرسله بعيد ذلك لتقديم فروض الطاعة باسم البطريرك وملّته. وقبله البابا بيوس الخامس ثم غريغوريوس الثالث عشر بالتكريم وأقام مدة بروما وطبع هناك هذا الكتاب كما يظهر من الحاشية المعلّقة على آخر هذا الكتاب بخط يده، وعاد إلى لبنان سنة ١٥٧٨م مع الأب يوحنا المعمدان اليان (جوان باطيستا)» ثم ذكر ما حواه الكتاب المذكور أيضاً فقال «دستور ايمان الرسل والدستور النيقوي ثم صلاة يوم

الأحد ثم زبور داود التي تتلى في صلوات الفرض عند الموارنة والصلوة المؤلفة من فيلوكسينوس المنبجي ترجمها جرجس المذكور من السريانية إلى العربية». وقال أخيراً: «كتاب عدة صفحاته ١٥٩ صفحة بقطع صغير مكتوب بالأحرف الكرشونية كتبه بروما بأنظار بيوس الخامس الحبر الأعظم جرجس بن سليمان من قرية كليبين بقبرص مطران دمشق سنة ١٥٧١م» كما في الحاشية المعلّقة في آخر الكتاب.

وعليه فكان قول المطران اسطفانوس عواد أنّ المطران جرجس هذا كان من قبرص، ورقاه البطريرك ميخائيل الرزي إلى الأسقفية في أوائل بطريركيته سنة ١٥٦٧م مخالفاً لقول الدويهي أنه كان من بسلوقيت ورقاه البطريرك المذكور سنة ١٥٧٧م، واتفق العلامتان في الباقي. فعلى قول أيهما نعتمد؟ فإن حق لي أن أقول شيئاً وأن لا أصلح أن أكون تلميذاً لأحدهما. قلت يظهر لي أنّ صاحب الكتاب المذكور الذي ذكره المطران اسطفان عواد هو المطران جرجس القبرصي المار ذكره الذي كان قاصداً للبطريرك موسى العكاري، واحتال على البابا بيوس الرابع حتى أمر بترقيته إلى الأسقفية، وربطه البطريرك ويظهر أنه عاد إلى روما وأقام فيها إلى سنة ١٥٧١م التي كتب بها كتابه. وإنّ المطران جرجس البسلوقيتي الذي ذكره الدويهي هو غير ذاك، وهو قاصد البطريرك ميخائيل الرزي إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر، مضى إلى روما سنة ١٥٧٧م وعاد منها سنة ١٥٧٨م. وجلّ ما يرجّح لي قولي هذا أنه إذا كان المطران جرجس القبرصي أرسله ميخائيل الرزي في أوائل بطريركيته أي سنة ١٥٦٧م فلا يبقى بروما إلى سنة ١٥٧١م التي كتب فيها كتابه ولا إلى سنة ١٥٧٨م التي عاد بها مع جوان باطيستا كما ذكر المطران اسطفان عواد. فقول الدويهي إذاً أوجه وأمثل والله أعلم.

٢٧ — الأسقف داود رئيس دير قزحيا ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٧٧م وقال إنه كانت فتنة بينه وبين البطريرك ميخائيل الرزي فانتقل من دير قزحيا مع الخوري مارون القبرصي والقس يعقوب بن حبلص الحاقلي إلى دير حوقا ورقى دون مشورة البطريرك القس يعقوب المذكور إلى الأسقفية، ثم دعا من دير قزحيا الحبيس يونان وأخاه القس يوسف ابنَي جلوان من سمار جبيل وراهبَي قزحيا فرقاهما إلى الأسقفية أيضاً. ولما علم البطريرك بذلك رفع عرض الواقع إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر في رسالة مؤرخة في ١٧ ايلول سنة ١٥٧٧م ومنع الحبيس يونان وأخاه عن استعمال حقوق الأسقفية، وأمر الحاكم بخروجهما من دير قزحيا،

فحملوا الحبيس يونان بالنعش إلى دير القديس سمعان بالفراديس وأما أخوه يوسف فسار إلى قريته سمار جبيل، وبعد ثلاثة أشهر مضى المقدّم مقلد البشراني والشدياق خاطر الحصروني وبعض الأعيان، فشفعوا بهم فباركهم البطريرك وكان دير قزحيا قد خلا من الرهبان، فرخّص لهم بالعود إليه وأعطاهم عشرة رهبان وبقراً وماعزاً إلى غير ذلك مما يلزم لهم، وفصل الدير عن المحبسة ليقوم كل منهما بنفسه. ويظهر أنه لم يصحح رسامة من رسمهم الأسقف داود.

٢٨ - الأسقف سركيس الرزي أخو البطريرك ميخائيل الرزي لم يذكر الدويهي سنة ارتقائه إلى الأسقفية بل ذكر في تاريخ سنة ١٥٧٨م أنّ البطريرك ميخائيل أرسل أخاه الأسقف سركيس والقس جرجس بن يونان مع الأب جوان باطيستا ليرافقاه في تطوافه بلبنان ويقدما له ما يطلبه، والأسقف سركيس هو الذي خلف بالبطريركية أخاه البطريرك ميخائيل بعد وفاته سنة ١٥٨١م.

٢٩ - الأسقف سركيس من كفرحورا لم يذكره الدويهي، ولكن وجدنا توقيعه على المجمع الطائفي المنعقد سنة ١٥٨٠م هكذا. أنا سركيس من كفرحورا أسقف ورئيس قزحيا.

٣٠ - الأسقف يوسف البسلوقيتي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٨٠م فقال أنه نحو هذه السنة رقد بالرب يوسف البسلوقيتي الذي كان مستحبساً في دير القديس انطونيوس بالفراديس، ولأجل سيرته الملكية وشيخوخته النقية رقاه البطريرك ميخائيل إلى الأسقفية، ولما دنت ساعة وفاته مضى لزيارته، ثم أمر بدفن جثته بمغارة البارة مارينا بجانب دير قنوبين.

٣١ - الأسقف اقليمس الأهدني هو الذي كان البطريرك ميخائيل الرزي قد أرسله كاهناً مع المطران جرجس البسلوقيتي إلى روما، فرقاه أخوه البطريرك سركيس إلى الأسقفية سنة ١٥٨٤م ليكون معاوناً له في دير قنوبين. وذكر الدويهي وفاته سنة ١٥٩٨م وقال إنه توجّه إلى روما مرات وإنه كان حازماً أصيل الرأي.

٣٢ - الأسقف انطونيوس الجميل ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٨٧م وقال إنه لما كان كاهناً عنيَ ببناء كنيسة القديس عبدا في قريته بكفيا وأنفق عليها ألف قبرصي عدا ما أنفقه أهل القرية وغيرهم، فأراد البطريرك سركيس الرزي أن يكافئه

فرقاه إلى الأسقفية وأكرمه ببدلة جميلة للقداس ، ولما كان البطريرك متوجهاً سنة ١٥٩٥م لزيارة كسروان لقيَه المطران انطونيوس إلى البوار عازماً أن يمنعه عن الدخول إلى هذه البلاد فربطه البطريرك ، وفي اليوم الثالث بعد ذلك قضى أجله .

٣٣ و ٣٤ - الأسقف يوسف والأسقف يوحنا مطرانا قبرص ذكرهما الدويهي في تاريخ سنة ١٥٨٨م بقوله في هذه السنة كانت وفاة الأسقف يوسف بجزيرة قبرص ، ورقى البطريرك خلفاً له الأسقف يوحنا بن اسكيلا المعلم من الخيزفانية ثم ذكر وفاة يوحنا هذا في سنة ١٥٩٨م .

٣٥ - الأسقف يوسف الرزي هو ابن موسى الرزي أخي البطريرك سركيس ، رقاه عمه البطريرك المذكور سنة ١٥٩٥م إلى الأسقفية في عيد ميلاد الرب ، وأرسله سفيراً إلى البابا اكليمنضوس الثامن لقضاء بعض حاجات الطائفة وتهنئة البابا بارتقائه إلى الحبرية العظمى ، فعاد من روما سنة ١٥٩٦م ومعه الأب ايرونيموس دنديني والأب فابيوس برون اليسوعيان لعقد المجمع المار ذكره ، وبعد وفاة عمه البطريرك سركيس سنة ١٥٩٦م خلفه في البطريركية كما مرّ .

٣٦ - الأسقف موسى العنيسي صير مطراناً على قبرص سنة ١٥٩٨م بعد وفاة الأسقف يوحنا بن اسكيلا المار ذكره ، وكان موسى المذكور من العاقورة وتهذّب بالعلوم بروما .

ورقى البطريرك يوسف الرزي إلى الأسقفية في آخر هذا القرن أي سنة ١٦٠٠م ابن أخيه الأسقف سركيس الرزي والأسقف جرجس بن عميرة الأهدني الذي انتخب بعداً بطريركاً ، والأسقف ميخائيل من بيت عبيد باهدن ، والأسقف موسى من عرجس . وأقام بدير مار اليشاع ببشرّي . ونُرجئ تتمة الكلام في هؤلاء إلى تاريخ القرن السابع عشر .

عد ٩٨٨

المشاهير الدينيون الموارنة في القرن السادس عشر

نريد بالمشاهير الدينيين من اشتهروا في هذا القرن من الموارنة بالنسك والزهد والعلوم الدينية أو نسخ الكتب ، وهم ليسوا بطاركة أو أساقفة ، واعتمدنا في تراجمهم على تاريخ العلامة الدويهي .

١ – كان من سلك النساك القس موسى العكاري، وكان رئيساً على دير السيدة بحوقا، وكان تلميذاً للخوري اسطفان والقس ميخائيل رئيسي هذا الدير ثم رقي إلى الأسقفية ثم البطريركية كما مرّ.

٢ – الخوري يوحنا المعروف بالزطيمية، فهذا كان من ترتج وارتحل بعائلته سنة ١٥١٠ إلى قبرص في جملة من هاجروا من لبنان تلك السنة من جري الجور والضرائب. وكان الخوري يوحنا عالماً فاضلاً نسخ كثيراً من الكتب البيعية، وكان من جملة عمد الطائفة في تلك الأيام، وكانت له مباحث دينية مع الروم بقبرص، وكانوا يسمونه كروكليا لأنه كان يعتمّ بعمامة زرقاء، وعانى مشاق كثيرة من أبناء طائفته حسداً له. وبعد وفاته خلفه ابناه القس يوسف والشماس الياس واشتهرا بنسخ الكتب البيعية والأفعال الحسنة.

٣ – الخوري لوقا بن بطرس من ترتج أيضاً وأنشأ كنيسة جميلة في قرية كليبين بقبرص على اسم القديس لوقا الانجيلي.

٤ – الخوري زكريا وكان من جملة النازحين من لبنان إلى قبرص، وبنى كنيسة القديس ماما في قرية مطوش.

٥ – الحاج ميخائيل أخو الأسقف جبرائيل القلاعي انتقل من لحفد إلى قرية طالا بقبرص وزاد على كنيسة السيدة سوقاً آخر ومذبحاً على اسم القديس عبدا.

٦ – القس بطرس وهو الذي أرسله البطريرك سمعان الحدثي إلى البابا لاون العاشر سنة ١٥١٣م فردّه البابا إلى لبنان إذ لم يكن مصحوباً برسائل البطريرك، ثم سفره البطريرك ثانيةً إلى أم المدائن سنة ١٥١٥م فنال التثبيت على يده كما قدمنا في الكلام على هذا البطريرك، وهو الذي أحضر نسخة من رسالة فراغريفون إلى الحبر الروماني شهادة بصحة ايمان الموارنة كما مرّ.

٧ – الخوري يوسف الذي أرسله البطريرك سمعان الحدثي سنة ١٥١٥م إلى رومة مع راهبين لاقتباس اللغة اللاتينية والعلوم الدينية فعلّموا اللغة السريانية وكانوا أول من علّمها بأوروبا.

٨ – الخوري يونان المتريتي رئيس دير قزحيا، زاد في كنيسة هذا الدير سنة ١٥٢٦م على مذبح القديس بشاي مذبحين آخرين أحدهما على اسم السيدة

والثاني على اسم جبرائيل رئيس الملائكة. وفي سنة ١٥٣٩م اتفق مع رهبانه على نهي النساء عن الدخول إلى دير قزحيا، وحلف جميعهم على ذلك وأقاموا لذلك احتفالاً وتطوافاً بالدير كله. وفي سنة ١٥٤٢م انتقل إلى رحمة ربه. وكتب عنه تلميذه الحبيس جبرائيل الأهدني أنه خدم الله بالطهارة والورع مدة خمسين سنة. وكان قبل وفاته بأربع سنين يصوم يومين يومين ولا يفطر في الصوم الكبير إلّا يوم السبت والأحد، ولم يكن عدد لمطانيته في سبة الآلام، ولم يكن له مثيل في أعمال الرحمة. ويعجز القلم عن رقم فضائله. وشهد تلميذه الخوري يوحنا اللحفدي بأنّ الله صنع على يده آية كان هو شاهداً لها وهي أنه عازهم الزيت فوضع بخوراً وصلّى على خابية الزيت فطفحت به. وشهد جنازه البطريرك موسى والمطران قرياقوس وجمّ غفير تباركوا بجسده الطاهر. وقد ذكره المطران اسطفانوس عواد في فهرست المكتبة الماديشية صفحة ٢٦ إذ روى أنّ كتاب الزبور الذي كان قد كتبه حوشب في دير قزحيا سنة ١٣١٨م قد نسخه ملك جبرائيل من اهدن سنة ١٥٢٢م باهتمام الأب يونان الحبيس المتريتي. وروى ترجمة هذا الحبيس عن الدويهي كما رويناها، وذكر أيضاً تلميذه الحبيس جبرائيل الأهدني وهو ناسخ كتاب الزبور المذكور.

٩ القس جرجس بن حرواص من قرية عرجس أنشأ دير القديس اليشاع ووسعه وأنفق عليه ١٣٧٥٠ درهماً عدا ما تبرّع به غيره من المحسنين. وكان عبد المنعم الأول مقدم بشري معاوناً له ومثله الحاجة سارة رفيقته في النسك وشريكته في بذل النفقة المذكورة، وكان ذلك سنة ١٥٣٣م. ويظهر لنا أنّ القس جرجس هذا هو الذي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٥٦م وقال إنّ المطران رقاه إلى الأسقفية مكافأة له لبنائه دير مار اليشاع ببشري وإن سمي في هذا المحل الأخير يوسف لا جرجس.

١٠ - القس يوحنا بن نمرون الباني كان رئيساً على دير قزحيا سنة ١٥٢٩م وكان شهيراً بالورع والنسك، ولما اختصم أهل بان وأهل عينطورين على دير قزحيا وحكم القاضي به لأهل عينطورين اعتزل القس يوحنا من الرئاسة وتولاها الخوري يوحنا اللحفدي كما مرّ عند ذكر الأسقف يوسف الحاجي. ثم عاد القس يوحنا إلى رئاسة دير قزحيا سنة ١٥٥٦م ولم يمكث بها طويلاً بل استقال منها وسكن دير القديس سمعان بقيطو، إلّا أنه في سنة ١٥٦٧م لما صير الحبيس ميخائيل

الرزي المترئس على دير قزحيا بطريركاً أعادوا القس يوحنا إلى رئاسة هذا الدير فأنشأ له مطحنة عند الدير وجرّ الماء إليها من النهر. وعظمت شهرته بالبر والورع، ولما توفاه الله خلفه بالرئاسة الخوري ابراهيم الحدثي.

١١ - الخوري يوحنا اللحفدي كان تلميذ الحبيس يونان المتريتي وترأس على دير قزحيا بعد اعتزال القس يوحنا الباني المذكور، ثم توفي سنة ١٥٤٢م بعد وفاة معلمه وقد اقتدى بفضائله ونسكه وتقشفاته وخدمته أربع عشرة سنة في مرضه، وكان يقضي سبة الآلام متهجداً مكثراً من الاماتات والمطانيات.

١٢ - الحبيس يونان بن جلوان من سمار جبيل ترهّب في دير قزحيا مع أخيه القس يوسف، وقد ذكرنا دعوة المطران داود رئيس دير قزحيا لهما إلى دير حوقا وترقيتهما سنة ١٥٧٦م إلى الأسقفية خلافاً لقوانين الكنيسة ومنع البطريرك لهما عن مباشرة حقوق الأسقفية وطاعتهما ورضى البطريرك عنهما وردهما إلى دير قزحيا فأكملا حياتهما بالنسك والزهد والورع.

١٣ - القس يعقوب عصاص من بيت الزيات من أسمر جبيل، لبس الأسكيم الملائكي بدير قزحيا، وقضى حياته بالنسك والقداسة في محبسة القديس سمعان بالفراديس وتوفي سنة ١٥٨٥م قال الدويهي، وجسده ما زال سالماً في مغارة مار ادنه هناك لم يعترهِ فساد.

الباب السابع عشر

تاريخ سورية في القرن السابع عشر

القسم الأول

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأول

السلاطين العظام الذين تولّوها بهذا القرن وما كان في أيامهم

عد ٩٨٩

السلطان أحمد خان الأول

فرغنا من كلامنا في تاريخ القرن السادس عشر بذكر وفاة المغفور له السلطان محمد خان الثالث ، وبعد وفاته في ١٢ رجب سنة ١٠١٢ هـ (١٦ كانون الأول سنة ١٦٠٣م) خلفه ابنه السلطان أحمد خان الأول ، ولم يكن له من العمر عند ولايته إلّا نحو خمس عشرة سنة ، وكانت المملكة حينئذٍ محفوفة بالمخاطر في المشرق من قبل الشاه عباس ملك العجم ، وفي المغرب من جهة النمسا . وكانت أحوال السلطنة بسورية مضطربة من قبل استفحال أمر الأمير فخر الدين المعني ، وسطوة علي باشا جان بولاد الذي تولّى حلب . وكان أصل جان بولاد من الاكراد ومعنى اسمه ذو النفس التي من بولاد (فولاذ) لُقّب به لشدّة بأسه واقدامه

وآل جنبلاط ينتسبون إليه بناءً على أنه بعد تشتت عساكره في حلب هاجر بعض ولده إلى لبنان لصداقته مع الأمير فخر الدين المعني .

ففي هذه الحال المشؤومة قيّض الله للدولة العلية وللسلطان الصغير السن وزيراً هماماً حازماً وهو مراد باشا المعروف بقبوجي باشا ، وكان عند ايلائه منصب الصدارة ناهز الثمانين من عمره ، ومع ذلك لم يأبَ قيادة الجيش فحارب الثائرين في آسيا وظهر عليهم واستمال أحد زعمائهم في الأناضول المسمى قلندر اوغلي ، ونصبه والياً على أنقره وسار في سنة ١٦٠٧م إلى حلب التي كان علي باشا جان بولاد المذكور قد استحوذ عليها بعد حرب شديدة بينه وبين يوسف باشا ابن سيفا . وخرج من الطاعة ، وقبل أن يبلغ مراد باشا إلى حلب في عساكره خرج جان بولاد للقائهم فانذعرت عساكره وعاد هو إلى حلب وحصّن قلعتها فتبع مراد باشا آثاره وحاصر المدينة فافتتحها وأقام المنجنيقات على القلعة وراسل رؤساء المحافظين عليها واعداً اياهم بخلع ومناصب ، فاغتروا بها واستسلموا إليه وسلموه القلعة ، فقتلهم عن آخرهم ونادى بقتل كل من كان تبعة جان بولاد . وكان عسكره عند خروجه من حلب نحو ثمانين ألفاً فقتل كثيرون منهم في مواضع كثيرة وانهزم الباقون وتشتتوا وأخذ منهم الرعب كل مأخذ حتى كان الرجل الواحد يقتل عشرة منهم . وأسرت عيال جان بولاد وجواريه حتى والدته وبيعوا بأبخس الأثمان . وفرّ هو إلى الآستانة طائعاً فعفا السلطان عنه ونصبه والياً على إحدى ولايات المغرب .

وبعد أن دبر مراد باشا أمور حلب عاد إلى الأناضول فانتصر سنة ١٦٠٨م على من بقي من الثائرين فيها ، وانتهز عباس شاه العجم فرصة هذه الحروب فاسترجع بعض مدن العراق العجمي واحتلّ تبريز ووان وغيرهما ، فسار إليه مراد باشا في جيشه . وكانت بين الفريقين حروب هائلة ، ولكن لما كانت جيوش الدولة كلّت من الكفاح والجهاد في سنين متوالية لم تنل الظفر المرغوب . وتوفي مراد باشا في ٥ آب سنة ١٦١١م وتولّى منصب الصدارة نصوح باشا فجرت المراسلات بين الدولتين في أمر الصلح بينهما سنة ١٦١٢م على أن تترك الدولة العلية لمملكة العجم جمع الأعمال والبلاد والقلاع والحصون التي فتحها العثمانيون من عهد السلطان الغازي سليمان الأول فكانت هذه أول معاهدة تركت فيها الدولة العلية بعض ما فتحته .

ولما كانت عساكر الدولة منشغلة بالحروب في المشرق استبدّ النمساويون ببلاد المجر وأساءوا معاملة أشرافها ، فالتجأوا إلى السلطان أحمد طالبين عونه وحمايته ، وانتخبوا أميراً اسمه يوسكاي ملكاً عليهم وأمدّه السلطان بجيوشه فطردوا النمساويين من عدة حصون سنة ١٦٠٥م وخشيت النمسا من زيادة الفتح فاعترفت بانتخاب يوسكاي ملكاً للمجر وأميراً لاقليم ترنسلفانيا ، وتنازلت له عن الأعمال المجرية بشرط أن تُرجع إلى المانيا بعد موت يوسكاي ما كان لها قبل ملكه ، فرضي المجريون ولم يشأ السلطان أحمد أن ينفرد بالحرب مع النمسا فصالحها سنة ١٦٠٦م على أن تدفع النمسا للدولة العلية مئتي ألف دوكا وتبطل الجزية السنوية المتّفق عليها قبلاً وقدرها ثلاثون ألف دوكا . ووقّع نواب النمسا والمانيا والدولة العلية على هذا الاتفاق سنة ١٦٠٨م .

وبعد التوقيع على هذه المعاهدة والعمل بها مدة ، توفي يوسكاي ملك المجر وامتنع أهل ترنسلفانيا عن الانضمام إلى النمسا مؤثرين البقاء تحت حماية الدولة العثمانية التي لا تتعرض لهم في دينهم ولا في عوائدهم وتكتفي بادائهم الجزية لها . فنصبت لهم الدولة ولاة فأصبحت ترنسلفانيا حاجزاً بين المجر وامارتّي الفلاخ والبغدان كي لا يتفقوا على مناصبة الدولة العلية ، فسادت السكينة مدة ولكن حصلت سنة ١٦١١م وسنة ١٦١٤م مناوشات بين مراكب الدولة وسفن اسبانيا وولايات ايطاليا ومالطة ، وكان الفوز فيها للإفرنج . فأمر الصدر الأعظم نصوح باشا بجمع مراكب الدولة في البحر المتوسط فانتهز بعض أخلاط القوزاق انسحاب سفن الدولة من البحر الأسود وأغار على أملاك الدولة ، فحنق السلطان أحمد على وزيره بسعاية مبغضيه وحساده ، وكان آخر العهد به في ١٤ تشرين الأول سنة ١٦١٤م .

وازدادت في أيام السلطان أحمد العلاقات السياسية مع دول الافرنج ، فجددت المعاهدة مع فرنسة سنة ١٦٠٤م ومع بولونيا سنة ١٦٠٩م وعُقدت معاهدات تجارية مع الفلمنك (هولاندا) سنة ١٦١٢م .

وأما ما كان في سورية في أيام السلطان أحمد فقد ذكرنا منه ثورة علي باشا جان بولاد واخمادها بتشتيت شمله ، وبقي ما كان مع الأمير فخر الدين المعني فنفرد له الفصل التالي .

عد ٩٩٠

أخبار الأمير فخر الدين المعني إلى عوده من أوروبا

إنّ معن جد هذه الأسرة هو من رؤوس العشائر التي أسكنها سلاطين المسلمين في سورية لمناصبة الافرنج ما كانوا يغالبونهم على امتلاكها، وسكن معن وعشيرته في الشوف وأقطعته الحكومة اقطاعات له ولولده من بعده، وكان آل معن مسلمين على الأصح واتفقا مع التنوخيين أمراء المغرب المار ذكرهم، ومع الأمراء الشهابيين الذين احتلوا بعدهم وادي التيم. وكانت بين الأسرتين مصاهرة، وقام فيهم أمير يسمى الأمير يوسف حكم في الشوف ثم توفي في أواخر القرن الخامس عشر وخلفه الأمير فخر الدين ابن أخيه عثمان. وحالف سنة ١٥٠٥م الأمير منصور الشهابي حاكم وادي التيم، وفي وقعة مرج دابق بين السلطان سليم الأول وقانصوه الغوري سلطان مصر وسورية كان الأمير فخر الدين بمعية الغزالي نائب الغوري، ولما قدم السلطان سليم إلى دمشق دخل عليه الأمير فخر الدين ودعا له كما قدمنا، ثم توفي الأمير فخر الدين المعروف بالأول سنة ١٥٤٤م وخلفه ابنه الأمير قرقماز. ولما نُهبت خزينة السلطان في جون عكار سنة ١٥٨٤م أرسل ابراهيم باشا والي مصر وقائد جيش السلطان يطلب الغرماء من الأمير قرقماز، فخاف وفرّ إلى مغارة تيرون تحت جزين، فتوفي هناك وله ولدان صغيران، فخر الدين ويونس خبأتهما والدتهما عند الشيخ ابراهيم بن سركيس الخازن بيلونه، ولما زال الاضطراب رد الأمير سيف الدين التنوخي الأميرين (وكانا ابنَي أخته) إلى اقطاعهما في الشوف. وكان لفخر الدين هذا المعروف بالثاني وقعة في نهر الكلب سنة ١٥٩٨م مع يوسف باشا سيفا والي طرابلس على ولاية كسروان، فظهر فخر الدين على يوسف باشا وتولّى فخر الدين بيروت وكسروان سنة واحدة ثم تركهما واكتفى بالشوف.

وفي سنة ١٦٠٥م كانت وقعة بجونية بين الأمير فخر الدين وبين يوسف باشا سيفا والي طرابلس وغزير، وكان الظفر فيها للأمير فخر الدين. وانهزم يوسف باشا وأقام فخر الدين الشيخ يوسف ابن الأسلماني حاكماً من قبله في غزير. وفي سنة ١٦٠٦م سار أحمد باشا حافظ دمشق لمحاربة الأمير يونس الحرفوشي، واستنجد الأمير يونس الأمير فخر الدين فنجده. وكذلك قصد حافظ دمشق محاربة الأمير

أحمد الشهابي فاستمد الأمير أحمد الأمير فخر الدين فأمدّه بعسكر فكفّ الحافظ عنه .

وكان الأمير فخر الدين من حزب علي باشا جان بولاد ، وكان معه في عراد بأرض حماة عند محاربته ليوسف باشا سيفا ، ولما حضر مراد باشا الصدر الأعظم إلى حلب وقهر جان بولاد كما مرّ ، أظهر حنقه على الأمير فخر الدين أيضاً . فأرسل ابنه الأمير علياً إلى الصدر الأعظم ودفع له نحو من ثلاث مئة ألف قرش استعطافاً لخاطره ، فعفا الوزير عنه وأنعم على ابنه علي بولاية صيدا وبيروت وغزير . وفي سنة ١٦٠٩م وقعت فتنة بين المسلمين سكان قرية مجدل معوش وكثر القتلى من الفريقين واتفقا على بيع قريتهم والخروج منها . فاشتراها منهم الأمير علي ابن الأمير فخر الدين باثني عشر ألف قرش ، وأسكن النصارى فيها . فحضر إليها البطريرك يوحنا مخلوف الأهدني وأقام فيها مدة ، وبنى فيها داراً وكنيسة وهي المعروفة هناك بكنيسة السيدة .

وفي سنة ١٦١١م توفي مراد باشا الصدر الأعظم وخلفه في الصدارة نصوح باشا كما مرّ . وسار إلى ديار بكر فأرسل إليه الأمير فخر الدين مع كتخداه المسمى مصطفى خمسة وعشرين ألف قرش وخيلاً جياداً وأنسجة فاخرة ، فقبل نصوح باشا الهدية وخلع على حاملها ، لكنه لم يبدِ له البشاشة المعتادة . ثم قدم نصوح باشا إلى حلب وأرسل يطلب من الأمير فخر الدين خدمة للسلطان فأرسل له خمسة وعشرين ألف قرش أخرى استعطافاً لخاطره ، وخمسين ألفاً خدمة للسلطان ، وأكرم رسوله بخمسة آلاف قرش . ومع ذلك لم يصف خاطره عليه ، وكان مؤاخذاً له لأنه أنجد الأمير يونس الحرفوشي والأمير أحمد شهاب ضد أحمد باشا حافظ دمشق ، ولأنّ ما قدّمه له كان أقلّ مما أرسله إلى مراد باشا سالفه مع ابنه الأمير علي كما مرّ . وفي سنة ١٦١٢م عاد أحمد باشا حافظ دمشق من عند نصوح باشا في حلب إلى ولايته بدمشق . وكان قد اغتاب الأمير فخر الدين وأوغر صدر نصوح باشا عليه وأطمعه في بلاده ، وعزل الأمير حمدان بن قانصوه عن ولاية عجلون ونابلس ، وولّى عليهما فروك بك . وكان قد صحبه من حلب وعزل عمراً شيخ العرب المفارجة عن ولاية حوران وولّى مكانه رشيداً شيخ العرب السردية فاستنجد المعزولان بالأمير فخر الدين فنجدهما وأرسل ابنه الأمير علياً ومعه ثلاثة آلاف مقاتل فغزوا بلاد العرب وحوران وتواقعوا مع رجال أحمد باشا حافظ دمشق

وظهروا عليهم وغنموا بأموالهم ومواشيهم . واستمر الأمير حمدان بعجلون والشيخ عمرو بحوران فرفع أحمد باشا حافظ دمشق عرائض إلى الباب العالي يشكو بها الأمير فخر الدين بأنه غزا الجولان وبلاد حوران وأنه محاصر مدينة دمشق فجهز السلطان ألفَي مقاتل من انكشارية الآستانة ، وأمر ولاة الأناضول وحلب وطرابلس أن يجردوا العساكر لقتال الأمير فخر الدين بقيادة وزيره نصوح باشا ، ولما دخل الوزير في جيشه إلى دمشق قدّم إليه الأمير يونس الحرفوش والأمير أحمد شهاب وابنه والأمير علي حاكم وادي التيم مستسلمين إليه . وأما الأمير فخر الدين فلم يركن أن يستسلم إلى الوزير ولم يشأ أن يحارب عسكر السلطان ، وقصد أن يعتزل في البرية فبلغه أنّ الأمير أحمد شهاب جمع عسكراً وقطع عليه طريق جسر المجامع ، ولما وصل الأمير علي بن فخر الدين برجاله تعقبهم الأمير أحمد وقتل كثيرين منهم . وجمع فخر الدين أحزابه في الدامور واستنهضهم للقتال فرأى عزيمتهم باردة فعزم على السفر إلى أوروبا فحصّن قلعة شقيف أرنون وقلعة بانياس ومغارة نيحا المسماة شقيف تيرون وجعل في هذه الحصون ما يكفي من الميرة والعدد ، وأقام بها عياله وأثقاله وولّى حسين اليازجي على قلعة بانياس وحسين الطويل على حصن شقيف تيرون ، وسلّم ابنه الأمير علياً إلى الشيخ عمرو الذي كان قد استرجع له مشيخة حوران بأربع مئة سكماني ليكونوا محافظين على ابنه ، وكان الشيخ عمرو فارساً شجاعاً وجمع الأمير فخر الدين أخاه الأمير يونس والسيدة والدتهما ومشايخ الشوف وآل خازن وأوصاهم أن يكونوا يداً واحدة وقلباً واحداً ولا يغتروا بالمواعيد ولا يركنوا إلى العهود . واستأجر مركبين للافرنج وأخذ تحفاً وأموالاً وسار قاصداً ايطاليا عند الكران دوكا أمير تسكانا ومعه بعض حاشيته منهم الحاج كيوان المار ذكره وواحدة من نسائه ، وحلّ أولاً في مدينة ليفورنو واستقبله واليها بالاعزاز وأنزله في دار كبيرة ورتّب له جراية سنوية كل سنة ألف سكوت (ريال) وسار أخوه الأمير يونس فاستقرّ بدير القمر بخواص أخيه ، وحينئذٍ انتقل آل معن من بعقلين إلى دير القمر . أما أحمد باشا حافظ دمشق فولّى حسين باشا ابن سيفا على مدينة بيروت والشيخ مظفر رئيس اليمنية على بلاد الشوف ، وابن البستنجي على صيدا . وزحف هو من دمشق إلى بلاد الشوف في جيش لا يقل عن مئة ألف رجل من سكمان ودروز وعرب ، وأقام الحصار على قلعة شقيف أرنون وحصن بانياس ، فدافع من بهما مدافعة الأبطال . ودام الحصار خمسين يوماً

فلم يكن مطمع من فتحهما. فأمر الحافظ العسكر أن يطوفوا البلاد وينهبوا ويقتلوا ويحرقوا، فكاتب الأمير يونس الحافظ طالباً الأمان فأجابه الوزير إلى ذلك وأمر أن يرسل إليه عقلاء الشوف ووجهاء قومه ووالدة الأمير ليكفلوا ما سيكون القرار عليه، وصار الاتفاق على أن يدفع الأمير يونس مئة ألف قرش. فأخذ الوزير الكفلاء معه إلى دمشق ريثما يدفع الأمير المبلغ المتفق عليه. فأرسل الأمير المبلغ المتفق عليه وكان عشرون ألف قرش منه بيد الشيخ أحمد بن العكس من دروز حفة حلب، فأخذها وفرّ بها فلم يكتفِ أحمد باشا حافظ دمشق بما وصل إليه فاستأنف الحملة وعاد إلى البقاع ودخل دير القمر عنوة وحرق منازل المعنيين وشتت من وجد من رجال الأمير. ودخل الأمير يونس في أربع مئة رجل من وجهاء الشوف إلى قلعة بانياس فأرسل الحافظ جماعة من عسكره ليغزوا وادي بسري فحاربهم أهل الشوف وقتلوا منهم نحواً من ست مئة رجل، فجهز إليهم الحافظ ثمانية آلاف مقاتل، فشتت أهل الشوف شملهم وقتلوا وأسروا. وأباح الحافظ عسكره أن يحرقوا قرى الشوف وينهبوها ويقتلوا كل من وقع بأيديهم واستمروا على ذلك أربعة أيام. وورد الخبر أنّ نصوح باشا الصدر الأعظم قُتل فوجس الحافظ وسرّح أبناء العرب ورجع هو إلى دمشق.

وفي سنة ١٦١٣م وردت البشائر بأنّ السلطان عزل أحمد باشا الحافظ عن منصبه في دمشق وولّى مكانه جركس باشا، وقبل أن يصل إلى دمشق أرسل نائباً عنه إليها وأمره أن ينادي بالأمان وأن يرجع كل من نزح إلى محله، وولّى على الشوف الشيخ يوسف المسلماني أحد أتباع المعنيين، وكتب الأمير يونس إلى أهل الشوف أن يعود كل منهم إلى وطنه. وأرسل الشيخ أبا نادر الخازن والشيخ أبا ضاهر حبيش وأمرهما أن يعدا الأشجار في كسروان ويستوفيا المال المرتب عليها مع ابن المسلماني. وكان الشيخ أبو نادر شجاعاً حازماً أبيّ النفس وحافظاً لسرّ آل معن. ثم لما قدم جركس باشا إلى حلب أمر باطلاق والدة الأمير يونس وعقلاء الشوف ووجهائه الذين كان الحافظ قد أمسكهم بدمشق، وأرسل فرمان العفو ومنديل الأمان إلى الأمير فخر الدين ليعود آمناً إلى بلاده.

وفي سنة ١٦١٤م وصل جركس باشا إلى دمشق فأرسل إليه الأمير يونس خمسة وعشرين ألف قرش خدمة له، ومائة ألف قرش لمطبخ السلطان وتعهد بأنه يدفع كل سنة خمسين ألف قرش للسلطان زيادة على مقطوع بلاده وسأله أن

يرسل خمسين رجلاً من عسكره يسكنون بحصن الشقيف وحصن أرنون فارتضى الوزير بذلك وأنعم على الأمير علي بن فخر الدين بولاية صفد وعلى عمه الأمير يونس بولاية صيدا وبيروت وما يليهما.

وفي سنة ١٦١٥م لم يشأ يوسف آغا الذي كان الوزير قد أرسله ليستلم حصن الشقيف وحصن أرنون أن يدخل إليهما قبل أن يخرج الأمير يونس منهما ابناء العرب، فشق ذلك على الأمير يونس وأخذ في هدمهما فسُرّ الوزير بذلك وأمر بدكهما،فشرع البناؤون في نقضهما، فدكوهما إلى الأرض وترك الوزير للأمير يونس نصف المبلغ الذي كان قد تعهد بادائه كل عام وجعله خمسة وعشرين ألفاً تلافياً من مضرّة البلاد.

وأمر الوزير حسين باشا ابن سيفا أن يرفع يده عن بلاد كسروان وبيروت وأن يكف عن المساعدة للشيخ مظفر الذي كان قد أقامه بالشوف، ولا يحامي ابن الأمير محمد بن جمال الدين في الشويفات ولا المقدمين بيت الصواف بالشبانية، فلم يمتثل حسين باشا الأمر بل اتفق مع الأمير شلهوب الحرفوش وأمراء رأس نحاش وسرّحوا ألفي مقاتل لمقاومة المعنيين، فجمع الأمير يونس وابن أخيه الأمير علي والأمير علي الشهابي نحو ثلاثة آلاف رجل. والتقى الفريقان عند عين الناعمة وكان الظفر للمعنيين، وطردوا رجال حسين باشا سيفا إلى قرب الشويفات وقتلوا منهم مئتي رجل. وفي ذلك النهار جرت مقاتلات في اعبيه واغنميد وعين دارا بين القيسية واليمنية فكان النصر في جميعها للقيسية الذين هم من حزب آل معن. وأما الأمير يونس فحمل في النهار التالي على بيروت فخرج إليه الوجوه مستسلمين إليه وقدموا له عشرين ألف قرشاً فرضيَ عنهم وأمنهم. ثم أباح عسكره أن يغزوا بلاد الغرب والجرد والمتن وأن ينهبوا القرى ويحرقوها لأنّ أهلها كانوا قد نهبوا قرى الشوف وأحرقوها في أيام الحافظ، فانتهبوا مالهم وأحرقوا قراهم ولا سيما دار الأمير محمد بن جمال الدين بالشويفات ودارالمقدمين بيت الصواف بالشبانية. ولما رأى ذلك الأمير حسين بن يوسف باشا سيفا أخذ عبال أخيه حسن باشا ورحل فيهم من غزير إلى بلاد عكار فأمر الأمير يونس الشيخ أبا نادر الخازن ومملوكه ذا الفقار أن يسكنا بغزير، ويليا بلاد كسروان ونصب في باقي الأعمال حكاماً يلون أمرها، وأما الشيخ مظفر والي الشوف قبلاً، ففرّ إلى الضنّية ثم توطن في قرية شدرا بعكار.

وفي سنة ١٦١٦م لما كان حسن باشا ابن سيفا راجعاً إلى عكار من سفره مع محمد باشا الصدر الأعظم دعاه قراقوش والي حلب إلى وليمة فقبض عليه وقتله، وكان ذلك بدسيسة من محمد باشا المذكور بسبب أعماله بطرابلس، وأرسل رأسه إلى الباب العالي. ثم خلع السلطان محمد باشا المذكور ونصب مكانه خليل باشا فهذا سار إلى ديار بكر وأرسل قبجياً من قبله يسمى رستم آغا إلى الأمير علي بن فخر الدين يطلب ارسالية سنتين والمال والخدمة المتوجبة للسلطان، فدفع له الأمير علي ثلاثين ألفاً وخمسة آلاف للقبجي وارفاقه، وعشرين ألفاً للوزير خليل باشا وخمسة آلاف للدولة معتذراً بأنّ البلاد نهبها الحافظ وعراها قحط وغلاء، فقبل الوزير عذره وأرسل إلى دمشق خمسة عشر ألفاً من المال المرتّب عليه ثم عزل جركس باشا من ولاية دمشق ونصب مكانه أحمد باشا الجوخ دار، وأرسل إلى الأمير علي يطلب المال والارسالية (هي تقدمة كانوا يقدمونها للولاة) فدفع إلى رسوله عشرين ألفاً من مال الحكومة ولم يرسل إليه شيئاً على سبيل التقدمة، فخلع الأمير علي عن ولاية صفد وولّى عليها حسين اليازجي، فاستدان هذا مبلغاً ودفعه إلى والي دمشق وحاشيته.

وفي سنة ١٦١٧م توجّه حسين اليازجي المذكور إلى ولايته بصفد وقبله من أعيانها بنو منكر وبنو شكر وبنو الصغير، فشق ذلك على الأمير علي بن فخر الدين فزحف في رجاله إلى صفد، وكانت وقعة بينه وبين حسين اليازجي قُتل فيها حسين المذكور وتشتتت رجاله، وغنم رجال الأمير علي ما كان معهم، واسترد هو ولاية صفد وأرسل تقدمة إلى الوزير وتعهّد بدفع المبلغ الذي كان حسين اليازجي استدانه من بعض الدمشقيين. وصدرت له أوامر الباب العالي بولاية صفد وصيدا وبيروت وما يليها.

وفي هذه السنة عاد الأمير فخر الدين وكان وصوله إلى عكا ومدة غيابه في أوروبا خمس سنين ونرجئ تتمة أخباره إلى الفصول الآتية رعايةً لنظام التاريخ لأنّ السلطان أحمد خان توفي هذه السنة في ٢٣ ذي العقدة ١٠٢٦ هـ (الموافقة ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٦١٧ م).

عد ٩٩١

السلطانان مصطفى خان الأول وعثمان خان الثاني

إنّ السلطان أحمد خان الأول لم يرعَ عادة أسلافه بتركهم الملك والخلافة لأحد أبنائهم، بل أوصى بهما لأخيه مصطفى لأنّ ابنه عثمان كان صغيراً لم يجاوز الثالثة عشرة من عمره. وأما السلطان مصطفى فكان مولده سنة ١٠٠١ هـ فكان عمره عند ارتقائه إلى تخت السلطنة خمساً وعشرين سنة، على أنّ السلطان مصطفى لم يستمر على أريكة الملك هذه الدفعة إلّا نحو ثلاثة أشهر وعزله أصحاب المطامع وفي مقدمتهم المفتي، وساعدهم الانكشارية على ذلك طمعاً بالهبات التي كانوا يعطونها عند تولية كل سلطان جديد، وكان عزله في غرة ربيع الأول سنة ١٥٢٧ هـ (٢٦ شباط سنة ١٦١٨ م).

ونصبوا مكانه السلطان عثمان خان الثاني ابن السلطان أحمد الأول وكان عمه السلطان مصطفى قد أوقف في السجن سفير فرنسة وكاتب سره وترجمانه بسبب أنّ كاتب السفارة ساعد أحد أشراف بولونيا على الفرار من السجن الذي كان فيه. وأوشكت نار الحرب أن تضطرم بين فرنسة والدولة العلية، فالسلطان عثمان أخرج السفير وترجمانه وكاتبه من محل التوقيف وأرسل حسين جاووش مندوباً من قبله إلى ملك فرنسة يعتذر عما كان ترضية لفرنسة. فانحسمت بذلك النازلة وتدخلت بولونيا في أيام السلطان عثمان في شؤون امارة البغدان فتوسّل السلطان بذلك إلى اعلان الحرب على بولونيا قاصداً فتح هذه المملكة وجعلها فاصلاً بين أملاك الدولة العثمانية ومملكة روسيا. وأراد أن يمهد لذلك بالتحوط من بعض عوائق داخلية فأنقص ما كان للمفتي من السلطة في تعيين أصحاب المناصب وعزلهم وقصرها على الافتاء فقط ليأمن شر دسائسه لئلا يعزله كما عزل عمه السلطان مصطفى. ثم سيّر الجيش لمحاربة ملك بولونيا، وهاجم العثمانيون البولونيين في عدة حصون فلم يستطيعوا أن يزحزحوهم عنها، وطلب الانكشارية الكف عن الحرب، وسأل البولنيون الصلح فاضطرّ السلطان عثمان أن يقبله فعقد بين الفريقين في ١ تشرين الأول سنة ١٦٢٠م. وحنق السلطان على الانكشارية لاكراههم اياه على الصلح، وعزم على اقناعهم وأرسل يحشد جيوشاً في آسيا وينظمها ويدربها على القتال. ودرى الانكشارية فهاجوا وماجوا واتفقوا على خلع

السلطان، ووثبوا على السراي في ٢٠ أيار سنة ١٦٢٢م فخلعوا السلطان عثمان وأعادوا إلى الملك السلطان مصطفى. ولم يكتفوا بذلك بل حملتهم الجسارة والقحة على ارتكاب فظيعة لم يسبق لها مثيل فإنهم أدخلوا السلطان عثمان إلى القلعة المعروفة بحصن سبعة الأبراج وكان آخر العهد به. وبعد هذه الفعلة الشنعاء واعادة السلطان مصطفى أمست الحكومة بأيدي الانكشارية فكانوا ينصبون من يشاءون من الوزراء ويعزلون من شاءوا ويولون المناصب من أجزل لهم المواهب، وأصبحوا فوضى ليس لهم رازع ولا رادع وسرت عدوى هذا الوباء إلى سائر ولايات المملكة، وأشهر بعض الولاة الانتقاض على السلطنة والاستقلال بولاياتهم وسئمت نفوس أهل الآستانة هذه الأحوال، وأشبع الانكشارية مطامعهم في السلب والنهب والقتل فقرّ رأيهم أخيراً على تولية علي باشا كمانكش منصب الصدارة العظمى، فأشار بعزل السلطان مصطفى ثانية لضعف عزيمته ووهن قواه العقلية فخلعوه في ١٥ ذي العقدة سنة ١٠٣٢ هـ (١١ ايلول سنة ١٦٢٣ م) وأجلسوا على سرير السلطنة السلطان مراد الرابع، واستمر السلطان مصطفى معزولاً إلى أن توفي سنة ١٦٣٩م.

عد ٩٩٢
ما كان بسورية في أيام هذين السلطانين

وكان بسورية في أيام هذين السلطانين أن قدم سنة ١٦١٨م إلى طرابلس عمر باشا الكاتبجي والياً عليها فضبط المدينة وبقيت ملحقاتها كلها بيد يوسف باشا سيفا ولم يعوّضه منها شيئاً فاستنجد عمر باشا الأمير فخر الدين فجمع الرجال من صفد وصيدا والشوف وغيرها وزحف بهم إلى نهر ابراهيم ثم إلى أميون. ولما علم بذلك يوسف باشا سيفا ارتحل ليلاً واعتصم بحصن عكار فغنم رجال فخر الدين ثقال عسكر يوسف باشا واجتمعوا مع جماعة عمر باشا وحاصروا يوسف باشا. وتضايق لقلّة الميرة والمدد حتى أكل جماعته لحم الخيل. فاستنجد نائب دمشق ونائب حلب فأجاباه إلى ذلك وجمعا العساكر وبلغا إلى حماه فكاتبا عمر باشا والأمير فخر الدين أن يرفعا الحصار عن يوسف باشا فلم يرفعاه حتى أدّى لهما مئة ألف قرش وكتب صكاً للأمير فخر الدين بماية ألف قرش أخرى، ودوّن صك ابراء

بأنه لم يبقَ لأحدهما على الآخر حق ولا دعوى. وبعد رفع الحصار عن حصن عكار رجع الأمير فخر الدين وأقام الحصار على قلعة جبيل وهي بولاية آل سيفا، ثم أمّن من كانوا بها فخرجوا منها وأمر بهدمها وكانت حصينة منيعة وقديمة البناء. وولّى على بلاد جبيل الشيخ أبا نادر الخازن وفتح أيضاً قلعة أسمر جبيل ولم يهدمها، وولّى على بلاد البترون المقدّم يوسف بن الشاعر. ثم ورد أمر من الباب العالي بتقرير يوسف باشا سيفا في ولاية طرابلس فدخلها واستتب له الأمر مدة وجيزة.

وفي سنة ١٦١٩م أرسل الأمير فخر الدين كتخداه مصطفى آغا إلى دمشق ومعه عشرة آلاف قرشاً تقدمة هذه السنة طالباً أن تحال ولاية طرابلس إلى عهدته، فلم يقبل والي دمشق بذلك بل ولّى على طرابلس حسين باشا الجلالي، وأنعم على مصطفى آغا المذكور بولاية جبلة واللاذقية، وأمره أن يهدم القلاع التي كانت بيد يوسف باشا سيفا وأن يضبط ما له من الأملاك هناك. ولما علم يوسف باشا بذلك أرسل ابنه الأمير حسن إلى الأمير فخر الدين ليستعطف رضاه عنه فالتقاه الأمير فخر الدين بالبشاشة والتكريم وعقد زواج الأمير علي بن فخر الدين على ابنة الأمير حسن بن سيفا المذكور. ويروى على شقيقته وعقد زواج الأمير بلك بن يوسف باشا على بنت الأمير علي المذكور ووقع الصلح بين يوسف باشا والأمير فخر الدين. ووجّه يوسف باشا سيفا بعض أعوانه إلى الآستانة ومعهم تقادم ومبلغ وافر إلى السلطان، فصدر الأمر العالي بعزل حسين باشا الجلالي عن ولاية طرابلس وتقريرها على يوسف باشا ابن سيفا. وفي هذه السنة عُزل مصطفى باشا عن ولاية دمشق وعُهد بها إلى سليمان باشا. وتوفي علي باشا الصدر الأعظم وتولّى هذا المنصب حسين باشا البستنجي.

وفي سنة ١٦٢٠م أرسل حسين باشا الصدر الأعظم مصطفى آغا إلى الأمير فخر الدين مصحوباً بأمر أن يستحصل من يوسف باشا المال المطلوب منه للخزينة، فنهض الأمير فخر الدين في بعض رجاله وسار إلى أن بلغ برج البحصاص في خارج طرابلس، فانتقل يوسف باشا إلى جبلة وأرسل ابنه الأمير حسناً إلى الأمير فخر الدين فباعه بالوكالة عن أبيه جميع متخلفات بيت عساف في بيروت ومزرعة انطلياس ودار غزير. وبعد أن تسلّم الأمير فخر الدين صكّ البيع أرسل إلى يوسف باشا يطالبه بما عليه للدولة بموجب الأمر فأبى يوسف أن يدفع ما عليه واستنجد

بسليمان باشا والي دمشق وبعرب حمص والبقيعة وتركمانها ، وحاصر فخر الدين طرابلس وكان معه من السكمان نحو ثمان مئة مقاتل وفتحها وقام الحصار على قلعتها فلم يقوَ على فتحها ونازل الأبراج فكانت عليها وقعات كثيرة ، وقدمت نجدة ليوسف باشا من العرب والتركمان وأرسل سليمان باشا والي دمشق مئة رجل ليسعوا بالصلح فخرج الأمير فخر الدين إلى النهر البارد وتواقع الفريقان هناك فهلك خلق كثير منهما ، ثم قدم مصطفى آغا القبجي من الآستانة وبيده خلعة الأمير فخر الدين وأمر سامٍ أن يكفّ عن مطالبة يوسف باشا ابن سيفا ووصلت خمسة مراكب للذب عن ميناء طرابلس ، فلما اطّلع الأمير فخر الدين على الأمر السامي ترك طرابلس وعاد إلى بلاده .

وفي سنة ١٦٢١م أُحيلت ولاية طرابلس إلى عهدة عمر بشا الكتمانجي وقدم نائبه إليها وبيده كتاب إلى الأمير فخر الدين أن يساعد عمر باشا إذا قاومه يوسف باشا ابن سيفا . ولما بلغ ذلك يوسف باشا تنحّى عن طرابلس وسار في أهله إلى عكار فأرسل الأمير فخر الدين فطرد أتباع يوسف باشا من جبة بشري وولّى عليها الشيخ أبا صافي الخازن ، وسُلمت ولاية عجلون إلى الأمير حسين ابن الأمير فخر الدين ، وولاية حمص إلى عمر بك ابن سيفا . وكان وقتئذٍ أن قد عُزل مصطفى باشا عن منصب الصدارة وتولاه محمد باشا الكرجي فجدد الأوامر لوالي دمشق والأمير فخر الدين بأن يعضدا عمر باشا الكتمانجي ويمكناه من ولاية طرابلس ، وأن تضبط أملاك يوسف باشا سيفا وتورد إلى الخزينة السلطانية بعد أن يوفى منها الدين الذي يثبت عليه . فولّى عمر باشا المذكور أحمد بك على حماة وجعفر أفندي على جبلة ، والأمير فخر الدين على جبيل والبترون وجبة بشري والضنّية وعكار . وجمع الأمير رجاله وسار إلى طرابلس وصحبه الأمير محمد شهاب فخرج عمر باشا وقاضي البلد وأعيانها إلى لقائه عند برج البحصاص وخلع عليه ، ثم ورد في اليوم الثالث بعد وصوله أمر سامٍ من السلطان بتقرير ولاية طرابلس على يوسف باشا سيفا ، وسبب ذلك أنّ محمّد باشا الكرجي عُزل عن منصب الصدارة وارتقى إليه قرا حسين باشا فاضطر عمر باشا والي طرابلس أن يسير مع الأمير فخر الدين إلى بيروت ويعود منها إلى الآستانة . فأرسل يوسف باشا يحصي الأشجار في جبة بشري ، وجار أعوانه في الاحصاء وجباية المال حتى عدوا في اهدن خمسين ألفاً وماية وخمسة وستين أصلاً ، فهاجر كثيرون من أهل الجبة إلى دمشق وحلب

وغيرهما ، وفي هذه السنة نهب عاشينا بن شلهوب مقدم بشري دير القديس توما بأرض حصرون وقتل القس دانيال العكاري طامعاً بدراهمه ، فقبض عليه الشيخ أبو صافي الخازن وأخذه إلى أسمر جبيل وعرض أمره على الأمير فخر الدين فأمر بقتله ، فقتلوه ودفنوه عند جسر المدفون . وأتى أبوه شلهوب يحتج عنه فقبض عليه الشيخ أبو نادر الخازن وأرسله إلى الأمير فخر الدين مبيّناً أنه من حزب ابن سيفا فأمر الأمير بقتله .

وفي سنة ١٦٢٢م عزل والي دمشق جماعة الأمير فخر الدين عن ولاية نابلس وعجلون ، وبلغ الأمير فخر الدين أنّ ذلك كان بدسيسة من الأمير يونس الحرفوش فساءه ذلك ونهض من بيروت إلى قب الياس وطلب إليه الأمير حسين ابن الأمير يونس الحرفوش فحضر لديه فادعى عليه الأمير فخر الدين بأنه اشترى من الأمير منصور بن فريخ دار قب الياس وأرض تل نمرا وغيرهما من العقار في البقاع ، وقد غصب هو وأبوه هذه الأملاك فيلزمهما أن يرفعا يدهما عنها ، فأنكر ذلك الأمير حسين وفرّ إلى بعلبك وتوجّه هو وأبوه إلى الزبداني ، فأمر الأمير فخر الدين بنهب البقاع فنهبها رجاله وضبطوا ماشيتها وأخذوا كل ما وصلت أيديهم إليه إلى لبنان ، وهدموا دار قب الياس فتوجه الأمير يونس الحرفوش إلى دمشق ودفع لواليها ألف ذهب زيادة في المال المرتب على صفد وعجلون فولاّه سنجق صفد وولّى على عجلون الأمير بشير قانصوه حليف الأمير يونس . وتعصّب لهما الأمير أحمد طربيه والشيخ أحمد الكناني من حكام تلك النواحي فأرسل الأمير فخر الدين إلى الأمير علي الشهابي وإلى حسن الطويل أن يحرقوا قرى عجلون فأحرقوا منها فارا وحلاوة والخربة وأحرق كيوان آغا ناظر عكا جميع قرى الكرمل . وسار الأمير فخر الدين في ألفين وخمسماية سكماني لغزو بلاد الأمير أحمد طربيه والأمير قانصوه وترك الرجالة في جنين وزحف بألف وخمسماية فارس إلى نهر العوجا فنهبوا المواشي والأثاث ، فاجتمع عليهم العرب وقاتلوهم واسترجعوا ما نهبوا وقتل من الفريقين جماعة ونكص الأمير في فرسانه إلى خان جلجولية . وكذلك قتل الأمير أحمد طربيه نصوحاً بوكباشي الأمير فخر الدين في ساحل عكا واسترد ما كان انتهبه من الماشية . وسعى الشيخ درويش وكيل الأمير فخر الدين بالآستانة فنال أمراً بتقرير سنجق صفد على الأمير علي بن فخر الدين . ولما بلغ ذلك الأمير فخر الدين توجه إلى صفد ، فهرب الأمير يونس الحرفوش من أمامه فرتب أمور صفد وعرج عند

عودته على الكرك فقتل رجاله ثلاثين رجلاً من أتباع الأمير يونس الحرفوش، وأحرقوا الكرك وسرعين وغيرهما من قرى بيت الحرفوش، ويقال أنّ السبب في ذلك هو أنّ الأمير موسى الحرفوش كان قبلاً يسلم قسماً من أملاكه لزارعين من الشوف، ولما تولّى بلاد بعلبك استفحل أمره واقتنى نحو أربعين قطيعاً من الماعز وأشغل نحو ألف فدان في حراثة الأرض لحسابه ومنع أهل الشوف من الزراعة بالبقاع.

وفي سنة ١٦٢٣م وقعت نفرة بين مصطفى باشا والي دمشق وبين الأمير فخر الدين فنهض الوزير المذكور من دمشق في عشرة آلاف مقاتل وانضمّ إليه الأمير يونس الحرفوش وآل سيفا، والتقاه الأمير فخر الدين ومعه الأمير علي الشهابي وأخوه الأمير أحمد، والتحم القتال عند نبع عنجر في لبنان الشرقي، وكان الظفر للأمير فخر الدين فشتت رجاله عسكر الوزير وقتل وأسر، وبقي مصطفى باشا وليس حوله إلّا عشرة رجال من خواصه، ووصل إليه الأمير فخر الدين، ولما عرفه ترجّل عن جواده وقبل ذيله وأكرم رجاله وأركبه جواده وأرسل بعض حاشيته بخدمته إلى قب الياس. وسار الأمير فخر الدين في أثره إلى هناك ودخل على الوزير معتذراً له عما كان فاعتذر له الوزير أيضاً عن نهوضه إليه ونسب ذلك إلى الأمير يونس الحرفوش، وخلع الأمير على الوزير وقرّر عليه وعلى جماعته سناجق عجلون وصفد ونابلس والبقاع العزيز، ثم سار الوزير والأمير إلى بعلبك ففرّ الأمير يونس الحرفوش إلى معرّة النعمان وغنم عسكر الأمير غلال آل حرفوش وكانت نحو ثلاثين هرياً (حاصلاً) فانتفع بها القوم من وادي التيم إلى جبة بشري. وحاصر الأمير القلعة وقتل من جماعته وممن كانوا ينقبون في جدرانها نحو أربعين رجلاً، وورد الخبر أنّ مراد باشا صاحب حلب قبض على الأمير يونس الحرفوش وسجنه في قلعة سلمية فقطع رجاله الذين كانوا بالقلعة رجاهم وسلموها إلى الأمير فخر الدين فأمر بهدمها.

وفي هذه السنة أيضاً غزا الأمير فخر الدين بلاد عجلون ونابلس وسار إلى نهر العوجا، ولما قدم إليه ابنه الأمير علي والأمير محمد والأمير أحمد الشهابيان كبسهم العرب وقتلوا من رجالهم نحو مئة وخمسين، ثم طردهم عرب بني طربيه حتى أوصلوهم إلى نهر عين أم العلق وأهل بلاد حارثة حاصروا من كانوا من رجال فخر الدين في قلعة جنين وأخرجوهم منها وقتلوا منهم كثيرين. وعاد الأمير فخر

الدين إلى صيدا فأطلق الأمير أحمد بن طربيه أخوته وبنيه فسطوا على بلاد الأمير فخر الدين ونهبوا وقتلوا . ولما خرج عليهم كيوان آغا ناظر عكا هزموه وقتلوا نفراً من جماعته وغزوا ساحل عكا وجوارها فجمع الأمير فخر الدين رجاله وسار فيهم لقتال الأمير بشير قانصوه المذكور. وكثرت المراسلات بينهما ، وكان آخرها أنّ الأمير بشير دخل في طاعة الأمير فخر الدين ، فأقامه نائباً لابنه الأمير حسين في تدبير بلاد عجلون كما كان أولاً ، واتفق مع باقي أمراء العرب المذكورين. وفي هذه السنة أيضاً أنشأ الأمير منذر ابن الأمير سليمان علم الدين التنوخي سرايا عظيمة في اعبيه ولم يكملها لزيادة اتساعها . انتهى ملخصاً عن تاريخ العلامة الدويهي وغيره .

عد ٩٩٣

السلطان الغازي مراد خان الرابع

هو ابن السلطان أحمد الأول وُلد في ١٨ جمادى الأول سنة ١٠١٨ هـ (٢٩ آب سنة ١٦٠٩ م) أجلسه الانكشارية على منصّة السلطنة بعد عزل عمه السلطان مصطفى الأول في ١٥ ذي القعدة سنة ١٠٣٢ هـ (١١ ايلول سنة ١٦٢٣ م) واختاروه صغيراً كيلا يكون معترضاً لهم في استبدادهم ولا مضعفاً لنفوذ كلمتهم . واستمروا في العشر السنين الأولى من سلطنته على غيهم وطغيانهم لكنه كبحهم بعد ذلك كما سترى .

وأهم الحروب في أيام هذا السلطان كانت حربه مع العجم . فإنّ الشاه عباس انتهز فرصة الاختلال في الآستانة لتوسيع نطاق أملاكه . وكان أنّ رئيس الشرطة في بغداد اسمه بكير آغا ثار على والي هذه المدينة وقتله واستبد بالولاية ، فأرسل إليه السلطان عسكراً أميره حافظ باشا فحاربه وحاصره في بغداد ، فراسل بكير الشاه عباساً بأن يسلمه المدينة فسار الشاه في جنوده ليستلمها ، وعرض بكير آغا على القائد العثماني أيضاً أن يسلمه المدينة إن أقرّته الدولة على ولايتها ، فوافقه على ذلك . واحتلّ الجنود العثمانيون المدينة قبل أن يصل الشاه إليها ، ولما وصل حاصرها ثلاثة أشهر وفتحها بخيانة بكير آغا أيضاً لأنه سلمها إليه على شرط أن يكون والياً

فيها من قبل الشاه. وبعد أن استلمها قتل هذا الخائن وألحق به أباه، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر. وفي سنة ١٦٢٤م سار حافظ باشا الصدر الأعظم إلى بغداد ليستردها وحاصرها وضيّق عليها مدة فلم ينل منها مأرباً، فتذمّر الانكشارية وامتنعوا عن الحرب حتى اضطر الصدر الأعظم إلى رفع الحصار والرجوع إلى الموصل ثم إلى ديار بكر حيث ثار الجنود ثانيةً. فعزل السلطان حافظ باشا الصدر الأعظم وولّى مكانه خليل باشا وكان قد تولاه قبلاً، وكان أباظة باشا والي أرضروم قد أظهر الانتقاض والعصيان فسار خليل باشا إليه وحاصره، فلم يقوَ عليه فعزله السلطان وأقام مكانه خسرو باشا. وسار إلى أرضروم وأدخل أباظة في سلك الطاعة ونصّبه والياً في البشناق سنة ١٦٢٨م.

وقد توفي في هذه الأثناء الشاه عباس وتولّى مكانه الشاه مرزا ابنه، وكان حديث السن فسار خسرو باشا إلى العجم طامعاً أو يدوخها، وبلغ إلى مدينة همذان فدخلها فجأة سنة ١٦٣٠م ثم قصد بغداد وكانت له في مسيره إليها ثلاث وقعات مع جنود العجم، وكان النصر له فيها. وبلغ بغداد وحاصرها ودافع عنها قائد حاميتها دفاعاً شديداً، واضطر خسرو باشا إلى أن يرفع حصار بغداد فلم يمتثل جنوده أمره، فسار إلى حلب خوفاً من مهاجمة الأعداء له في الموصل ولا ثقة له بجنوده فعزل السلطان خسرو باشا عن منصبه وأقام به حافظ باشا فأظهر خسرو باشا لجنوده أنه لم يُعزل إلّا لأنه رفق بهم وطاوعهم على ما يرغبون، فثاروا وأرسلوا إلى الآستانة يطلبون ارجاعه، ولما لم يجبهم السلطان إلى ذلك ساروا إلى الآستانة وقاموا سنة ١٦٣٢م بثورة كبرى خيف منها على حياة السلطان. وقتلوا حافظ باشا الصدر الجديد، فحنق السلطان وأمر بقتل خسرو باشا لاعتقاده أنه هو الذي أوجد هذه الفتنة وولّى في منصب الصدارة بيرام محمد باشا. ومنذ ذلك الحين أخذ السلطان مراد يُظهر شديد العزم والقسوة في مجازاة رؤساء الانكشارية وغيرهم من المقلقين العاثين ويأمر بقتل كل من ثبت عليه الاشتراك في ثورة أو فتنة، فتولّت مهابته القلوب وخشيته الأكابر والأصاغر وأمّن الناس على نفوسهم وأموالهم من التعدي، واستتبت الراحة بالآستانة وسائر أنحاء المملكة بل أفرط في القسوة والعنف حتى قيل أنه منع رعاياه عن استعمال التبغ تحت عقوبة القتل. وكانت آخر ثورات الانكشارية في أيامه سنة ١٦٣٢م أنشأها رجب باشا فأمر السلطان بقتله والقاء جثته من شبابيك القصر ليراها المشاغبون فسكنت الخواطر.

وفي سنة ١٦٣٥م سار السلطان مراد بنفسه إلى بلاد العجم ففتح مدينة أريوان وتبريز وعاد إلى الآستانة فتغلّب العجم ثانيةً على أريوان سنة ١٦٣٦م فسار ثانيةً في جيش كثيف وحاصر بغداد في ١٥ تشرين الثاني سنة ١٦٣٨م فافتتحها عنوة في ٢٥ كانون الأول من السنة المذكورة، وعرض حينئذٍ شاه العجم الصلح على أنه يترك للدولة العلية بغداد ويترك له السلطان مدينة أريوان وتوفرت المخابرات بذلك إلى أن وقّع على معاهدة الصلح في ١٩ أيلول سنة ١٦٣٩م وانقطعت أسباب العدوان.

عد ٩٩٤

ما كان بسورية في أيام السلطان مراد خان الرابع

في سنة ١٦٢٤م كانت وفاة يوسف باشا سيفا التركماني وقد كان تولّى طرابلس مدة سنة ١٥٧٩م فمدة ولايته عليها خمس وأربعون سنة قد تقطعت مراراً وتنغّصت كثيراً ولا سيما في المغالبات التي كانت بينه وبين الأمير فخر الدين. وتولّى طرابلس بعده ابنه الأمير قاسم الذي كان حاكماً في جبلة، واستمر ابنه محمود حاكماً في حصن الأكراد وابنه الأمير بلك في عكار، ثم حشد الأمير فخر الدين جيشاً سار فيه إلى بعلبك ثم جبة بشري ومنها إلى طرابلس، فدخلها واستمر جماعته ينهبون ويسلبون مدة أربعين يوماً حتى وصل إليها وزير حلب. ثم قدم مصطفى باشا ابن اسكندر من قبل أحمد الحافظ الصدر الأعظم والياً على طرابلس وظلم كثيراً، وولّى على عكار الأمير سليمان بن سيفا فهرب أولاد عمه أبناء يوسف باشا إلى الحصن.

وفي سنة ١٦٢٥م أقرّت الدولة الأمير فخر الدين على ولاية بعلبك فهرب الأمير حسين ابن الأمير يونس الحرفوش إلى حلب وأخذ يسعى عند وزيرها على الأمير فخر الدين، ومما قاله: فليطلب الوزير رفع يد الأمير فخر الدين عن القلاع التي بيده، فإن رفعها اقطع رأسي. فأمكسه الوزير في قلعة حلب تحت هذا الشرط، ثم اجتمع الأمير قاسم سيفا الذي كان والياً بطرابلس والشيخ علي بن حماده وأحزابهما في قلعة المرقب، فنهض إليهم مصطفى باشا والي طرابلس

المذكور في عسكره فدفعوا له عشرين ألف قرش استعطافاً لخاطره، فعاد إلى طرابلس وكتب إلى الأمير فخر الدين يستنجده على آل سيفا. فحشد الأمير عسكراً ضخماً من سكمان وعرب وأهل بلاده وزحف بهم من بيروت إلى البقاع واللبوة والهرمل، وكان الأمير سليمان بن سيفا معتصماً بحصن صافيتا وعنده نحو أربع مئة رجل، فلما بلغه قدوم الأمير فخر الدين أطلق الرجال وهرب إلى سلمية ليعتضد بالأمير مدلج رئيس قبيلة من العرب، وكان الأمير مدلج مع الوزير الحافظ في حصار بغداد، فلما عاد إلى سلمية قبض على الأمير سليمان وألقاه في نهر الفرات، فاستعطف آل سيفا الأمير فخر الدين وسلموا إليه قلعة الحصن وقلعة المرقب فرضي عنهم ومنع صاحب طرابلس من السطو عليهم.

وفي سنة ١٦٢٦م عزل الحافظ أحمد باشا الصدر الأعظم مصطفى باشا عن ايالة طرابلس وولّى عليها عمر باشا الدفتردار، وعندما وصل مصطفى باشا إلى الوزير وهو في ديار بكر قتله وأخذ ماله. ثم قدمت الشكوى على الأمير فخر الدين أنه جار على رعايا السلطان ونهب طرابلس. وفي أثناء ذلك عزل الحافظ أحمد باشا عن الصدارة وتولاّها مكانه خليل باشا، فسار في العساكر إلى حلب قاصداً محاربة الأمير فخر الدين، ولما وصل إلى حلب عزل عمر باشا والي طرابلس وولّى عليها ابراهيم باشا. ولما بلغ ذلك إلى الأمير فخر الدين أرسل عبدالله بكباشيه إلى خليل باشا الصدر الأعظم يعده بخزائن كثيرة وتسليم قلعة الحصن وصافيتا وشميسة والمرقب إليه فارتضى الوزير بذلك وقتل الأمير حسين يونس الحرفوش وتحوّلت العساكر إلى بغداد لمحاربة شاه العجم.

وفي سنة ١٦٢٧م تولّى الأمير فخر الدين محافظة ايالة طرابلس فأنشأ قناية القاع وعمّر القليعات في جون عكار ونصب في مغراقها أربعة عشر ألف نصبة توت، وغرس بستاناً آخر أكبر من الأول في أرض الحيصة؟ وفي سنة ١٦٣٠م زحف الأمير فخر الدين إلى بعلبك بالرجال قاصداً الاستيلاء على قلعة تدمر فأخذها من والي دمشق، وفيها حدثت زلزلة هائلة فهدمت البرج الأوسط من قلعة أسمر جبيل، وتوفي بهذا السبب الشيخ نوفل ابن الشيخ نادر الخازن ووالدته بنت الشيخ معتوق حبيش وستة أنفس غيرهما، ثم أخذ الشيخ أبو نوفل في السنة التالية في تجديد ما هُدم من هذه القلعة.

وفي سنة ١٦٣١م كانت وقعة بين الأمير علي ابن الأمير فخر الدين وبين الأمير أحمد قانصوه والشيخ رشيد وأولاد بشير في أرض صفد، فظفر بهم الأمير علي وطلبوا أن يصالحوه فصالحهم وبنى في بلاد صفد مغارة الحمام فوق نبع اسبانيا وجعلها حصناً منيعاً.

وفي سنة ١٦٣٢م بنى الأمير فخر الدين في بيروت البرج الكشاف وخان الوحوش والجنينات.

وفي ١٦٣٣م كثرت الشكايات على الأمير فخر الدين إلى السلطان مراد خان، فأمر كجك أحمد صاحب دمشق أن يجرّد جيشاً للقبض عليه فخرج من دمشق بالعساكر ونزل في صحراء خان حاصبيا وشنّ الغارة على بلاد وادي التيم ولاية الأمراء الشهابيين، فنهبوا وقتلوا وأحرقوا، ولما بلغ ذلك الأمير علي بن فخر الدين أتى مسرعاً برجاله من صفد وباغت العساكر ليلاً ودار القتال بينهم واختلط الجمعان. وقدم الأمير قاسم والأمير حسين الشهابيان لنجدة الأمير علي، فتفرّق عسكر كجك أحمد وولّى الادبار. فتتبع آثارهم الأميران الشهابيان مسافة نحو ساعتين، ولما رجعا وجدا الأمير علياً وقع قتيلاً وبجانبه عصبة من غلمانه وأصحابه فبكيا عليه وسألا عن خبره فقالوا رأيناه مذ قدمنا على هذه الحال فغسلوه ودفنوه في ذاك المحل ولما بلغ مقتله أباه وجد عليه جداً.

ولما علم السلطان ما كان من تشتيت عسكر كجك أحمد صدر أمره باهلاك آل معن، وحضر جعفر باشا وزير البحر بالأسطول السلطاني إلى طرابلس ومنها إلى بيروت، وخيّم الجنود في ظاهرها وانضمّ إليهم آل سيفا وآل علم الدين بجيش وافر، وأتى الكجك أحمد من دمشق إلى صيدا باشارة خليل باشا الصدر الأعظم إذ كان بحلب، فأنفض آل معن من أمام هذه الجيوش وانهزموا من بيروت وصيدا، فالأمير حسين ابن الأمير فخر الدين فرّ مع مدبره الشيخ أبي نوفل نادر الخازن إلى قلعة المرقب ليتحصّن بها، والأمير ملحم ابن الأمير يونس معن فرّ إلى عجلون ونزل على الأمراء آل طربيه والأمير فخر الدين انهزم إلى قلعة شقيف تيرون التي في قرب قرية نيحا وتحصّن فيها بعياله ومعه مدبره الشيخ أبو نادر الخازن وسرور آغا وأبو علوان وأبو صافي من حاشيته. وبقي الأمير يونس أخو فخر الدين بدير القمر فوجّه جعفر باشا رئيس الأسطول عسكراً إلى قلعة المرقب فاستولى عليها وقبض على الأمير حسين وسيّره إلى حلب إلى خليل باشا الصدر الأعظم، وكتب الكجك أحمد باشا

إلى الأمير يونس وهو في دير القمر أن يحضر إليه آمناً فحضر، ولما دخل عليه ضرب عنقه حالاً ونهض من صيدا نحو الشوف فنهب قراها وقتل وسبى وولّى عليها الأمير علي علم الدين اليمني. ثم توجّه لحصار قلعة تيرون حيث الأمير فخر الدين، فحاصرها وشدّ عليها الحصار وأفسد الماء المنحدر إليها بالدماء والأقذار فتدلّى الأمير فخر الدين منها ليلاً وفرّ بمن معه إلى المغارة التي تحت جزين وهي حصينة لا يسلك إليها من محل ولا يصعد إليها إلّا بسلّم من خشب فلحقه الوزير إلى هناك وأحضر نقابين نقبوا المغارة وقطعوا صخرها من الأعلى والأسفل فاستولى الوزير عليها وقبض على الأمير فخر الدين وأولاده والأمير منصور والأمير حيدر والأمير بلك وعلى مدبره الشيخ أبي نادر الخازن وعلى باقي حاشيته، وأطلق الحريم دون أذى. وعاد إلى دمشق بمن قبض عليهم وأما الأمير ملحم ابن الأمير يونس فأرسل وزير دمشق يطلبه من الأمراء آل طربيه فسلموه إلى يد ابراهيم آغا مدبر الوزير فأتى به إلى دمشق، ولما وصلوا به إلى خان العبيد الذي تسميه العامة خان الشيخ، عرجوا إليه للمبيت ففرّ الأمير ملحم من على سطح الخان واختبأ تحت معبر الماء القريب من الخان، فخرج الرجال في طلبه فلم يهتدوا إليه مع أنّ مجازهم كان على ذلك المعبر، ولما يئسوا من وجدانه رجعوا إلى الخان وهو يراهم ذهاباً واياباً، ولما خلا البر منهم نهض من مخبأه وسار حتى بلغ قرية عرنة في سفح جبل الشيخ واختبأ بها مدة ثلاثة أشهر عند رجل من وجهائها كان من غرض المعنيين. وأما الشيخ أبو نادر فكفله الأمير علي علم الدين اليمني وأخرجه من قلعة دمشق وولده الشيخ أبو فاضل نادر الخازن هرب من حلب والأمير فخر الدين وأبناءه أُشخصوا إلى الآستانة، ولما مثُل الأمير فخر الدين بحضرة السلطان مراد خان لامه على أمور شتى فاحتج عن نفسه بأنه ما جمع الرجال إلّا بأمر الوزراء والنواب الطائعين ولا قتل إلّا العصاة على الدولة وإنّ القلاع التي تولّى عليها أخذها من يد العصاة وسلمها إلى رجال الدولة فتقبل السلطان احتجاجه وطيّب خاطره.

وأما الأمير علي علم الدين فبعد أخذ الأمير فخر الدين وأبنائه إلى الآستانة قبض على أصحاب المناصب المعنيين وقتلهم وسلب أموالهم وتوجّه إلى قرية اعبيه فدعاه الأمراء التنوخيون للغذاء فغدر بهم وقتل الأمير يحيى العاقل والأمير محمود والأمير ناصر الدين والأمير سيف الدين، ثم دهم أبناءهم الصغار في البرج وقتلهم وكانوا ثلاثة، وانقرضت بهؤلاء سلالة أمراء الغرب التنوخيين، وبلغ ذلك إلى الأمير ملحم ابن الأمير يونس المعني وهو في عرنة كما مرّ. فلم يتحمل هذه الحال

وراسل القيسيين فاجتمع عليه جمع منهم فقام بهم إلى الشوف، وشاع خبره وتحاضرت إليه الأحزاب والأصحاب من كل جهة، فسار فيهم لقتال الأمير علي علم الدين فالتقاه هذا بجموعه من اليمنية ومعه مدبر الكجك أحمد والي دمشق فالتقى الفريقان في أرض المقيرط (ويروى المقيرض) فوق مجدل معوش. وتسعرت نار الحرب ودارت الدوائر على اليمنية وانفض جمعهم وفرّ أميرهم وقُتل منهم نحو ثلاث ماية رجل، ومدبر والي دمشق. واشتدت شوكة الأمير ملحم وكثُرت جموعه فانهزم الأمير علي علم الدين إلى طرابلس وسار منها إلى دمشق مستغيثاً بواليها كجك أحمد فأغاثه وأصحبه بخمس مئة مقاتل، ولما وصلوا إلى قرب قب الياس ألحم سيد أحمد ابن أبي عذراء القتال معهم ومعه أربع مئة رجل، فأخلى له الأمير على المحلّة حتى دخل عليها برجاله ثم كرّ عليهم الأمير علي برجاله فأحاطوهم من كل جهة وقتلوهم عن آخرهم. ورجع الأمير ملحم بمن بقي من رجاله إلى الشوف فجدد حينئذٍ كجك أحمد الشكوى على آل معن، وإنّ أحدهم الأمير ملحم ابن أخي الأمير فخر الدين جمع الرجال وقتل مدبر ولاية دمشق وفتك بالعسكر وقصد أن يحاصر دمشق. فحنق السلطان مراد خان وأمر بقتل الأمير فخر الدين وأبنائه الثلاثة الذين كانوا معه في الآستانة فقُتلوا ولم يبقى منهم إلّا الأمير حسين بن فخر الدين الذي كان خليل باشا الصدر الأعظم قد أحضره من حلب إلى الآستانة، ولاذ بعقوتة ووالا الأمير ملحم ابن الأمير يونس المذكور، وكان الأمير قاسم والأمير حسين الشهابيان ينجدانه في قتاله لليمنية وكان الأمير حسين متزوجاً بينت الأمير ملحم وولّت الدولة آل سيفا على ايالة طرابلس واليمنية على الشوف، وفي أيام الأمير فخر الدين اعتز النصارى وبنوا كنائس وركبوا الخيل مسرجة واعتمّوا بعمائم بيضاء وحملوا السلاح مجوهراً، وقدم إلى لبنان المرسلون الأوروبيون وكان أكثر عسكر فخر الدين من النصارى ومدبروه وخدامه موارنة وكان هو شجاعاً حليماً كريماً محنكاً بالسياسة ويقال أنه كان قصير القامة.

وفي سنة ١٦٣٤م تولّى ايالة طرابلس قاسم باشا ابن يوسف باشا سيفا، فورد له الأمر السلطاني أن يسير إلى بلاد العجم لمعاونة عساكر الدولة على الأعاجم وأمر بتجهيز العساكر فلم يطاوعه مدبراه حسن آغا ويوسف آغا ولم ينثنِ عن عزيمته بل سار مرحلتين واعتراه الخوف فتظاهر بالجنون واعتزل عن عسكره واختفى فرجع عسكره إلى طرابلس واجتمع حينئذٍ أعيانها وأقاموا مكانه ابن أخته الأمير علي ابن الأمير محمد سيفا فدبر المدينة شهرين، فنهض عليه الأمير عساف بن يوسف باشا

سيفا وحاربه فانهزم الأمير علي إلى بيروت والتجأ إلى الأمير علي علم الدين اليمني المار ذكره واتفقا مع حسن آغا مدبر قاسم باشا سيفا المذكور ، فجمع الأمير علي علم الدين عسكراً وصحبه الأمير سيفا وحسن آغا وساروا على طريق الجرد واستولوا على بلاد جبيل وجبة المنيطرة ، فجمع الأمير عساف سيفا المشايخ الحمادية وهبّ لمناوأتهم فأحرق جبة المنيطرة وقتل أبا جمال الدين سيالة وابن أخيه من المستراحيين المتاولة ، واتفق المقدّم زين الدين الصواف مع الأمير علي سيفا وسارا برجالهما إلى قرية ايعال بزاوية طرابلس فجمع الأمير عساف سيفا المشايخ الحمادية وكبس الأمير علي وزين الدين المذكورين فظفرا به وقتل من أتباع الأمير عساف الشيخ كنعان بن قانصوه حماده وجماعة كثيرة ، وقطعوا رؤسهم وأرسلوها إلى طرابلس . وعاد الأمير علي بن محمد سيفا إلى ولاية طرابلس وضمّ إليها ولاية جبيل والبترون . ومن جري ذلك كثر الظلم للرعايا وقبض الأمير علي علم الدين على جماعة ليقرروا عن أملاك آل معن والمشايخ الخوازنة وغيرهم .

وفي سنة ١٦٣٥م تولّى ايالة طرابلس مصطفى باشا النيشانجي وعهد بولاية جبيل والبترون والضنية إلى الأمير علي سيفا ، وبولاية عكار والحصن وصافيتا إلى بعض أقربائه . ونصب على جبة بشري الشيخ أبو كرم يعقوب ابن الرئيس الياس الحدثي والشيخ أبا جبرائيل يوسف الأهدني . ثم صدر الأمر السلطاني إلى مصطفى باشا صاحب طرابلس المذكور أن يتوجّه لمحاربة شاه العجم ووكل بمحافظة طرابلس وما يليها إلى الأمير عساف بن يوسف باشا فشق ذلك على الأمير علي ابن أخته فكبس قرية أميون ونهبها . وكان صحبته المقدّم محمد بن علي الصواف فجمع الأمير عساف الرجال والتحم بينهما القتال في أرض عرقة في أطراف الزاوية ، فانذعر الأمير علي وانهزم إلى الشوف . وكانت عيال الأمير علي ببرج سير في الضنية فدهمهم الأمير عساف وأخذهم إلى عكار واستولى على بلاد جبيل . أما الأمير علي سيفا فاستنجد بالأمير علي علم الدين حاكم الشوف فنجده . فعاد الأمير علي سيفا بالرجال لمقاتلة خاله الأمير عساف ، ودهمه في قرية عناز من بلاد الحصن فانتصر عليه الأمير عساف وقتل جماعة كثيرة من رجاله واحتملت الرعايا من جراء ذلك مشاق وخسائر كثيرة .

وفي سنة ١٦٣٦م قصد أحمد الشامي آغا الانكشارية بالشام قتال الأمير علي علم الدين اليمني لعصيانه وعدم ادائه المال السلطاني ، واتفق معه حاكم صفد ومتسلم بيروت والمقدّم مراد اللمعي والأمير عساف سيفا ، فانهزم من أمامهم الأمير

علي علم الدين ورحل معه اليمنية من المتن والجرد والعرقوب والشحار والشويفات بعيالهم ومواشيهم فكانوا نحو سبعة آلاف نفس، وتوجّهوا نحو كسروان فانهزم من أمامهم القيسية فنهبوا بكفيا، وتكاثر عليهم القيسية فكسروهم في مرحاتا، وقتل الشيخ أبو فارس حبيش، ثم تواقعوا في المروج فقتل الشيخ حمزي القاضي وانهزم اليمنية من كسروان وساروا إلى عكار على طريق الجرد، فاجتمعوا برجال الأمير علي سيفا بعرقا وسار أحمد الشامي المذكور بأصحابه وعسكره على طريق الساحل إلى طرابلس وخرجوا لمقاتلة اليمنية عند النهر البارد فظهر عليهم الشامي فاندفعوا من أمامه ولحقهم عسكره في أرض جون عكار فشتتهم وسبى نساءهم ونهب ماشيتهم وأموالهم ثم توسط طربوش البدوي في الصلح بين الأمير عساف سيفا وابن أخته الأمير علي سيفا، فعقد بينهما في قرية المنى في ناحية طرابلس وعادا مع الأمير علي علم الدين إلى بيروت، ولما رأى الأمير ملحم المعني المار ذكره ضعف عزيمة اليمنية وانحطاط قوّتهم تظاهر وجمع الرجال وهزم الأمير علي علم الدين اليمني من الشوف واستحوذ عليه.

وفي هذه السنة أيضاً جعل مصطفى باشا والي طرابلس مرضي آغا متسلماً تدبير شؤونها، فولّى على عكار الأمير عساف سيفا وعلى جبيل والبترون الشيخ علياً والشيخ أحمد ابنَي قانصوه حماده وجمع الأمراء الحرافشة العرب والسكمان وقصدوا استرداد ولايتهم على بلاد بعلبك ، وعلم بذلك والي دمشق فأرسل إليهم عسكراً فقتلوا من الحرافشة ورجالهم خلقاً كثيراً. ثم أرسل الباب العالي متسلماً إلى طرابلس وإذ بلغ ذلك مصطفى باشا أرسل رجالاً أرجعوه من طريقه إلى حماة، وبعث مدبره وبعض حاشيته ليجتمعوا بالأمراء آل سيفا والمشايخ بني جماده في قرية بقرزلا، فلم يذعن آل سيفا لرأيه في مخالفة الدولة، ووقع الخلاف بين الفريقين فقتل آل سيفا الشيخ أحمد حماده ومدبر مصطفى باشا وحاشيته، ولما بلغ ذلك إلى مصطفى باشا انهزم ليلاً من طرابلس ودخل المتسلّم المرسل من الباب العالي إلى المدينة مع الأمير عساف والأمير علي سيفا. وهذه السنة أيضاً كانت وقعة في أرض اهمج بين المشايخ الحمادية الذين تولّوا كما مرّ على بلاد جبيل والبترون وبين الأمير اسماعيل الكردي من أمراء راس نحاش ومحمد بن يوسف آغا، فانتصر الأمير اسماعيل على الحمادية وتولّى محمد بن يوسف آغا على بلاد جبيل والبترون.

وفي سنة ١٦٣٧م ارتحل الأمير عساف سيفا إلى جبيل واتفق مع الأمير ملحم ابن الأمير يونس معن وآل مدلج الحياري من العرب على محاربة ابن أخته الأمير علي سيفا. واتفق مع هذا الأمير علي علم الدين والتقى الفريقان برجالهما في عكار فطرد الأمير عساف الأمير علياً حتى إلى جبل الكلبية وشاع حينئذٍ أنّ والي طرابلس عُزل ونُصب مكانه شاهين باشا، فعاد الأمير ملحم المعني إلى الشوف والأمير عساف إلى البقيعة. ولما بلغ إليها شاهين باشا رُفعت إليه الشكاوى بأنّ آل سيفا خربوا بلاد السلطان فأرسل إليه الأمير عساف مدبره وأصحبه بخيل وتقادم فخلع شاهين باشا على المدبر وأرسله يؤمن الأمير عساف، فحضر الأمير إلى الباشا فأمر برفعه إلى قلعة الحصن، وفي اليوم الثاني شنقوه. وأمر شاهين باشا بالقبض على أتباعه فلم ينجُ منهم إلّا القليل واستخدم الباشا الأمير اسماعيل الكردي من رأس نحاش والشيخ علي حماده وأمرهما بالقبض على الأمراء آل سيفا فقبضوا على الأمير قاسم الذي كان قد تولّى طرابلس ثم تظاهر بالجنون كما مرّ. وعلى أبناء آل سيفا ونسائهم وأخذوا يفتشون في القرى والأديار على أموالهم. وفرّ الأمير علي سيفا إلى الأمير علي علم الدين وتشتت آل سيفا من ايالة طرابلس. وفي هذه السنة أخذ الأمير علي علم الدين الولاية على بلاد الشوف من قبل نائب السلطنة بدمشق فانهزم المشايخ الخوازنة والحبيشية من كسروان إلى بلاد جبيل.

وفي سنة ١٦٣٨م قدم السلطان مراد خان إلى حلب في جيش جرار قاصداً بغداد لاستردادها من شاه العجم، فوجس الأمير علي علم الدين من قدوم السلطان والتجأ إلى المتاولة ببلاد بشارة فلما علم الأمير ملحم المعني بذلك جمع عسكراً ودهم الأمير علياً في قرية انصار وقتل كثيرين من جماعته، ففرّ الأمير علي إلى دمشق مستغيثاً بواليها، فأغاثه وأرسل معه سكماناً زحف بهم على الأمير ملحم ففرّ من أمامه، وفرّ كثيرون من أهل الشوف والغرب والجرد والمتن. ثم أرسل والي دمشق عمدة من قبله وبيدهم أمر سلطاني فحواه أنّ بلاد جبيل والبترون وجبة بشري تنسلخ من ايالة طرابلس وتتبع ايالة دمشق ونُصب أحمد آغا الشمالي حاكماً ببيروت وصيدا، فنهض عليه الأمير علي علم الدين والتقيا في خلدة فقتل الأمير علي الحاكم المذكور.

وفي سنة ١٦٣٩م عُزل محمد باشا ابن درويش عن ولاية طرابلس وتولاها محمد باشا الأرناؤوطي وكان مدبره مصطفى بك ابن الصهيوني وفي غضون ذلك

كبس الأمير علي علم الدين قرية مشغرة بالبقاع ونهبها وسار إلى بيروت وتوطّن فيها ، وطلب والي طرابلس حكام أعمال ولايته فحضروا لديه إلّا آل سيفا وأبو كرم الحدثي حاكم جبة بشري المذكور. وتوفي السلطان مراد في ١٦ شوال سنة ١٠٤٩ هـ (٩ شباط سنة ١٦٤٠ م) وعمره ٣١ سنة ومدة سلطنته نحو ١٧ سنة وخلفه أخوه السلطان ابراهيم.

عد ٩٩٥
السلطان ابراهيم خان الأول

هو ابن السلطان أحمد الأول وأخو السلطان مراد الرابع وُلد في ١٢ شوال سنة ١٠٢٤ هـ (٤ تشرين الثاني سنة ١٦١٥ م) واستوى على أريكة الملك بعد وفاة أخيه السلطان مراد سنة ١٦٤٠م كما مرّ. ولم يكن تولّى منصباً في الدولة كغيره من السلاطين بل عاش بين الحرَم ولم يكن ميالاً إلى الحرب ، وأوعز إلى أمير ترنسلفانيا أن لا يحرك ساكناً يثير النمسا ، لكنه لم يكن يغضي على من يعتدي على الدولة. ولذلك لما سطا الكوزاك سنة ١٦٤٢م على مدينة أزوف واحتلوها أرسل إليهم جيشاً نكّل بهم واسترد المدينة من أيديهم بعد أن كانوا قد أحرقوها ، وجهز عسكراً وأسطولاً لفتح جزيرة كريت من يد البنادقة لأنهم قبضوا على أخي السلطان وعمته وهما متوجهان بحراً إلى مكة للحج. ويقال إنّ هذا الأمير تنصّر وترهّب في رهبانية القديس عبد الأحد وصار كاهناً وتوفي سنة ١٦٦١ م. وأمّر السلطان على جيشه يوسف باشا وألقت سفنه مراسيها أمام مدينة خانية في ٢٤ حزيران سنة ١٦٤٥م وكانت هذه الجزيرة يومئذٍ من أملاك البندقية فاستحوذ العثمانيون على المدينة المذكورة لتأخر سفن البندقية عن الوصول إليها في الوقت المناسب ، وحمل البنادقة على أملاك الدولة في بلاد اليونان فأحرقوا بتراس وكورون ومودون بالمورة. ويقال أنّ السلطان ابراهيم إراد في مقابلة ذلك أن يهلك النصارى في مملكته فعارضه المفتي أسعد زاده أبو سعيد أفندي في ذلك وقيل إنّ الافرنج أدخلوا هذه القصة في تواريخهم.

وفي سنة ١٦٤٦ م. فتحت عساكر السلطان ابراهيم أكثر الجزيرة ، وفي السنة

التالية حاصرت مدينة كنديا عاصمة هذه الجزيرة فحال دون فتحها ثورة الجنود في الآستانة كما سيأتي .

وأما البنادقة ومحازبوهم فافتتحوا عدة قلاع في أملاك الدولة بدلماسيا واتصلت مراكبهم إلى محاصرة الدردنل ، وجهزت روسيا جيشاً وأرسلته إلى رومانيا ليستحوذ عليها . وكثر القلق وعظم الشغب والتذمر من السلطان ابراهيم فأراد السلطان أن يفتك برؤساء الانكشارية في ليلة زفاف إحدى بناته لتذمرهم وانتقادهم أعماله ورغبتهم في التدخل في شؤون المملكة ، فعلموا بمقصد السلطان وائتمروا عليه واجتمعوا بمسجد يقال له اورطه جامع ، وانضمّ إليهم بعض العلماء والمفتي عبد الرحيم أفندي وهيّجوا الانكشارية وغيرهم من العسكر وقرروا جميعاً عزله وتولية ابنه محمد الذي كان قد أتمّ السابعة عشرة من عمره ، فخلعوه في ١٨ رجب سنة ١٠٥٨ هـ (٨ آب سنة ١٦٤٨ م) وبعد ذلك بعشرة أيام أظهر بعض الجنود كدرهم من السلطان الحديث سناً وسلطنته وطلبوا اعادة السلطان ابراهيم إلى الملك ، وخاف رؤساء العصابة الذين عزلوه ان يعود إلى السلطنة فينتقم منهم فأفردوه في السراي وكان آخر العهد به . وكانت مدة ملكه ٨ سنين وتسعة أشهر وعمره ٣٤ سنة . وكان وزراؤه في الصدارة قره مصطفى فقتله ونصب مكانه محمد باشا أحد أنسبائه .

عد ٩٩٦
ما كان بسورية في عهد السلطان ابراهيم الأول

في سنة ١٦٤٠م كبس والي طرابلس محمد باشا الأرناؤوطي الشيخ أبا كرم الحدثي شيخ جبة بشري المار ذكره لأنه لم يحضر للسلام عليه عند قدومه ، ففرّ وقبضوا على .ابن عمه سعد (ويروى مسعد) وأخذوا يفتشون عليه القرى والأديار وينزلون بسكانها البلاء والدمار ، وضيّقوا عليهم ، فلم يحتمل الشيخ أبو كرم هذا التنكيل بأهل بلاده فنزل طائعاً إلى المدينة واستسلم إلى واليها على يد القاضي ، فأمر الوزير برفعه إلى القلعة ثم طوّفه راكباً على جمل في شوارع المدينة وعرض عليه الاسلام فأبى ، فأماتوه معلقاً على كلاب . وفي هذه السنة دهم وزير طرابلس

الأمير سليمان سيفا في عكار فظفر به ونهب بلاده ونزح أهلها إلى طرابلس . وفيها توجه حميدان الشعار إلى طرابلس يطلب رزقه من كاتب واليها فأبى أن يؤديه فقتل حميدان ذلك الكاتب وولده مصطفى ونجا فجمع مدبر الوزير الرجال وجدّ السير بطلب حميدان فلم يدركه . فنهب قرية حردين وكفور العربة وفيها توفي الشيخ علي بن قانصوه حماده ودُفن في طورزيا (ببلاد جبيل) وقام بعده الشيخ أبو محمد مرجان شيخاً على بيت حماده .

وفي سنة ١٦٤١م غضب والي طرابلس على المشايخ الحمادية ففرّوا من وادي علمات وبلاد جبيل وقتل منهم محمد ياغي بن قمر الدين وصعب بن حيدر وبعض جماعته . وتولّى بلادهم الأمير علي علم الدين اليمني . وفيها كانت وفاة الشيخ أبي جبرائيل يوسف ابن الشماس جرجس الأهدني بعد أن تولّى جبة بشري عشر سنين وشاركه في بعضها الشيخ أبو كرم الحدثي المار ذكره . وخلف الشيخ أبا جبرائيل المذكور أخوه الشدياق أبو ذيب حنا فقتله محمد العراك في زغرتا بدسيسة من بيت حماده وتولّى حكم بشري حينئذٍ المقدّم زين الدين بن الصواف وكان معه أبو عون الغمة (؟) من بكفيا .

وفي ١٦٤٢م صدرت أوامر سلطانية أن تكون بيروت وصيدا تحت ولاية أحمد باشا الأرناؤوطي والي طرابلس فأرسل مدبره زيني آغا ليستلمها ، وكان الأمير ملحم معن ببلاد الشوف والأمير علي علم الدين بقرية بشتودار من أعمال البترون ، فكبس الأمير علي الشيخ سرحال حماده بقرية غبالة من عمل فتوح كسروان فنهب القرية وقتل خمسة أنفار من أولاد سرحال وأقاربه وطرد الحمادية من ايالة طرابلس . وكان مع الأمير علي الأمير اسماعيل الكردي من راس نحاش ، والمقدّم علي بن الشاعر ، وبعض من بيت حماده . وفيها بنى أحمد باشا الأرناؤوطي داراً على نهر رشعين وثقل على الناس بالضرائب التي فرضها لذلك وضايقهم بالسخرة لعماره .

وفي ١٦٤٤م عُزل أحمد باشا الأرناؤوطي عن ولاية طرابلس ونُصب مكانه حسن باشا ، وكان مدبره الشيخ أبو رزق البشعلاني . وفيها توجّه رجال إلى الآستانة يشكون إلى الباب العالي جور الحكام عليهم بالضرائب والخراج ويلتمسون احصاء الأشجار والرجال والبيوت لتخفيف الظلم عنهم ، فأرسل الباب العالي عمالاً

أحصوا الأشجار والرجال والبيوت وبعد أن عادوا إلى الآستانة أبطل الوالي ما عملوه وعاد يضايقهم كما كان أولاً فتشتت الأهالي.

وفي سنة ١٦٤٥م جعل السلطان ابراهيم خان المشايخ أولاد الحسامي مشايخ جبيل من سلك الانكشارية فضربت لهم النوبة السلطانية وباشروا بترميم أسوار المدينة وقلعتها.

وفي سنة ١٦٤٦م عُزل حسن باشا عن ايالة طرابلس وعاد إليها محمد (وقد دعاه أحياناً أحمد) الأرناؤوطي، وكان مدبره مصطفى الصهيوني والحاج قمر الدين، وكان مطلوب الدولة من ايالة طرابلس ثلاث مئة ألف قرش بدلاً عن غلال الزيتون التي كانت الدولة تأخذ نصفها، فوزعوها على الرؤوس والأرض فأصاب مفلح كل فدان ورأس كل انسان أربعة وعشرين قرشاً وكل ماية أصل زيتون خمسة قروش وكل ماية توتة أربعة قروش ونصف. فتضايق الرعايا وتشتتوا عن مواطنهم وخلت بعض القرى من السكان.

وفي سنة ١٦٤٧م عُزل محمد باشا الأرناؤوطي عن ايالة طرابلس وتولاّها محمد باشا الصوفي. ولم يستتم السنة من ولايته وعاد إليها محمد باشا الأرناؤوطي وفرض على الناس قدومية وعيدية، وكان شنبل القمح بقرش. وفيها في أول تموز توفي الشيخ أبو نادر الخازن كأخيه الأمير فخر الدين المعني، وكان قد تولّى كسروان وجبيل والبترون وجبة بشري والمرقب، وكان ورعاً غيوراً على الدين. وقام بعده ابنه نوفل نادر الخازن. ولم يكن أقلّ من أبيه ورعاً وغيرة وكرم أخلاق. انتهى ملخصاً عن تاريخ العلامة الدويهي وغيره.

عد ٩٩٧

السلطان محمد خان الرابع

بعد خلع السلطان ابراهيم خان في ٨ آب ١٦٤٨م أقام المفتي والعلماء والجنود ابنه السلطان محمد خان الرابع ولم يكن أتمّ السنة السابعة من عمره، فأصبحت السلطنة بيدهم على اختلاف أغراضهم ونزعاتهم، وأصبحوا فوضى لا وازع ولا رادع بينهم ولا نظام يوقفهم عن مطامعهم. ولم يكن من يرحم فقيراً أو يوقر

كبيراً. وسرت عدوى هذا الفساد إلى الجنود الذين كانوا محاصرين كندية عاصمة كريت حتى اضطر قائدهم السر عسكر حسين باشا أن يرفع الحصار. واتصل الخلل إلى الجنود البحرية فانتصر الأسطول البندقي على الأسطول العثماني سنة ١٦٤٩م واحتلّ البنادقة بتندوس ولمنوس وغيرهما من الجزر والثغور، ومنعوا السفن الحاملة المؤن من الوصول إلى الآستانة فغلت الأسعار واستمرت على هذه الحال إلى أن قيّض الله أن يتولّى منصب الصدارة محمد باشا المعروف بالكوبرلي سنة ١٦٥٦م، فعامل الانكشارية بالقسوة وقتل منهم خلقاً كثيراً عندما ثاروا كعادتهم، فخمدت جذوة تعديهم وعثوهم. وأرسل سنة ١٦٥٧م أسطولاً لمحاربة سفن البنادقة المحاصرة للدردنيل، فحاربها ولم يتح الله حينئذٍ النصر للجنود العثمانيين. ولكن بعد أن توفي قائد الأسطول البندقي انتصر الأسطول العثماني واستردّ من البنادقة ما احتلوه من الثغور والجزر.

وفي سنة ١٦٥٨ انتقض والي ترنسلفانيا على الدولة وحارب جنودها وظهر عليهم، فسار إليه محمد باشا الكوبرلي الصدر الأعظم فقمعه وطرده من البلاد ونصب مكانه والياً شارطاً عليه أن يدفع كل سنة أربعين ألف دوكا. ثم انتقض أمير الفلاخ أيضاً واتفق معه أمير ترنسلفانيا المذكور فعاد إليهما الصدر الأعظم وانتصر عليهما نصراً مبيناً، وفي مدة هذا الوزير حصل فتور في التحاب بين الدولة العلية ودولة فرنسة، فإنّ هذه الدولة ساعدت أولاً سراً البنادقة على العساكر العثمانية في حرب كريت، ووقع بيد الوزير مراسلات رمزية بين البنادقة والفرنسيس ولم يتمكن الوزير من حلّ رموزها، فاستدعى إليه وهو في أدرنة سفير فرنسة من الآستانة فاعتذر بمرضه وأرسل ابنه نيابةً عنه. ولما لم يجب الوزير إلى مرغوبه حبسه فشخص السفير إلى أدرنة ولم يجبه إلى حلّ رموز المراسلات، فاستمر ابنه في السجنَ، فأرسل الكردينال مازرين وزير فرنسة إلى السلطان سفيراً مخصوصاً يطلب الترضية بعزل الوزير فلم يجبه السلطان إلى ما طلب. وأطلق الوزير سراح ابن السفير فأخذت فرنسة تساعد البنادقة جهاراً في كريت. وفي سنة ١٦٦١م دهم الوزير مرض المنية فاستشاره السلطان بمن يعيّن خلفاً له فأشار بتنصيب ولده أحمد باشا فنصبه السلطان بعد وفاة أبيه.

واقتدى أحمد باشا كوبرلي بأبيه بضبط عنان الجنود ومجازاة كل من أخلّ منهم، ومحاربة أعداء الدولة، وكاشفته دولة النمسا وجمهورية البندقية بالصلح

فأباه، وقاد الجيوش بنفسه لمحاربة النمسا. وحاصر قلعة نومفرل في ١٧ آب سنة ١٦٦٣م. وكانت هذه القلعة على غاية المناعة ومع ذلك أكره أحمد باشا حاميتها على التسليم إليه بشرط خروجهم منها سالمين وتركهم فيها كل ما كان عندهم من السلاح والذخائر، وأخلوها في ٢٨ ايلول سنة ١٦٦٣م. فارتاعت دول أوروبا من سطوة العثمانيين ولا سيما ليوبولد عاهل النمسا، واستغاث بالبا اسكندر السابع سائلاً اياه أن يجعل لويس الرابع عشر ملك فرنسة ينجده، فأقنع البابا ملك فرنسة بذلك فأرسل إليه ستة آلاف جندي فرنسي وأربعة وعشرين ألفاً من محالفيه الألمانيين بقيادة الكونت كوليني. وانضمّ هؤلاء إلى الجيش النمساوي وتسعرت نار الحرب وكان النصر أولاً للعثمانيين فاحتلوا بعض المدن، ولكن صبر النمساويون والفرنسيون خاصةً على القتال وأوقفوا العثمانيين عن التقدّم، ودامت الحرب النهار كله ولم تكن نتيجة فاصلة. وتسمى هذه الوقعة وقعة سان جوتار نسبةً إلى كنيسة كانت الحرب في جانبها. وتبادلت المخابرات الصلح بين الفريقين فعُقد بينهما سنة ١٦٦٤م وفي جملة شروطه قسمة بلاد المجر بين الدولة العلية والنمسا على أن يكون للنمسا ثلاث ولايات منها وللدولة العثمانية أربع.

ومع ذلك استمرت مراكب فرنسة تطارد سفن المغرب بحجة أنها تغزو سفنها حتى استولى الفرنسيون على اقليمَي الجزائر وتونس، وأرسل وزير فرنسة سفيراً إلى الآستانة لاصلاح ذات البين فلم يقبل أحمد باشا الصدر الأعظم أن يجدد المعاهدات التجارية مع دولة فرنسة وأمر بمنع مرور بضائع تجارتها إلى الهند بطريق مصر فجاهرت فرنسة بمساعدة مدينة كنديا عاصمة كريت على محاربة العثمانيين، وسار الصدر الأعظم بنفسه إلى كنديا سنة ١٦٦٧م فلم يقوَ على أخذ هذه الجزيرة إلّا في سنة ١٦٦٩م بمقتضى معاهدة بين الدولة العلية وجمهورية البندقية، على أنّ هذه الجمهورية تتخلّى للدولة العلية عن كريت ويبقى لها منها ثلاث مراسي لسفنها ووقّع على هذه العهدة سنة ١٦٧٠م.

وفي السنة المذكورة أرسل لويس الرابع عشر ملك فرنسة سفيراً إلى الآستانة في أسطول بحري لارهاب الصدر الأعظم ليذعن إلى ما تطلبه فرنسة فلم يرهب الوزير بل أجاب السفير أنّ المعاهدات السابقة لم تكن إلّا منحاً سلطانية يحق لهم الرجوع عنها، وإذا لم يرضه هذا الجواب فليرحل. ولما بلغ هذا الجواب لويس الرابع عشر لم يرَ من السداد اعلان الحرب على الدولة بل صمّم على ملاينتها، وتمكن بأصالة

رأيه وحكمة وزيره كولبر خليفة الكردينال مازرين من تجديد الدولة المعاهدات التجارية مع فرنسة سنة ١٦٧٣م وردّ إليها حماية الأماكن المقدّسة كما كان من أيام السلطان سليمان الأول. وعادت علاقات الدولتين إلى صفائها.

وفي سنة ١٦٧٢م أغار ملك بولونيا على بلاد الكوزاك الخاضعة للسلطان، فسار السلطان بنفسه إلى هذه البلاد واحتلّ بعض حصونها ومدنها، فطلب ملك بولونيا الصلح ووقّع على معاهدته في ١٨ ايلول سنة ١٦٧٢م، ولكن لم تقبل الأمة البولونية هذا الصلح، وأرسلت جيشها تحت قيادة سوبيسكي القائد الشهير لمحاربة العثمانيين، فاسترد المدن التي كانوا قد استولوا عليها، ومات ميخائيل ملك بولونيا المذكور، فانتخب البولونيون القائد المذكور ملكاً عليهم مكافأةً له. ودامت الحرب بين الدولتين سجالاً إلى سنة ١٦٧٦م حين جدد سوبيسكي الصلح مع العثمانيين مع تغيير قليل في الشروط التي كانت في أيام الملك ميخائيل، وكانت هذه المعاهدة خاتمة أعمال الوزير أحمد باشا كوبرلي الذي توفي في ٣ تشرين الأول سنة ١٦٧٦م، وتقلّد منصب الصدارة بعده زوج أخته مصطفى ولكنه لم يحسن السياسة كما فعل سالفاه محمد باشا وأحمد باشا كوبرلي.

وفي سنة ١٦٨١م سار هذا الوزير إلى المجر قاصداً محاربة النمسا، وبعد أن انتصر على عساكرها في وقعات بالمجر، قصد مدينة ڤيينا عاصمة النمسا فحاصرها سنة ١٦٨٣م واستحوذ على قلاعها الخارجة وهدم أسوارها بالمدافع، لم يبقَ عليه لتتمة الفتح إلّا المهاجمة الأخيرة، فوفد عليه سوبيسكي ملك بولونيا وأمراء ساكس وبفيارا بجيوشهم. وفي ١٢ ايلول سنة ١٦٨٣م هاجموا الجنود العثمانيين واستمر القتال النهار كله، ودارت أخيراً الدوائر على العثمانيين واندفعوا أمام أعدائهم وانهزم قره مصطفى باشا تاركاً المدافع والذخائر التي كانت في معسكره وقفل راجعاً إلى الآستانة والملك سوبيسكي يعدو في أثرهم ويقتل كل من تخلّف منهم. ولما بلغ خبر هذا الانخذال إلى السلطان أمر بقتل الصدر الأعظم قره مصطفى باشا المذكور، وأنفذ أحد رجال حاشيته فقتله وأرسل إلى السلطان رأسه، فنصب مكانه ابراهيم باشا سنة ١٦٨٤م.

وبعد اندحار العثمانيين في وقائع ڤيينا تألبت النمسا والبندقية وبولونيا وروسية على محاربة الدولة العلية وهي منفردة، وسمى هذا التحالف أصحابه التحالف

المقدّس. وزاد الحال ارتباكاً حصول الفتور بين الدولة العلية وفرنسة، وزحفت عساكر الدول المتحدة على المملكة العثمانية من كل صوب، فسارت عساكر سوبيسكي ملك بولونيا نحو بلاد البغدان، وسفن البندقية ومالطا إلى بلاد اليونان والمورة فاحتلّت جيوش البنادقة أكثر مدن اليونان سنة ١٦٨٦م وزحفت عساكر النمسا إلى المجر فاحتلّت عدة حصون وقلاع سنة ١٦٨٥م فعزل السلطان ابراهيم باشا الصدر الأعظم ونفاه إلى جزيرة رودس وولّى مكانه السر عسكر سليمان باشا وكان مشهوراً بشجاعته وحسن تدبيره، ولكن تعسّر كثيراً انهاض الدولة بعد هذا التقهقر. وكانت جيوش النمسا بقيادة الدوك دي لورين الشهير، وكانت باكورة أعمال سليمان باشا اسراعه إلى نجدة مدينة بودا التي كان الدوك دي لورين يحاصرها بتسعين ألف جندي فلم يتمكن من رفع الحصار عنها بل دخلها القائد المذكور في ٢ ايلول سنة ١٦٨٦م وقتل حاكمها وأربعة آلاف من حنوده، فخرجت هذه المدينة من أملاك الدولة إلى اليوم.

وجمع سليمان باشا من بقايا الجنود العثمانيين جيشاً مؤلفاً من ستين ألف جندي يعززهم سبعون مدفعاً، وصرف مدة الشتاء في تدريب عسكره وتجهيز المعدات، ثم هاجم عساكر الدول المتحدة في ١٢ آب سنة ١٦٨٧م في سهل موهاكز. واشتدّ القتال فانخذل الجنود العثمايون وانهزموا عن آخرهم وغنم أعداؤهم مدافعهم وسلاحهم وذخائرهم، واحتلوا اقليم ترنسلفانيا وعدة قلاع من غرواسية. ولما بلغ خبر هذا الاندحار إلى الأستانة هاج وماج الحنود الباقون فيها وأرسلوا إلى بقايا عسكر سليمان باشا أن يثوروا عليه، فثاروا ولولا فراره إلى بلغراد لقتلوه، ثم أرسلوا وفداً إلى الآستانة يطلبون من السلطان أن يأمر بقتل هذا الصدر فأمر بقتله اخماداً لثورتهم وتفادياً من حنقهم، وخيف على المملكة من الداخل والخارج فقرر بعض الوزراء والعلماء خلع السلطان محمد الرابع فخلعوه في ٨ تشرين الثاني سنة ١٦٨٧م بعد أن حكم أربعين سنة قمرية وخمسة أشهر ثم توفي معزولاً سنة ١٦٩٢م ونصبوا بعد خلعه أخاه السلطان سليمان خان الثاني.

عد ٩٩٨

ما كان بسورية في أيام السلطان محمد الرابع

في سنة ١٦٤٩م عُزل محمد باشا الأرناؤوطي عن ولاية طرابلس وتولاها مكانه صهره عمر بك وسمي عمر باشا ، فوقف أولاً حسن ديب بن علي حماده الذي كان مدبراً لسالفه ثم عزله عن منصبه وأقام به ابن الصهيوني وأبا رزق البشعلاني ، وجعل أبا صعب أخا البشعلاني حاكماً في جبة بشري . وفي سنة ١٦٥٠م ولّى عمر باشا صاحب طرابلس الأمير ملحم المعني على بلاد البترون فأرسل الأمير ملحم الشيخ أبا نوفل الخازن يجبي المال من هذه البلاد . وفيها كانت وقعة في وادي التيم لأنّ الأمير علي علم الدين اليمني سعى لدى بشير باشا والي دمشق بالأمير ملحم المعني وأوغر صدره عليه ، فنهض بعسكره إلى وادي التيم قاصداً التنكيل بالأمير ملحم وجماعته ، فالتقاه الأمير بعسكره إلى المحل المذكور وتسعرت نار الحرب بين العسكرين فظهر الأمير ملحم على بشير باشا وولّى الادبار إلى دمشق .

وفي سنة ١٦٥١م عُزل عمر باشا المذكور عن ايالة طرابلس وتولاها عوضه حسن باشا واتخذ مدبراً له الشيخ أبا رزق البشعلاني ، فاتفق هذا مع الأمير اسماعيل الكردي من راس نحاش والمقدّم علي بن الشاعر على المشايخ آل حماده المتاولة ، وعهد إلى حسن آغا بأن يجبي المال من بلاد عكار ويدفعه إلى الأمير ملحم المعني ، ثم تقوّى على هؤلاء مصطفى باشا الصهيوني الذي كان قبلاً مدبراً لولاية طرابلس وعاد إلى تدبيرها ، فسلّم جبة بشري إلى أبي شاهين علي بن العجال من بشناتا (بالضنّية) وانكسرت شوكة أبي رزق البشعلاني وأحزابه وطرد الشيخ سرحال حماده من عكار حسن آغا الذي كان البشعلاني أرسله لجباية المال منها .

وفي سنة ١٦٥٢ عاد محمد باشا الأرناؤوطي إلى ايالة طرابلس وسلّم تدبير أمورها إلى الشيخ أبي رزق البشعلاني وأقام حكاماً في أعمالها من اختارهم وسمى البشعلاني شيخ المشايخ وضربت له النوبة السلطانية فشقّ على المسلمين انقيادهم إليه وهو نصراني .

وفي سنة ١٦٥٣م قبض محمد باشا والي طرابلس على البشعلاني المذكور وسبب ذلك أنه قدم إلى دار البشعلاني بعض المشايخ الحبيشية ومعهم رجال لهمة زواج أحدهم، فعرض بعض الوشاة للوالي أنّ قدومهم إنما كان ليأخذوا البشعلاني إلى بلاد الأمير ملحم المعني، فأمر الوزير بالقبض عليه وعلى أولاده ومن قدموا إليه ورفعوهم إلى القلعة وأوثقوهم بالقيود وكانوا تسعين رجلاً. ثم نهبوا دار البشعلاني وأخذوا أمواله. ثم توجّه الوالي إلى حماة لجباية المال فأخذ معه البشعلاني وسائر المسجونين، وحاسب البشعلاني فثبت له عنده اثنا عشر ألف قرشاً. وفي أثناء ذلك ورد الأمر بعزل محمد باشا الأرناؤوطي وتولية قره حسن باشا. وقدم هذا إلى حماة ونزل عند محمد باشا سالفه وأعاد الحساب بينه وبين البشعلاني فثبت عنده أربعة آلاف وخمس مئة قرشاً دفعها عنه ابن الصهيوني وحلى سبيله وسبيل من كان معه. وأراد قره حسن باشا أن يفوّض أموره إليه كما كان في أيام محمد باشا، فوصل قبوجي من الآستانة بطلب رأس البشعلاني فأشار عليه قره حسن باشا وابن الصهيوني أن يسلم لينجو فأذعن لقولهما وتظاهر بالاسلام. وأكرموا القبوجي بألف قرش وأرجعوه. ثم حضر حسن باشا إلى طرابلس ومعه البشعلاني فولاّه على جبلة واللاذقية لجباية المال وقبل أن يسير البشعلاني إليهما أوصى أخاه أبا صعب أن يأخذ عياله ويتوجه بهم إلى ولاية الأمير ملحم المعني، فسار بهم وشقّ ذلك على حسن باشا والي طرابلس. وتزوج البشعلاني بامرأة موسى باشا.

وفي هذه السنة أيضاً شكا الأمير علي علم الدين الأمير ملحم المعني إلى بشير باشا والي دمشق أنه اعتدى عليه هو والأمير قاسم والأمير حسين الشهابيان وأزاحوه عن دياره، وأهلكوا بعض رجاله، وأخذوا ماله، والتمس منه أن يوليه جبل الشوف ويصحبه بعسكر لقتال الأمير ملحم وأنصاره، فقبل بشير باشا ذلك وفوّض إليه ولاية الشوف ووجّه معه عسكراً من دمشق فجاء إلى وادي التيم، ولما بلغ الأمير ملحم قدومه نهض إلى لقائه برجال الشوف ولاقاه الأمير قاسم والأمير حسين الشهابيان برجالهما، وهاجموا عسكر الأمير علي علم الدين واستمر القتال نحو ثلاث ساعات فانتصر الأمير ملحم وأنصاره وهزموا عسكر الأمير علي وأهلكوا خلقاً كبيراً منهم. وتتبعوا آثارهم إلى دمشق. وجُرح الأمير علي علم الدين. ولما بلغ دمشق ودخل على بشير باشا حنق عليه وشتمه وسبّه ونسبه إلى الخيانة وسجنه في قلعة دمشق، وبقي سجيناً بها إلى أن عُزل الوزير المذكور.

وفي سنة ١٦٥٤م عُزل قره حسن باشا عن ولاية طرابلس وقدم إليها مكانه محمد باشا الكوبرلي فولّى المقدّم علياً بن الشاعر على بلاد البترون، والشيخ أحمد ابن محمد حماده على جبة بشري، واستخدم عنده الأمير اسماعيل الكردي والحاج سعد بن علي حماده، فأخذ أتباعهما يعتدون على الناس في الأسواق، فطردهما مع اتباعهما ابن محمد باشا الوالي إلى أطراف الزاوية. هذا ما جاء في نسخة من تاريخ الدويهي معرّبة بقلم فارس الشدياق.

وفي سنة ١٦٥٥م ركب محمد باشا والي طرابلس على الأمير اسماعيل الكردي وعلى الحاج سعد حماده بسبب عدم ادائهم المال، فالتقى بهما عند حريشة الهري في كورة طرابلس فانكسرا، وانهزم الأمير اسماعيل بعياله من ايالة طرابلس إلى عند الأمير أحمد المعني فولاّه على صور.

وفي سنة ١٦٥٦م نُصّب محمد باشا الكوبرلي والي طرابلس في مسند الصدارة فولّى على طرابلس محمد آغا الطباخ، وعلى صيدا وبيروت اسماعيل آغا، وعلى صفد محمد آغا، والتزم المقدّم فارس بن مراد بللمع جبة بشري من محمد آغا الطباخ. وفي سنة ١٦٥٨م ولّى محمد آغا هذا المقدّم فارس مراد المذكور على جبة بشري وعكار، والمقدّم علي بن الشاعر على البترون تحت يد الأمير ملحم المعني، وجبى مالها الشيخ أبو نوفل الخازن. وفي السنة المذكورة توجّه الأمير ملحم المعني إلى صفد لجباية مالها فمرض بعكا ونقلوه إلى صيدا بمحفة. وتوفي في ١٦ ايلول وحزن عليه الشعب لأنه كان عادلاً حليماً مرضياً للدولة معتنياً بشؤون بلاده ومرؤوسيه على اختلاف مذاهبهم ميالاً إلى النصارى. فأقام أولاده المناحة عليه ثلاثة أشهر.

وفي سنة ١٦٥٩م تولّى قبلان باشا ايالة طرابلس وأعطته الدولة أمراً بالاقتصاص من المشايخ آل حماده بسبب مخرقاتهم وسطوهم. ولما علموا بذلك فرّوا إلى كسروان بعيالهم ومواشيهم، فهدم الوزير بيوتهم وقرى وادي علمات ونزل بعسكره إلى جبيل فضبط ما كان لأهل كسروان من الحنطة، وقرر بلاد عكار على المقدّم فارس اللمعي المذكور بكفالة روم أحمد، وبلاد جبيل على كاوراوغلي، وجبة بشري على المقدّم علي قيدبيه بن الشاعر.

ثم قبض على كاوراوغلي حاكم بلاد جبيل وقتله لعدم دفعه المال. وأمسك

روم أحمد كفيل المقدّم فارس اللمعي وأخذ منه ثلاثة عشر ألف قرشاً مستهلكة عنده من مال بلاد عكار.

عد ٩٩٩
نكبة القيسية ونهضتهم

في سنة ١٦٦٠م رُفعت الشكوى إلى الباب العالي على الأمير علي والأمير منصور الشهابيين وعلى آل حماده وغيرهم بأنهم يسطون على حقوق والي دمشق. فأرسل محمد باشا الكوبرلي الصدر الأعظم ابنه أحمد باشا والياً على دمشق ومحمد باشا الأرناؤوطي والياً على صيدا وبيروت، وقرر قبلان باشا على ايالة طرابلس. ولما وصل أحمد باشا الكوبرلي إلى دمشق كتب إلى والي طرابلس ووالي القدس ووالي غزة وصاحب سنجق صفد وابن طربيه البدوي أن يحضروا إليه لمحاربة القيسية، وتوجّه الأمير علي علم الدين اليمني وولداه الأمير محمد والأمير منصور وأنصارهم اليمنية وابن الصهيوني والمقدّم علي الشاعر. وبعد أن وصلوا إلى دمشق توفي الأمير علي علم الدين والمقدّم علي الشاعر. وزحف أحمد باشا الكوبرلي بالباقي ورجالهم والعسكر وكانوا نحو خمسة عشر ألف مقاتل، وحلّ بسعسع وبلغ الأمراء الشهابيين قدومه فكتبوا إليه يسترضونه بمال فأبى إلّا تذليلهم فقاموا بعيالهم ومعهم ست مئة رجل إلى كسروان ونزلوا على المشايخ الحمادية في قهمز. فسار أحمد باشا إلى وادي التيم وهدم دور الأمراء الشهابيين بحاصبيا وراشيا وأمر بقطع أشجارهم بوادي التيم ومرج عيون والبقاع. وولّى على وادي التيم الأمير محمد والأمير منصور ابنَي الأمير علي علم الدين ومعهما المقدّم زين الدين وابن أخيه عبدالله.

ثم سار بعسكره إلى سهل قب الياس وكتب إلى الأمير أحمد والأمير قرقماز ابنَي الأمير ملحم المعني يأمرهما باحضار الأمراء الشهابيين فأجاباه أنّ الأمراء المذكورين ما نزلوا بلادهما قط. وانتقلا حينئذٍ من بعقلين إلى عين زحلتا بنحو سبعة آلاف نفس، فأرسل أحمد باشا يطلب منهما أربعماية ألف قرش نفقة عساكره وإلّا يحتلّ ديارهما بعساكره ويهلكهما. فأذعنا لطلبه وتعهدا بعد المراجعة باداء مئتين وخمسين ألف قرش منجمة على أربعة أشهر ووضعا عنده رهناً على

ذلك الأمير قاسم ارسلان أمير الشويفات، وشرف الدين مقدّم حمانا. فارتضى بذلك وقفل راجعاً إلى دمشق ومعه والي غزة فقتله هناك وغرّم عياله بمائة وخمسين ألف قرشاً. وأخذ من ابن طربيه البدوي نحو خمسين ألف قرش، وتوجّه قبلان باشا والي طرابلس إلى الهرمل ثم إلى طرابلس وكتب إلى الأمير اسماعيل الكردي كتاب الأمان فاغتر به وانتقل من صور إلى طرابلس بعياله. ولما بلغ أحمد باشا الكوبرلي قدومه إلى طرابلس أمر بالقبض عليه وقتله لأنه اجتمع بالمعنية بعين زحلتا.

أما الأميران أحمد وقرقماز المعنيان فلم يتيسر لهما دفع المبلغ الذي تعهدا به كاملاً. وبلغ أحمد باشا أنّ الأمراء الشهابيين مختفون عندهما فنهض ثانيةً من دمشق وحلّ بقب الياس، وقدم إليه والي غزة الجديد ووالي طرابلس والأمراء آل علم الدين والأمراء آل طربيه فكثر جحفله واشتد عزمه واجتمع الأمراء آل معن والأمراء الشهابيون مع المشايخ الحمادية في قهمز بكسروان وقرّ رأيهم على تفريق رجالهم والفرار من وجه الكوبرلي والاختفاء. وأمروا أصحابهم أن ينفضوا عنهم، وأرسل الأمير أحمد والأمير قرقماز السكمان واللاوند الذين كانوا معهما إلى الأمير كنعان من آل عساف الحياري واختفيا في بلاد جبيل، واختفى الأمير منصور والأمير علي الشهابيان في بعض كهوف تلك البلاد. وفي رواية أنهما سارا بخمسين رجلاً إلى جهات حلب. ولما انقطع الخبر عن هؤلاء الأمراء اجتمع مشايخ البلاد ووجوهها وكتبوا إلى أحمد باشا مع الشيخ سرحال العماد شيخ الباروك بأنّ الأمراء المعنيين والشهابيين فرّوا ولا يُعلم لهم خبر. والتمسوا منه العفو عن البلاد وتأمين أهلها، فأجابهم إلى ذلك وأطلق لهم الأمان. وولّى الشيخ سرحال المذكور على بلاد الشوف والأمير محمد والأمير منصور ولدَي الأمير علي علم الدين على الغرب والجرد والمتن، ومحمد آغا على كسروان، وعلي باشا الدفتردار على صيدا وسماه وزيراً. ومنذ ذلك الحين أخذ ولاتها يُسمُّون وزراء. وغرّم كل عمل من هذه الأعمال بعشرين ألف قرش فدُفعت له.

ثم بلغ أحمد باشا المذكور أنّ الأمراء المعنيين والشهابيين مختفون بكسروان فوجّه إليهم خمسة آلاف مقاتل يصحبهم بعض اليمنية للبحث عنهم، وكتب إلى قبلان باشا والي طرابلس أن ينهض لمساعدتهم، فطفقوا يجولون بلاد جبيل وكسروان ويكبسون المواضع التي يظنونهم فيها. فأحرقوا دور اللمعيين والخوازنة

والحمادية والمعنية وقطعوا أشجارهم . وأرسل الأمير محمد والأمير منصور علم الدين أناساً فعلوا كذلك في وادي علمات . وعاثت العساكر في تلك البلاد وأهلكت مال أهلها .وأرزاقهم وفرّ الأميران الشهابيان إلى الجبل الأعلى ، واستمر الأميران المعنيان في بلاد جبيل .

وفي سنة ١٦٦٢م عُزل علي باشا الدفتردار عن ولاية صيدا ونصب بها مكانه محمد باشا ، فكتب إلى الأمير أحمد والأمير قرقماز المعنيين وأطلق لهما الأمان وأباحهما أن يظهرا من مخبأهما ويرسلا إليه رجلاً من خواصهما ليعقد لهما الصلح عن يده ويوجّه إليهما خلع الولاية معه ، فانخدعا بذلك وظهرا من مخبأهما وأرسلا إليه رجلاً وصحباه بهدايا ، فعند وصوله أطلق لهما محمد باشا الأمان على يده أيضاً وصرفه من عنده مسروراً ومكرماً وعاهده أن يحضر الأميران إلى عين مزبود فيرسل هو مدبره إلى هناك لمقابلتهما ومخاطبتهما بما يلزم من الشروط ، ويفرغ عليهما خلع الولاية . فقدم الأميران إلى المكان المعيّن ولما أقبلا وجدا مدبر الوزير ومعه جمّ غفير وأحاط بهما رجال كثيرون وأرادا الانهزام فعاجلت شرذمة الأمير قرقماز فقتلوه ، وأسرع الأمير أحمد بالفرار ودافع عنه أصحابه وذبوا عنه حتى أخرجوه من بين القوم بعد أن ضربه أحد رجال الوزير ضربةً جرحته جرحاً بليغاً برقبته بقي بسببه كل حياته لا يقدر أن يحرك عنقه . وقتل جلّ أصحابه عند المدافعة عنه ، وتمكن من أن يتوارى عنهم ، وعاد إلى مخبئه وولّى محمد باشا الأمير محمد ابن الأمير علي علم الدين والشيخ أبا علوان من قيسية الباروك على الشوف ، وبقي الأمير أحمد معن مختبئاً نحو سنتين حتى عُزل محمد باشا عن ايالة صيدا .

وفي سنة ١٦٦٤م عُزل محمد باشا عن ايالة صيدا ، وكان أحمد باشا الكوبرلي قد ارتقى إلى منصب الصدارة وترك سورية فتظاهر الأمير أحمد المعني ونمّ خبره إلى القيسية فاجتمع إليه جمهور منهم ونهض بهم إلى الشوف فتألّب آخرون من القيسية ، فنهض إليه الأمير محمد علم الدين اليمني والي الشوف وغيره من اليمنية فالتحمت الحرب بينهم وكان النصر للقيسية ، ودام القتال متردداً بين الحزبين نحو سنتين حتى حطمت شوكة اليمينة وخمدت نارهم . وفي سنة ١٦٦٧م كانت وقعة عند برج بيروت في الغلغول بين القيسية واليمنية فقتل منهم المقدّم عبدالله بن قيدبية بن الصواف ، وظهر القيسية على اليمنية فانهزموا إلى دمشق . وتولّى الأمير

أحمد معن بلاد الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان وكتب حينئذٍ إلى الأمير منصور والأمير علي الشهابيين إلى الجبل الأعلى يبشرهما بالنصر ويستقدمهما إلى بلادهما ، فنهض الأميران بمن معهما وقدما إلى الشوف فتلقاهما الأمير أحمد بمزيد التجلّة والحفاوة والتكريم وأمدهما بالخيل والسلاح ، وعادا إلى بلادهما فدخل الأمير منصور حاصبيا والأمير علي راشيا . انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي .

عد ١٠٠٠

تتمة أخبار سورية إلى سنة ١٦٨٧م

في سنة ١٦٧١م استنجد الأمير على الحرفوش بوالي دمشق على أولاد عمه الأمير عمر والأمير شديد والأمير يونس فنجده وهزم أولاد عمه المذكورين ونهب أموالهم وأحرق دورهم ، وتولّى على بلاد بعلبك وفيها حارب الأمير فارس شهاب بني حيمور في البقاع وقتل منهم جماعة أنهم كانوا أمام عسكر أحمد باشا الكوبرلي في وادي التيم وعاونوا على قطع أشجار الشهابيين بالبقاع فساروا إلى دمشق واستجاروا بواليها فأجارهم ووجه معهم عسكراً ونهض معهم الأمير موسى والأمير منصور علم الدين فانهزم الأمراء الشهابيون ورجع العسكر إلى دمشق وبنو حيمور إلى البقاع .

وفي سنة ١٦٧٣م عُزل محمد باشا عن ايالة طرابلس وتولاها بعده حسن باشا ، فولّى المشايخ الحمادية على الأعمال التي كانوا بها قبلاً ، ورفع عنهم بعض التكاليف فطمعوا وتصرفوا بمال التكاليف المذكورة وقتلوا أناساً في عشاش عند نهر رشعين بالزاوية ونهبوا كثيراً من القرى فخربت .

وفي سنة ١٦٧٤م ولّى حسن باشا والي طرابلس المذكور الشيخ سرحال حمادة على بلاد جبيل والبترون ولما حضر إليه الشيخ أحمد بن قانصوه حمادة ليوليه على جبة بشري قبض عليه بسبب التعديات المار ذكرها وعلى الشيخ محمد بن حسن ديب بسبب عدم ادائه مال الضنية . وولّى ابراهيم آغا على جبة بشري وكان المتكلم أمامه أبو كرم بشارة من اهدن وأبو شديد غصيبة بن كيروز من بشري .

وفي سنة ١٦٧٥م بينما كان حسن باشا والياً على طرابلس واسماعيل باشا على صيدا وحسين باشا على دمشق جهز حسن باشا عسكراً لطرد بني حمادة من اقطاعاتهم لعدم ادائهم المال وأرسل مدبره فطردهم إلى عين الغفير فوق افقا وفصل بينهم الظلام ، ثم أحضر حسن باشا أحمد بن محمد قانصوه وابن حسن ديب وأمر أبناء عمهما أن يقتلوهما فقلتوهما، ووثبت جماعتهما على بلاد جبيل فنهبوا وقتلوا وأحرقوا قرية حصرائيل ونهبوا قرى البترون وماشية حصرون . وقبض المقدّم قيدبيه بن الشاعر وأصحاب الاقطاعات على مشايخ القرى وسجنوهم بجبيل ليدفعوا المال المرتب على القرى . وصدر في هذه الأثناء الأمر السلطاني إلى واليي صيدا ودمشق لينجدا والي طرابلس على العصاة فاجتمع نواب هؤلاء الولاة في سهل قب الياس ومعهم نحو خمسة آلاف مقاتل وكتبوا إلى الأمير أحمد المعني أن يسلمهم العصاة ، وكاتبه والي صيدا أن لا يختشي من هذا الطلب لتيقّنه حسن مسلكه واستقامته . واجتمع حينئذٍ أهل البلاد والأمراء الشهابيون في دير القمر وكانوا نحو أربعة آلاف رجل ، وكتبوا إلى نواب الوزراء المذكورين. أنّ المشايخ الحمادية اجتازوا ببلادهم ولم يستقروا بها ، وكتبوا إلى اسماعيل باشا والي صيدا أنّ دعوى حسن باشا على الحمادية هي لتأخرهم عن دفع عشرة آلاف قرشاً، وأنّ الأمير أحمد المعني يكفل دفعها بشرط أنّ حسن باشا يطلق رهائنهم المسجونين بقلعة طرابلس . فأرسل حسن باشا الرهائن إلى صيدا إلى اسماعيل باشا فاستلمهم ودفع له عشرة آلاف قرش الباقية عند الحمادية وانفضت العساكر .

وفي سنة ١٦٧٦م تقرر حسن باشا على ولاية طرابلس فولّى الحاج حسن بن الحسامي وأبا حيدر النمس على بلاد جبيل والحاج باز بن أبي رعد ومرعباً بن الشاطر على بلاد البترون وأبا كرم (جد آل كرم) بن بشارة على جبة بشري . ووزع الأعلام على جميع الأعمال احتياطاً من سطو الحمادية . وورد له أمر سلطاني بأن يسير لمقاتلة التركمان ، وتوفي بغيابه مرعب بن الشاطر ، وقتل الشيخ حسين بن أحمد الحاج باز في أرض لحفد والشدياق أنطون أخو مطران اهدن في وادي حيرونا . واحترق دير القديس اليشاع وحارة أولاد أبي كيروز من بشري . ولما عاد حسن باشا من سفره وبلغه ما كان في غيابه زحف بعسكره إلى بلاد جبيل فقتل شيخ البربارة والحاج حسن الحسامي الذي كان قد ولاه . وقبض على مشايخ قريتي غرزوز وبخعاز فغرمهم بمال لأنهم من حزب الحمادية، وأمر بحرق قرى وادي

علمات، فحرق منها فرحت وعلمات ومشان وطرزيا والحصن واهمج وجاج. وحرق من قرى جبة المنيطرة كفرحيال والمغيرة ولاسا والمنيطرة وأفقا. وبعد أن عاد حسن باشا بعسكره وثب بعض الحمادية فأحرقوا قصيبا وتولا وعبدلي وبسبينا وصغار وشبطين.

وفي سنة ١٦٧٧م توفي أحمد باشا الكوبرلي الصدر الأعظم وتولّى منصب الصدارة مصطفى باشا فغيّر النواب في جميع الولايات فأرسل محمد باشا إلى طرابلس، فولّى الشيخ سرحال حمادة على بلاد جبيل وولده الشيخ حسين على البترون، والشيخ حسين بن أحمد حمادة على جبة بشري وأمرهم أن يؤمنوا الرعايا ويردوا النازحين. وفي سنة ١٦٧٩م تولّى خليل باشا ابن كيوان ايالة صيدا ثم عُزل عنها سنة ١٦٨٠م وانتقل إليها محمد باشا والي طرابلس، وقام بطرابلس عوضه وزير آخر يسمى محمد باشا أيضاً فقرر الحمادية في اقطاعاتهم. وفي هذه السنة أي سنة ١٦٨٠م تولّى الأمير فارس الشهابي بلاد بعلبك وسار إلى قرية نيحا التي فوق الفرزل، فجمع الأمير عمر الحرفوش الحمادية ورجالهم، ودهمه ليلاً فقتله وقتل من جماعته خمسة وعشرين رجلاً، ولما بلغ ذلك الأمير موسى الشهابي نهض برجاله من حاصبيا وصحبه الأمير علي من راشيا قاصدين أخذ الثأر ففرّ الأمير عمر الحرفوش من بعلبك واستغاث بالأمير أحمد المعني لاجراء الصلح بينه وبين الأمراء الشهابيين، فسار الأمير أحمد إلى بعلبك وعقد الصلح بينهم على شرط أن يدفع الحرافشة لآل شهاب كل سنة خمسة آلاف قرشاً وجوادين من جياد الخيل دية الأمير فارس. وفيها تزوج الأمير موسى الشهابي بابنة الأمير أحمد المعني ثم توفي الأمير عمر الحرفوش المذكور سنة ١٦٨٣م وكانت وفاته في بلاد جبيل مطروداً من بعلبك. وفي السنة المذكورة تولّى ابن صدقة سنجق بعلبك وتدمر ووادي التيم فأرجع بلاد بعلبك إلى الأمير شديد ابن أخي الأمير عمر الحرفوش.

وفي سنة ١٦٨٤م قتل المشايخ الحمادية أبا نادر شيخ مزرعة عكار وابن أخت محمد باشا في قرية حلبا بعكار، ولما عُزل محمد باشا عن ايالة طرابلس هجم الحمادية على قلعة طرابلس وأخرجوا رهائنهم منها عنوة ثم كبسوا قرية عشقوت بكسروان وقتلوا منها أحد عشر رجلاً ورفعت الشكوى بهم إلى والي طرابلس، فولّى الأمير أحمد المعني على جميع اقطاعات الحمادية فتوجّه الأمير أحمد إلى غزير

بخمسة آلاف مقاتل وأرسل رجالاً دهموا الحمادية ففرّوا إلى بلاد بعلبك فأحرق وادي ايليج ولاسا وأفقا والمغيرة وقطع أشجارهم. وشفع بهم لديه بعض خواصه فعفا عنهم وقفل راجعاً إلى الشوف، ولم يقبل خلعة والي طرابلس على اقطاعات الحمادية.

وفي سنة ١٦٨٦م تولّى علي باشا النكدلي ايالة طرابلس، وصدر له الأمر السلطاني بأن يقمع قبيلة من العرب تسمى البغدلة، فسار لذلك ولما علم الحمادية بغيابه ثاروا فقتلوا الشيخ أبا داغر شيخ حردين وابن رعد شيخ الضنّية وغيرهما، فقبض نائب الوزير على اثني عشر رجلاً من أتباعهم وأماتهم على الخازوق. ولما رجع علي باشا إلى طرابلس صدر له الأمر العالي أن يحارب الأمير شديد الحرفوش لأنه نهب قرية رأس بعلبك وأحرق قلعتها فاستحضر المقدّم قيدبيه بن الشاعر وأبا فاضل رعد من الضنّية وابن دندش من عكار. وكتب إلى الأمير بشير الشهابي أن ينجده بالرجال فنجده وزحف الوزير إلى بعلبك فهرب الأمير شديد إلى بلاد جبيل مستجيراً بالمشايخ الحمادية، فنزل الباشا على العاقورة فأحرقها وأحرق أربعين قرية من قرى المتاولة وقطع أشجارها ودكّ إلى الأرض دار الشيخ حسين في ايليج ونقض قبر الأمير عمر في طرزيا واهتدى عسكره إلى خباياهم في مغارة قنات، ففتحوها وبينما كان العسكر نازلاً عند عين الباطية في جرد تنورين كبسهم الحمادية ليلاً فقتلوا منه نحو خمسة وأربعين رجلاً وغنموا باسلابهم، وانهزم يوسف آغا مع جماعته إلى بعلبك وأنفض الدروز والعرب والتركمان إلى مواطنهم وهرب ابن الحسامي بعياله إلى بيروت، أما الوزير فانحدر إلى جبيل ونكبها وقفل راجعاً إلى طرابلس فنزل بعده الحمادية وأحزابهم وأحرقوا قلعة جبيل ونكبوا المدينة.

وفي سنة ١٦٨٧م عزل علي باشا النكدلي عن ايالة طرابلس وتولاها بعده حسين باشا، فقبض على الشيخ يونس وأخويه عبدالله ورزق الله وأولادهما بسبب والدهم أبي رزق البشعلاني، فتظاهر يونس بالاسلام ليتمكن من الهرب. وهربوا جميعهم ليلاً مع عشرين نفس إلى قاطع كسروان لائذين بالأمير أحمد معن والشيخ أبي قانصوه فياض الخازن، وأظهر هناك الشيخ يونس صحة معتقده الكاثوليكي. انتهى ملخصاً عن تاريخ البطريرك الدويهي الذي كان شاهد عيان لهذه الأحداث لأنها كانت في أيامه وبلاده، وعنه أخذ أخبارها الأمير حيدر الشهابي في تاريخه والشيخ طنوس الشدياق في كتابه أخبار الأعيان في جبل لبنان.

عد ١٠٠١

السلطان سليمان خان الثاني والسلطان أحمد خان الثاني

أما السلطان سليمان خان الثاني فهو ابن السلطان ابراهيم الأول، وُلد في ١٥ محرم سنة ١٠٥٢ هـ (١٥ نيسان سنة ١٦٤٢ م) وانتُخب للسلطنة والخلافة بعد خلع السلطان محمد الرابع ٨ تشرين الثاني سنة ١٦٨٧م فأغدق في الهبات والعطايا للجنود، ولم يعاقبهم على عصيانهم فتمردوا وقتلوا بعض قادتهم وحاصروا الصدر الأعظم الجديد سيواس باشا في داره وقتلوا وسبوا أزواجه، فتولّت الفوضى وانتهز أعداء الدولة فرصة هذا الاحتلال والاضطراب فاحتلّ النمساويون بعض قلاع، واحتلّ القائد البندقي بعض ثغور بلاد اليونان وساحل دلماسيا سنة ١٦٨٧م. وفي السنة التالية أخذ النمساويون سمندرية وبلغراد وغيرهما. وفي سنة ١٦٨٩ أخذوا تيش وودين من بلاد السرب. ولما رأى السلطان تتالي هذه المصائب عزل مصطفى باشا الذي كان قد نصبه في الصدارة بعد سيواس باشا وعهد بهذا المنصب إلى مصطفى باشا ابن محمد باشا الكوبرلي. ولم يكن أقلّ همّة وحزماً من والده فبذل مجهوده في اشراب الجنود روح النظام ومنعهم من اغتيال حقوق الأهلين وصرف لهم من مال الأوقاف ما كان متأخراً لهم من الأرزاق، وأباح النصارى تجديد ما تهدّم من كنائسهم في الآستانة، وعاقب شديد العقاب من تعرّض لهم في اقامة شعائر دينهم، فاستمال نصارى المملكة إلى حب الدولة حتى ثار أهل المورة الروم على البنادقة وطردوهم من ديارهم لمحاولتهم اجبارهم على ترك مذهبهم واعتناق المذهب الكاثوليكي، ودخلوا في حمى الدولة العثمانية طائعين لعدم تعرضها لمذهبهم.

ولما انتظم الجيش وتنقّى من الأدران التي كانت تؤدي به إلى العار والدمار وساد الأمن في أنحاء المملكة سار الصدر الأعظم بنفسه لمحاربة الأعداء فاسترد في زمن قليل مدن تيش وودين وسمندرية وبلغراد إلى ولاية الدولة سنة ١٦٩٠ م. وأعاد غيره من قواد العثمانيين غير هذه المدن إلى طاعة السلطان، وبذلك أرجع مصطفى باشا الكوبرلي بعض ما فقدته الدولة من المجد والسؤدد بسبب ضعف الوزراء وعصيان الانكشارية على أنّ المنية أنشبت مخالبها في السلطان سليمان

الثاني في ٢٣ حزيران سنة ١٦٩١م بعد أن استمر على أريكة الملك ثلاث سنين وثمانية أشهر ودُفن في تربة جده السلطان سليمان الأول.

وارتقى إلى منصّة السلطنة بعد السلطان سليمان الثاني أخوه السلطان أحمد خان الثاني، وكان قد وُلد في ٦ ذي الحجة سنة ١٠٥٢ هـ (٢٥ شباط سنة ١٦٤٣م) فأبقى الصدر الأعظم على منصبه لاعتماده عليه في التدبير والحرب، على أنّ المنية عاجلت هذا الوزير الخطير فتوفاه الله في ١٨ آب سنة ١٦٩١ م. في ساحة القتال عند مهاجمته الجيوش النمساوية، فكانت وفاته طامة كبرى على الدولة. ونصب السلطان مكانه عربه جي علي باشا ولم تكن له كفاءة سالفه ولا اقدامه ولا حزمه، ولم يكن في أيام هذا السلطان أحداث تذكر سوى احتلال البنادقة جزيرة ساقس سنة ١٦٩٤م وقصفت المنية غصن حياته الرطب في ٦ شباط سنة ١٦٩٥م بعد أن استمر على منصّة السلطنة والخلافة أربع سنين وثمانية أشهر قمرية، ودُفن في تربة جده سليمان الأول مع أخيه سليمان الثاني.

عد ١٠٠٢

ما كان بسورية في أيام السلطانَين سليمان الثاني وأحمد الثاني

في سنة ١٦٩١م تولّى طرابلس محمد باشا وصرف المشايخ الحمادية في اقطاعاتهم، فسلّم جبيل والبترون إلى الشيخ حسين سرحال حمادة، والكورة إلى الشيخ اسماعيل ابنه، وجبة بشري إلى الحاج موسى بن أحمد حمادة، والضنّية إلى أولاد حسن ديب. وفي هذه السنة كان مقتل أبي موسى بن زعرور في وطا الجوز بكسروان، وتوفي الشيخ أبو قانصوه فياض الخازن وكان كريماً شجاعاً محباً للعلماء. وبعد أربعة أشهر من وفاته توفي أخوه الشيخ أبو نادر خاطر الخازن فعظمت شوكة الحمادية فقتلوا حنا الأسود في الكورة ونهبوا العاقورة وغلال أهل كسروان من ميناء جبيل.

وفي سنة ١٦٩٢م عُزل محمد باشا عن ايالة طرابلس وتولى عوضه علي باشا وقدم إلى طرابلس في آخر السنة فسموه اللقيس وقرر المشايخ الحمادية على اقطاعاتهم وصير محمد باشا الذي عُزل من طرابلس قائمقاماً وكاتباً للصدر

الأعظم ، وكتب إلى علي باشا خليفته لينهض على الحمادية ويرسل له ثلاثة عشر رأساً من أعيان بيت قانصوه حمادة وأمره أن يكون متصرفاً ببعلبك أيضاً فغيّر علي باشا الحكام وسلّم عكار والهرمل إلى هزيم آغا دندش ، وجبيل إلى حسين آغا الحسامي ، والبترون إلى المقدّم قيدبيه بن الشاعر ، والزاوية وجبة بشري إلى الشيخ ميخائيل بن نحلوس الأهدني ، والضنّية إلى الشيخ أبي فاضل رعد . وكتب إلى الأمير أحمد معن أن ينجده بالرجال لقتال الحمادية فقدّم إليه المشايخ الخوازنة ومعهم نحو ألف رجل إلى فوق جبيل ولما شعر بهم الحمادية انهزموا على طريق العاقورة إلى بلاد بعلبك فتتبعهم الرجال وهلك منهم بالثلج نحو مائة وخمسين رجلاً ، ولما وصلوا إلى قرية كفردان التمس الخوازنة من علي باشا أن يكفّ العسكر عنهم ، فكفه وطلب الخوازنة العود إلى أوطانهم معتذرين بأنّ الأمير أحمد معن لم يأذنهم بالخروج عن ايالة طرابلس وأحرق علي باشا قرية نيحا ونهب ثلاثة عشر ألف رأس من معزى الحمادية . وسلّم بلاد بعلبك إلى أحمد آغا الكردي ، وجبيل إلى حسن آغا النوري ورحل بالعساكر من بعلبك . وكتب أحمد آغا والي بعلبك إلى الحاج ياغي بن حميه من المتاولة وأقربائه أن يحضروا إليه ، ولما حضروا غدر بهم وقتل منهم سبعة عشر رجلاً ، وأرسل الحاج ياغي المذكور وولده حيدر إلى علي باشا فقتلهما عند مخاضة نهر رشعين ، ثم جهز حسن آغا وأحمد آغا الكردي واسماعيل آغا دندش وأرسلهم إلى بلاد جبيل فقبضوا على الشيخ حسين بن سرحال وحسن ديب وسبعة رجال من رفاقهم فقتلوهم بين قهمز ولاسا .

وفي سنة ١٦٩٣م قلّد السلطان أحمد منصب الصدارة إلى علي باشا والي طرابلس وأقام مكانه ارسلان باشا ابن أحمد آغا المطرجي والياً بطرابلس وأنفذ رسولاً إلى الأمير أحمد معن يعرض عليه توليته الاقطاعات التي كانت بيد الحمادية وأن يمنع سطوهم عن ايالة طرابلس فلم يقبل الأمير أحمد ذلك فسلّم ارسلان باشا بلاد جبيل إلى الأمير حسن بن صعب الكردي وبلاد البترون إلى المقدّم قيدبيه بن الشاعر . ولما توجّه علي باشا إلى الآستانة سار معه الأمير أحمد الكردي والأمير موسى بن علم الدين اليمني . وأرسل ارسلان باشا مدبره محرم آغا يطرد الحمادية على طريق الجرد . وولّى الأمراء الأكراد والمقدّمين بني الشاعر على ساحل جبيل ، فلما وصلوا إلى عين قبعل في الفتوح نزلوا هناك للمبيت فبلغ ذلك أولاد الشيخ حسين حمادة المختفين في تلك الجهة فجمعوا نحو مايتي رجل ودهموا العسكر ليلاً

فقتلوا منه نحو أربعين رجلاً في جملتهم الأمير موسى الكردي وأولاد عمه الأمير يوسف حافظ قلعة جبيل والأمير أحمد قلاوون والأمير عبد الخالق وابن الأمير موسى علم الدين والمقدّم منصور وابن أخيه مصطفى قيدبيه من بني الشاعر وما انفكوا يطردون الباقين إلى نهر ابراهيم.

فقدّم ارسلان باشا والي طرابلس الشكوى إلى السلطان بأنّ الأمير أحمد معن وجّه عسكراً فأهلك رجاله، وبقي مدبر الوزير مع العسكر في نهر ابراهيم نحو شهرين، فبلغه الأمر السلطاني بأن يزيل الأمير أحمد معن عن الاقطاعات التي بيده، وأن يولي عليها الأمير موسى علم الدين وهي الشوف والجرد والمتن والغرب وكسروان واقليم جزين واقليم الخروب. وصدر الأمر السلطاني إلى اسماعيل باشا والي دمشق ومصطفى باشا والي صيدا وأحمد باشا والي غزة ومحمد باشا والي حلب بأن ينهضوا مع ارسلان باشا والي طرابلس لقتال الأمير أحمد معن وازاحته عن الأعمال اللبنانية فاجتمع هؤلاء الوزراء بوطا عرموش بالبقاع وعسكرهم ثمانية عشر ألفاً وخمسماية مقاتلاً، وانضمّ إليهم اليمنية وأحزابهم وبعض جماعة القيسية منهم النكدية والعيدية والشيخ سيد أحمد بن عذدا اليزبكي والشيخ حصن الخازن. ولما رأى الأمير أحمد معن انفضاض بعض أصحابه عنه، فرّ من الشوف إلى وادي التيم واختبأ عند الأمير نجم شهاب وبقي عنده سنة بكل اكرام. وبعد أن بحثت عنه العساكر ولم يجدوه رجعوا، وأنفض الوزراء والولاة كلّ إلى محله، وتولّى الامير موسى علم الدين اليمني على بلاد الأمير أحمد. ولما ركدت هذه الزعازع تظاهر الأمير أحمد في وادي التيم فاجتمع إليه القيسية فنهض بهم من وادي التيم إلى الشوف ومعه الأمير بشير والأمير نجم الشهابيان برجالهما فخاف الأمير موسى وانهزم من دير القمر إلى صيدا ملتجئاً إلى مصطفى باشا واليها واستولى الأمير أحمد على بلاده كما كان.

وما بلغ الأمير أحمد أنّ الأمير موسى علم الدين التجأ إلى مصطفى باشا والي صيدا وجّه بعض خواصه إلى الوالي المذكور بهدايا فاخرة طالباً استمالته إليه، وكتب إليه كتاباً ينصحه به من الاركان إلى الأمير موسى لأنه مكار ويخشى أن يخدعه كما خدع أبوه الأمير علي علم الدين بشير باشا والي دمشق في وقعة وادي التيم المار ذكرها. فتأكد مصطفى باشا ما كتب إليه به الأمير أحمد لأنه كان يرى الأمير موسى مرواغاً متقلباً فطرده من عنده ومال إلى الأمير أحمد وأحبه

وكتب إلى السلطان يلتمس منه له عفواً وتقريراً في ولايته. فأنعم السلطان بالعفو على الأمير أحمد، وبالتقرير على الاقطاعات كلها التي كانت بيده. انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي أيضاً.

عد ١٠٠٣
السلطان مصطفى خان الثاني

هو ابن السلطان محمد الرابع وُلد في ٨ ذي القعدة سنة ١٠٧٤ هـ (٣ حزيرن سنة ١٦٦٤ م) وارتقى إلى منصّة الملك بعد وفاة السلطان أحمد الثاني في ٦ شباط سنة ١٦٩٥م وكان شجاعاً ثابت الجأش ، فأعلن بعد سلطنته بثلاثة أشهر رغبته في أن يقود الجيش بنفسه لمحاربة بولونيا، وسار إليها مستغيثاً بفرسان القوزاق، وانتصر على البولونيين في عدة وقائع. وبلغ إلى مدينة لمبرج وكانت في غاية المناعة فلم يتيسر له فتحها. وحارب أيضاً بطرس الأكبر قيصر الروس إذ كان محاصراً مدينة أزوف ببلاد القرم واضطره إلى رفع الحصار عن هذه المدينة سنة ١٦٩٥م، ولكن تغلّب عليها القيصر سنة ١٦٩٦م ولم تزل تابعة لروسية.

ثم أغار السلطان مصطفى بجيوشه على بلاد المجر وفتح بعض حصونها وانتصر على فتراني قائد جيوش النمسا وقتل من جيشه ستة آلاف وأخذه أسيراً. ألّا أنّ الأمير أوجان دي سافوا قائد جيش النمسا سنة ١٦٩٧م دهم الجنود العثمانية عند عبورهم أحد الأنهر فقتل منهم خلقاً كثيراً وفي جملتهم محمد باشا الصدر الأعظم وغرق منهم كثيرون في النهر. ثم تتبّع الأمير أوجان الباقين ودخل بلاد البشناق فاتحاً وأقام السلطان في منصب الصدارة حسين باشا الكوبرلي، فأوقف الأمير أوجان عن التوغّل بأملاك الدولة بل أجبره على التقهقر وترك بلاد البشناق. واسترد أمير البحر العثماني جزيرة ساقس بعد انتصاره في موقعتين على مراكب البندقية. ثم تدخّل لويس الرابع عشر ملك فرنسة بتعاطي الصلح وبعد مخابرات طويلة وقّع على الصلح بين الدولة العلية والنمسا وروسيا والبندقية في معاهدة كرلوفتش في ٢٦ كانون الثاني سنة ١٦٩٩م.

وكان من شرائط معاهدة الصلح أن تتخلّى الدولة العلية عن بلاد المجر برمتها وعن اقليم ترنسلفانيا لدولة النمسا وأن تتنازل عن مدينة أزاق، وفرضتها لروسية،

فزادت أهمية روسية في البحر الأسود وأخطارها على الدولة العلية وردّت إلى مملكة بولونيا بعض المدن التي كانت قد تملكتها وتخلّت للبندقية عن المورة واقليم دلماسيا على البحر الأدرياتيكي ، واتفقت مع النمسا على هدنة خمس وعشرين سنة فخسرت الدولة بهذه المعاهدة قسماً كبيراً من أملاكها بأوروبا وازدادت مطامع الدول ببلادها .

ثم إنّ حسين باشا الكوبرلي الصدر الأعظم وجّه اهتمامه بعد هذه المعاهدة الوخيمة العاقبة إلى اصلاح الأمور الداخلية والشؤون المالية والنظام العسكري ، ووضع لكل من هذه الأمور نظاماً كافياً وعلاجاً وافياً ، وترك كثيراً من الأموال المتأخرة على الأهلين ولا سيما النصارى كيلا يجد المفسدون وسيلة من هذا القبيل للوسوسة لهم في الانتفاض على الدولة . على أنّ هذا الوزير استقال من منصبه في ٥ ايلول سنة ١٧٠٢م فعيّن السلطان مكانه في الصدارة مصطفى باشا وكان ميالاً إلى الحرب فلم يسر على خطة سلفه من الاصلاح، وأراد أن يخرق معاهدة كرلوفتش المذكورة وأن يثير الحرب على النمسا . ولما شعر أعيان المملكة وجنودها بمضار هذه السياسة لِما وراءها من تألّب دول أوروبا على الدولة العلية ثانية سألوا السلطان عزله ، فأقاله في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٧٠٢م وعيّن مكانه رامي محمد باشا ، فسار على خطة حسين باشا الكوبرلي وطفق يبطل المفاسد ويعاقب أصحاب الرشوات ويمنع المظالم ، فثار عليه الانكشارية وسألوا السلطان عزله فامتنع عن الاجابة إلى سؤالهم ، وأرسل لقمعهم فرقة من الجنود فانضموا إلى الثائرين وخلعوا السلطان مصطفى في ١٥ آب سنة ١٧٠٣م بعد أن استمر على تخت السلطنة ٨ سنين و٨ أشهر قمرية ، وبقي معزولاً إلى أن توفاه الله في ٣١ كانون الأول سنة ١٧٠٣ وأقاموا مكانه بعد عزله أخاه السلطان أحمد خان الثالث . وسوف يأتي الكلام عليه في أول تاريخ القرن الثامن عشر .

عد ١٠٠٤
ما كان بسورية في أيام السلطان مصطفى الثاني

في سنة ١٦٩٦م فرض الأمير أحمد معن ضريبة على الشوف سماها المسعدة ،

وزاد ارسلان باشا على المال الأميري ضرائب أخرى. وكان المطر في تلك السنة قليلاً ونضبت عيون الماء ونشفت الأنهر وجاء الجراد، وغليت أثمان المؤن حتى بيع شنبل الحنطة بأربعة قروش وقلّة الزيت بسبعة قروش ونصف وكيلة الأرّز بقرش فتشتت الناس وهاجروا أوطانهم لشدّة الغلاء وزيادة الجور.

وفي سنة ١٦٩٧م ورد الأمر السلطاني إلى ارسلان باشا والي طرابلس أن يكون مدبراً للحج وتولّى طرابلس أخوه قبلان باشا فقبض على الشيخ يونس بن أبي رزق البشعلاني وعرض عليه الاسلام فأبى إلّا التشبث بدينه الكاثوليكي، فأماته على الخازوق. وفي ١٥ ايلول من هذه السنة توفي الأمير أحمد معن واتفق حينئذٍ أن كان في دير القمر فضلي آغا من قبل حسين باشا والي صيدا للمطالبة بالمال، فختم على الخزينة وعلى أثاث الأمير. وعرض الأمر على حسين باشا فأرسل قاضي صيدا والمفتي ونقيب الأشراف وبعض العلماء لتحرير تركة الأمير المتوفى، فحرروها فبلغت خمسة وستين ألف قرشاً، فوجد أنّ عليه من المال الأميري ثلاثين ألف قرشاً ومن المابة ألف قرش التي كان متعهداً بها للدولة ثلاثين ألف قرشاً.

ولم يكن عقب للأمير أحمد معن فانقرضت به سلالة آل معن. فاجتمع بعد وفاته أعيان الشوف من أمراء ومقدمين ومشايخ لينتخبوا والياً عليهم، فاتفقت آراؤهم على اختيار الأمير بشير الشهابي ابن الأمير حسين شهاب أمير راشيا وهو ابن أخت الأمير أحمد المتوفي. فوجهوا بعض الأعيان إلى راشيا ودعوه إلى الولاية عليهم، فلبى دعوتهم وأتى معهم إلى دير القمر فاستقبلوه بالاحتفاء والتكريم، وكتبوا إلى حسين باشا والي صيدا يسألونه أن يحوّل ما كان بيد الأمراء المعنيين من الاقطاعات إلى عهدة الأمير بشير شهاب المذكور، وهو يدفع المال المرتّب كالعادة ويقوم باداء ما كان باقياً على الأمير أحمد. وكتب الأمير بشير أيضاً إلى والي صيدا كذلك فارتضى حسين باشا بذلك وولّى الأمير بشيراً حسب الطلب، وعرض للسلطان مصطفى أنّ أسرة المعنيين قد انقرضت وأنّ اللبنانيين انتخبوا الأمير بشير شهاب لما بينه وبين المعنيين من النسب لأنه ابن أخت الأمير أحمد معن. وعرض اليمنيون أنهم لا يقبلون ولاية الأمير بشير شهاب عليهم. وعُزل حينئذٍ حسين باشا عن ولاية صيدا وتولاها ارسلان باشا، فورد له الأمر السلطاني جواباً عما عرضه حسين باشا، فحواه أنّ الأمير حيدر ابن الأمير موسى شهاب يكون والياً بعد الأمراء المعنيين ويضع يده علي متروكاتهم لأنه أحقّ بالارث لكونه ابن

أخت الأمير أحمد معن المتوفي . وكان صدور هذا الأمر بواسطة الأمير حسين ابن الأمير فخر الدين معن الذي كان قد أُخذ من قلعة المرقب ، وأُرسل موثقاً إلى خليل باشا الصدر الأعظم حين كان في حلب كما مرّ . وتقدّم بمناصب الدولة بالآستانة فأرسل ارسلان باشا الأمر السلطاني إلى الأمير بشير فأجابه ملتمساً أن يعرض للسلطان أنّ الأمير حيدر عمره اثنتا عشرة سنة فلا يمكنه أن يتولّى الحكم بنفسه ، وأنه هو يكون نائباً عنه ، فعرض ارسلان باشا ذلك وأتاه الجواب أن يكون الأمير بشير والياً بطريق النيابة عن الأمير حيدر إلى أن يكون بلغ أشده ، فيتولّى الاقطاعات بنفسه . هذا ما جاء في نسخة تاريخ الدويهي التي عرّبها فارس الشدياق . وفي النسخة التي بيدنا أنّ ارسلان باشا كتب إلى الآستانة أنّ الأمير بشير كفوء للولاية ولا تليق بغيره ، وهو الذي اختاره أعيان البلاد . فوردت إليه البراءة باسم الأمير بشير وتولّى جميع الاقطاعات التي كانت بيد الأمير أحمد معن . والظاهر من تاريخ الأمير حيدر شهاب صحة خبر ولاية الأمير بشير بالاستقلال لا بطريق النيابة عن الأمير حيدر .

وهكذا انقضت حكومة آل معن وابتدأت حكومة آل شهاب في لبنان وبعض جواره ، واستمرت من سنة ١٦٩٧م إلى سنة ١٨٤٢م التي عزل فيها الأمير بشير قاسم وأرسل مصطفى باشا والي صيدا عمر باشا النمساوي إلى بتدين ليكون والياً بلبنان كما سوف يأتي . وهذه الأسرة قديمة وعريقة بالشرف ، ويقال إنّ أصلهم من بني قريش ، وإنّ جدّهم مالك الملقّب بشهاب من ولد مرة بن كعب ، وإنّ مالك المذكور استعمله عمر بن الخطاب أميراً بحوران ، واستمر أولاده على هذه الامارة إلى أواخر القرن الثاني عشر أيام كان الصليبيون بسورية . فيظهر أنّ الولاة المسلمين في تلك الأيام دعوهم للمهاجرة إلى وادي التيم لمناصبة الافرنج ، كما دعوا التنوخيين والمعنيين لذلك ، فاحتلوا وادي التيم وولوهم على حاصبيا وراشيا ، وكان بينهم وبين الافرنج حروب . ولما ترك الافرنج هذه الديار استمر الأمراء الشهابيون يلون وادي التيم وما جاورها . ولما قدم السلطان سليم الأول إلى سورية ومصر ففتحهما سنة ١٥١٥م كان الأمير منصور شهاب والياً ، وكان في جملة رجال الغزالي نائب الملك قانصوه الغوري في الشام في وقعة مرج دابق بين السلطان سليم والغوري ، وكان الأمير منصور موافقاً العزالي على الانحياز إلى السلطان ، وبعد أن تملّك السلطان سورية قرر ولاية آل شهاب على اقطاعهم المذكور واستمروا فيه .

وقد مرّ ذكر أخبار بعضم في هذه الولاية. وقد صاهروا الأمراء المعنيين وحالفوهم إلى أن انقرض آل معن بالأمير أحمد المذكور سنة ١٦٩٧م فخلفه الأمير بشير شهاب وكان ابن أخت المتوفى ثم الأمير حيدر شهاب وكان ابن بنته.

وفي سنة ١٦٩٨م بينما كان ارسلان باشا والياً على طرابلس، وأخوه قبلان باشا والياً على صيدا، انتقض الشيخ مشرف ابن الشيخ علي الصغير صاحب بلاد بشارة وعصا قبلان باشا، فاستنهض قبلان باشا الأمير بشير لقتاله وأطلق له الولاية على صفد وبلاد بشارة واقليمَي الشومر والتفاح وبلاد الشقيف، فجمع الأمير بشير رجاله القيسية نحو ثمانية آلاف مقاتل وسار بهم لقتال الشيخ مشرف اليمني، والتقى به في قرية المزيرعة من بلاد بشارة، والتحم القتال بين الفريقين فظهر الأمير بشير على الشيخ مشرف ورجاله وأهلك منهم خلقاً كثيراً وقبض على الشيخ مشرف وأخيه الحاج محمد ومدبرهما الحاج حسين المرجي وأرسلهم إلى قبلان باشا، فقتل الحاج حسين المرجي وسجن مشرفاً وأخاه، وولّى الأمير بشير على البلاد من صفد إلى المعاملتين بكسروان. فأقام الأمير بشير ابن أخيه الأمير منصور والياً بصفد، وجعل تحت يده عمر بن أبي زيدان أبا ظاهر العمر المشهور شيخاً على تلك الديار لأنه قيسي. وحضر لدى الأمير بشير بنو منكر أصحاب اقليمي الشومر والتفاح، وبنو صعب أصحاب بلاد الشقيف، ورضي عنهم وقررهم على اقطاعاتهم ورجع إلى دير القمر. ثم أرسل ارسلان باشا والي طرابلس عسكراً لمحاربة الحمادية مشايخ بلاد جبيل والبترون لتقاعدهم عن دفع المال السلطاني، فقبض العسكر على بعض من أكابرهم وغيرهم وأحضرهم إلى طرابلس فسُجنوا بها، وفرّ من فلت منهم إلى دير القمر مستجيرين بالأمير بشير. فأرسل إلى ارسلان باشا يسأله اطلاق السجناء منهم، وكفل له المال الباقي عليهم، فأطلقهم وأبقاهم على ما كانوا، فكان المتوجب عليهم مئتين وخمسين ألف قرشاً، وفوّض ارسلان باشا الأمير بشير بالولاية على بلاد جبيل والبترون فولاّهم الأمير عليها وأرسل بعض خواصه فجمع المال منهم ودفعه إلى الوزير.

وفي السنة المذكورة قصد أحمد باشا ابن صالح الدواعيري الآستانة ليتولّى على دمشق، وأصحب معه الأمير موسى بن علم الدين اليمني ليرده إلى ولاية الشوف، فلدى وصوله إلى الآستانة أمر الصدر الأعظم بقطع رأسه، وفوّض امارة الحج إلى

قبلان باشا والي صيدا. فقبض على ابن عمه الأمير علي الدواعيري وسجنه بالقدس. وفي سنة ١٧٠٠م تقررت ولاية طرابلس على ارسلان باشا وايالة صيدا على أخيه قبلان باشا. وكانت تلك السنة كثيرة الأمطار والثلوج وكثرت فيها الأمراض أيضاً. انتهى ملخصاً عن تاريخ العلامة الدويهي.

الفصل الثاني

مشاهير القرن السابع عشر

عد ١٠٠٥

المشاهير السوريون في هذا القرن

قد وضع العلامة محمد المحبي الدمشقي لأعيان القرن الحادي عشر تأليفاً سماه «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»، وقد رتبه على حروف المعجم، وطبع بالقاهرة في أربع مجلدات سنة ١٢٨٤م متضمناً ألف ومئتين وتسعين ترجمة. فعنه انتقينا ترجمة الرجال المشاهير الآتي ذكرهم في هذا الفصل وما يليه.

١

أحمد القرماني

هو ابن العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي القرماني، قدم أبوه من قرمان إلى دمشق وولّي نظارة البيمارستان، ونظارة الجامع الأموي، إلى أن قُتل ببعلبك، وصار ابنه بعد مقتله كاتباً لوقف الحرمين ثم ناظراً له. وكان حسن

المحاضر ، وله مخالطة مع الحكام ، وأنشأ داراً وحديقة بمحلة الجسر الأبيض من الصالحية ، وألّف تاريخه المشهور جامعاً له، وتعرّض فيه بذكر الدول وكثيرين من الموالي والأمراء المتأخرين، وسماه «أخبار الدول وآثار الأول ». ولدي منه نسختان إحداهما مخطوطة والثانية مطبوعة على الحجر . وقد استشهدت بأقواله مرات ، وكانت وفاته في ١٩ شوال سنة ١٠١٩ هـ (سنة ١٦١٠ م) وكان قد وُلد سنة ٩٣٩ هـ فيكون عمره ثمانين سنة هجرية .

٢

حسن البوريني

هو الشيخ حسن بن محمد بن عبد الرحمن الصفوري الأصل الدمشقي المنشأ ، الملقّب بدر الدين البوريني ، وُلد بقرية صفورية سنة ٩٦٣ هـ (سنة ١٥٥٥م) وكان فرد زمانه في الفنون والعلوم ، وكان يحفظ من الشعر والآثار والأخبار والأحاديث المسندة ما لم يجتمع مع غيره . وألّف تآليف كثيرة منها تحريراته على تفسير البيضاوي وحاشيته على المطول (وهو شرح سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح في التصريف) وكتاب «تراجم الأعيان في أبناء الزمان »، وعلى كتابه هذا ذيل لفضل الله بن محب الله الدمشقي والد محمد المحبي صاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر المار ذكره . وللبوريني أيضاً شرح ديوان عمر بن الفارض ، طبعه بمرسيليا الشيخ الكونت رشيد الدحداح سنة ١٨٥٣م مع مقتبسات من شرح عبد الغني النابلسي وطُبع ببيروت سنة ١٨٦٠م وسنة ١٨٧٤م وسنة ١٨٨٧م . وله رحلة حلبية وأخرى طرابلسية وسبع مجموعات بخطه وسماها « بالسيارات السبع ». وله رسائل ومقالات كثيرة . وجمع ديواناً من شعره وهو معروف تتداوله أيدي الناس . وأثبت المحبي شيئاً كثيراً من شعره في كتاب خلاصة الأثر ومنه قوله بعد تعلمه اللغة الفارسية:

تعملت لفظ الأعجمي وإنني　　من العرب العرباء لا أتكتّمُ
وما كان قصدي غير صون حديثكم　　إذا صرت من شوقي به اترنّمُ

وإن كنتُ بين المعجمين فمعربٌ وإن كنتُ بين المعربين فمعجمُ
فأغدو بأشواقي إليك مترجماً وسرّكم في خاطري ليس يُعلمُ

وله في جواب رسالة:

مضت الشبيبة والحبيبة فانبرى دمعان في الأجفان يزدحمانِ
ما أنصفتني الحادثات ومنيتي بمودعين وليس لي قلبانِ

وله:

أوصيك أوصيك فاسمع ما أقررهُ فقد نصحتك خلي النصّح معتبرِ
لا تركنّنَ إلى من لست تعرفه ومن عرفت فكن منه على حذرِ

وكانت وفاة البوريني سنة ١٠٢٤ هـ (سنة ١٦١٥ م).

٣

ابن الجوهري

هو الأديب أبو بكر بن أحمد بن علاء الدين الجوهري الدمشقي وُلد سنة ٩٦٧ هـ (سنة ١٥٦٠ م) وتوفي بعد سنة ١٠٣٠ هـ بقليل (سنة ١٦٢٠ م) قال المحبي بنو الجوهري بيت كبير بدمشق خرج منه خلق من النحباء وكان جدهم الأعلى قاضي العسكر عند أحد ملوك العجم. وأول من هاجر منهم إلى دمشق ناصر الدين، وكان قدومه إليها سنة ٧٨٤ هـ (سنة ١٣٨٢ م) وكان معه جواهر فاشتهر البيت كله بالجوهري. أما ابن الجوهري صاحب الترجمة فقرأ العلوم على مشايخ عصره منهم الحسن البوريني.

وتردد إلى مصر للتجارة وأخذ من علمائها وكان شاعراً ينظم الشعر الفصيح، حتى جمع له ديواناً، قال المحبي رأيت هذا الديوان وانتخبت منه ما أوردته ومما أورده قوله:

وما أم أفراخ تمزقنَ بالفلا بسطوة نسر كاسر بالمخالبِ
وقد مُنعت من أن تراهنَ واغتدت تنوح وتبكي من صروف النوائبِ

بأوجع مني عند وشك رحيلنا — وحثّ المطايا في الفلا بالخبائبِ

ومن مقاطيعه قوله:

خيالك في عيني يلوح وكلما — ذكرتك دمع العين يجري على الخدِ
وما كان ظني بالتفرق بيننا — إذا حكم المولى فما حيلة العبدِ

وقوله:

يا منزلاً بفراديس الشام سقى — ربى مغانيك هطال يروّيها
فلي بمنزلك السامي أخو ثقةٍ — فدته روحي من الدنيا وما فيها

٤

ابن الجزري

هو حسين بن أحمد بن حسين المعروف بابن الجزري نسبةً إلى جزيرة ابن عمر من بلاد الأكراد التي كان بها أجداده ثم رحلوا إلى حلب. فهو حلبي أتقن الشعر وجمع فيه بين الصناعة والرقة، وأكثر من مطالعة كتب الأدب واللغة حتى رسخت فيه ملكة العلم. ورحل إلى الشام والعراق وقرأ الفقه على محمد بن قاسم الحلبي، ثم عاد إلى حلب واستقر بها، وكان يتردد على بني سيفا أمراء طرابلس وله فيهم المدائح الكثيرة. وجمع له ديواناً تتداوله أيدي الناس. وكان مغرماً بشعر أبي العلاء المعري، كثير الأخذ منه. وكتب على ديوانه لزوم ما لا يلزم.

إن كنتَ متخذاً لجرحك مرهماً — فكتاب رب العالمين المرهمُ
أو كنتَ مصطحباً حبيباً سالكاً — سبل الهدى فلزوم ما لا يلزمُ

ومن شعره في الغزل قوله:

ما عشت من ألم الفراقِ — لو لم أطل أمل التلاقي
فأظلّ كالملسوع من — أفعى النوى ورجائي راقي

يـا ثـالـث الـقـمـريـن ألا　　فـي الـكـسـوف وفـي المحـاقِ
حـتـام دمـعـي فـيـك لا　　يـرقـي وروحـي فـي الـتـراقـي

ومن أقواله:

يا ليلةً جمعتنا والسرور معاً　　لا روّعتها دواعي الأفقِ بالقلقِ
لو استطعنا وقد شابت مفارقها　　صبغاً لها من سواد القلب والحدقِ
بكيتها وشباب العيش في دعةٍ　　منا وغافل طرف الدهرلم يفقِ
علماً بأنّ الليالي غير باقيةٍ　　وكلٌّ مجتمعٍ يرمى بمفترقِ

وقال بمدح فصل الربيع:

قـابـلـتنا أيـدي الـربـيـع بـوجـهٍ　　حسنٍ فيه للمحاسن شاهدُ
ولـنـعـم الـزمـان مـنـه مـنـحـنـا　　فضل فصل الربيع لو كان خالدُ

وسافر في آخر عمره إلى حماه فتوفي بها بعد مدة سنة ١٠٣٣ هـ وفي رواية أخرى سنة ١٠٣٤ هـ (سنة ١٦٢٣ أو سنة ١٦٢٤ م).

٥

ابن حبيب الغزي

هو شرف الدين بن عبد القادر بن بركات المعروف بابن حبيب الغزي الحنفي، وكان فقيهاً متمكناً مفسراً نحوياً. وله تآليف مشهورة منها حاشيته على كتاب «الأشباه والنظائر» لابن نجيم في الفقه سماها تنوير البصائر في شرح الأشباه والنظائر. وقال المحبي ورأيت بخطه كثيراً من التحريرات على كتاب الدرر والغرر في الفقه أيضاً. وله كتاب: «سماه محاسن الفضائل بجميع الرسائل» وهو ثلاث رسائل اثنتان له وواحدة للحسن البوريني المذكور. وسبب جمعها أنّ البوريني كان قد أرسل إلى الأمير أحمد بن رضوان حاكم غزة رسالة ضمّنها السؤال عن عبارة كتبها أبو السعود في تفسيره آية من القرآن وهي: «لهم فيها ما يشاؤون خالدين».

وقال خالدين حال من الضمير المستكن في متعلق الجار والمجرور، وقيل من فاعل يشاؤون. والمعنى أنّ من كانوا في الجنة يستمرون فيها خالدين. وطلب البوريني الجواب من شرف الدين هذا فألّف رسالته الأولى وسماها «ارواء الصادي في الجواب عن أبي العوز العمادي». ولما وصلت هذه الرسالة إلى البوريني اعترف بصحة بعضها واعترض على باقيها، فكتب شرف الدين رسالته الثانية وسماها: «بارج العبهري والجادي في الدفع عن أرواء الصادي» ذكر فيها وجهاً آخر وهو إنّ ما لما لا يعقل وخالدين حال وهو جمع لمن يعقل، على أنّ ما تأتي أيضاً لم يعقل كقوله خلق ما في السماء والأرض. ويستوي فيها المذكر والمؤنث والمفرد والجمع وهي في الآية بهذا المعنى، أي لهم فيها ما يشاؤون من ملاذ ومشتهيات. ومن جملة ذلك الحور والولدان وهم ممن يعقل ويجوز في ضميرها مراعاة اللفظ ومراعاة المعنى. فقال خالدين وهو جمع العاقلين وغلبه على ما لا يعقل من ملاذ النعيم، وعليه فيكون قوله خالدين حال من ما الموصولة والمعنى أنّ ما يشاؤون يكون خالداً لهم. ولم يذكر المحبي تاريخ وفاة ابن حبيب بل ترك محلها بياضاً. ومن الواضح أنه كان في أيام البوريني ونظنّ أنّ وفاته كانت في العقد الثالث من القرن السابع عشر أي من سنة ١٦٢٠ إلى سنة ١٦٣٠م.

٦

البهاء العاملي

هو محمد بن حسين بن عبد الصمد الملقّب بهاء الدين بن عز الدين الحارثي العاملي الهمذاني أكثر المحبي وغيره من الثناء عليه، وذكره علي بن معصوم وقال وُلد في بعلبك سنة ٩٥٣ هـ (سنة ١٥٤٦ م) وعن أبي المعالي أنه وُلد بقزوين. وعلى الرواية الأولى أنّ أباه انتقل به إلى بلاد العجم. ولما اشتد كاهله أخذ في السياحة فساح ثلاثين سنة واجتمع في أثناء ذلك بكثير من أهل الفضل، ودخل مصر وألّف كتاباً سماه الكشكول جمع فيه كل نادرة من علوم شتى، ثم قدم إلى القدس متجنباً مخالطة الناس فلم يخفّ فضله، ودرس عليه الرضي القدسي شيئاً من الهيئة والهندسة. ثم سار إلى الشام ووصل إلى دمشق واجتمع بالبوريني وهو لا

يعرفه فلم يقدره أولاً حق قدره ، ولما تجاذبا أطراف الحديث نهض البوريني وقال لا بدّ أن تكون أنت البهاء الحارثي . وتعانقا فسأله البهاء كتمان أمره ، وأقلع إلى حلب مستخفياً بهيئة درويش . ثم عاد وقطن بأرض العجم وألّف مؤلفات جليلة منها التفسير المسمى «العروة الوثقى والصراط المستقيم»، والتفسير المسمى «بعين الحياة»، والتفسير المسمى «بالحبل المتين في مزايا الفرقان المبين ومشرق الشمسين». وشرح الأربعين والجامع العباسي بالفارسية ومفتاح الفلاح ، والزبدة في الأصول والتهذيب في النحو والملخص في الهيئة ، والرسالة الهلالية وحواشي الكشاف للزمخشري وحواشي البيضاوي والفوائد الصمدية في علم العربية إلى غيرها . وله لغز طويل مشهور ذكره المحبي في ترجمته:

وله كثير من الشعر الفصيح جمع فيه بين الصناعة والدقة والرقة منه ما كتبه إلى والده وهو بهراة:

يا ساكني أرض الهراة أما كفى ... هذا الفراق بلى وحق المصطفى
عودوا عليّ فربع صبري قد عفا ... والجفن من بعد التباعد ما غفا
وخيالك في بالي ... والقلب في بلبالِ

وله يرثي والده:

قف بالطلول وسلها أين سلماها ... وروِ من جرع الأجفان جرعاها
وردّد الطرف في أطراف ساحتها ... وارجُ الوصل من أرواح أرجاها
فانّ يفتك من الأطلال مخبرها ... فلا يفوتك مرآها ورياها
ربوع فضلٍ تباهي التبر تربتها ... ودار أنسٍ يحاكي الدر حصباها

إلى قوله:

لفقدكم شقّ جيب المجد وانصدعت ... أركانه وبكم ما كان أقواها
وخرّ من شامخات العلم أرفعها ... وأنهد من باذخات العلم أرساها
ويا ضريحاً على هام السماك علا ... عليك من صلوات الله أزكاها

وكان وفاته سنة ١٠٢٤ هـ (سنة ١٦١٥ م).

٧

فتح الله البيلوني الحلبي

هو فتح الله بن محمود بن محمد الحلبي الأنصاري المعروف بالبيلوني الشافعي . أخذ عن والده الذي كان من مشاهير العلماء وسافر من حلب صحبة نصوح باشا وزير الدولة وكان معلماً له فنال جاهاً كبيراً ، ثم انحطّ عنده فولّي افتاء الشافعية بالقدس ، وطاف بلاداً كثيرة ، مكة المكرمة ، والمدينة ، والقدس ، ودمشق، وطرابلس ، وبلاد الروم . وألّف تآليف بديعة منها حاشيته على البيضاوي ، وكتاب سماه «الفتح الحسوي» شرح عقيدة الشيخ علوان الحموي . وله كتاب آخر سماه «خلاصة ما يعول عليه المسلمون في أدوية دفع الوباء والطاعون »، وهو مشهور وله مجاميع اشتملت على تعاليق غريبة . وأخذ عنه خلق كثير، وله شعر غير قليل ومنه قوله:

يقولون دارِ الخصم تظفر بودّه ... فذلك درياق من الغلّ في القلبِ
فما ازداد مذ دارينا غير جفوة ... لأنّ قديم الداء مستعصب الطبِ

وله:

المرء ما دام في عز ومعتدلٍ ... فكلُّ خلٍّ له بالصدق متّصفُ
لا عرف الله عبداً صدق صاحبه ... فإنه بانكشاف الحال ينكشفُ

ومما يستجاد له قوله بالنظارة المعروفة بالعوينات:

رب صديق عاب نظارة ... يقوى بها الناظر من ضعفهِ
وعن قليل صار في أمرها ... يحملها رغماً على أنفهِ

وكانت وفاته بحلب سنة ١٠٤٢ هـ (سنة ١٦٣٢ م).

٨

نور الدين بن برهان الحلبي

هو علي بن ابراهيم بن أحمد الملقب بنور الدين بن برهان الدين الحلبي الشافعي قال في حقه المحبي الامام الكبير أجلّ اعلام المشايخ وعلامة الزمان. كان جبلاً من جبال العلم وبحراً لا ساحل له. وذكر له من المؤلفات البديعة السيرة النبوية المعروفة بالسيرة الحلبية، وقد سماها: «انسان العيون في سيرة النبي المأمون» في ثلاثة مجلدات اختصرها من سيرة الشيخ محمد الشامي، وزاد عليها أشياء لطيفة الموقع. وله حاشيته على منهج القاضي زكريا وحاشيته على شرح المنهاج للجلال المحلي، وحاشيته على شرح الورقات للجلال المذكور، وحاشيته على شرح الورقات لابن امام الكاملية، وحاشيته على شرح التصريف للسعد التفتازاني، وشرح على الشمائل النبوية لم يتم سماه الوفا لشرح شمائل المصطفى، وكتاب سماه «زهر المزهر» وهو مختصر المزهر للسيوطي في اللغة، وشرح على شرح القطر للفاكهي «ومطالع البدور في المجمع بين القطر والشذور» و«الفوائد العلوية بشرح شرح الأزهرية» و«التحفة السنية» شرح الأجرومية و«غاية الاحسان بوصف من لقيه من بني الزمان». و«التحفة العلوية في الأجوبة الحلبية» و«النصيحة العلوية في بيان حسن الطريقة الأحمدية» و«المختار من حسن الثناء في العفو عمن جنى»، و«اللطائف من عوارف المعارف» و«الطراز المنقوش في أوصاف الحبوش»، و«صبابة الصبابة» مختصر ديوان الصبابة و«انقاذ المهج بمختصر الفرج» ومتن في «التصريف وحسنات الوجنات النواضر من الوجوه والنظائر» و«اعلام الناسك بأحكام المناسك». ومقالة لطيفة على الجامع الصغير وشرح على شرح البسملة للقاضي زكريا سماه: «خير الكلام على البسملة والحمدلة لشيخ الاسلام». وله رسالة لطيفة في التصوّف ودخان التبغ إلى غير ذلك من المؤلفات. وكانت وفاته سنة ١٠٤٤ هـ (سنة ١٦٣٤ م).

٩

عبد الرحمن العمادي

هو عبد الرحمن بن محمد بن عماد الدين العمادي الدمشقي الحنفي. قال المحبي في حقه هو أحد أفراد الدهر وأعيان العلم وأعلام الفضل، وهو المفتي بالشام بعد أن كان أبوه حيناً مرجع الناس للفتوى. وحوى من الصفات الحسنة والأخلاق الرائقة ما انفرد به دون منازع واختصّ به دون مشارك. وذكر له من التآليف حاشية على بعض «تفسير الكشاف» للزمخشري بقيت في مسوداته. وقال وله المنسك المشهور الذي سماه «المستطاع من الزاد لأفقر العباد ابن عماد». وهذا الكتاب طُبع بالقاهرة سنة ١٣٠٤م هو كتاب «الهدية في عبارات الفقه والروضة الريّا في من دُفن بداريا». وله رسائل كثيرة في سائر الفنون ومنشآت وأشعار أكثرها لطيف المسلك حسن الموقع. ومنها قوله يشكو عزله من التدريس في المدرسة السليمية واقامة ابن زين الدين مكانه.

لك أشتكي مولاي أفظع وصمةٍ ... كادت لشدة قهرها تصميني
أمن المروءة وهي أسمى رتبةٍ ... أني أُعادَلُ بابن زين الدينِ
لا بل يرجح ثم يغصب منصبي ... وأعود منه بصفقة المغبونِ
لو كنت مع كفوءٍ قُرنت لهان لي ... لكنه بئس القرين قريني
أو كان ثمّ تعادلٍ لهضمته ... فانظر إلى دهري بمن يبلوني

وكانت وفاته سنة ١٠٥١ هـ (سنة ١٦٤١ م).

١٠

ابراهيم البتروني

هو ابراهيم بن أبي اليمن بن عبد الرحمن بن أحمد البتروني الأصل الحلبي المولد الحنفي، وكان أبوه من أعيان حلب وعلمائها، وهو سلك طريق القضاء

وتولّى عدة مناصب منها حماه، وتفرّغ له أبوه عما كان بيده من مدارس وجهات واستمرت بيده إلّا افتاء الحنفية فإنه عيّن به غيره. وكان حسن المحاضرة شاعراً مطبوعاً، وشعره كثير الملح والنكت. ومنه من قصيدة في مدح الأمير محمد بن سيفا صاحب طرابلس:

أربى على شجو الحمام الفردِ ... وشدا فبرح بالحسان الخردِ

شادٍ يشيّده السرور لمعشرٍ ... عمروا مجالس أنسهم بالصرخدِ

في مجلسٍ قام الصفاء به على ... ساقٍ وشمر للمسرة عن يدِ

إلى أن قال:

ولقد شكوت له الهوى ليرق لي ... فنأى عن المضنى بقلبٍ جلمدِ

وأبى سوى رقي فقلت له اتئد ... إني رقيق للأمير محمدِ

وكانت وفاته سنة ١٠٥٣ هـ (سنة ١٦٤٣ م) قال المحبي في آخر ترجمة ابراهيم هذا إنه من بليدة البترون بالقرب من طرابلس، وقد خرج منها جماعة من العلماء، وأول من دخل حلب من بيت البتروني هولاء عبد الرحمن جد ابراهيم هذا سنة ٩٦٤ هـ (سنة ١٥٥٦ م) وسنذكر من هذا البيت عدة رجال نجبت بهم الشهباء.

١١

صالح التمرتاشي الغزي

هو صالح بن محمد بن عبد الله بن أحمد الخطيب الغزي الحنفي ابن الامام الكبير صاحب التنوير بالفقه، وكان صالح فاضلاً متبحراً بحاثاً وله احاطة بفروع المذهب الحنفي، أخذ الفقه عن والده ورحل إلى مصر، وأخذ عن علمائها وتصدّر في ذلك القطر بعد أبيه ونفع الناس بالفتاوى، وألّف التآليف النافعة في الفقه وغيره منها حاشية على كتاب الأشباه والنظائر سماها: «زواهر الجواهر في شرح الأشباه والنظائر»، وله منظومة في الفقه. وشرح كتاب تحفة الملوك (ربما كان تحفة الملوك

في الفروع لزين الدين الرازي الحنفي وهو مختصر في العبارات) وشرح ألفية ولده محمد في النحو التي أولها:

قال محمد هو ابن صالح　　أحمد ربي الله خير فاتح

وله شرح النقاية (أظنه لجلال الدين السيوطي) وسمى تأليفه العناية في شرح النقاية وشرح تاريخ الاسلام سعدى المحشي ، وله رسائل كثيرة وأشعار وافرة منها ما كتبه في رسالة إلى الخير الرملي:

إن جرت عن رملة لي ثمّ انسان　　حبر همام له علم وإحسانُ
في العلم نعمانه في الجود حاتمه　　وما له فيهما ضدّ وأقرانُ
قالوا هو البحر قلت البحر ذو غرقٍ　　قالوا هو البدر لا يعروه نقصانُ
قالوا هو الليث قلت الليث ذو حمقٍ　　قالوا هو الشمس قلت الشمس ميزانُ
قالوا فما هو قيل قلت قد جُمِعت　　فيه الخصال وزادت فيه عرفان

وكانت وفاته سنة ١٠٥٥ هـ (سنة ١٦٤٥ م).

١٢

النجم الغزي

هو محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن بدر الملقّب بالنجم الغزي. وقد ذكر هو ترجمة نفسه في كتاب سماه بلغة الواحد في ترجمة الوالد أي والده. ومما قاله فيها أنه وُلد سنة ٩٧٧ هـ (سنة ١٥٦٩ م) وإنه رُبيّ تحت كنف والده وقرأ عليه إلى السنة السابعة من عمره ثم توفي والده فربته أمه، وقرأ على عدة مشايخ من علماء أيامه. وقال إنّ من مؤلفاته نظم الأجرومية سماه «الحلة البهية في الأجرومية». واقتدى بنظمها بشرح والده لها ثم شرح القطر لابن هشام، وشرح القواعد له وشرح منظومة والده في النحو في أربعة آلاف بيت وسماه: «المنحة النجمية في شرح الملحة البدرية». ومنظومة في النحو مائة بيت ومنظومة في التصريف والخط مائة بيت. و«نظم العقيان في مورثات الفقر والنسيان» ومختصر

في النحو سماه «البهجة»، ومقالة على التوضيح لابن هشام ، ومقالة على الشافية لابن الحاجب ، وشرح لامية الأفعال لابن مالك في التصريف ، ونظم شرح العلامة المحب الحموي على منظومة ابن الشحنة في المعاني والبيان ، ونظم «فرائض المنهاج في الفقه»، وشرح منظومة والده في ضبط القاعدة الفقهية وهي كل ما كان أكثر عملاً وأشقّ فهو أكثر ثواباً ، وسماه «تحفة الطلاب». وشرح كتاب اللآلئ المبدعة في الكائنات المخترعة لجده شيخ الاسلام ، ونظم كتاب «رواة الأسباطين في عدم الدخول على السلاطين» لجلال الدين السيوطي. قال وأعظم مؤلفاتي الآن شرحي على ألفية التصوّف لشيخ الاسلام الجد المسمى «منبر التوحيد ومظهر التفريد في شرح جمع الجوهر الفريد في أدب الصوفي والمريد». وفي عزمي الآن أن أكتب في الفقه كتاباً حافلاً وأنا شارع في مؤلفات أخرى أسأل الله تعالى التوفيق. ومن مؤلفاتي أيضاً هذا الكتاب المسمى «بلغة الواجد في ترجمة شيخ الاسلام الوالد». هذا أكثر ما ذكره لنفسه.

وذكر له المحبي كتاب: «عقد النظام لعقد الكلام» وهو كتاب غريب الوضع مبني على مقالات للسلف في النصيحة والزهد وأشباههما. وكتاب تحبير العبارات في تحرير الامارات وهو عجيب أيضاً. وكتاب التنبيه في التشبيه وهو كتاب بديع في سبعة مجلدات بقطع النصف لم يسبق إلى مثله ، يذكر فيه ما ينبغي للانسان أن يتشبه به من الأعمال المحمودة وما يتجنبه من الأعمال المذمومة. وله فوائد منظومة كثيرة منها قوله جامعاً آداب العيادة للمريض:

أن تعد يوماً مريضاً فليكن ... في زمان لاق فيه أن تعود
واطرق الباب برفق باسمك ... صرّح ما صديق كالحسود
واغضض الطرف ولا تكثر إذاً ... من سؤالٍ ثم خفف في القعود
لا تكلّم بالذي يضجره ... أولهُ فيه ارتياب في الوجود
ضع عليه يدك اليمنى وعن ... حاله سله على وجهٍ يجود
وأشر بالصبر حذر جزعاً ... وادعُ بالاخلاص مولاك الودود
تلك آدابك إن عدت ومن ... يحفظ الآداب يُرجى أن يسود

وذكر له أيضاً كتاب التاريخ في أعيان الماية العاشرة وسماه: «الكواكب السائرة

في أعيان المائة العاشرة»، والذيل الذي سماه: «لطف السحر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر». وكانت وفاته سنة ١٠٦١ هـ (سنة ١٦٥٠ م).

١٣

ابن النقيب البيروتي

هو محمد المعروف بابن النقيب البيروتي نزيل دمياط الشافعي ووصفه المحبي بالعالم الكبير والعلم النحرير، دخل دمشق وأخذ عن الشمس الميداني وأمثاله ثم رحل إلى مصر وأخذ فيها على الفور الزيادي والشيخ علي الحلبي، ودرس بالجامع الأزهر، وأخذ عنه الجمع الكثير وكان يدرّس ولا ينظر في كتاب، ويقول هذه طريقتنا وطريقة مشايخنا، وأقام يدرّس هناك أربعين عاماً. وكان طبيباً حاذقاً ثم رحل إلى دمياط ولزم التدريس فيها إلى أن توفاه الله. وكان في مجلسه مائة وثلاثون طالباً. ومن مؤلفاته حاشية على المنهاج للمحلي وسماه «فتح التجلي». وكانت وفاة ابن النقيب سنة ١٠٦٤ هـ (سنة ١٦٥٣ م).

١٤

أبو الوفاء العرضي الحلبي

هو أبو الوفاء ابن عمر بن عبد الوهاب بن الحسين الشافعي الحلبي مفتي الشافعية بحلب وأحد أعيان العلماء. روى العلوم النقلية والعقلية عن والده ولزم العلامة أبا الجود البتروني وغيره. ومن مؤلفاته تاريخ سماه: «معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب». وكتاب «طريق الهدى في التصوّف» وشرح على ألفية ابن مالك وحاشية على شرح المفتاح للسيد، وحاشية على البيضاوي، وحاشية على

شرح المنهاج للمحلي ، وشرح البديعيات . وله شعر حسن ونثر بارع .ومن شعره لامية ضاهى بها لامية العجم ومطلعها:

جلالة الفضل تنفى زلة الرجل وذلّة الجهل توهي صولة البطلِ

ومنها:

واضرب على العقل أسواراً محصنةً تقيك فتنة احداث أولي حيلِ
ولا يروقك ماء الحسن قطره نار الحياء على الخدين كالشعلِ
ولا حلاوة ثغرٍ حشوه درر فكم من السم في العسال والعسلِ

وله كثير غير ذلك من الشعر الحسن. وكانت وفاته سنة ١٠٧١ هـ (سنة ١٦٦٠ م).

١٥

خير الدين الرملي

هو الشيخ خير الدين بن أحمد بن نور الدين علي بن الوهاب الأيوبي الرملي ، اشتهر في علوم التفسير والحديث والفقه واللغة والتصريف والنحو والبيان والعروض . وكان شيخ الحنيفة في عصره ، وهو صاحب الفتاوي السائرة . وله غيرها من التآليف النافعة في الفقه منها حواشيه على كتاب: «منح الغفار» رد فيها غالب اعتراضاته على كتاب الكنز وحواشيه على شرح الكنز للعيني ، وعلى الأشباه والنظائر لابن نجيم ، وله تعليقات على البحر الرائق والزيلعي وجامع الفصولين وله رسالة سماها: «الانصاف في عدم الفرق بين مسألتي النبكى والخصاف». وهو بحث معلوم في الأشباه في القواعد ، ورسالة سماها: «الفوز والغنم في مسألة الشرف من الأم». وله ديوان شعر مرتّب على حروف المعجم. ومنه قوله في الزنبق:

وزنبقة قد أشبهت كأس فضة برأس قضيبٍ من زمردة عجبِ

سداسي شكل كل زاوية به على رأسها الأعلى هلال من الذهبِ

وكانت ولادته سنة ٩٩٣ هـ (سنة ١٥٨٥ م) ووفاته سنة ١٠٨١ هـ (سنة ١٦٧٠ م).

١٦

عبد اللطيف البهائي

هو عبد اللطيف بن عبد الباقي الحنفي المعروف بالبهائي، وُلد ببعلبك وقرأ على جده لأمه العلامة محمد البهائي. ثم قدم دمشق ولزم الشرف الدمشقي وسلك طريق القضاء، ووليّ مناصب كبيرة منها قضاء طرابلس وبلغراد، ونما حظه واشتهر فضله وألّف تآليف دالة على طول باعه، منها شرحه لنصوص ابن عربي ونظمه متن المنار في الأصول في تسعماية وثلاثة أبيات وسماه «قرة عين الطالب» وهو عدد أبياته ثم شرحه شرحاً لطيفاً وعنوّنه باسم الوزير أحمد باشا الفاضل. وله شرح على ديوان أبي فراس أبدع فيه كل الابداع ونظمه ونثره كثيران مستوفيان شرائط الحسن والمتانة. ومن نظمه في مدح شيخ الاسلام المنقادي استاذه:

بأيّ لسانٍ يجسر العبد مدح مَن دمي من أياديه ولحمي وأعظمي

ومَن عشت دهراً تحت أكناف ظلّه أروح بأفضال وأغدو بأنعمِ

وفزت بعلمٍ منه عزّ اكتسابه وذاك لعمري حسرة المتعلّمِ

ينزهني في ظاهري وسرائري بإرشاده عن كل ريب ومأثمِ

ولولاه من عبد اللطيف ومن له ومن يخدم الأشراف يشرف ويكرمِ

وحسبي من شكري اعترافي بفضلهِ وتصديق قلبي والجوارح والفمِ

وكانت وفاته سنة ١٠٨٢ هـ (سنة ١٦٧١ م).

١٧

ابن السمان الدمشقي

هو عبد الباقي بن أحمد بن محمد المعروف بابن السمان الدمشقي كان فاضلاً ذكياً قوي الحافظة كثير الاطلاع على أشعار العرب وأيامهم وأمثالهم، وله تصانيف كثيرة لم يكمل منها إلّا «شرح الأسماء الحسنى» و«شرح شواهد الجامي» و«مختصر التهذيب في المنطق» وكان قد شرع في تأليف كتاب سماه «مرقات الشعراء» كتب منه قسماً ولو أكمله لكان عجيباً. وأخذ قبيل وفاته في الجمع بين الصحيحين للبخاري ومسلم ومات ولم يكمله. وفارق وطنه دمشق ودحل القاهرة واشتغل بها على بعض علمائها، وطاف بلاد الروم ووصل إلى جزيرة كريت، وكان الوزير الفاضل محاصراً لها فمدحه بقصيدة مطلعها:

أخف النوى ما سهلته الرسائلُ وأحلى الهوى ما كررته العواذلُ

ومما قاله فيها:

يعيّرني قومي بقومي ومحتدي كما عيب بالعضب الصقيل الحمائلُ
أجل حسدوني حيث فضلت دونهم وكم حسدت في الناس قبلي الأفاضلُ
وما الفخر بالاجسام والمال والعلى ولكن بأنواع الكمال التفاضلُ
وفيمَ نضيّع العمر في غير طائل إذا ما استوى بالناس قس وباقلُ
إذا جاء نقاد الرجال من الوغى تميّز عن أهل الكمال الأراذلُ

وكانت وفاته سنة ١٠٨٨ هـ (سنة ١٦٧٧ م).

١٨

علي البصير مفتي طرابلس

هو علي البصير الحموي مفتي طرابلس الشام وُلد بحماة وقرأ بها ثم رحل إلى

طرابلس وعمره أربعون سنة وتوطنها وولّي الافتاء بها وكان بارعاً لسناً آيةً في الحفظ. وله تآليف كثيرة في الفقه وغيره منها شرح الملتقى سماه: «قلائد الأنحر في شرح ملتقى الأبحر» ونظم «الغرر» في ألفي بيت ونظم «العوامل الجرجانية» ونظم «قواعد الاعراب»، وله كتاب منظوم في ألغاز الفقه سماه: «الحور العين» يشتمل على ألف سؤال وأجوبتها ومفتتحه:

قول علي الحنفي المسكين ... من بعد بسمِ الله ذي التمكينِ
وبعد أني قد نظمت بعض ما ... وجدت في مذهبنا المتينِ
من المسائل التي تعسر عن ... كل فقيه جامع رزينِ

وله غير ذلك. وكانت وفاته سنة ١٠٩٠ هـ (سنة ١٦٧٩ م) ودُفن بجبانة الغربا ظاهر طرابلس.

١٩

الكواكبي الحلبي

هو محمد بن حسن بن أبي يحيى الكواكبي الحلبي الحنفي مفتي حلب ورئيسها في الفنون والعلوم النقلية والعقلية مع سعة الجاه والمال، نشأ بحلب وأخذ بها عن كثيرين من محققي عصره كالشيخ جمال الدين اليابولي. وما زال يترقى بالفضل حتى انفرد وولي أفتاء حلب وتصدّر بها. وأفاد ودرس وبقيت عليه فتوى حلب إلى أن توفي. وألّف مؤلفات كثيرة منها «نظم الوقاية في الفقه» و«نظم المنار» وشرحه في الأصول ، وحاشية على تفسير البيضاوي التزم بها مناقشة سعدي ، وحاشية أخرى انتقد بها عصام الدين وحاشية على شرح المواقف للسيد وغير ذلك. وله نظم ونثر في غاية اللطافة. ومن شعره:

حتامَ في ليل الهمومِ ... زناد فكرك تقتدحْ
قلبٌ تحرّقَ بالأسى ... ودموع عين تنسفحْ
أرفق بنفسك واعتصم ... بحمى المهيمن تنشرحْ

ما أمّ ساحة جوده ذو محنة إلّا منح
أو جاءه ذو المعضلاتِ بمغلقٍ إلّا فتح
فدع السوى وانهج على نهج السريّ المتضح
واسمع مقالة ناصحٍ إن كنتَ ممن يُنتصح
ما تمّ إلّا ما يريد فدع مرادك واتضح
واترك وساوسك التي شغلت فؤادك تسترح

وتوفي سنة ١٠٩٦ هـ (سنة ١٦٨٤ م).

٢٠

الشيخ ابراهيم الفتال الدمشقي

هو الشيخ ابراهيم بن منصور المعروف بالفتال الدمشقي استاذ محمد المحبي الذي نأخذ عنه. وقد غالى في الثناء عليه وأطرأ علومه وفضائله ومزاياه وعدد تلامذته الشهيرين، إلى أن قال إنّ له من المؤلفات حاشية القطر للفاكهي وتحريرات على مواطن من التفسير، وكان ينظم الشعر. ومما ذكره من شعره:

كلنا سيدي إليك نؤوبُ ما لنا لا نعي اللقا ونتوبُ
إنّ عمر الشباب ولّى وأبقى ما جنيناه فيه وذاك ذنوبُ
فإلى كم هذا التواني وقد جاء نذير الحمام وهو المشيبُ
ندّعي الحب فرية إنما الحب حري بأن يُطاع الحبيبُ
ليس هذا دأبُ المحبين لكن قد نحاه مشتت محجوبُ
إنّ أعداءنا توالت علينا نفسنا والهوى وعقلٌ مريبُ
كيف يرجو الخلاص منهم معنىً في حماه مكبل مجبوبُ

وكانت وفاته سنة ٩٨ ١ هـ (سنة ١٦٨٦ م).

٢١

محمد المحبي

هو محمد الأمين بن فضل الله بن محب الله بن محمد بن محب الدين الدمشقي المعروف بالمحبي صاحب الكتاب: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»، جمع فيه تراجم ١٢٨٩ فاضلاً وأميراً من مشاهير القرن الحادي عشر، وطبع كتابه بالقاهرة سنة ١٢٨٤م وعنه أخذنا خلاصة التراجم التي ذكرناها هنا والتي سوف نذكرها في الفصل التالي مع بعض الزيادة والتفسير. وله أيضاً كتاب «الاعلام» وهو مطوّل في تراجم الأعيان في كل قرن رتبه على ثمانية وعشرين باباً بحسب حروف المعجم ولم يُطبع بعد. ونشأ من عشيرة المحبي هذا عدة علماء ذكرهم محمد خليل المرادي الدمشقي في كتابه. «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر»، ومنهم فضل الله بن محب الله والد المحبي المذكور. وله ذيل لتراجم الأعيان في أبناء الزمان لحسن البوريني. وقد توفي محمد المحبي المذكور بدمشق سنة ١٢١١ هـ (١٦٩٩ م).

عد ١٠٠٦
بعض المشاهير غير السوريين في هذا القرن

١

أبو بكر الشنواني

هو الشيخ أبو بكر بن اسماعيل بن شهاب الدين الشنواني نسبةً إلى شنوان وهي بلدة بمصر، وكان كثير الاطلاع على اللغة ومعاني الأشعار حافظاً لمذاهب النحاة والشواهد. كثير العناية بها وتخرّج به كثير من العلماء منهم الشهاب

الخفاجي ابن أخته وسيأتي ذكره. وله المؤلفات الحسنة منها حاشية على متن التوضيح في مجلدات لم تكمل، وحاشية على شرح القطر للفاكهي، وحاشية أخرى على شرح القطر للمؤلف لم تكمل. وحاشية على شرح الشذور للمصنف أيضاً. وحاشية على شرح الأزهرية للشيخ خالد الأزهري وأخرى على شرح القواعد له. وله أيضاً شرح على البسملة والحمدلة للشيخ عميره. وله شرح آخر على البسملة والحمدلة للقاضي زكريا وشرح مطوّل على الأجرومية جمع فيه نفائس الفوائد، وحاشيتان على شرح الشيخ خالد الأزهري للأجرومية أيضاً، وشرح على ديباجة مختصر الشيخ خليل الناصر اللقاني. إلى غير ذلك وكان كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين:

وقـائـلـةٍ أراك بـغـيـر مـالٍ ... وأنـت مـهـذب عـلـم امـامُ
فـقـلـت لأنّ مـالاً قـلـب لامٍ ... وما دخلت على الاعلام لامُ

وكانت وفاته سنة ١٠١٩ هـ (سنة ١٦١٠ م) وقال الخفاجي ابن أخته يرثيه:

تباً لقلبٍ عليك اليوم ما احترقا ... وناظر دمعه في ذا المصاب رقا
وغصة وشجي في القلب سوغها ... دمع به ناظر المخزون قد شرقا
رضيع ثدي الندى خدن العلا حسباً ... من مهده لمقرّ اللّحد ما افترقا
قومٌ بنار الجوى تشوى قلوبهمُ ... قد صيّروها قرى همٌ لهم طرقا
والدمع جارٍ عليه قد طفا وطغى ... لـولا سـفـينة تـابـوت لـه غـرقا

٢

عبد الرؤوف المناوي

هو ابن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين عبد الرؤوف المناوي القاهري الشافعي، وكان اماماً فاضلاً زاهداً عابداً، وكان يقتصر يومه وليله على أكلة واحدة من الطعام. وقد جمع من العلوم والمعارف ما لم يجتمع في أحد

معاصريه . ومؤلفاته كثيرة نجتزئ بذكر بعضها ، فله شرح على شرح العقائد للسعد التفتازاني سماه: تغاية الأماني» لم يكمله ، وشرح على نظم العقائد لابن أبي شريف ، وكتاب سماه «أعلام الأعلام بأصول المنطق والكلام» و «الشرح على الجامع الصغير» ثم اختصره بأقلّ من ثلث حجمه وسماه «التيسير». وله كتاب جمع فيه ثلاثين ألف حديث وبيّن ما فيه من الزيادة على الجامع الكبير ، وكتاب انتقاه من لسان الميزان بيّن فيه الموضوع والمنكر والمتروك والضعيف ورتّبه كالجامع الصغير. ورتّب كتاب الشهاب القضاعي وشرحه وسماه: «امعان الطلاب بشرح ترتيب الشهاب» ، وشرح كتاب «الشمائل» للترمذي شرحين ثم اختصر كتاب الترمذي المذكور وزاد عليه أكثر من النصف وسماه «الروض الباسم». وله أيضاً كتاب في اصطلاح الحديث سماه «بغية الطالبين لمعرفة اصطلاح المحدثين» ، وكتاب في الأوقاف سماه تيسير الوقوف على غوامض أحكام الوقوف وهو كتاب لم يسبق إليه ، وشرح منظومة زيد ابن ارسلان التي نظم فيها أربعة علوم أصول الدين وأصول الفقه والفرائض والتصوّف وسماه: «فتح الرؤوف الصمد بشرح صفوة الزبد» ، وشرح على العباب سماه: «اتحاف الطلاب بشرح كتاب العباب»، انتهى فيه إلى كتاب «النكاح» ، وشرح على البهجة الوردية سماه «الفتح السماوي بشرح بهجة الصلحاوي»، ثم اختصره ، وشرح كتاب «الشمعة المضية في علم العربية» للسيوطي سماه «المحاضر الوضية في الشمعة المضية» ، وكتاب جمع فيه عشرة علوم أصول الدين وأصول الفقه والفرائض والنحو والتشريح والطلب والهيئة وأحكام النجوم والتصوّف وشرح على القاموس انتهى فيه إلى حرف الذال ، وكتاب في أسماء البلدان ، وكتاب في التعاريف سماه: «التوقيف على مهمات التعاريف» ، وكتاب في أسماء الحيوان سماه «قرة عين الانسان بذكر أسماء الحيوان» ، وكتاب في آداب الملوك سماه:؛ «الجواهر المضية في الآداب السلطانية» ، وكتاب في الطب سماه: «بغية المحتاج إلى معرفة أصول الطب والعلاج» ، وكتاب في تاريخ الخلفاء إلى كثير غير ذلك من كتبه وشروحه. وتوفي سنة ١٠٣١ هـ (١٦٢١ م).

٣

ابراهيم اللقاني

هو الشيخ ابراهيم بن حسن بن علي اللقاني المالكي نسبةً إلى لقانة قرية من قرى مصر، كان اماماً يرجع إليه في المشكلات والفتاوى بالقاهرة. وله تآليف كثيرة منها وأشهرها منظومة في علم العقائد سماها «جوهرة التوحيد» طُبعت ببولاق سنة ١٢٤١ هـ وقد بيّضها ابنه عبد السلام بعد موت أبيه وشرحها. ولمحمد الأمير حاشية على هذا الشرح طُبعا معاً بالقاهرة سنة ١٣٠٩هـ. ولابراهيم الباجوري المتوفي سنة ١٢٧٦هـ حاشية على جوهرة التوحيد للقاني طُبعت بالقاهرة سنة ١٣٠٤هـ. ومن تآليف اللقاني أيضاً كتاب في «التربية والتصوّف»، وكتاب سماه «صاحب المكاشفات وخوارق العادات»، وله أيضاً: «توضيح ألفاظ الأجرومية» و«قضاء الوطر في نزهة النظر في توضيح نخبة الأثر» للحافظ بن حجر. و«اجمال الوسائل وبهجة المحافل بالتعريف برواة الشمائل» ثم «منازل أصول الفتوى وقواعد الافتاء بالأقوى»، ثم «عقد الجمان في مسائل الضمان»، ثم «نصيحة الاخوان باجتناب شرب الدخان»، وعارضها معاصره الشيخ علي الأجهوري برسالتين أثبت فيهما القول بحلّ شربه ما لم يضرّ. ومن تآليفه التي لم تكمل «تعليق الفوائد على شرح العقائد» للسعد وشرح «تصريف العزي» للسعد أيضاً سماه «خلاصة التعريف بدقائق شرح التصريف»، وحاشية على جمع الجوامع سماها: «البدور اللوامع من خدور جمع الجوامع». إلى غير ذلك. وله شعر ومنه:

يا أكرم الخلق قد ضاقت بي السبل ورقّ عظمي وغابت عني الحيلُ
ولم أجد من عزيز استجير به سوى رحيم به تستشفع الرسلُ

وكانت وفاته سنة ١٠٤١ هـ (سنة ١٦٣١ م).

٤

ابن شيخان

هو السيد سالم بن أحمد بن شيخان وُلد سنة ٩٩٥ هـ (سنة ١٥٨٦ م) ونشر كثيراً من العلوم والمعارف وانتفع به كثيرون وصنّف في عدة فنون وعلوم، فمن تصانيفه: «بلُغة المريد وبغية المستفيد في علم التحقيق» و«تمشية أهل اليقين على ذائقة التمكين»، وشرح رسالة مفيدة للشيخ عبد الكريم الجبلي، وشرح الجوهر الرابع والخامس من كتاب الجواهر الخمس للسيد محمد غوث الله أتمّ به شرح الشيخ أحمد الشناوي الذي شرح الأول والثاني والثالث منها، ثم نشر: «الافادة بذكر كلمتي الشهادة». ثم «السفر المستور للدراية في الذكر المنشور للولاية» و«الأخبار والأنباء بشعار ذوي القربى الألباء» و«شق الجيب في معرفة أهل الشهادة والغيب»، و«غرر البيان عن عمر الزمان» و«البرهان المعروف في موازين الحروف»، و«منتهى الطلب في قسمة حروف الرتب على الكواكب السبعة والرأس والذنب». وله غير ذلك كثير من المصنفات وله أشعار أيضاً ومنها:

كن ممسكاً بالصوم عن كل السوى واذكر بفطرك من أتى معروفه
وبفاطرٍ عن روية الأغيار صُم من صام عند الله طاب خلوفه

وكانت وفاته في سنة ١٠٤٦ هـ (سنة ١٦٣٦ م).

٥

الاسحاقي

هو محمد بن عبد المعطي الاسحاقي (وسماه المحبي عبد الباقي) أصله من منوف بمصر وله كتاب التاريخ المشهور الموسوم «بلطائف أخبار الأول في من تصرّف في مصر من أرباب الدول»، طُبع بالقاهرة سنة ١٣٠٠هـ ولدَيّ منه نسخ مطبوعة سنة ١٣١٥هـ وعلى هامشها: «تحفة الناظرين في من وليَ مصر من الولاة

والسلاطين» لعبدالله الشرقاوي. وتاريخ الاسحاقي مقسوم على أحد عشر باباً. فالمقدمة في فضائل مصر والباب الأول في الخلفاء الأربعة الأولين، والثاني في دولة بني أميّة، والثالث في الخلفاء العباسيين، والرابع في من وليَ مصر من نواب الخلفاء الراشدين وبني أميّة والعباسيين، والخامس في الفاطميين، والسادس في دولة الأيوبيين، والسابع في دولة المماليك البحرية، والثامن في دولة الجراكسة، والتاسع في السلاطين العثمانيين، والعاشر في نوابهم بمصر إلى سنة ١٠٣١ هـ، والحادي عشر خاتمة تحوي نصائح ومواعظ وآداب للسلاطين. وللاسحاقي أشعار أيضاً ومما ذكره له المحبي منها قوله:

أذكرتِ أيتها الحمامة غيدا ومعاهداً سلفت لنا وعهودا
أذكرتِ اشجاناً لنا ومعاهداً وصفا تقضى طارفاً وتليدا
هذا على أنّ الغرام إذ زكى ظلّ الشجى يتوقع التغريدا

إلى قوله:

وجلا عليّ عرائساً من فكره حسنت طلا ومعاطفاً وقدودا
وأفادني وأفدته والخل يحـ ـمد أن يفاد معانياً ويفيدا

وكانت وفاته في نيف سنة ١٠٦٠ هـ (سنة ١٦٥٠ م).

٦

الشهاب الخفاجي

هو الشيخ أحمد بن محمد بن عمر قاضي القضاة الملقّب بشهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي. قد أطال المحبي الكلام في مدحه، وذكر أنه كتب ترجمة نفسه في كتاب «ريحانة الأطباء» الآتي ذكره والذي نلخصه من هذه الترجمة هو أنه قرأ العلوم العربية على خاله أبي بكر الشنواني المار ذكره ووصفه بسيبويه زمانه، وأخذ باقي العلوم عن شيخ الاسلام محمد الرملي وعن الشيخ نور الدين الزيادي

وابراهيم العلقمي ، وأخذ الطب عن الشيخ داود البصير ، وإنه ارتحل مع والده إلى القسطنطينية وتخرج على بعض فضائلها ، وأخذ فيها الرياضيات واقليدس عن الحبر داود ، وإنه تولّى قضاء العسكر بمصر وولي أيضاً القضاء في الروملي ثم في سلانيك ، وحصل له بها مال كثير. ثم عدد تآليفه فقال هي حواشي تفسير القاضي وعنوانه: «القاضي وكفاية الراضي» ، وله حاشية على كتاب «أنوار التنزيل» للبيضاوي طُبعت ببولاق في ثمانية أجزاء سنة ١٢٨٣ ثم من كتبه شرح الشفا وسماه: «نسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض»، والشفا كتاب عنوانه: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض اليحصبي المتوفي سنة ١١٤٩ م. وكتاب الخفاجي هذا طُبع بالآستانة في أربعة أجزاء سنة ١٢٦٧ ثم شرح «درّة الغواص في أوهام الخواص» للحريري ، وطُبعت الدرة في مصر سنة ١٢٧٣هـ. وطُبعت بالآستانة مع شرح الخفاجي سنة ١٢٩٩هـ، ثم كتاب: «ريحانة الألباء في طبقات الأدباء» يتضمن تراجم المشاهير من الشعراء وطُبع هذا الكتاب بمصر سنة ١٣٠٦هـ. ثم «الرسائل الأربعون» وحاشية على «شرح الفرائض» وكتاب «السوائح» و«حواشي الرضى». كل هذه الكتب عزاها هو إلى نفسه. وزاد المحبي عليها أنّ له كتاب «شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدخيل» ، وهذا الكتاب طُبع بمصر سنة ١٢٨٢هـ. وكتاب «ديوان الأدب في ذكر شعراء العرب» ذكر فيه مشاهير الشعراء من العرب العرباء والمولدين، وربما كان كتاب «ريحانة الألباء ونزهة الحياة الدنيا» الذي طُبع ببولاق سنة ١٢٧٣هـ وفي القاهرة بعد ذلك ، ثم كتاب «طراز المجالس» وهو مجموع رتبه على خمسين مجلساً ذكر فيها مباحث تفسيرية ونحوية وأصولية ، وقد طُبع بالقاهرة سنة ١٢٨٤هـ وهو من أحسن كتب الأدب. وله رسائل كثيرة ومكاتبات متوفرة ومقامات ذكر بعضها في ريحانة الألباء ، وله ديوان شعر ومنه قصيدته الدالية التي مطلعها:

قدحت رعود البرق زندا ... أضرمنَ أشجاناً ووجداً
في فحمة الظلماء إذ ... مدّت على الخضراء برداً
حتى تشاءب نوره ... وتمطّت الأغصان قداً
وأتى الشقيق بجمرٍ ... للروض أوقد فيه ندّاً
وعلى الغدير مفاضةٌ ... سردت له النسمات سرداً

وحـبـابـه مـن فـوقـه قـد بـات يـلـعـب فـيـه نـرداً
فـسـقـى مـعـاهـد بـالحمـى قـد أنـبـتـت حـبـاً وودا

وهي طويلة اجتزأنا منها بما مرّ خشية ملل القارئ. ومن أشعاره أيضاً:

أن يعد ذو بغي عليك فخَلِّهِ وارقب زماناً لانتقام الطاغي
واحذر من البغي الوخيم فلو بغى جبل على جبلٍ لدك الباغي

وكات وفاته سنة ١٠٦٩ هـ (سنة ١٦٥٨ م).

٧

الجوهري المكي

هو أحمد بن محمد بن علي المعروف بالجوهري المكي، وهو شاعر بارع مجيد وضليع بالعلوم، وُلد بمكة المكرمة ورحل منها إلى الهند فأقام بها خمساً وعشرين سنة وعاد إلى مكة، ثم ظعن إلى بلاد فارس فلم يتم له فيها مرامه، فعاد إلى الهند ولبث فيها حتى دعاه أجله فلبّى سنة ١٠٦٩ هـ (سنة ١٦٥٨ م) ومن أشعاره:

ماشمت برقاً سرى في جنح معتكرِ إلّا تذكرت برق المبسمِ العطرِ
ولا صبَوت إلى خلّ أسامره إلّا بكيت زمان اللهو والسمرِ
شلّت يدٌ للنوى ما كان ضائرها لو غادرتنا نقضّي العيش بالوطرِ

ومن أقواله:

قـل لـلـذي يـبـتـغـي دلـيـلا من غير طول على المهيمن
مـا ذرة فـي الـوجـود إلّا فـيـهـا دلـيـلٌ عـلـيـه بـيّن

٨

برهان الدين الميموني

هو الشيخ ابراهيم بن محمد بن عيسى المصري الشافعي الملقّب برهان الدين الميموني ، كان شهيراً في علوم التفسير والعربية وضليعاً بالعلوم العقلية والنقلية ، وأبلغ شهرته في علم المعاني والبيان وأخذ من أبي بكر الشنواني السابق ذكره وغيره من علماء عصره ومؤلفاته كثيرة منها حاشية على المختصر كذا ذكره المحبي. والذي أظنه المراد مختصر تلخيص المفتاح في المعاني والبيان للقزويني ، وحاشية على كتاب المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، وهذا الكتاب لشهاب الدين القسطلاني وحاشية على تفسير البيضاوي الشهير. وله كتاب سماه «معراج» في مجلد ضخم ، وبعض تعليقات على شرح التلخيص (أي تلخيص المفتاح) للمولى عصام الدين المعروف بالأطول وتحريرات على حاشية الجامي ، وكانت وفاته سنة ١٠٧٩ هـ (سنة ١٦٦٨ م).

٩

عبد القادر قدري

هو عبد القادر قاضي العسكر الشهير المعروف بقدري ، وقد اشتهر بكتاب فتاويه المعروفة بفتاوي قدري ويسمونها المجموعة. قال المحبي هي الآن عمدة الحكام في أحكامهم والمفتين بفتاويهم فهي مجموعة نفيسة أكثر مسائلها وقائع كانت تقع أيام المفتي يحيى بن زكريا وكان قدري ملازماً خدمته ثم وُلّي قضاء القسطنطينية وقضاء العسكر مرات ، وكانت وفاته في القسطنطينية سنة ١٠٨٣هـ (سنة ١٦٧٢م).

١٠

ابن بيري

هو الشيخ ابراهيم بن حسين بن أحمد المعروف بابن بيري مفتي مكة المكرمة أحد أكابر فقهاء الحنفية وعلمائهم المشهورين. أخذ العلم عن عمه العلامة محمد بن بيري وشيخ الاسلام عبد الرحمن المرشدي، واجتهد حتى صار فريد عصره في الفقه، وكان له ولد قد مات فانقطع بعد وفاته عن الناس مجدّاً في المطالعة والتأليف. وله مؤلفات ورسائل تربو على السبعين منها حاشية على الأشباه والنظائر في الفقه لابن نجيم سماها: «عمدة ذوي البصائر في الأشباه والنظائر» ومنها «شرح الموطأ» رواية محمد بن الحسن في مجلدين و«شرح تصحيح القدوري» للشيخ قاسم، و«شرح منظومة ابن الشحنة في العقائد»، وله غير ذلك من التآليف. وكانت وفاته سنة ١٠٩٩هـ (سنة ١٦٨٧م) وكان في هذا القرن كثيرون من المشاهير السوريين وغيرهم أضربنا عن ذكرهم واجتزينا بذكر من تقدّم رغبةً في الايجاز.

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن السابع عشر

الفصل الأول

بطاركة انطاكية وأورشليم في هذا القرن

عد ١٠٠٧

بطاركة انطاكية في القرن السابع عشر

فرغنا من كلامنا على هؤلاء البطاركة في القرن السادس عشر بذكر دوروتاوس الرابع الذي توفي سنة ١٦١٠م وجاء في الجدول الواتيكاني وجدول السمعاني أنّ دوروتاوس المذكور خلفه اثناسيوس الثالث. وروى يعقوب كولتر اليسوعي أنه كان كاثوليكياً وتوفي سنة ١٦١٩م. وبعد وفاته اختار بعضهم اغناطيوس مطران صيدا وبعضهم كيرلس أخا اثناسيوس المتوفي.

ولا ريب في أنّ اغناطيوس اضطهد كيرلس حتى يقال إنه تسبب بقتله، وبعد مقتله استبدّ برئاسة الكرسي الانطاكي سنة ١٦٢٨. ولا مرية في أنه كان بطريركاً انطاكياً سنة ١٦٣٠ لأنّ كولتر اليسوعي المار ذكره أثبت رسالة منه كتبها من حلب في ١٠ آذار سنة ١٦٣٠ يتبين منها صريحاً أنه كان بطريركاً على انطاكية.

وبعد وفاة اغناطيوس خلفه افتيميوس وكان مطراناً على حلب. وجاء في

الجدول الواتيكاني وجدول السمعاني أنّ افتيميوس خلف اغناطيوس، وقيل في الجدول الأول أنه كان اسمه ملاتيوس إذ كان مطراناً بحلب، ولما ارتقى إلى البطريركية سمي افتيميوس. وزاد السمعاني على اسمه اسم كرمة عائلته، وقال إنه كان يجنح إلى الرجوع إلى الكنيسة الكاثوليكية. وقال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٤م: «وكان البطريرك كرمة ذا معرفة واقتدار في العلوم وترجم رتب كنيسته من اللغتين اليونانية والسريانية إلى العربية، وقيل إنه مات مسموماً لأنه قصد أن يغيّر حساب الصوم ويتبع حساب الكنيسة الرومانية». وأنبأنا لكويان أنه كان يقطن دمشق على عادة أسلافه لكنه لما لم يقدر أن يفي سبعة آلاف دينار كانت الحكومة تطلبها منه رحل إلى حلب وعيّن راهباً من ساقس اسمه ملاتيوس ليكون خلفاً له. كما روى ذلك الأب يوسف لسبون اليسوعي في كتابه الموسوم «بسورية المقدّسة» (جزء ١ فصل ٣ صفحة ٧٣٣) وغيّر ملاتيوس اسمه ودعي افتيشيوس، ولهذا نرى السمعاني قال في جدوله افتيشيوس الساقسي خلف افتيميوس.

وبعد وفاة افتيشيوس الساقسي خلفه مكاريوس الزعيم سنة ١٦٤٣م على ما في الجدول الواتيكاني كما رواه لكويان. وهذا البطريرك هو صاحب الرحلة إلى القسطنطينية وبلغارية والفلاخ والبغدان وروسية، واستمر في رحلته هذه من سنة ١٦٥٢م إلى سنة ١٦٥٥م، وكتب أخباره فيها ابنه الشماس بولس الزعيم في كتاب اشتمل على فوائد كثيرة في بطاركة انطاكية الروم الملكيين، وفي أحوال تلك الأيام. ولهذا الكتاب نسخ نادرة منها ثلاث نسخ في مكاتب روسية ونسخة في لوندرا عنيَ بترجمتها إلى الانكليزية بلفور سنة ١٨٢٩م إلى سنة ١٨٣٦م. على أنّ ترجمته لم تكن مدققة وأغفل فيها أموراً أهمها ترك مقدمة المؤلف مع اشتمالها على فوائد جمة تاريخية، ولما انتبه إلى ذلك الأستاذ البارع جرجي مرقس الدمشقي نزيل روسية اعتنى بترجمة المقدّمة وبيّن ما فيها، واستطرد إلى تفصيل حالة هذا الكتاب والنسخ الموجودة منه وأعقب ذلك بترجمة الرحلة إلى اللغة الروسية وعنيَ بطبعها من سنة ١٨٩٦م إلى سنة ١٩٠٠م في خمسة مجلدات. وكان لترجمته أحسن وقع ولا سيما لدى المنتديات العلمية بروسية ورومانية. ولما ظهرت ترجمة بلفور الانكليزية المذكورة كتب العالِم ستوفسكي استاذ العربية حينئذٍ في بطرس برج أنه رأى نسخة من هذه الرحلة عند العالم عريضة (هو الخوري أنطون عريضة) بعنطورا وطالع أكثرها في أثناء اقامته بمنزل هذا العالِم الشهير وإنه لا يدري لمن

وقعت هذه النسخة بعد وفاة عريضة وكانت مكتوبة بالأحرف الكرشونية وقد أخبرني من عهد قريب سيادة المطران جراسيموس مسرّة رئيس أساقفة بيروت الآن أنّ في مكتبته نسخة من هذه الرحلة.

ويؤخذ عن هذه الرحلة قول مكاريوس عن نفسه: «إنّ البطريرك افتيميوس كرمة كان قد عيّن قبل وفاته خليفة له ملاتيوس الساقسي وأوصاه بأنه عندما يجلس على الكرسي البطريركي يستدعيني من حلب أنا الفقير مؤلف هذه الأخبار ويرسمني مطراناً على حلب حسبما تمّ ذلك». إلى أن يقول: «وهو (أي الكهنة وكل الاكليروس) انتخبوا خليفة له (أي للساقسي) اياي أنا الفقير كاتب هذا التأليف أنا ملاتيوس».

وقد ذكر الشماس بولس أنّ البطريرك مكاريوس بعد فراغه من سلسلة بطاركة انطاكية ترجمة والده قال إنه: «ابن الخوري يوحنا الزعيم تقلّد مطرانية حلب باسم ملاتيوس وروى الحوادث الهامة التي طرأت في الاثنتي عشر سنة التي وليَ فيها هذه الأبرشية، وروى قدوم البطريرك افتيميوس مرتين إلى حلب وسفر والده مع ستين شخصاً من الحلبيين الاكليريكيين وعلمانيين لزيارة القدس. وشرح بالتطويل كيفية انتخاب والده وجلوسه على الكرسي الانطاكي باسم مكاريوس وتطوافه بالأبرشية مع تعداد كل المدن والقرى التي زارها، وفي جملتها ما يظهر أنه دُثر اليوم لأننا لا نجده في خريطة سورية (طالع مجلة المشرق السنة الخامسة عدد ٢٢ (كانون الأول سنة ١٩٠٢م صفحة ١٠٠٩).

وجاء في المشرق المسيحي للوكيان في بطاركة انطاكية أنّ مكاريوس مضى إلى القسطنطينية وأثبت مع البطاركة الثلاثة دستور الايمان الذي كان بطرس موجيلا متربوليت روسية قد وضعه ووقّع نائبه سنة ١٦٦٨م على شهادة صحة اعتقاد الكنيسة الشرقية بسر الأوخاريستيا وغيره من العقائد المخالفة لبدعة كلوين وترجمة هذه الشهادة إلى اللاتينية مثبتة في المجلّد الأول من التأليف الموسوم بديمومة الايمان. وفي سنة ١٦٧١م أدّى مكاريوس شهادتين مثل الأولى في مخالفة بدعة كلوين، وترجمتاهما إلى اللاتينية مثبتتان في المجلد الثالث من التأليف المذكور.

يظهر أنّ مكاريوس توفي سنة ١٦٧٢م وخلفه كيرلس الخامس على ما في جدولَي الواتيكان والسمعاني، وكان كيرلس حفيد مكاريوس ابن ابنه (لا نعلم أهو

بولس الشماس المذكور أم أخ له) وقال فيه ديمتريوس بروكوبيوس أنه كان رجلاً باراً غيوراً ضليعاً باللغتين العربية واليونانية وجاهر هذا البطريرك باعتناقه الدين الكاثوليكي بأثر جدال كان بينه وبين البطريرك اسطفانوس الدويهي الماروني ، وكان مع البطريرك كيرلس أربعة من أساقفته أحدهم افتيميوس الصيفي مطران صور وصيدا فأذعن جميعهم للايمان الكاثوليكي، على أنّ المخالفين للبطريرك كيرلس أدخلوا عليه توافيطس أحد نواب البطريرك مكاريوس إذ انتخبوه بطريركاً، ولكن بعد وفاة توافيطس هذا أو عزله، استقلّ كيرلس في بطريركية انطاكية مدة إلى سنة ١٦٨٦م التي فيها رقي المخالفون إلى البطريركية اثناسيوس الرابع المعروف بأثناسيوس الدباس، وكان دمشقياً وراهباً في دير القديس سابا بأورشليم ، وتمكن من الشقاق بالملّة بضع سنين إلى أن وقع الاتفاق بين البطريركين على أن أثناسيوس يكون مطراناً على حلب وكيرلس يستقر بالبطريركية . ويقال أنّ البطريرك كيرلس كان يوقّع اسمه كيرلس البطريرك الانطاكي حالياً واثناسيوس كان يوقّع اثناسيوس البطريرك الانطاكي سابقاً . وأقام كيرلس في دمشق على عادة أسلافه مذ سنة ١٥٦٩م . ولما بلغ البابا اكليمنضوس الحادي عشر اعتناق كيرلس الايمان الكاثوليكي بعثّ إليه برسالة مؤرخة في ٩ كانون الثاني سنة ١٧١٦م وطلب منه أن يدوّن صورة ايمانه فدوّنها وأرسلها إلى البابا، فورد إليه الجواب منه في ٣٠ أيار سنة ١٧١٨م مبيّناً له فيه مسرّته منه. وأدركت الوفاة البطريرك كيرلس في ٥ كانون الثاني سنة ١٧٢٠م . انتهى ملخصاً عن لكويان في «المشرق المسيحي» وعن «الدر المنظوم» صفحة ٨١ وعن «مختصر تاريخ طائفة الروم الكاثوليكيين» .

عد ١٠٠٨

بطاركة أورشليم في القرن السابع عشر

فرغنا من كلامنا على هؤلاء البطاركة في القرن السادس عشر بذكر استقالة البطريرك صفرونيوس الخامس ، فبعد استقالته انتخب توافان سنة ١٦٠٨م على ما روى دوزيتاوس الثاني بطريرك أورشليم. وروى بعضهم أنّ توافان كان ابن أخي سالفه صفرونيوس أو ابن أخته ، وزعم هوتنجاروس أنّ صفرونيوس وتوافان إذ كانا يرممان كنيسة القبر المقدّس ظهر لهما أنّ القبر الذي يعزى إلى المسيح ليس هو القبر

الحقيقي، والقديم الذي كان منقوراً بصخر بل هو قبر آخر مبني بالحجارة. قال لكويان الذي أراه أنّ هوتنجاروس إنما هو القائل هذا القول لا البطريركان توافان وصفرونيوس، وقد فنّد هذا الزعم الاتيوس في مقالته الموسومة بخدعة يوحنا هوتنجاروس والمطبوعة بروما سنة ١٦٦١م، وأثبت حقيقة قبر المخلّص كثيرون غير الاتيوس وبعضهم من البروتستانت أيضاً . وبعد أن صرف البطريرك توافان بعض سنين بأورشليم سار إلى القسطنطينية ثم إلى روسية ، وكان في القسطنطينية سنة ١٦٣٨م إذ عقد مع البطريركين القسطنطيني والاسكندري مجمعاً بداعي الفصول التي كتبها كيرلس لوكاريس الكلويني ، وأنكر الاتيوس (في مؤلفاته في اتفاق الكنيستين كتاب ٣ فصل ١١) أنّ توافان وقّع على أعمال هذا المجمع ثم حرمت هذه الفصول في مجمع عُقد بأورشليم في ١٦ آذار سنة ١٦٧٢م في أيام دوزيتاوس الثاني الآتي ذكره. وقد توفي البطريرك توافان في القسطنطينية سنة ١٦٤٦ بعد أن أقام بالبطريركية سبعاً وثلاثين سنة كما روى دوزيتاوس (في الكتاب ١٢ في بطاركة أورشليم فصل ١). وذكر صاحب سورية المقدّسة خلفاً له سماه اثناسيوس ولا أثر له في كتب غيره .

والذي ذكره لكويان أنه بعد وفاة توافان انتخب بايزيوس بطريركاً على أورشليم بمساعي برتانيوس البطريرك القسطنطيني وباسيليوس أمير ملدافيا وكان من أنسباء توافان سالفه ، وكان قد أتى إلى أورشليم في أيام صفرونيوس وأقام عنده مدة ، ثم ترهّب في دير القديس يوحنا المعمدان في جانب الأردن ، ثم صير رئيساً على دير غلطه ، وإذ كان هناك انتخب بطريركاً على أورشليم ، ثم سار إلى ملدافيا وروسية فأثقل الكسيوس قيصر الروس كاهله بالهدايا والتقادم ، وعاد إلى أورشليم وانقلب عليه البطريرك القسطنطيني ووشى به إلى الحكومة وأقفل كنيسة تخصّ القبر المقدّس في القسطنطينية فاضطر أن يعود إلى ملدافيا ثم سار إلى القسطنطينية وادرنه ، فأُلقيَ فيها بالسجن مدة ثم أُخليَ سبيله فرجع إلى أورشليم ، ثم اعتراه مرض عضال حتى قيل أنه أعدمه رشده ، فاتبع مذهب اليهود، ثم نفذ به القضاء المحتوم فلم يشأ أسقف اللد وبيت لحم أن يدفن في مقبرة مكرّسة وبرّأ بعضهم ساحته من الضلال. على أنّ دوزيتاوس الذي كان مرافقاً له في أسفاره وشاهداً عيانياً لموته ودفنه أثبت ذلك في الكتاب ١٢ من تاريخ بطاركة أورشليم فصل ٢ وكانت وفاة هذا البطريرك نحو سنة ١٦٦٠م .

ولما انتهى إلى القسطنطينية خبر وفاة بايزيوس اختار أمير ملدافيا والبطريرك القسطنطيني وبعض الأساقفة انكتاريوس، وكان ناسكاً في جبل سينا ورقي إلى المقام البطريركي في ١٠ نيسان سنة ١٦٦١م يوم أحد الشعانين، وكان أصله من كريت وكان عالماً، وله من التآليف: «تاريخ ملوك مصر من أقدم الأيام إلى السلطان سليم الأول». وبعد انتخابه سار إلى القسطنطينية وكتب رسالة في مخالفة كنيسة الروم لأضاليل لوتر وكلوين. ومضى سنة ١٦٦٤م إلى ملدافيا ليهتم بالأديار التي تختص بكنيسة القبر المقدّس، ثم عاد إلى القسطنطينية فرفع عريضة إلى السلطان استقال بها من منصبه لشيخوخته وأمراضه ومنازعة رهبان القدس له، وعاد إلى أورشليم فدبر كنيستها إلى أن أقيم خلف له فاعتزل في دير القديس ميخائيل في هذه المدينة وألّف كتاباً في «رئاسة الحبر الروماني» طبعه خليفته دوزيتاوس الآتي ذكره باليونانية بملدفيا سنة ١٦٨٢م. وعقد مجمع في أورشليم سنة ١٦٧٢م لرد بدع كلوين فشهده انكتاريوس ووقّع عليه وأنفذ رسالة تلك السنة إلى رهبان طورسينا يفنّد بها أضاليل المبتدع المذكور. ثم توفي سنة ١٦٧٤م وذكره ديمتريوس بروكوبيوس في جملة علماء الروم.

وبعد استقالة انكتاريوس سنة ١٦٧٢م أقيم مكانه دوزيتاوس الثاني وكان أصله من جزيرة كريت وكان رئيس الشمامسة في كنيسة القيامة فصير متربوليتاً لقيصرية فلسطين سنة ١٦٦٠م، كما روى عن نفسه في كتابه الثاني عشر في بطاركة أورشليم، ثم خلف انكتاريوس سنة ١٦٧٢م بامداد البطريرك القسطنطيني على عادتهم. وبعيد ارتقائه إلى المقام البطريركي عقد مجمعاً في بيت لحم فنبذ أضاليل كلوين التي كان بعضهم قد زعم أنّ الكنيسة الشرقية متمسكة بها، ووقّع في ١٦ آذار من تلك السنة على مراسيم هذا المجمع هكذا: «أنا دوزيتاوس برحمة الله بطريرك أورشليم وفلسطين كلها أثبت واعترف أنّ هذا ايمان الكنيسة الشرقية». روى ذلك هردوين في المجلد ١١ من مجموعة المجامع ويليه تواقيع ثمانية أساقفة واثنين وستين رئيساً ومتقدماً في المراتب البيعية، فإنّ الكنيسة الشرقية غير الكاثوليكية تضاد اللوثارين والكلوينيين مع مخالفتها للكنيسة الرومانية، وهذه بيّنة دامغة تفند مزاعم أولئك الهراطقة. ثم طبع دوزيتاوس سنة ١٦٨٢م كتاب انكتاريوس سالفه في رئاسة الحبر الروماني كما مرّ، وغيره من كتب بعض علماء الروم المتأخرين، ثم طبع محاورة دينية من تآليفه وسمها «بترس الايمان

الأرثوذكسي». وذكر بعضهم له رسائل أخرى طُبعت سنة ١٦٩٨م وسنة ١٦٩٩م وأشهر مؤلفاته «تاريخ بطاركة أورشليم» يندد به باللاتينيين والأحبار الرومانيين، ولا يتسامح بشيء مع الكلوينيين. ويظهر من هذا الكتاب قلّة المامه بصناعة الانتقاد والتدقيق. وطبع كتابه في بوخارست سنة ١٧١٥م وطُبعت ترجمته في صدر هذا الكتاب، ويظهر منها أنه توفي بالقسطنطينية في ٧ شباط سنة ١٧٠٧م. انتهى ملخصاً عن لكويان في المشرق المسيحي.

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدينيين السوريين وغيرهم

في القرن السابع عشر

قد كان في هذا القرن عدة من مشاهير العلم الموارنة من بطاركة وأساقفة وغيرهم. وسنأتي على ذكرهم في الملحق الذي نعلقه في آخر تاريخ هذا القرن بحسب مساق كلامنا حتى الآن. ونجتزيء هنا بذكر بعض المشاهير الدينيين النصارى غير الموارنة الذين كانوا في سورية وما جاورها في هذا القرن.

عد ١٠٠٩

ايليا بطريرك الكلدان

ذكرنا في تاريخ القرن السابق من بطاركة الكلدان يوحنا سلوقا وعبد يشوع الذي خلفه عطاالله سنة ١٥٦٥م وتوفي سنة ١٥٨٢م، ثم سمعان دنحا. وثبته البابا غريغوريوس الثالث عشر سنة ١٥٨٢م، ثم خلفه ايليا وكان نسطورياً وتوفي

سنة ١٥٩١م وفيها صار ايليا هذا بطريركاً على الكلدان سنة ١٥٩١م وكان ايمانه مشوباً بالنسطورية، ثم استمسك بالمذهب الكاثوليكي مع بعض أساقفته في أيام البابا بولس الخامس في مبادي القرن السابع عشر. وقد أنبأنا بطرس ستروزا في كتابه في عقائد الكلدان بسبب ارعوائه، فقال قد اتفق بالعناية الربانية أن كان بين الفقراء الذين غسل البابا بولس الخامس أقدامهم يوم خميس الأسرار في السنة الأولى لحبريته (سنة ١٦٠٥ م) رجلان كلدانيان أحدهما راهب والآخر عامي، ولما عادا إلى وطنهما أخبرا ايليا بطريركهما بأي تعطّف عاملهما الحبر الروماني وقدما له بعض هدايا كان البابا قد أرسلها إليه معهما. فكان لذلك وقعٌ حسن في قلب البطريرك فأرسل وفداً إلى روما ليؤدي الشكر له على انعطافه، ويقرّ بأنه الأب العام للمسيحيين، ويصرّح بالخضوع لسلطته. فسار هذا الوفد لكنه وقع بيد اللصوص فاضطر البطريرك إلى انفاذ وفد آخر فلم يفِ هؤلاء أيضاً بالمقصود لأنهم ظنوا أنّ اسم النساطرة يمقته اللاتينيون فرفعوا بعض صفحات من الرسائل والكتب المنفذة معهم فأوقعوا شبهة الاحتيال على أنفسهم، فعادوا صفري اليدين. وعلم البطريرك بسوء تصرفهم فاجتمع مع أساقفته يتشاورون بما ينبغي عمله فقرّ رأيهم أن يرسلوا معتمداً لا ليقدّم الطاعة والخضوع للحبر الروماني فقط بل ليبيّن أيضاً ما يعتقد به الكلدان، حتى إذا وجد به خلل التمس اصلاحه. واختاروا لهذه الوفادة رجلاً عالماً فطناً هو آدم رئيس شمامسة البطريركية ورئيس رهبان الكلدان. ولما بلغ إلى روما رفع إلى الحبر الروماني رسالة البطريرك مصحوبة بدستور ايمانهم، وقد شرحه آدم بأمر البطريرك موفقاً بين معتقد الكلدان والايمان الكاثوليكي. وسأل البابا خاشعاً أن يأمر بالفحص عن صحة معتقدهم وبما يراه ملائماً لخلاص نفوسهم.

وقد ضمّن ايليا رسالته إلى البابا بولس الخامس شكره له على محبته لهم وطلب اهداءهم بركته، واحصاءهم في عداد أبناء أبوّته وأنه شق عليه وعلى أساقفته سوء تصرّف من أرسلهم قبلاً إليه وأبان عدم تمكنه من الحضور إلى روما بنفسه وإنه مرسل إليه الآن الأب آدم ابنه الأمين وشريكه في أعماله مصحوباً برسالته ودستور ايمانه فيلتمس منه أن ينظر بذلك، فإن رأى بذلك غلطاً أو شيئاً مخالفاً لتعليم أمهم الكنيسة الرومانية فلينبههم إليه فيصلحوه وليرشدهم فيمتثلوا ارشاده.

وكان البطريرك يظن ويتفاخر بأنّ الخلاف بين الكنيسة الرومانية والكلدان إنما

هو على الألفاظ لا على معناها ، ولذلك أجابه البابا في رسالة إليه في شهر نيسان سنة ١٦١٤م بما ملخصه: « إنّ رسالة اخوتكم التي رفعها إلينا الابن العزيز آدم رئيس شمامسة بطريركيتكم ورئيس رهبانكم قد أوعبت قلبنا سروراً وبهجة وحركت فؤادنا عوامل المحبة ويسرنا جداً ما أبديتموه من الاحترام والتجلّة لكرسي القديس بطرس زعيم الرسل ولا سيما لايضاحكم أنّ هذا التكريم كان دائماً في كنيستكم. على أنه يشق علينا أننا لم نجد هذا الاجلال مقروناً بالموافقة للكرسي الرسولي على ما يعلمه من عقائد الايمان » إلى أن يقول: « ولما كنت أيها الأخ المحترم سألتنا بإلحاح أن نبيّن لكم ما نراه من الأغلاط في معتقدكم ونصلحه وأنكم مستعدون أنتم ومطارينكم وأساقفتكم للامتثال وقبول ما نبيّنه من الاصلاح ، فإجابةً لرغائبكم وعملاً بالوصية التي تلقيناها من المخلّص بشخص بطرس الطوباوي أن نثبت اخوتنا بالايمان قد أمرنا أن يسلم إلى معتمدكم آدم رئيس الشمامسة كل ما صار اطلاعه عليه من رسوم المجامع المقدّسة مترجماً إلى لغتكم الكلدانية ليوصله إليكم ». وأرسل إليه مع آدم المذكور ترجمة فهرست تجاديف نسطور الذي تلي بحضرة آباء المجمع الأفسسي في المجلس الأول منه، ثم الرسالة المنفذة من القديس كيرلس والمجمع الذي عُقد في الاسكندرية إلى نسطور حيث يبدون له النصح الأخوي ليرعوي عن غوايته ، ثم نسخة الاثنتي عشرة قضية التي يلزم كل كاثوليكي الاعتقاد بها في شأن سر التجسد . ثم حكم المجمع الأفسسي على نسطور بالحرم ، ثم أعمال المجمع الخامس التي بحث فيها عن تعاليم توادورس المصيصي بحثاً مدققاً ، وجرى نبذها وتحريمها ، ثم مرسوم المجمع السادس العام الذي وقّع عليه الآباء في المجلس الثامن عشر . وقد صرّح فيه أنه يلزم الاعتقاد بأنّ في المسيح مشيئتين وفعلين كما أنّ فيه طبيعتين بأقنوم واحد ، وحيث قيل أنه لا يحلّ لأي كان أن يعتقد ايماناً آخر ثم مرسوم الاتحاد الذي وقّع عليه في المجمع الفلورنسي .

وقد أرسل البابا إلى البطريرك ايليا مع آدم المذكور على سبيل الهدية فلذة من خشبة الصليب المقدّس في صوانٍ من ذهب بهيئة صليب كبير مرصّع بجواهر باللون الأسمنجوني وكتاب الأناجيل المقدّسة مطبوعاً بالعربية وكأساً وصينية من فضة ، وتاجاً وأثواباً حبرية للقداسات الاحتفالية ، وكتابَين آخرَين مطبوعَين بالعربية نافعين في طب الجسد وانارة العقل .

ولما عاد آدم إلى البطريرك أقنعه بأن يستدعي إليه مطارينه وأساقفته لعقد مجمع

بآمد ليتلو عليهم رسالة البابا بولس الخامس وارشاده لهم، فدعاهم لذلك. وقد أنبأنا ستروزا بما كان في هذا المجمع في كتابه في مجامع الكلدان. فقال ما ملخصه: «قد دعا البطريرك بعد عود آدم مطارينه الذين كانوا قد وافقوه على بعثه إلى رومة ليطلعهم على الجواب الذي ورد له وهو موجّه إليهم جميعاً ليقبلوه جميعاً. واستحسن أن يكون اجتماعهم بآمد وعيّن للاجتماع أيام عيد الميلاد. لكنهم لم يتيسر لهم الاجتماع إلّا في شهر آذار لأنّ البطريرك كان قد دعا رئيس رهبان القديس فرنسيس بحلب ليشهد المجمع معهم فتلوّم عن الحضور خشية أن يتدخل بأمر لم يؤمر بالدخول به، فلم يشأ أن يخرج من حلب قبل أن يكاشف البابا بهذا الأمر إلى أن حضر في شهر آذار سنة ١٦١٦م وعقد المجمع وجرى التحري والتدقيق وأجمع رأيهم على الامتثال لكل ما أرشدهم إليه الحبر الروماني، ونبذوا كل ما يخالف تعليم الكرسي الرسولي، واعترفوا بكل ما يلزم الاعتراف به ودوّنوا عريضة الجواب مؤرخة في ٨ آذار سنة ١٦١٦م ووقّعوا عليها وسلموها إلى رئيس رهبان القديس فرنسيس بحلب مترجمة، وطبع ستروزا ترجمتها من الكلدانية إلى اللاتينية. وقال إنّ هذه الترجمة عني بها الرجل الصالح الفقيه اسحق الشدراوي الماروني العالِم باللاهوت المقدّس وتلميذ مدرسة الموارنة بروما، وكان هو ويوحنا الحصروني مثيله في العلم والفقاهة والملّة قد ترجما براءة البابا الرسولية مع كل ما يتعلق بها من اللاتينية إلى العربية. وكان الموقّعون على الرسالة المجمعية ايليا البطريرك وجبرائيل مطران حسن بكيفا، وايليا مطران سعرت، ويوسف مطران الجزيرة، وتيموتاوس مطران القدس وآمد (وهو آدم رسول البطريرك إلى روما فإنه بعد عوده منها رقاه إلى الأسقفية وسماه تيموتاوس) وابراهيم أسقف العجم، وحنان يشوع مطران فان. ومما كتبوه في رسالتهم هذه توصيتهم الحبر الروماني بالكلدان قاطني القدس والهند وبالموارنة الذين ترجموا لهم الرسائل إذ قالوا: «ونستلفت عواطف عنايتكم إلى اخواننا الموارنة المترجمين الذين تعبوا كثيراً بهذه المهمة».

وقد أثبت ستروزا (في كتابيه في عقائد الكلدان ومجامعهم) رسائل البطريرك ايليا إلى البابا بولس الخامس مترجمة من السريانية إلى اللاتينية بقلم اسحق الشدراوي ويوحنا الحصروني المارونيين. انتهى ملخصاً عن المكتبة الشرقية المجلد الأول صفحة ٥٤٣.

عد ١٠١٠
آدم الرئيس وهو تيموتاوس أسقف آمد

هو آدم رئيس الرهبان الكلدان ورئيس شمامسة ايليا بطريرك الكلدان المذكور وسفيره إلى البابا بولس الخامس، فهذا بعد أن جحد ضلال نسطور بروما من قبل نفسه ونيابة عن بطريركه رقي إلى أسقفية آمد بعد أن تنازل له عنها ايليا أسقفها، وانتقل إلى أسقفية سعرت. وأضيفت إلى آدم بعدئذٍ أسقفية أورشليم على الكلدان القاطنين بها على عادة النساطرة السيئة من قبيل تسليمهم إلى أسقف واحد أبرشيتين تبعد إحداهما عن الأخرى. ومن قبيل جعلهم كنيسة أورشليم أسقفية وهي بطريركية وقد امتدح البابا بولس الخامس آدم في رسالته إلى بطريركه ايليا سنة ١٦١٤م فقال في حقه: «نوصيكم أشدّ التوصية بآدم رئيس شمامستكم ونرغب في أن توقروه وتحبوه لمحبتنا الخاصة له كابن عزيز لدينا جداً، فإنه قد استسار سيرة حسنة للغاية في كل المدة التي أقام فيها بروما، وكان محافظاً على قانون السيرة النسكية بكل ورع، وأبدى اجتهاداً شديداً في الاطلاع على الحقائق وكان مكباً على القيام بحقوق الخطة التي عهدتم بها إليه وهائماً بايضاح آرائكم الدينية بكل دقة، ومنكباً عن التعنت والمكابرة ومتساهلاً باصلاح أغلاطكم برصانة والحاصل أنه تصرّف بكل شيء أحسن تصرّف حتى اكتسب باستحقاق اعتبار كل من تعاطوا معه أحد الأمور وحبهم وثقتهم».

ومن تآليفه ثلاث مقالات أثبتها ستروزا في كتابه في البحث عن معتقدات الكلدان (صفحة ١٩ و ٢٠٥ و ٢٢٥) الأولى كتبها وهو نسطوري يدافع بها عن معتقد النساطرة والمقالتان الأخريان كتبهما بعد أن اهتدى إلى الايمان الكاثوليكي بروما، فهما كاثوليكيتان. والمقالة الأولى مقسومة إلى مقدمة وسبعة فصول يجهد نفسه بها ليبيّن أنّ الكلدان النساطرة لا يخالفون المعتقد الروماني إلّا باللفظ فقط إذ يقولون أنّ مريم والدة المسيح وإنّ في المسيح أقنومين ومشيئة واحدة وفعلاً واحداً، وإنّ الروح القدس ينبثق من الآب، وإنّ انبعاث النور من قبر المخلّص يوم السبت العظيم هو آية. وهذه المقالة لا تخلو من فائدة كبرى للاطلاع على آراء النساطرة المتأخرين. على أنّ ما قاله عن انبعاث النور يوم السبت العظيم بأورشليم قد أخذه عن الروم غير المتحدين الذين يزعمون ولا يدخرون وسيلة ليثبتوا

أنّ انبعاث النور كل سنة يوم السبت المذكور من قبر المخلّص إنما هو آية إلٰهية ليقنعوا الأميين أنّ مذهبهم هو الصحيح وإنّ الله يثبته بآياته، وإنّ حساب الفصح القديم المتشبثين به هو أصحّ من الحساب الذي وضعه البابا غريغوريوس لأنّ النور لا ينبعث إلّا يوم السبت العظيم بموجب حسابهم. واتصل هذا الزعم من الروم إلى باقي الشرقيين غير المتحدين ومما قاله آدم في هذا البحث: «إنّ آباء كنيسة روما العظمى يثبتون أنّ النور الذي يظهر بالمصابيح بأورشليم يوم السبت العظيم هو كاذب وليس نوراً حقيقياً لأنّ النور الحقيقي والطبيعي الذي يبعثه الله لا يحتاج إلى الشمع أو الزيت لينير». إلى أن يقول: «وإن كان نوراً حقاً فلِمَ يستحيل إلى نار. وإن كان كل نور يستحيل إلى نار فليس له إذاً نور بل هو نار، وكثيراً ما رأيناها تحرق ثياب الحاضرين أو لحاهم». ومن شاء زيادة بيان في هذا الشأن فليطالع كتاب فرنسيس كوارسميوس في وصف الأرض المقدّسة.

والمقالة الثانية من مقالات آدم عنوانها: «مقالة آدم رئيس شمامسة الغرفة البطريركية ببابل في الايمان الكاثوليكي إلى اخوانه الكلدان» وقد قسمها إلى فاتحة تكلّم فيها على رئاسة الكرسي الرسولي المقدّس وسمو سلطة الحبر الروماني وتعليمه، ويليها ستة فصول تكلم فيها على وحدة الذات الإلٰهية وتثليث الأقانيم الالٰهية وميلاد الكلمة الأزلي من الله الآب وميلاده الثاني بالجسد والتمييز بين الأقانيم الالٰهية وحقيقة وجود مشيئتين وفعلين في المسيح، ومقالة آدم هذه قد اعترف بها وأثبتها ايليا بطريرك الكلدان السابق ذكره وأساقفته في مجمعهم الذي عقدوه بآمد في ٩ آذار سنة ١٦١٦م وأرسلوها إلى البابا بولس الخامس بمنزلة دستور لايمانهم، وقد أثبتها ستروزا في كتابه في مجامع الكلدان صفحة ١٨.

ومقالة آدم الثالثة عنوانها: «مقالة للرد على الهراطقة المخالفين للكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وقد ضمّنها ذكر أضاليل نسطور وتوادورس المصيصي وتفسيره لها، وهذه المقالة أيضاً قد صادق عليها بطريرك الكلدان وأساقفته المذكورين في مجمع بآمد ووقّعوا عليها في ١٥ آذار سنة ١٦١٦م وأرسلوها إلى البابا بولس الخامس وأثبتها ستروزا في كتابه في مجامع الكلدان صفحة ٣٧. انتهى ملخصاً عن المجلد الأول من المكتبة الشرقية للسمعاني صفحة ٥٤٩.

عد ١٠١١

جبرائيل مطران الكلدان

هو مطران الكلدان في حصن كيفا وقد أفرغ جهده مع البطريرك ايليا المار ذكره في اتحاد ملتهم بالكنيسة الرومانية، وكان في جملة الأساقفة الذين أرسلوا آدم المذكور آنفاً إلى البابا بولس الخامس ووقّعوا على أعمال مجمعهم الذي عقدوه بآمد سنة ١٦١٦م بعد جحودهم بدعة نسطور. والذي عرفناه من تآليفه قصيدتان بالسريانية امتدح فيهما البابا بولس الخامس وترجمهما اسحق الشدراوي الماروني من السريانية إلى العربية وهما مثبتتان مع ترجمتهما في كتاب ستروزا في مجامع الكلدان صفحة ٤٥ وفي الكتاب السرياني في مكتبة الايمان المقدّس، وكان قبلاً في مدرسة الموارنة برفانّا، ومطلع القصيدة الأول:

ܫܡܫܐ ܕܒܪܩܝܥܗ ܕܥܕܬܐ ܘܢܘܗܪܐ ܕܟܠܗܝܢ ܟܢܘ̈ܫܬܐ
ܘܪܫܐ ܕܟܠ ܐܒܗ̈ܬܐ ܦܛܪܘܣ ܪܫܐ ܠܗܘܢ ܐܦܪܫܟ

أي أيها الشمس المتلألئ في فلك الكنيسة وضياء كل جماعة ورئيس كل الآباء الذين نصبك بطرس رئيساً لهم.

ومطلع القصيدة الثانية ܠܫܡܫܐ ܕܡܫܡܠܝܘܬܐ ܕܕܢܚ ܢܘܗܪܗ ܡܢܗܪ ܠܥܕܬܐ

أي إننا نمدح «شمس الكمال التي يضئ نورها الكنيسة».

وقد تفنن في القصيدتين فالتزم في الأول أن يكون في أول كلمة من كل بيت منها حرف الشين، وكذلك في آخر كل كلمة منه. والتزم في القصيدة الثانية أن تكون مؤلفة من أربع فقرات وكل منها مؤلف من ستة أبيات شعر وكل بيت مؤلف من ست كلمات، وكل كلمة هي أول بيت بنوع أنّ القارئ يمكنه أن يقرأ الأبيات كالعادة آخذاً في قراءتها من اليمين إلى الشمال وأن يقرأها من أعلى إلى أسفل ويجد المعنى تماماً. انتهى ملخصاً عن المجلّد الأول من المكتبة الشرقية للسمعاني صفحة ٥٥١.

عد ١٠١٢

يوسف الثاني بطريرك الكلدان

إننا نذكر هذا البطريرك هنا متابعةً لمن تقدّم ذكرهم من بطاركة الكلدان وأساقفتهم وإن كان متأخراً زماناً عمن سنذكرهم بعده، فمن أشهر بطاركة الكلدان الكاثوليكيين بعد ايليا المذكور آنفاً يوسف الثاني، فإنّ يوسف الأول بطريركهم رقي إلى البطريركية وثبته البابا اينوشنسيوس الحادي عشر سنة ١٦٨١م. وفي سنة ١٦٩١م رقي يوسف الثاني الذي نكتب ترجمته إلى أسقفية أمد ثم تنازل بعد سنتين طائعاً عن البطريركية ليوسف الثاني فثبته البابا اينوشنسيوس الثاني عشر في شهر حزيران سنة ١٦٩٦م واستمرّ في البطريركية إحدى وعشرين سنة وتوفي سنة ١٧١٤م.

وقد كتب البطريرك يوسف هذا ترجمة نفسه وذكر الكتب التي ألّفها، وإليك كلامه: «أنا يوسف الثاني بطريرك الكلدان بنعمة الله، أصلي من قرية كيفا بايالة الموصل، وُلدتُ سنة ١٩٧٨ للاسكندر (سنة ١٦٦٧م) من والدين كاثوليكيين، واسم أبي جمعه واسم أمي شموني من بيت معروف، ودرست في وطني اللغة السريانية وتفسيرها على أساتذة ماهرين وذوي ايمان قويم. ورقيت في قريتي إلى درجة الشمامسة وعمري نحو أربع عشرة سنة. ولما بلغت الثانية والعشرين منه سرت إلى مدينة آمد وهي ديار بكر، فرقّاني الطيب الذكر البطريرك يوسف الأول إلى درجة الكهنوت إذ كنت متتلمذاً له، وبعد سنتين رقاني إلى الأسقفية، وبعد سنتين أخريين صيّرني بطريركاً وأجلسني على كرسيه وترك هو آمد وسار إلى روما حيث قضى حياته. وبعد، مسيره كببت على تعلّم العربية، وكنت أتردد على مدارس الاسماعيليين (المسلمين) إذ لم تكن مدارس للنصارى في المشرق، وتعلّمت في مدارس المسلمين المذكورة المنطق وعلم الطبيعة وعلم ما بعد الطبيعة والقسم الأخير من الفلسفة وهو علم الكلام أي الكلام في الله وهو ختام العلوم. ولما كنت متفرغاً للدرس ألّفت ستة كتب لنفع اخواني الأعزاء، أولها كتاب مفيد جداً سميته: «سرور الأبرار وعلاج الأشرار»، وترجمته من العربية إلى السريانية. والثاني سميته: «مصباح النور» مترجماً له من العربية إلى السريانية. والثالث كتاب بيعي نظمت به فروض أربعة أعياد وهي أعياد الختانة والقديس فتيون وانتقال العذراء

وميلادها. والرابع شعر نظمته فقراً وكل فقرة ثمانية أبيات على قافية واحدة تكلمت فيه على سمو سيرة النساك والرهبان. والخامس كتاب في المنطق ترجمته من العربية إلى السريانية وفي هذه السنة التي هي سنة ٢٠١٤ للاسكندر وهي سنة ١٧٠٣ للميلاد، أنا مشتغل بكتاب سميته «المرآة الوضيعة» إذ إني مؤمن بكل ما كتبت يداي في هذا الكتاب من عقائد ايماننا، فهذا هو معتقدي وعلى رجاء هذا الايمان أموت وأنا موقن أنّ لا خلاص لأحد من دونه، واياه تعالى أسأل أن لا يقصيني عن هذا الايمان إلى النفس الأخير من حياتي، أنا وكل من أشرق عليهم نور المسيح آمين».

وقد فصل العلامة السمعاني (مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٦٠٥) فحوى كتاب المرآة المار ذكره فقال ما ملخصه: «إنّ هذا الكتاب يشتمل على أربعة رؤوس عدا مقدمة المؤلف الرأس الأول، في أنّ الكنيسة الرومانية هي أم الكنائس كافة، ولهذا كان سيدنا البابا أباً عاماً لجميع النصارى وإنه لا يمكن الكنيسة الرومانية أن تضل في مباحث الايمان، وفي هذا الرأس أربعة فصول، الفصل الأول في أنه لا يمكن أن يكون رأسان للكنيسة، الثاني في أنه بناءً على ما حققناه في الفصل الأول يلزم أن يكون هذا الرئيس الوحيد بابا روما ولسلفائه وله ولخلفائه أعطى المسيح الرئاسة، وعليه وحده بُنيت الكنيسة. الفصل الثالث وعلى ما تقدّم فالأحبار الرومانيون من أيام بطرس الرسول إلى اليوم إنما هم خلفاؤه ونواب المسيح، وفي هذا الفصل ذكر سلسلة الأحبار الرومانيين من بطرس الرسول إلى اكليمنضوس الحادي عشر. الفصل الرابع في أن لا يمكن البابا أن يضل في ما يتعلّق بالايمان.

الرأس الثاني في الرد على النساطرة أبناء ملّتنا وشرح موجز لمعتقد كنيسة روما، وإنّ هذا هو المعتقد الصحيح ويشتمل على ثلاثة فصول، الفصل الأول في شرح الألفاظ المصطلح عليها في هذه المباحث وشرح بايجاز تعليم الكنيسة الرومانية بأنّ في المسيح طبيعتين ومشيئتين وفعلين بأقنوم واحد، واستشهد بالمجامع العامة الأربعة الأولى ثم أخذ بتفسير الألفاظ طبيعة وأقنوم وجوهر وذات ومشيئة الخ. الفصل الثاني في اتّحاد اللاهوت بالناسوت كان بأقنوم الكلمة وحده لا بالأقنوم البشري لينفى أنّ بالمسيح أقنومين. الفصل الثالث في أنه لو كانت الطبيعة البشرية في المسيح قائمة بأقنوم بشري لما أمكن اتحاد الكلمة بالجسد ان

يكون اتحاداً طبيعياً وأقنومياً، وتكلّم في هذا الفصل عن والدة الله وفنّد اعتراضات النساطرة مورداً أدلّة كثيرة من كتب الفروض الكلدانية ومن كتاب غريغوريوس ورد الشاعر النسطوري.

الرأس الثالث في التجسد والرد على ذوي البدع بالاجمال ولا سيما على اليعاقبة والأرمن الذين زعموا أنّ في المسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، وفيه خمسة فصول. الأول أنّ المسيح هو إله كامل وانسان كامل. والثاني أنّ في المخلّص طبيعتين متحدتين بأقنوم واحد. وألحق به مقالة أنّ في المسيح فعلين ومشيئتين. والثالث في كيفية اتحاد الطبيعة البشرية بأقنوم الكلمة وفسّره بأنه بعد الاتحاد لم تختلط الطبيعتان إحداهما بالأخرى، بل استمرت كل منهما سالمة كاملة. والرابع في التعبير عن طبيعتي المسيح، وبكم نوع عُبر عنهما، وذكر أنه عبّر عنهما بأربعة أنواع فقال بعضهم فيه طبيعتان، وقال غيرهم طبيعة مضاعفة وآخرون طبيعة واحدة متجسدة أي الطبيعة الإلهية التي أخذت الجسد واستمرت فيه طبيعة. وذكر من جملة الأدلّة على هذا القول: «قانون الايمان المثبت في دير القديس مارون» وقال آخرون طبيعة واحدة بالاطلاق وهذا هو البدعة. والفصل الخامس في حالة التجسد بالنسبة إلى الطبيعة البشرية وشرحه بأنّ طبيعة المسيح البشرية هي كاملة وإن قامت بأقنوم الكلمة وحده.

والرأس الرابع في تعليم الكنيسة الرومانية القويم وأضاليل ذوي البدع المختلفة وفيه أربعة فصول. الأول في أنّ الروح القدس منبثق من الآب والابن لا من الآب وحده. الثاني في نار المطهر. الثالث في أنّ الأبرار يتنعمون بعد موتهم في ملك السعادة الأبدية والأشرار يعانون العذاب في جهنم لا كما وهم بعضهم أنّ عقاب النفوس أو ثوابها لا يكون إلّا بعد قيامة الأجساد، وذكر في جملة أدلّته على صحة هذه العقيدة قصيدة نرسيس العالِم النسطوري في اللص، وقصيدته في المعترفين لجبرائيل مطران الموصل مدح بها القديس أمونيوس ، ثم استشهد فروض النساطرة في أيام الأحد والثلاثاء والأربعاء والخميس والميمر في الشهداء في فرض المساء يوم الاثنين، وأخيراً الرؤيا المعزوة إلى القديس بولس الرسول التي يسلم بها النساطرة. والفصل الرابع في الرد على الشكاوى التي يوردها أهل البدع على أبناء الكنيسة الرومانية وضمّنه أولاً الكلام في النور الذي يظهر يوم السبت العظيم، ثانياً في النافور اليومي الذي يُتلى بحسب طقس كنيسة روما، ثالثاً في تناول العامة الخبز

وحده في القربان، رابعاً انتقاده النساطرة في عدة أمور منها ابطالهم سر الاعتراف وعدم تعميدهم الأطفال إلّا في أيام معلومة واهمالهم سر التثبيت واستعمالهم عصير العنب بدلاً من الخمر وزعمهم أنهم تلقوا عن الرسل التقديس على الخبز خميراً وتقديس بطريركهم ورأسه مغطّى وعدم التفاتهم إلى درجات القرابة الدموية والأهلية وتزوّج كهنتهم بعد قبولهم الدرجات المقدّسة وأكلهم اللحم يومي الأربعاء والجمعة مساءً وابتدائهم بالصوم الأربعيني يوم الأحد.

وختم السمعاني كلامه في هذا الكتاب بقوله: وإن عظّم الكلدان هذا الكتاب كثيراً وقد اهتدى بتلاوته كثيرون من النساطرة إلى الايمان الكاثوليكي إلّا أنّ الأدلّة التي يستند إليها المؤلف كثيراً ما كانت غير مدققة لأنها تثبت أكثر مما يلزم اثباته أو يمكن الخصوم أنفسهم أن يعتمدوا عليها. ولأنّ بعض الشهادات التي أوردها قد كشف المتأخرون أنه لم يدقق بنقلها أو ييسر للخصوم الرد عليها. انتهى ملخصاً عن المجلد الثالث من المكتبة الشرقية للسمعاني صفحة ٦٠٣.

عد ١٠١٣

اندراوس أخيجان بطريرك السريان الكاثوليكيين

إنّ اندراوس هذا وُلد بحلب من والدين يعقوبيين وتهذّب ببعض العلوم، وكان فطناً لبيباً ورعاً، وأتى إلى لبنان وساقته العناية الربانية إلى البطريرك يوسف بطرس العاقوري بطريرك الموارنة فأرشده إلى المعتقد الكاثوليكي، فجحد المذهب اليعقوبي على يده وقبله في حظيرة الكنيسة الكاثوليكية. ولما رأى توقّد ذهنه وهيامه بالفضيلة والعلم أرسله إلى مدرسة الموارنة بروما لاتقان العلوم الدينية فكبّ عليها سنين ونبغ وبرع فيها وحاز قصبات السبق بين أقرانه. ولما أنجز علومه وعاد إلى لبنان كان البطريرك يوسف العاقوري قد توفاه الله فرقاه البطريرك يوحنا الصفراوي إلى درجة الكهنوت. ولما رآه غيوراً على أبناء ملّته وهائماً بأن يهديهم إلى الايمان القويم، وتيسّر له أن يهدي بعضهم إليه. رقاه إلى درجة الأسقفية اجابةً لطلب قنصل فرنسة حينئذٍ بحلب المسمى فرنسيس بيكات، وكان ذلك سنة ١٦٥٦م ووجّه إلى حلب مصحوباً بالقس اسطفانوس الدويهي الماروني (الذي صار بعداً

سنة ١٦٧٠م بطريركاً على الموارنة) فعاونه بمشوراته الصائبة ومواعظه الفعالة فردّ الكثيرين من اليعاقبة إلى جادة الايمان الكاثوليكي ، وسموا سرياناً كاثوليكيين . ولما توفي اغناطيوس سمعان بطريرك اليعاقبة سنة ١٦٥٩م في دمشق ، انتخب السريان الكاثوليكيون اندراوس بطريركاً عليهم ، ونال فرماناً من جلالة السلطان بعناية قنصل فرنسة المذكور ، وسمي اغناطيوس اندراوس . وسنة ١٦٦٢م أرسل دستور ايمانه إلى الكرسي الرسولي طالباً تثبيته بالبطريركية فثبته البابا اسكندر السابع سنة ١٦٦٥ ورقى أخاه دوميجان إلى أسقفية حلب على السريان وسماه ديوانيسيوس . وردّ كثيرين من اليعاقبة إلى الايمان الكاثوليكي ، وصرف حياته بالبر والقداسة والغيرة على خلاص النفوس إلى أن أدركته المنية في ٢٩ أيار سنة ١٦٧٧م وقيل سنة ١٦٧٨م في مدينة حلب . وبعد شهرين تولّى البطريركية مكانه عبد المسيح المارديني اليعقوبي وحاز فرماناً من عظمة السلطان فاضطهد بحلب من كانوا قد أتبعوا البطريرك أخيجيان وربط الكهنة الذين رقاهم إلى درجة الكهنوت وأجبر من اتخذوا اسكيم الرهبنة على يده بأن يؤدوا الخراج، ومن كانوا قد اعتقدوا معتقده من العامة أبعدهم عن أوطانهم أو أنزل بهم الحرم ، فناصبه في هذا الاضطهاد تجار الافرنج وتمكنوا من عزله عن البطريركية وأقاموا بها اغناطيوس بطرس وكان صحيح الايمان وثبته الحبر الروماني سنة ١٦٧٩م ورقى إلى أسقفية حلب ديونيسيوس رزق الله ، وإلى أسقفية أورشليم غريغوريوس يشوع ، واستمر في البطريركية إلى سنة ١٧٠١ حين توفي في السجن بأدنه بمكيدة كادها عليه جرجس بطريرك اليعاقبة . ولم يقم على السريان بطريرك كاثوليكي بعده إلى سنة ١٧٨٢م إذ قام عليهم حينئذٍ المطران ديونيسيوس مخايل جروة من حلب بطريركاً بعد أن ردّ إلى الايمان الكاثوليكي أربعة أساقفة من اليعاقبة وهم: ابراهيم ونعمه وموسى وجرجس . فهؤلاء انتخبوه بطريركاً وثبته البابا بيوس السادس في ١٥ كانون الأول سنة ١٧٨٣م . وحضر إلى كسروان وأقام بدير الشرفه بجانب قرية درعون كما سوف يجيء . انتهى ملخصاً عن المكتبة الشرقية وتاريخ الدويهي وعن الدر المنظوم للبطريرك بولس مسعد .

عد ١٠١٤

بولس الزعيــم

هو أنّ البطريرك مكاريوس الانطاكي الذي تقدّم الكلام عليه في جملة البطاركة الانطاكيين في هذا القرن ، وبولس هذا كان عالماً ضليعاً وله تآليف ذكروا له منها كتابين خاصة أحدهما دوّن فيه أخبار البطاركة الانطاكيين من انتقالهم من انطاكية إلى دمشق حتى زمان والده البطريرك مكاريوس ، ويظهر أنّ هذا الكتاب مفقود ، والثاني كتاب رحلة والده سنة ١٦٥٢م إلى سنة ١٦٥٥م إلى الآستانة وبلغاريا والفلاخ والبغدان وروسية. وقد ذكرنا هذه الرحلة في ترجمة والده وأشرنا إلى النسخ الموجودة منها وإلى أنّ الأستاذ الفاضل جرجي مرقس الدمشقي قد ترجم هذه الرحلة من العربية إلى الروسية وعلّق على صدر كتابه هذا ترجمة المقدّمة التي كان المؤلف قد افتتح بها كتابه ، وكانت ساقطة من ترجمة هذه الرحلة إلى الانكليزية . وأهم ما في هذه المقدمة ذكر سلسلة لبعض البطاركة الانطاكيين الروم ، جمعها من سلسلة كان وضعها والده فاختصر بعضها وزاد في بعضها الآخر وبدّل ما عنّ له تبديله معتمداً في ذلك على الكتب المخطوطة التي جمعها ولم يكن والده حصل عليها ، ولا يخلو عمله من فائدة . ومما زاده على كلام والده ترجمة البطريرك أفتيموس الساقصي الذي قدمنا ذكره ، وأسهب الكلام في الخدمات التي أداها هذا البطريرك لوالده . ومما يهم في كلامه أيضاً ترجمة والده البطريرك مكاريوس وذكر أعماله وأسفاره ، وقد لخصنا ذلك قبلاً . ثم إنّ سلسلة بطاركة انطاكية الروم التي وضعها البطريرك مكاريوس ونقحها وأتمها ابنه الشماس بولس كانت مما اعتمد عليه الخوري يوحنا جمعة سنة ١٧٥٦م والخوري ميخائيل بريك نحو سنة ١٧٦٧م في وضعهما سلسلتين لبطاركة انطاكية . ومن هاتين السلسلتين ومن مصادر أخرى يونانية ولاتينية جمع برفيريوس الأسقف الروسي سلسلة لبطاركة انطاكية الروم من أيام أوديوس الذي أقامه بطرس الرسول خلفاً له في الكرسي الانطاكي . إلى البطريرك ايروتيوس الذي كان بطريركاً في أثناء وجود برفيريوس في المشرق سنة ١٨٥٠م. وسلسلة برفيريوس هذه أكثر تدقيقاً واحكاماً على ما يقال ، إذ لم يكن لنا الحظ أن نطّلع عليها . وقد طُبعت في مجلة «جمعية كياف» الاكليريكية بروسية سنة ١٨٧٥م وسنة ١٨٧٦م . انتهى .

عد ١٠١٥

أفتيميوس الصيفي مطران صيدا الملكي الكاثوليكي

وُلد أفتيميوس هذا بدمشق سنة ١٦٤٨م من موسى الصيفي وكاترينا الدباس وتهذّب بالعلوم الدينية على الآباء اليسوعيين بدمشق وبرع فيها ، ورقاه السيد توافيطوس مطران دمشق إلى درجة الشمامسية ثم إلى درجة الكهنوت وجعله من رعاة النفوس في كنيسة دمشق الكاتدرائية فاشتهر بغيرته على خلاص النفوس وبفضائله الراسخة ومناقبه الحميدة ، ولما توفي ارميا مطران صور وصيدا على ملّته رقاه البطريرك كيرلس الخامس المار ذكره إلى الأسقفية على صيدا وصور سنة ١٦٧٣، فأخذ يجمع كهنة فضلاء علماء إليه ويشغلهم بكرم الرب فتفاضل كثيرون منهم ورُقي بعضهم إلى الأسقفية ، ومن هؤلاء الكهنة ألّف الجمعية الرهبانية الشهيرة المعروفة بالرهبانية المخلصية ، وشرع في بناء دير المخلّص الشهير سنة ١٧٠٨م وكانت له التعزية الكبرى بأن يرى في أيامه هذه الجمعية نامية ناجحة بأعمالها الخلاصية مستسيرة بطريقة قانونية ، وكثيراً ما ناصبه الروم الملكيون غير المتحدين واستحصلوا أمراً سامياً بنفيه . وفي سنة ١٧١٠م جرت مرافعة بينه وبينهم في محكمة صيدا فحكم له عليهم والتمس من الحبر الروماني سنة ١٧١٩م تغيير بعض أمور في طقسه فلم يجبه الكرسي الرسولي إلى ذلك ، وقد أدركته المنية في ٢٧ تشرين الأول سنة ١٧٢٢م. وكان خطيباً بليغاً كريم الأخلاق ليّن العريكة ، وقيل أنّ كتاب الدلالة اللامعة في القضايا الخمس التي يخالف بها الروم الكنيسة الرومانية هو من تآليفه ، وعزا بعضهم هذا الكتاب إلى الياس فخر الطرابلسي . وقد طُبع هذا الكتاب بروما دون ذكر اسم مؤلفه فلم يتحقق لمن هو. انتهى .

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن السابع عشر

الفصل الأول

أعيان الموارنة الدنيويون في القرن السابع عشر

عد ١٠١٦

بعض أعيانهم في هذا القرن

ذكرنا في آخر تاريخهم في القرن السادس عشر الشدياق الحصروني والي جبة بشري فهذا توفي سنة ١٦١٢م وخلفه بولايته ابنه الشدياق رعد، وتزوج بست البنات بنت المقدّم مقلد من المقدمين العناحلة (الذين أصلهم من عين حليا وقد مرّ ذكرهم) ويقال إنه كان يسئ المعاملة لها ويتهددها بالقتل وإنها دسّت له سماً في دجاجة أكل منها هو وأخوها جمال الدين بن مقلد المذكور، فماتا وانقرضت بجمال الدين سلسلة العناحلة. وأما امرأة رعد فتزوجها موسى البشراني وسار بها إلى حلب فرُزق منها ولداً سمي عسافاً ودخلِ إحدى رهبانيات الفرنج ومات كاهناً. ومن بعد وفاة المقدّم رعد بن خاطر ولّى يوسف باشا سيفا والي طرابلس على جبة بشري أبا عاشينا شلهوب لأنه كان ابن بنت المقدّم عاشينا الأول بن حسام الدين العنحلاني وولد له ثلاثة بنين وهم: عاشينا ويوحنا وميخائيل. ونازعه الولاية نعمة وداود وجرجس أولاد الشدياق خاطر فائتمر عليهم مع الحاج سليمان

الملكي كاتب ديوان طرابلس فقبض يوسف باشا على نعمة وداود ابنَي خاطر وألقاهما في السجن، وكان يعدهما بأن يوليهما جبة بشري حتى استنزف الثروة التي تركها والدهما ثم أمر بخنقهما، وألقوهما في البير المعروف بالأزهري. وقبض المقدّم ابو عاشينا شلهوب على أخيهما جرجس وغرقه في النهر قريباً من المدينة، واستمر في الولاية على جبة بشري تسع سنوات. ففي سنة ١٦٢١م كبس ابنه عاشينا دير مار توما بحصرون وقتل القس دانيال العكاري طمعاً بدراهمه، وعرض الأمر للشيخ أبي صافي الخازن الذي كان الأمير فخر الدين المعني قد ولاه على جبة بشري، فقبض على عاشينا وأخذه إلى سمار جبيل وعرض أمره على الأمير فخر الدين فأمر باهلاكه، فقتله ودفنه عند جسر المدفون. وأتى والده المقدّم شلهوب ليحتج عن ابنه فقبض عليه الشيخ أبو نادر الخازن ورفع أمره إلى الأمير فخر الدين وبيّن أنه من غرض ابن سيفا فأمر بقتله أيضاً فقُتل وزُجّ في المدفون.

وكانت الوجاهة الكبرى بلبنان في أيام الأمراء المعنيين للمشايخ بني الخازن، وقد مرّ في تاريخ القرن السادس عشر أنّ أرملة الأمير قرقماز معن أرسلت ولدَيها الأميرَين فخر الدين ويونس فخبأتهما عند الشيخ ابراهيم ابن الشدياق سركيس الخازن، ولما راق كأس السياسة وعاد الأميران المذكوران إلى ولايتهما بالشوف، دعا الأمير فخر الدين ابراهيم الخازن وجعله معاوناً ومدبراً له في حكومته، وجعل أخاه رباحاً دهقاناً لأملاكه. ولما توفي الشيخ ابراهيم المذكور سنة ١٦٠٠م اتخذ الأمير فخر الدين ابنه خازناً المكنّى أبا نادر مدبراً له مكان أبيه، ولما اضطر الأمير فخر الدين أن يسير إلى أوروبا سنة ١٦١٢م ترك الشيخ أبا نادر مع أخيه الأمير يونس مدبراً له كما كان معه.

وفي سنة ١٦١٣م لما عاد الأمير يونس إلى ولاية الشوف أرسل الشيخ أبا نادر والشيخ أبا ضاهر حبيش إلى كسروان ليحصيا الأشجار ويستوفيا ما عليها من المال مع ابن المسلماني الذي كان من رجال المعنيين. وأرسل الأمير يونس الشيخ أبا رحال خطاراً أخا أبي نادر إلى توسكانا إلى الأمير فخر الدين ليطلعه على أحوال البلاد. وفي سنة ١٦١٥م أرسل الأمير يونس الشيخ أبا نادر ومعه مملوك له اسمه ذو الفقار ليحكما في كسروان ويقيما بغزير. ولما عاد الأمير فخر الدين من رحلته سنة ١٦١٧ والتقاه الأمير يونس أخوه والشيخ أبو نادر إلى عكا، أنعم على أبي نادر وعلى ذريته بولاية عمل كسروان جزاءً لصدق خدمته بحضوره وغيابه.

ثم سار أبو نادر مع الأمير فخر الدين لمقاتلة يوسف باشا سيفا انجاداً لعمر باشا والي طرابلس ، وعند عودهما حاصر الأمير فخر الدين قلعة جبيل التي كانت بيد جماعة ابن سيفا وأخرجهم منهم بالأمان وولّى الشيخ أبا نادر على بلاد جبيل منضمة إلى كسروان . وفي سنة ١٦٢١م ورد أمر من الآستانة إلى الأمير فخر الدين أن يعاون والي طرابلس على يوسف باشا سيفا إذا لم يذعن للوالي المذكور ، وفرّ يوسف باشا إلى عكا فأرسل الأمير فخر الدين رجالاً طردوا من جبة بشري العمال الذين كان يوسف باشا قد أقامهم بها وولّى عليها الشيخ أبا صافي الخازن رباحاً عم الشيخ أبي نادر كما مرّ . وفي سنة ١٦٣١ أصلح الشيخ أبو نوفل نادر الخازن ما كان قد خرب من قلعة سمار جبيل بزلزال قتل فيه ابنه نوفل ووالدته بنت الشيخ معتوق حبيش . ولما قبض على الأمير فخر الدين في مغارة جزين سنة ١٦٣٣م كان بمعيته الشيخ أبو نادر وعمه الشيخ أبو صافي وأخذهما معه إلى دمشق، فكفلهما الأمير اليمني وعادا إلى كسروان . وأما أبو نوفل فكان قد فرّ مع الأمير حسين بن فخر الدين إلى قلعة المرقب ، فأمسكهما حليل باشا وأخذهما إلى حلب . فانهزم أبو نوفل وعاد متنكراً إلى وطنه . ولما رأى الخازنيون شدة المضايقة لهم انهزم الشيخ أبو نادر وابنه نوفل نادر وأخوه أبو خطار عبدالله وسافروا إلى توسكانا بايطاليا سنة ١٦٣٥م وكان الشيخ أبو نادر مشهوراً عند الافرنج أيضاً فقابله دوك توسكانا بالمعزة والاكرام . ولما تولّى الأمير ملحم المعني بلاد الشوف عاد المشايخ بنو الخازن من ايطاليا فردهم إلى اقطاعاتهم سنة ١٦٣٨م وجعل أبا نادر مدبراً له كما كان قبلاً . وفي سنة ١٦٤٥م توفي الشيخ أبو صافي رباح الخازن في ساحل علما . وفي أول تموز سنة ١٦٤٧م توفي الشيخ أبو نادر خازن بن ابراهيم بن سركيس الخازن بعد أن كان مدبراً لحكومة بني معن عدة سنوات وحاكماً بكسروان وجبيل والبترون والجبة والمرقب، وخلفه بوجاهته ومساعيه الحميدة ابنه نادر المكنّى أبا نوفل .

وفي سنة ١٦٥٠م أرسل الأمير ملحم معن الشيخ أبا نوفل يجبي المال الأميري من بلاد البترون، وكان الأمير التزمه من عمر باشا والي طرابلس . وفي سنة ١٦٥٦م أنعم البابا اسكندر السابع على الشيخ أبي نوفل بلقب كافلير أي فارس . وفي سنة ١٦٥٨م أرسل الأمير ملحم معن الشيخ أبا نوفل ليجبي الأموال الأميرية من عكار وجبة بشري وبلاد البترون وأداها إلى الدولة بحسب تعهده ، وكان

الحكام يثقون به كل الثقة. ولما توفي الأمير ملحم معن سنة ١٦٥٨م وخلفه في ولايته ابناه الأمير أحمد والأمير قرقماز جعلا الشيخ أبا نوفل مدبراً لهما كما كان عند والدهما. وسنة ١٦٥٩م أنعم لويس الرابع عشر ملك فرنسة على الشيخ أبي نوفل أن يكون قنصلاً لدولة فرنسة ببيروت، ونال ذلك بعناية المطران اسحق الشدراوي مطران طرابلس، وحاز أيضاً وكالة قنصلية البندقية. وقد رضي السلطان الأعظم عن اقامته في هذا المنصب وأتحفه بفرمان مؤذن بذلك ومبيّن حقوق منصبه. (تراه مترجماً في كتاب النبذة التاريخية في المقاطعة الكسروانية صفحة ٨٦) وهو الذي أسكن الرهبان اليسوعيين في عينطورا وأعطاهم محل ديرهم هناك من أملاكه. وفي الكتاب الموسوم بالرسائل المعمدة لليسوعيين رسالة مسهبة من هؤلاء الرهبان الذين أتوا حينئذٍ بالثناء على الشيخ أبي نوفل ومبراته وغيرته واتساع شهرته. يمكنك الاطلاع عليها في تاريخ الموارنة المطبوع ببيروت صفحة ٢٢٢.

وقد سمعت مرات من الطيب الذكر البطريرك بولس مسعد الشهير بمعرفته تاريخ ملّتنا رواية ملخصها أنه لما فرّ الأمير أحمد والأمير قرقماز معن سنة ١٦٦٠م من وجه أحمد باشا كما مرّ، واجتمع أعيان البلاد لاختيار حاكم غيرهما فانتخبوا الأمير محمد علم الدين اليمني، ولم يدعوا الشيخ أبا نوفل وازدروه، وعزل في تلك الأثناء علي باشا عن ايالة صيدا، وقدم والٍ آخر فأخذ أبو نوفل يقدّم له الذخائر من حلب حتى بلغ صحراء جونية فالتقاه الشيخ أبو نوفل فشكر الوزير له وسأله ما يريد، فأجابه لا أطلب نعمة إلّا أن لا تعطى خلعة الولاية على قصبة دير القمر إلّا بواسطة خادمكم العاجز، فوعده الوزير بذلك. وعند حلوله بصيدا أسرع إليه أعيان الشوف يلتمسون تقرير ولاية الأمير محمد اليمني على دير القمر فأجابهم أنه لا يخلع على الأمير المذكور إلّا أن يسأله ذلك الشيخ نوفل الخازن، وأصرّ الوزير على قوله، فاضطروا أن يحضر كثيرون منهم إليه في كسروان، فبالغ في اكرامهم وسألوه أن يسير معهم إلى الوزير، فتمنّع واكتفى بعريضة أصحبهم بها إليه، فأجابهم إلى ما سألوه وعرفوا غلطهم وتهيّبوا الشيخ أبا نوفل. وكان البطريرك المذكور رحمه الله يقول لي إنّ البعض عزوا هذه الرواية إلى الشيخ أبي نادر، ولكني وجدت كتاباً قديماً دوّن الرواية بالتفصيل معزوة إلى أبي نوفل. ولا أتذكر ما عنوان الكتاب ولا أين يوجد.

وفي سنة ١٦٦٤م عاد الأمير أحمد معن إلى ولايته بعد أن انتصر على اليمنيين

فرجع المشايخ آل خازن إلى اقطاعاتهم، وعاد الشيخ نوفل مدبراً لحكومة الأمير أحمد، وفي هذه الأثناء قسم أبو نوفل حكومة كسروان على بنيه وكانوا ثمانية فأعطى أبا قانصوه فياضاً قسماً، وأبا ناصيف نوفلاً قسماً، وخازناً قسماً، وطربيه قسماً، وبقي بيده قسم كبير سلّمه إلى أبنائه الصغار وهم خاطر وسليمان وقيس وأبو النصر. وفي سنة ١٦٧١م أحيلت اقطاعات كسروان وبكفيا وغزير إلى عهدة الشيخ أبي نوفل وأولاده بموجب فرمان سلطاني حفظ أصله عند الشيخ بطرس كنعان الخازن، وترى ترجمته مثبتة في تايخ الموارنة المطبوع ببيروت صفحة ٢٤٢. وفي سنة ١٦٧٩م في ١٣ آب توفي الشيخ أبو نوفل نادر الخازن.

وخلف أبا نوفل ابنه أبو قانصوه فياض وتمشى على آثار والده أبي نوفل وشرع سنة ١٦٨٠م في بناء دار له في قرية غوسطا وبجانبها كنيسة على اسم النبي الياس، وتولّى في كسروان على القسم الذي خصّه به أبوه، وخلفه في قنصلية فرنسة ببيروت. وفي سنة ١٦٧٨م لما ضايق والي طرابلس أولاد أبي رزق البشعلاني الآتي ذكره فرّ أحدهم يونس بأولاده وأولاد أخيه إلى كسروان واحتمى عند الشيخ أبي قانصوه فياض المذكور، ودافع عنهم ابنه الشيخ حصن الآتي ذكره، فأقاموا في حماه، ونظن أنهم أقاموا بصليما ومنهم بيت البشعلاني الساكنين الآن في القرية المذكورة. وتوفي الشيخ أبو قانصوه فياض في ١٧ تشرين الأول سنة ١٦٩١م. وذكر الدويهي في تاريخ هذه السنة وفاة الشيخ المذكور وقال بعد موته عظمت شوكة بني حماده فقتلوا حنا الأسود في الكورة ونهبوا العاقورة. وكان الشيخ أبو قانصوه جزيل الكرم محباً للعلماء شجاعاً شديد البأس.

وخلف أبا قانصوه ابنه حصن في ولايته وأنعم عليه ملك فرنسة لويس الرابع عشر بأن يكون قنصلاً لفرنسة ببيروت كأبيه وجدّه. وقد حفظ لنا العالِم دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان (مجلد ٢ صفحة ٢٨٦) براءة تنصيب الشيخ حصن المذكور قنصلاً لفرنسة ببيروت، وإليك ترجمتها عن الفرنسية:

«مرسوم الملك بتنصيب الأمير حصن الخازن الماروني»

لويس ملك فرنسة وناقارا وكنت بروفنس الخ. السلام لكل من يطلع على مرسومنا هذا، لما كنا نرغب في اجابة سؤال الأمير حصن الخازن في عريضته التي

رفعها إلينا وأن نعززه باحالة قنصلية بيروت إلى عهدته كما كان أبوه وجدّه بمقتضى مرسومنا الصادر في غرة كانون الثاني سنة ١٦٦٢م، ولعلمنا بما له من الغيرة والصدق بخدمتنا وعنايته بخير رعايانا قد نصبناه بمرسومنا هذا الموقّع عليه بيدنا قنصلاً على مدينة بيروت إذ فصلنا هذه المدينة عن قنصلية صيدا المتعلقة بها الآن، ونريد أن تبقى منفصلة عنها إلى أن نصدر أمراً آخر يخالف مرسومنا هذا. وقد أقمنا وأمرنا ونصبنا ونقيم ونأمر وننصب السيد حصن الخازن المذكور قنصلاً للأمة الفرنسية في فرضة بيروت المذكورة وملحقاتها ومتعلقاتها فله بتخويله هذا المنصب أن يلي ويباشر مدة حياته جميع الحقوق والسلطة والامتيازات والانعامات التي لباقي القناصل في المشرق، ورخصنا له أن يقيم عنده نائب قنصل بحيث يكون من أمة الفرنسيين ويكون هو مسؤولاً عنه في الأمور المدنية. وقد أعلمنا مستشارنا وسفيرنا في المشرق السيد شاتوناف دي كاستنيار إنه إذا ظهر له أنّ السيد حصن الخازن متصف بالسيرة الحميدة وحسن الآداب ومتمسك بالدين الكاثوليكي الرسولي الروماني يصرفه بالقنصلية المذكورة، وبما لها من الحقوق ولا يمنعه من ذلك أي مرسوم كان يخالف ما ذكرنا، وعلى السفير المذكور أن يبذل له كل مساعدة وعناية، ونأمر ربان كل مركب وسفينة تحت العلم الفرنسي وكل تاجر من أمتنا أن يعترفوا بأنه قنصلنا ويمتثلوا أمره، ولا يمنع من ذلك الأمر الذي أصدرناه في ١١ آذار سنة ١٦٨٥م بأن لا ينصب من الأجانب قناصل لفرنسة لأننا استثنينا ونستثني من هذا الأمر السيد حصن الخازن فلا مفعول لذلك الأمر من قبله، فهذه هي ارادتنا ومسرتنا ونرغب إلى الباشاوات والولاة الاجلاّء ونسأل من كان منهم الآن ومن يكونون من بعدهم ببيروت وملحقاتها أن يمكنوا السيد حصن الخازن من تكميل فروض منصبه ولا يسمحوا بأن يكون له أقلّ مانع من اتمام فروض منصبه بل يبذلون له بعكس ذلك كل مساعدة ورعاية، واشعاراً بذلك قد وقّعنا بختمنا على هذه البراءة الصادرة في ١٢ حزيران سنة ١٦٩٧م من سني النعمة وهي الخامسة والخمسون لملكنا. التوقيع لويس. وعلى طي البراءة بأمر الملك كونت بروفنس فيليب وختم بالمهر الكبير على الشمع الأصفر».

وإليك أيضاً ترجمة جواب لويس الرابع عشر إلى الشيخ حصن قنصل فرنسة ببيروت نقلاً عن الكتاب المذكور:

«إلى السيد الأجلّ الأمير حصن قنصل الأمة الفرنسية ببيروت»

أيها السيد الأجلّ، إنّ السيد يوحنا مارماكون الكافلير الماروني رسولكم، رفع إلينا الرسالة التي كتبتموها إلينا في شهر كانون الأول سنة ١٦٩٥م تطلبون بها أن ننصبكم قنصلاً ببيروت، ولا أشك في أنكم تقدرون حمايتي لكم حق قدرها وتصرفون عنايتكم إلى مساعدة رعاياي الذين يتاجرون في سورية، ولذلك أردت رغبةً في مصلحتكم أن أفصل مدينة بيروت عن قنصلية صيدا وأجعلها قنصلية مخصوصة، وأمرت أن ترسل إليكم براءة تنصيبكم بها وبقوتها يكون لكم الحق لا أن ترفعوا العلم الفرنسي فقط على باب داركم كما كان يصنع جدكم وأبوكم، بل تكون لكم أيضاً الحقوق والانعامات التي يحرزها قناصل الأمّة الفرنسية. وقد سلمتُ إلى رسولكم عدة رسائل إلى سفيري بالقسطنطينية، وإلى قناصل فرنسة بجواركم وأمرتهم بأن يبذلوا لكم كل الرعاية والعناية بكل ما يتعلق بكم عند طلبكم ذلك، لنفعكم ومساعدة أبناء ملّتكم. وأسأله تعالى أن يرعاكم أيها السيّد الأجلّ بعين حراسته المقدّسة. كُتب في فرسايل في ١٣ من تموز سنة ١٦٩٧م. التوقيع لويس. وفي أسفل الرسالة، كولبر» (وهو وزير لويس الرابع عشر).

ويلي ذلك في الكتاب المذكور رسالتان إلى الشيخ حصن إحداهما موقّع عليها بونتشرتران فحواها أنه تلا على مسامع جلالة الملك رسالته التي سلمه اياها يوحنا مارماكون رسوله. وإنّ جلالته تعطّف بفصل قنصلية بيروت عن صيدا وتحويلها إلى عهدته، وإنه مرسل له البراءة في طي كتابه وهي في تاريخ ٢ حزيران سنة ١٦٩٧م. والثانية بتوقيع دي تورسي وفحواها أنّ عظمة العاهل تعطّف عليه بايلائه المنصب الذي كان فيه المرحوم أبوه، وإنه تلا الرسالة التي كان هو أنفذها باسم أبيه بعد عرضه الرسالة على مسامع جلالة الملك انعطف إلى ايلائه قنصلية بيروت. وكتب في ذلك إليه وإلى سفيره في القسطنطينية وإلى قناصل فرنسة بجواره يأمرهم بمعاونته ورعايته في كل ما يتعلّق به وبملّته. وتاريخ هذه الرسالة في ٢ تموز سنة ١٦٩٧م.

ويظهر أنّ الشيخ ناصيف بن نوفل ابن عم الشيخ حصن القنصل قد رفع أيضاً إلى الملك لويس الرابع عشر عريضة يشكو بها سوء حالهم عند نكبة دولة المعنيين المار ذكرها واختفاء الأمير معن فأجابه الملك لويس برسالة هذه ترجمتها:

« إلى السيد الأجلّ ناصيف أمير الموارنة »

أيها السيد الأجلّ ، إنّ كتابكم الذي رفعه إلينا السيد يوحنا مارماكون الكافلير الماروني موفدكم إلينا علمنا منه سوء المعاملة التي يعاملكم بها الحاكم الجديد الذي نصب عن عهد قريب مكان الأمير أحمد بن معن ، واتّضح لنا منه أيضاً أنّ من اللازم تفادياً من الضرّ للدين الكاثوليكي ورغبةً في تأييده في بلادكم أن نصرف عنايتنا لدخولكم بصفة حاكم على البلاد التي كنتم تتولون ادارتها من عهد قريب إذ تدفعون للباشا والي طرابلس المال المفروض على هذه البلاد . ولما كنت أرغب رغبةً شديدة في أن أساعدكم على ما يعود بالنفع عليكم ولا سيما متى كان ذلك ملائماً للحماية التي بذلتها في كل وقت للكاثوليكيين بالشرق قد سلمت إلى موفدكم أوامر وجهتها إلى سفيري بالقسطنطينية ليصرف عنايته الفعالة لينال لكم ما تبتغون . وأخيراً أسأله تعالى أن يحفظكم أيها السيد الأجلّ بحراسته المقدّسة . دُوِّن بفرساي في الثالث من تموز سنة ١٦٩٧م . التوقيع لويس . وفي أسفل الصحيفة ، كولبر .

وكتب الوزير دي تورسي كتاباً آخر إلى الشيخ ناصيف هاك ترجمته .

« أيها السيد الشريف الأجلّ ، إنكم تعلمون من الرسالة التي كتبها إليكم سيدي العاهل جواباً على رسالتكم التي أنفذتموها إليه على يد السيد مارماكون رسولكم ، كم تهتم جلالته بما يعود بالنفع عليكم وعلى الدين الكاثوليكي ، ولا أشك في أنكم تشعرون بأقرب وقت بمفاعيل الحماية التي يبذلها لكم بواسطة أوامره الموجّهة إلى سفيره بالقسطنطينية ليصرف عنايته الشديدة ليستمد لكم ما ينقذكم من الضيق الحاصل عليكم ، وينفع المسيحيين أبناء ملّتكم . ولم يبقَ لي إلّا أن أحقق لكم إني لا أنفك عن أن أرجو جلالته ليواصل كل وقت حمايته لكم وأن تتيقنوا أني صديقكم المخلص ». التوقيع ديتورسي عن فرسايل في ٢ تموز سنة ١٦٩٧م .

ويظهر أنّ رئيس أساقفة نيقوسية ومتربوليت قبرص نائب البطريرك اسطفانوس الدويهي في مدة غيابه رفع عريضة إلى لويس الرابع عشر بالمعنى الذي كتب به الشيخ ناصيف الخازن ، وبالتماس القنصلية للشيخ حصن فأجابه الملك عليها وهاك ترجمة الجواب .

« إلى السيد الأجلّ رئيس أساقفة نيقوسية متربوليت قبرص ورئيس الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني في جبل لبنان في غياب البطريرك اسطفانوس[1] »

أيها السيد الأجلّ تناولت الكتاب الذي رفعه إليّ من قبلكم السيد يوحنا مارماكون رسول طائفتكم ، وبه تبيّنون لي الضيق الحاصل ببلادكم الآن وتسألونني فيه أيضاً أن أنصب الأمير حصناً قنصلاً لفرنسة ببيروت ، فعنايتي بجميع الذين يقرون بالدين القويم في أية جهة كانوا من العالم لا تدع لكم محلاً للريب في عنايتي بكم خاصةً ، ولذلك شئت بطيبة خاطر أولي الأمير حصناً قنصلية بيروت مفصولة لهذه الغاية عن قنصلية صيدا ، وقد كتبت في الوقت نفسه إلى سفيري بالقسطنطينية وإلى قناصل حلب وصيدا وطرابلس أن يبذلوا العناية الفعالة بما يعود بالنفع على ملّتكم وكاثوليكيي المشرق الآن وفي كل فرصة تسنح لذلك . وأخيراً أسأله تعالى أن يحفظكم أيها السيد الأجلّ بحراسته المقدّسة . دوّن بفرساي في الثالث من تموز سنة ١٦٩٧م . والتوقيع لويس . وفي أسفل الصحيفة . كولبر .

وهذه ترجمة الرسالة التي بعث بها لويس الرابع عشر إلى سفيره بالآستانة .

« إلى السيد دي كاستنيار مستشار دواويني وسفيري غير العادي بالقسطنطينية »

إنّ السيد يوحنا مارماكون الكافلير الماروني الموفد من قبل الأميرين ناصيف وحصن ومن قبل مطران نيقوسية رئيس الدين الكاثوليكي الروماني بغياب البطريرك اسطفانوس قد رفع إليّ رسائل منهم يسألون بها حمايتي من الضيق الملمّ بهم بعد أنّ السيد الأعظم (السلطان) ولّى على بلادهم الأمير أبا موسى علم الدين عوضاً

(١) أين كان الدويهي حينئذ لا نعلم حقيقة . على اننا نعلم ان نكباته كانت كثيرة وغيباته عن كرسيه متواترة .

عن الأمير أحمد بن معن، ويلتمسون أن يعطى أحدهم الأمير حصن قنصلية بيروت ليتمكن من نشر العلم الفرنسي ونيل حقوق القنصلية والانعامات المختصة بقناصل الأمّة الفرنسية، ويخمد بذلك جذوة ماحاق بهم من الضيق. ولما كان عزمي أن أساعد بكل وسعي على راحة جميع المستنيرين بالانجيل المقدّس في أي قطر كانوا من العالم، فأنا مرسل إليكم كتابي لأبلغكم ارادتي ومرغوبي أن تستوعبوا ما يشرحه لكم معتمدهم المذكور لخير الدين الكاثوليكي ونفعه ،وأن تبذلوا بعد ذلك العناية باسمي لتنولوه كل ما يبتغيه من الأمور المعقولة، وأخيراً أسأله تعالى أن يحفظكم بحراسته المقدّسة أيها السيد دي كستنيار. كُتب في فرسايل في الثالث من تموز سنة ١٦٩٧م. والتوقيع لويس. وفي أسفل الصفحة كولبر».

وقد أصحب المركيز دي تورسي الوزير وكاتب سر المملكة الكافلير يوحنا مارماكون برسالة إلى السفير المذكور مرسلاً له أمر الملك وموصياً بالكافلير المذكور. وتاريخ رسالته ١٣ تموز سنة ١٦٩٧م. وقد كتب الوزير دي تورسي المذكور أيضاً رسالة بأمر الملك إلى قناصل فرنسة بحلب وصيدا وطرابلس فحواها أنّ جلالة الملك أمره أن يكتب إليهم مبيّناً رغبة جلالته بمساعدة الأميرين نصيف وحصن الخازن ومطران نقوسية نائب البطريرك بغيابه، وأن يبذلوا بكل فرصة عنايتهم الفعالة بالمذكورين ليشعروا بمفاعيل حماية جلالته. وإنه جعل الأمير حصناً قنصلاً ببيروت منفصلة عن صيدا، وإنّ مقصد جلالته بذلك أن يخفف من جهة ثقل الضيق الملم بالمذكورين وأن يزيد من جهة أخرى عنايته برعاياه الذين يتجرون بالمدينة المذكورة وملحقاتها. وإنه كتب إليهم بطيبة خاطر توصاة بالكافلير يوحنا مارماكون معتمدهم لدى جلالته. وتاريخ هذه الرسالة ٣ من تموز سنة ١٦٩٧م.

وبعد وفاة الشيخ حصن قنصل فرنسة سمي ابنه الشيخ نوفل قنصلاً مكانه كما سترى في تاريخ القرن الثامن عشر.

وكان من أعيان طائفتنا في هذا القرن المشايخ آل حبيش فكان منهم الشيخ أبو ضاهر حبيش الذي أرسله الأمير يونس المعني إلى كسروان مع الشيخ أبي نادر الخازن سنة ١٦١٣م ليعدا الأشجار في هذا العمل ويجبيا المال المفروض عليها. وكان منهم أيضاً الشيخ أبو فارس حبيش الذي قُتل في الوقعة التي كانت بين القيسية واليمنية في مرحاتا سنة ١٦٣٦م كما في تاريخ هذه السنة.

وفي سنة ١٦٨٠م كتب الأمير أحمد المعني صكاً للشيخ طربيه بن موسى حبيش وللشيخ أبي شديد سيف بن طالب حبيش يوليهما له على غزير، فكانت اقطاعاً لآل حبيش.

عد ١٠١٧
أبو رزق البشعلاني وابنه يونس

كان من أعيان الموارنة في هذا القرن الشيخ أبو رزق البشعلاني، وقد ذكره العلامة الدويهي لأول مرة في تاريخ سنة ١٦٤٣م، ولم ينبئنا بأصله ولا نسبه بل قال في هذه السنة عُزل محمد باشا الأرناؤوط عن ايالة طرابلس وتولاها حسن باشا، وكان كأخيته الشيخ أبو رزق البشعلاني (نسبةً إلى بشعلي في عمل البترون). ثم قال في تاريخ سنة ١٦٤٩م عُزل (ثانيةً) الأرناؤوط عن ايالة طرابلس وتولاها صهره عمر بك، واسترد ابن الصهيوني وأبا رزق البشعلاني ونصب أخاه أبا صعب البشعلاني شيخاً على جبة بشري. ثم قال في تاريخ سنة ١٦٥١م عُزل عمر باشا المذكور عن ايالة طرابلس وتولاها حسن باشا فأسلم أمورها إلى الشيخ أبي رزق البشعلاني، إلى أن قال ثم تقوّى عليهم (أي على أبي رزق وحلفائه) ابن الصهيوني وتسلّم تدبير أمور طرابلس، وصادر أبا رزق وأتباعه. وقال في تاريخ سنة ١٦٥٣م قبض محمد باشا الأرناؤوط على الشيخ أبي رزق بحجة أن بعض آل حبيش قدموا إلى داره ومعهم جمعة بداعي زواج أحد أولادهم، فنمّ بعض أهل الفساد إلى الباشا قدومهم إنما كان لمضرّة له، فأمر الباشا بالقبض على أبي رزق وأولاده وضيوفه وسجنهم بالقلعة مكبلين بالقيود، وكان عددهم تسعين نفساً. ونهبوا داره واستباحوا ماله، وبعد ذلك ورد الخبر بعزل الأناؤوط وتولية قرا حسن. فتوجّه الأرناؤوط إلى حماه لجباية المال وأخذ أبا رزق والسجناء معه. ودعا أبا رزق للحساب عما دخل ليده من المال، وادعى أنّ الباقي عليه اثنا عشر ألفاً، وبلغ الوالي الجديد إلى حماه وأعاد الحساب بينهما فثبت أنّ الباقي على أبي رزق أربعة آلاف وخمس مئة قرش دفعها عنه ابن الصهيوني، وخلى قرا حسن الوالي الجديد سبيله وسبيل السجناء. وأراد أن يعهد بتدبير أموره إلى الشيخ أبي رزق، ولكن وصل قبوجي من الباب العالي يطلب رأسه، فأشار عليه الوالي وابن

الصهيوني لم يسلم فدية لنفسه ، فأذعن مكرهاً لرأيهما . وأعطوا القبوجي ألف قرش فعاد إلى الآستانة . ودخل أبو رزق طرابلس مع قرا حسن والتزم منه جبلة واللاذقية وأوصى قبل سفره إليهما أخاه أبا صعب أن يأخذ أولاده ويسير بهم إلى بلاد ابن معن ، فشق ذلك على الوالي ووجس أبو رزق من مضرته له فتزوج بامرأة موسى باشا ليبعد الوالي عن الظن بردته . وفي سنة ١٦٥٤م صير بشير باشا نائب حلب وزيراً وسار قاصداً الآستانة ، وعند وصوله إلى أدنه قُدمت له الشكوى على أبي رزق أنه كان ميالاً إلى ابن معن ، وأرسل أولاده إليه مع أخيه أبي صعب وإنّ أخاه هذا كان مع ابن معن في وقعة وادي القرن المار ذكرها . فأمر بقتله فقُتل في أوائل شهر آذار من السنة المذكورة . ذكرنا بعض هذه الأخبار في التاريخ العام وأعدنا ذكرها هنا لعزمنا أن نفصل من هذا التأليف تاريخ الموارنة في كتاب على حدة ، فكان لا بد من هذه الاعادة .

وأما الشيخ يونس ابن أبي رزق المذكور فقال في حقه الدويهي في تاريخ سنة ١٦٨٧م إنّ حسين باشا والي طرابلس قبض على الشيخ يونس واخوته عبدالله ورزق وأولاهم بسبب دعوى والدهم أبي رزق البشعلاني ، فاضطر يونس أن يطلب الاسلام لينجي عيالهم من القتل والاسلام . فهربوا جميعاً في ٢٩ ايلول ومعهم نحو عشرين نفساً إلى قاطع كسروان مستجيرين بالأمير أحمد معن والشيخ أبي قانصوه فياض الخازن ، فنجدهم ابنه حصن وأمنهم برجاله حتى حلوا بحكومة ابن معن سالمين ، وهناك جاهر يونس بصحة عقيدته . ثم قال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٩٧م قبض قبلان باشا والي طرابلس على الشيخ يونس بن أبي رزق البشعلاني وعرض عليه الاسلام فتمنّع فرفعه على الخازوق في ٢١ أيار من السنة المذكورة .

هذا ما رواه الدويهي ، ولكن أتحفنا دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان (مجلد ٢ صفحة ٢٦٣) بترجمة الشيخ يونس المذكور مسمياً اياه أميراً فنلخّص عنه ما يأتي قال:

«كان الأمير يونس من أسرة شريفة بلبنان ومن ذوي قربى حاكم الملّة المارونية ، وله أملاك في سفح لبنان في ناحيتي طرابلس وجبيل لا يقلّ دخلها عن ألف ليرة ، وكان حسن الشكل زكي العقل محنكاً بالسياسة ، يحبه الجمهور ويثق

به وزراء الباب العالي. وقد استعمله كثيرون من ولاة سورية في أهم أعمال حكومتهم حتى كاد قدره يساوي قدر الولاة. على أنّ ثروته ومنزلته هيّجتا عليه حسد أقرانه. ومباشرة أعمال منصبه أورثته خصوماً له ائتمرا على اهلاكه، وأسخطوا عليه قبلان باشا ابن المطرجي والي طرابلس وشكوه بجرائم كثيرة، وتمحلوا لها دليلاً بزيادة ثروته، فارتاح الباشا إلى سماع شكواهم وقبض على الأمير يونس وأخيه الأمير يوسف وزوجتيهما وأولادهما وكثيرين من أنسبائهما وأتباعهما، وكانوا نحو خمسين شخصاً ألقوهم في السجن، وهددوا الأمير يونس بالقتل والحاق جماعته به إلّا أن يجحد الدين المسيحي ويسلم. فأظهر بادئ ذي بدء الشجاعة والثبات وازدرى التهديد والوعيد على أنه لدى تبصره بحالة أسرته والخطر الذي يلم بها من جهة الدين إذا قُتل قبلهم عوّل على أن يتظاهر بالاسلام فيقي نفسه وذويه من التهلكة واشترط شرطاً صريحاً أن يسلم وحده وتبقى أسرته وذووه نصارى، وأن يخلى سبيلهم أجمع. فقبل الباشا شرطه وأكتفى أن ينطق هو وحده بالشهادتين. وأباح ذويه حرية دينهم وأخرجهم من السجن. وقد قال يونس قبل مقتله إنه قام بضميره حينئذٍ أنّ عمله هذا جائز بل مندوب إليه لينجي ذويه وينقذ بناته وبنات أخيه من الزواج برجال مسلمين.

وجامل الأمير يونس الباشا بعد ذلك أربعين يوماً ليخفي مقصده وأرسل سراً امرأته وأولاده وذوي قرباه إلى أعلى جبل كسروان. ولما تحقق أنهم أصبحوا آمنين فرّ هو من طرابلس وسار أولاً تواً إلى بطريرك الموارنة معترفاً بالضعف الذي استحوذ عليه وباكياً من جراء اثمه وصرّح بأنه ما انفك مسيحياً. وتُلي دستور ايمانه وتقبّل القانون الذي فُرض عليه وحلّه البطريرك من اثمه. ورغبةً في أن يبرئ ساحته أمام الناس أيضاً جمع رؤوس التشكيات الواردة عليه وبيّنات الاكراه الذي أُنزل به وأرسل ذلك إلى الآستانة مصحوباً بالحجج اللازمة للدفاع عن نفسه على يد أحد أصدقائه، وعرض أمره في الديوان السلطاني. ولما كان من متعلقات الدين أمر جلالة السلطان أن يحال النظر بالدعوى إلى المفتي الأكبر بالآستانة، وهذا بعد التحري بالدعوى حكم أنّ تظاهر الأمير يونس بالاسلام لا يعول عليه لصدوره عن اكراه. وأن لا يؤاخذ فيما بعد باسلامه. فأثنى الكثيرون على عدالة العثمانيين وانصافهم.

ولم تكن راحة لضمير الأمير يونس من جراء العثار الذي تسبب به بطرابلس فنزل إليها وجاهر أمام الباشا وديوانه بدينه المسيحي، وطاف بالمدينة مصرحاً

بذلك ، فأغضى المسلمون على هذا الصنيع وعُزل والي المدينة ونُصب غيره فدعا الأمير يونس وأقامه علي برية طرابلس واستحصل له أمراً سامياً مثبتاً حكم المفتي السالف ذكره . ومبيحاً اياه وعائلته البقاء على دينهم المسيحي دون أن يزعجهم أحد . فاستمر الأمير يونس وذووه راتعين في بحبوحة الأمن والرغد خمس سنين مباشراً أعمال مأموريته بكل أمانة ونزاهة، إلّا أنه سنة ١٦٩٥م بُدّل والي طرابلس ومات من كان له من الأصدقاء في الآستانة إذ انقلب الدهر عليهم ، فاغتنم أعداؤه هذه الفرصة ليهلكوه . فاتهموه بعدة جرائم وشكوه إلى الوالي الجديد وادّعوا عليه أنه سبّ دينهم وقذف بالاسلام . فقبض عليه الوالي وغلله في السجن وما انفك مدة سنتين يقرفه ويهدده ويتملقه ليكفر بدينه، ووعده بأن يوليه أسمى المراتب ويرشحه إلى الخلافة بعده بحكومة طرابلس فلم تستمله كل هذه الوسائل إلى الاذعان للوالي ، بل كان يشكر الله على انزال هذا الاضطهاد به تكفيراً عن زلّته السالفة . وحاول الوالي مرات أن يستميله فلم يكترث بكلامه ، وأسمعه أخيراً ما أوغر صدره عليه ومزّق ثوبه وحكم عليه أن يموت على الخازوق . وكان الولاة في تلك الأيام مسلطين على حياة الرعايا وموتهم ، وقبل تنفيذ الحكم عليه أرسل الوالي عدداً من أصحابه يغرونه بالرضوخ لمرغوبه فأبى ، ثم حمّلوه الخازوق وخرجوا به إلى تلّ قريب من المدينة والناس من أمامه ووراءه بعضهم يقرّعه، بعضهم يحثه على ارضاء الوالي وهو أبكم أصمّ عن سماع كلامهم . وقبل رفعه على العود أرسل الوالي يعده بالعفو عنه وعن ذويه ورد أملاكه إليه فلم يكن يجيب إلّا أسلم نفسي بيد الله وهو يهتم بي وبذوي وأملاكي ، ولم ينفك دقيقة موته يسبّح الرب ويشكره ويدعو باسمه ويلجأ إلى رحمته وإلى العذراء والقديسين، ويكرر تلاوة قانون ايمانه إلى أن أسلم نفسه بيد الله في شهر أيار سنة ١٦٩٧م .

وبقيت جثته خمسة أيام على آلة عذابه وشرذمة من الجند تحرسها ، وشهد شهود عدل وبتوا شهادتهم باليمين أنهم رأوا اكليلاً من نور على رأسه ليلاً مدة بقائه على تلك الحال ، وشاهده الحراس فدهشوا وفرّوا . وأخيراً سأل بعض المسلمين الوالي أن يأمر بدفن جثته تفادياً من حصول ثورة من جرا ذلك ، فسمح الوالي لأحد اقربائه أن يُنزل جثته فأنزلها ووضعها أولاً في بئر قريبة من مقبرة الموارنة ثم نقلها سراً بعد يومين إلى مدفن خلف المنبر في كنيسة القديس يوحنا بطرابلس .

وبعد موت الأمير يونس اهتم بعض أصحابه أن يخرج الأمير يوسف أخاه من السجن الذي كان به، فاسترضوا الباشا عنه وخرج وسار إلى أوروبا يسأل المحسنين ما يقوم به بأوده وأود عائلته وعائلة أخيه. قال دو لاروك قد رأيته بباريس مدة أشهر صابراً على مصابه مسلماً إلى مشيئة الله راضياً بأحكامه، وقد أكرمه الملك وكتب إلى سفيره بالآستانة يوصيه به. ومثل ذلك كتب إلى قناصله ودوّن رسالة إلى بطريرك الموارنة يعزيه بهذه الفاجعة. ودفع إليّ الأمير يوسف المذكور شرحاً وافياً في حياة أخيه وموته فأخذت عنه هذا المختصر وهو مطابق لما كتبه بطريرك الموارنة إلى الحبر الروماني وملك فرنسة بهذا الشأن مصادقاً عليه من أساقفة جبل لبنان. وللتقرير الذي كتبه قنصل فرنسة بطرابلس مصادقاً عليه من الرهبان الفرنسيين والاسبانيين في المدينة المذكورة. وروى هنري موندرل الانكليزي في كتاب رحلته من حلب إلى أورشليم أنّ قنصل انكلترا صحبه للفرجة على قلعة طرابلس في ٨ أيار سنة ١٦٩٧م وكان يونس مسجوناً فيها لأنه أسلم ثم ارتد. وإنه مات على الخازوق بعد يومين من سفر هذا الكاتب أي في ١٢ أو ١٣ أيار سنة ١٦٩٧م.

وهذه ترجمة المنشور الذي كتبه البطريرك اسطفانوس الدويهي موصياً بالشيخ يوسف المذكور.

«الحقير اسطفانوس بطرس البطريرك الانطاكي»

السلام والبركة الرسولية لكل مطالع أو سامع وثيقتنا هذه

ليكن معلوماً أنّ ولدنا العزيز أبا يوسف رزق هو رجل ماروني كاثوليكي من رعيّتنا ومن أعيان الملّة المارونية، وهو أخو الشيخ يونس الذي أُكره على أن يبدي جحود الايمان بفمه لا بقلبه ليخلّص نفسه وأولاده، لكنه حالما ساعده الله على الفرار بعد نحو أربعين يوماً انسلّ ليلاً بأولاده إلى ناحية كسروان وهناك اعترف بإثمه، وقبل طائعاً خاشعاً القانون المفروض عليه، واهتم بعد ذلك فنال من جلالة السلطان الأعظم أمراً سامياً مسنداً إلى حكم القضاة بأنّ جحوده ايمانه مكرهاً لا يعتمد عليه، وتظاهره بالاسلام باطل ولا صحة له. وبعد ذلك سار إلى طرابلس وجاهر علانية بدينه المسيحي مدة خمس سنوات، وأضمر له الضغينة والحقد بعض

أصحاب الأمر بالمدينة المذكورة إلى أن تمكنوا من القائه بالسجن واماتته على الخازوق ، وكان يجاهر في مدة هذا العذاب بجسارة وبسالة بالايمان بيسوع المسيح ، وقد قبض معه على أخيه يوسف رزق وأُلقي بالسجن أيضاً ، وألجأه الحال إلى خسارة مبالغ وافرة من المال . وباعت الحكومة أملاكه وأثاثه حتى بيته نفسه ، ولما لم يعد يستطيع أن يعيش ببلاده بحسب مقامه ولا أن يقوم بأود عائلته أي أولاده وأولاد أخيه يونس هم خمسة عشر شخصاً ، وقد اضطر إلى استدانة مبالغ من المال لتقديم النفقة اللازمة لحياتهم وليس له ما يفي ، وقد لجأوا إلينا مراراً سائلين أن نصحب بهذه الوثيقة يوسف المذكور أبا هؤلاء الصغار وعمهم فمأمولنا بغيرة أصحاب عمل الخير ومحبتهم لجراح المخلّص ووالدته الكلية الطهر أن تأخذهم الشفقة على المذكورين وأن يمدوا يد سخاهم إلى الشيخ يوسف المذكور وأولاده وأولاد أخيه ويكون لهم من لدنه تعالى الأجر العظيم والمجد والتسبيح لمن قال في انجيله المقدّس: « ما صنعتموه إلى أحد أخوتي هؤلاء الصغار فأليّ صنعتموه » ونسأله جلّ شأنه نحن وهم أن يجزيهم على احسانهم مائة ضعف في هذه الحياة والحياة الأخرى الأبدية .

أعطي بكرسينا قنوبين في اليوم الخامس من شهر تشرين سنة ١٦٩٩م. « وعدا توقيع البطريرك في أعلى هذه الوثيقة ذُيّلت بتوقيع يوسف الحصاراتي أسقف جبيل بحوقا ويوسف حبقوق أسقف البترون بقزحيا وجبرائيل الدويهي » .

عد ١٠١٨
أعيان موارنة آخرون

من أعيان الموارنة أيضاً في هذا القرن الشيخ أبو كرم الحدثي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٥م. فقال إنّ مصطفى باشا والي طرابلس أقام على حكومة جبة بشري الشيخ أبا كرم يعقوب ابن الريس الياس الحدثي ، وقال في تاريخ سنة ١٦٣٩م تولّى طرابلس محمد باشا الأرناؤوط فأتى للسلام عليه أصحاب الاقطاعات ما عدا أصحاب آل سيفا وأبا كرم الحدثي . وفي سنة ١٦٤٠م في ١٦ نيسان أرسل والي طرابلس المار ذكره عسكراً للقبض على الشيخ أبي كرم الحدثي

حاكم جبة بشري لأنه لم يحضر للسلام عليه، فقبض العسكر على ابن عمه سعد، وضيّق على الأديار والقرى بحجّة التفتيش عليه وعلى أولاده وأتباعه وضبط أملاكه، وعظم الضيق وكثر الخراب والسلب والنهب فلم يتحمل أبو كرم هذا التنكيل بأهل بلاده فانحدر إلى طرابلس طائعاً مستسلماً على يد القاضي، فأمر الوالي بأن يُلقى في السجن بالقلعة، ثم طوّفه على جمل بشوارع المدينة وفي قفاه مشاعل نار، وعرضوا عليه الاسلام فأبى إلّا التشبث بدينه فمات مشنوقاً.

ومنهم أبو جبرائيل يوسف الاهدني وكان شريكاً للشيخ أبي كرم الحدثي وتوفي سنة ١٦٤١م بعد أن حكم جبة بشري عشر سنين، وخلفه بعد وفاته أخوه الشدياق أبو ذيب ابن الشماس جرجس الأهدني فقتله محمد العراك بقرية زغرتا بدسيسة من بيت حماده المتاولة ومصطفى بك ابن الصهيوني مدبر ايالة طرابلس. وتولّى حكم جبة بشري بعده المقدّم زين الصواف، وكان معه أبو عون بن الغنمة من بكفيا.

ومن هؤلاء أيضاً أبو كرم بن بشاره، وقد ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧٦م وقال إنّ حسن باشا لما استقر على ولاية ايالة طرابلس ولّى أبا كرم بن بشاره على جبة بشري، وأرى أنّ أبا كرم هذا هو جد آل كرم. وقد خلف أبا جبرائيل يوسف الأهدني وأخاه الشدياق أبا ديب جرجس المار ذكره في الولاية على جبة بشري، ولكن أمِن عائلتهما كانا أم من عائلة أخرى لا أستطيع أن أحققه حتى الآن، ولكن مما لا ريب فيه أنّ العامة في اهدن تسمي آل كرم بيت أبي كرم إلى الآن.

ومن هؤلاء الكافلير يوحنا مارماكون الذي تقدّم ذكره، وكان موفد الشيخ حصن والشيخ ناصيف الخازن ومطران نيقوسية بقبرص إلى لويس الرابع عشر ملك فرنسة كما مرّ. ولكن من هو هذا يوحنا مارماكون؟ فالذي يتبادر إلى فهمي أنه الكافلير ناضر صفير الذي بنى هو وأخوه الخوري جرجس صفير دير القديس مارون بالرومية المعروف الآن بمدرسة الرومية نحو سنة ١٦٩٦م، إلّا أن يكون مارماكون من موارنة قبرص لأنه موفد مطران نيقوسية أيضاً. وقد أثبت دي لاروك في كتابه المذكور صفحة ٣٠٨ براءة تسميته كافلير أي فارساً من جمعية الفرسان المنسوبين إلى سيدة الكرمل، والقديس العازر حيث يقول فيليب دي كورسبليون ماركي دي

دانجو رئيس هذه الجمعية لرغبتنا في اجابة سؤال الكافلير يوحنا مارماكون الماروني الموفد من جلالة الملك من قبل الأمراء ناصيف وحصن ومطران نيقوسية بقبرص ورئيس الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني بلبنان في مدة غياب البطريرك اسطفانوس أن نقبله ونحصيه في عداد فرسان سيدة الكرمل والقديس العازر بأورشليم . وبعد أن اتضح لنا أنه ثابت بالدين الكاثوليكي الرسولي الروماني وأنه حسن السيرة ، وإنّ الداعي لقدومه إلى فرنسة إنما هو ليبتهل إلى جلالة الملك في أن يبذل عنايته لدى السلطان العثماني لينوّل نصارى بلاده الراحة والأمن . ولما كان الملك سماه كافليراً في مرسومه إلى ناصيف أمير الموارنة ، وفي مرسومه إلى سفيره بالآستانة ، وكان يهمنا أمر جبل لبنان والأرض المقدّسة حيث أنشأت جمعية فرسان القديس العازر ، قد أحببنا سؤاله وقبلناه في جوقة هؤلاء الفرسان وأحصيناه في عديدهم ليكون له ما لهم من الشرف والحقوق والانعامات . وعليه أن يبرز يمين الأمانة المعتاد ، ويلزم أفراد هذه الجوقة في أي مقام كانوا أن يعرفوه كذلك . وبياناً لذلك قد وقّعنا على هذه الوثيقة بخط يدنا ومهرناه بمهر الجمعية . أعطي بباريس في ١٦ تموز سنة ١٦٩٧م .

الفصل الثاني

بطاركة الموارنة في القرن السابع عشر

عد ١٠١٩

البطريرك يوحنا مخلوف

فرغنا من كلامنا على هؤلاء البطاركة في القرن السادس عشر بذكر وفاة البطريرك يوسف الرزي في شهر آب سنة ١٦٠٨م . وبسبب القلق بالبلاد لم يتمكن الأساقفة من الاجتماع في اليوم التاسع بعد وفاته كالعادة لانتخاب خلف له ، فتأجل الانتخاب إلى أوائل شهر حزيران سنة ١٦٠٩م فاجتمع حينئذٍ الأساقفة

والأعيان واختاروا الأسقف يوحنا بن مخلوف من اهدن . وكان البطريرك يوسف الرزي قد رقاه إلى الأسقفية سنة ١٦٠٣م ليكون معاوناً له في تدبير أمور دير قنوبين . وبعد انتخابه بطريركاً سيّر إلى روما القس جرجس بن مارون والقس الياس ابن الحاج يوحنا من اهدن والشماس يوسف من كرم سدة ليأتوه بالتثبيت من البابا بولس الخامس . وعند مرورهم بقبرص أخذوا معهم القس كسبر الماروني تلميذ مدرسة روما ، وكان مشهوراً بالعلم والبرارة فنالوا من لدن الحبر الأعظم الاعزاز والتكريم ودرع الرئاسة للبطريرك وعاد المذكورون إلى لبنان في ١٠ آذار سنة ١٦١٠م . وقال بياجيوس ترسي (في كتابه سورية المقدسة صفحة ٥٣) في حق هذا البطريرك: « قد تلألأت به أنوار الفضائل فتسامى بها حتى لُقّب بالقديس . وأنار الكنيسة الشرقية بعلمه وعزاها بغيرته . وكان له لدى الأحبار الأعظمين أعلى مرتبة فأتحفوه بهدايا نفيسة ونولوه نعماً مشرفة موازية لفضله واستيهاله ». ففي سنة ١٦١٢م أرسل إليه البابا بولس الخامس في تاريخ ٢٢ تشرين الثاني رسالة يفوّض إليه بها أن يمنح البركة البابوية لجميع الموارنة رجالاً ونساءً ، ومن حضر منح هذه البركة وكان معترفاً ومتناولاً يربح غفراناً كاملاً . وترى ترجمة هذه الرسالة مثبتة في ذيل المجمع اللبناني صفحة ٢٧ .

ولما ارتقى البابا غريغوريوس الخامس عشر إلى كرسي الحبرية العظمى أرسل البطريرك يوحنا يهنئه بارتقائه ويطلب منه البركة له ولشعبه ، وأن يتكرّم على الطائفة بطبع كتاب الشحيم كما كان سالفه قد أمر بذلك . فورد له الجواب في تاريخ ١ تموز سنة ١٦٢٢م صحبة قاصده الأب ليونردوس من رهبان القديس فرنسيس إنه صار الشروع في طبع الشحيم ، وثبت له الغفارين الذين كان البابا بولس الخامس قد أنعم بها على من يزورون كنيسة قنوبين الكرسي البطريركي في عيد بشارة العذراء وعيد انتقالها ، وعيد الرسولين بطرس وبولس ليربحوا غفراناً كاملاً إذا كانوا معترفين ومغتذين بالقربان الأقدس . ومنح زوار كنيسة قنوبين الغفارين التي يربحونها لو زاروا كنيسة زعيم الرسل بروما أو غيرها من الكنائس القائمة داخل أسوار رومة . وترجمة هذه الرسالة تراها مثبتة في ذيل المجمع اللباني صفحة ٢٣ . وفي السّنة المذكورة كان قحط في البلاد فأمر البطريرك بنصب كرم درغاتا مفلح نحو عشرة فدادين وأشغل به عملة كثيرين، فكانوا يأكلون نهاراً على نفقة الكرسي ويأخذون مساءً الزاد لعيالهم .

وفي سنة ١٦٢٤ جعل دير حوقا مدرسة ابتدائية يتعلّم بها الشبان العلوم الاكليريكية ، ومن نبغ منهم أرسله إلى مدرسة الطائفة بروما . وأرسل الخوري يوحنا ابن قرياقوس الحصروني من بيت صندوق (هو الذي صار بعداً أسقفاً وكان مع الصبهيوني بباريس) إلى البابا أوربانوس الثامن يهنئه بتسنمه الكرسي الرسولي ويخبره بجعله دير حوقا مدرسة لملّته في المشرق ، وأرسل حينئذٍ اثني عشر طالباً لمدرسة روما ، فسُرّ البابا بكتابة البطريرك وعيّن مبلغاً سنوياً لمدرسة حوقا ودوّن لها دستوراً للعمل به فيها . وفي السنة التابعة أي سنة ١٦٢٥م بعث إلى البطريرك تاجاً ثميناً وغفارات نفيسة وكتباً وحللاً ورسالة مشرفة افتتحها بقوله: «لم يذبل البتّة جمال الكرمل ولم يذوِ مجد لبنان» وقد استشهدنا بفقرات منها مرات في كتبنا بياناً لثبوت الموارنة كل حين على الايمان الكاثوليكي . وتراها مترجمة برمتها في الفصل ١٨ من رد التهم الملحق بتاريخ الدويهي صفحة ٤٥٤ .

وكان هذا البطريرك في أوائل بطريركته قد اضطر من قبل المظالم الجارية في جبة بشري ومضادة الشدياق خاطر الحصروني له أن يتوجه إلى ناحية الشوف ليكون تحت حماية الأمير فخر الدين المعني ، والتقليد المحفوظ في جبة بشري والذي رواه الدويهي أيضاً في تاريخ سنة ١٦٠٩م أنّ البطريرك بينما كان سائراً في أرض بريسات إحدى قرى الجبة طعن بالحرم الشدياق خاطر لأنه تسبب بخروجه من وطنه . ويقولون إنّ الحاضرين ارتجفوا من الحرم وسألوا البطريرك أن يرفعه عن المقدّم خاطر ، ولمعرفة البطريرك بسذاجتهم قال رفعته عنه وحولته إلى هذه الصخرة . فانشقّت الصخرة . وإلى الآن ترى صخرة فوق الحدث مشققة تسميها العامة الصخرة المحرومة ، ويروون عنها هذه الرواية . وعندما دخل البطريرك على الأمير فخر الدين أحسن استقباله وبالغ في اكرامه ، وكان ابنه الأمير علي قد اشترى قرية مجدل المعوش بالعرقوب الشمالي من سكانها المسلمين وأسكن فيها جماعة من النصارى ، فحل البطريرك في هذه القرية وبنى فيها داراً وكنيسة وهي المعروفة الآن بكنيسة السيدة بالقرية المذكورة . وقد زرتها مرات لأنها باقية إلى اليوم ، وبناؤها أشبه ببناء كنيسة القديسة مورا التي بناها هذا البطريرك أيضاً بكفر زينا في آخر حياته سنة ١٦٣٢م، إلى أن سار الشدياق خاطر الحصروني وغيره من أعيان البلاد إليه إلى مجدل معوش وأرجعوه إلى كرسيه بقنوبين . وهذا البطريرك هو الذي رقى اسحق الشدراوي الآتي ذكره إلى أسقفية طرابلس سنة ١٦٢٩م . ولهذا الأسقف

قصيدتان بالسريانية . الأولى في مدح البابا أوربانوس الثامن . والثانية في مدح هذا البطريرك . وكلتاهما مثبتتان في كتاب سرياني بمكتبة مجمع نشر الايمان المقدّس . وفي أيام هذا البطريرك واجابة لالتماسه طُبع بروما كتاب فرضنا الكبير المعروف بالشحيم ، بعد الفحص الدقيق والتروي به من علماء شهيرين منهم الكردينال بلرمنيوس كما سترى .

وفي ١٥ من كانون الأول سنة ١٦٣٣م كان انتقال هذا البطريرك من دار الشقاء إلى دار البقاء المؤبد لينال جزاء جهاده ومبراته ، وكان ذلك في قرية كفرزينا موطني بزاوية طرابلس ، وحُمل ليلاً إلى دير قنوبين فدُفن فيه . وقال الدويهي في حقه ، كان ليّن العريكة منخفض الجانب ، كريم الأخلاق محب السلامة ، كثير الصدقات . اتخذ سيرة النسك بدير قزحيا ، ولما تسامى بفضائله وشديد غيرته على خلاص النفوس رقاه البطريرك يوسف الرزي أسقفاً معاوناً له بدير قنوبين . وأنشأ لهذا الدير عقارات كثيرة في جبة بشري وزاوية طرابلس . ولما توفي البطريرك يوسف الرزيّ خلفه في بطريركية انطاكية على الموارنة . انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي والمشرق المسيحي للكويان في سلسلة بطاركة الموارنة وغيرهما .

عد ١٠٢٠

البطريرك جرجس عميره

ذكر الدويهي بعض ترجمته في الفصل الثامن عشر من رد التهم فقال: كان البطريرك المذكور من: «أنسبائنا ، وذهب به خاله القس يعقوب الدويهي إلى روما سنة ١٥٨٤م لاقتباس العلوم في مدرسة الموارنة الحديثة النشأة حينئذٍ . وبعد أن أتقن العلوم العقلية والنقلية والإلهية ، نشر باللاتينية كتاباً في نحو اللغة السريانية طُبع بروما سنة ١٦٩٦م وعلّق عليه فاتحة تشهد له بطول الباع وغزارة الاطلاع أبان فيها قدم اللغة السريانية وسموّها على غيرها وفائدتها ، حتى قال إنها اللغة الأولى للناس وأم للغة العبرانية . ولكن انتقد فالتون في مقدمات البوليكلوتا (الكتاب المقدّس بعدة لغات) الانكليزية بعض أدلّة عميرة ، ثم اختصر بطرس المطوشي القبرصي الماروني

كتاب عميرة هذا وكذلك صنع جبرائيل عواد الحصروني، فأشهرا كتابين في نحو اللغة السريانية موجزين عن كتب عميرة وكان كتاباهما محفوظين بمكتبة مدرسة الموارنة بروما ومكتبة نشر الايمان المقدّس.

وعاد عميرة إلى لبنان سنة ١٥٩٥م واشتهر في السنة التابعة بعلمه وفقاهته في المجمع الطائفي الذي عقده تلك السنة البطريرك سركيس الرزي بأمر البابا اكليمنضوس الثامن لتبرئة الموارنة من بعض الأغلاط المعزوة إليهم بسبب بعض عبارات في كتبهم كما مرّ. ولما توفي البطريرك سركيس الرزي بعيد هذا المجمع وخلفه ابن أخيه يوسف الرزي رقي عميره إلى الأسقفية على اهدن فتفانى بجهاده وتعليمه وظهر ما كان عليه من ذكاء العقل ورسوخ الورع واتقاد الغيرة على نشر الفضيلة والدين القويم.

ولما توفي البطريرك يوحنا مخلوف في سنة ١٦٣٣م أجمع الأساقفة على انتخاب المطران جرجس عميره أسقف اهدن بطريكاً في ٢٧ كانون الأول سنة ١٦٣٣م، فأرسل إلى روما الخوري ميخائيل بن سعادة بن أنطون بن شمعون بن فهد الحصروني ليستمد له التثبيت ودرع الرئاسة من البابا أوربانوس الثامن فثبته سنة ١٦٣٥م. وفي أيام هذا البطريرك أنشئت مدرسة للموارنة بمدينة رافنّا بايطاليا من تركة الخوري نصر الله شلق العاقوري. وسيأتي ذكرها في ترجمة الخوري نصر الله المذكور. وفي أيامه أيضاً تشكى أهل بقسميا الذين كانوا من الملكية غير المتحدين على القس يوحنا بن بهينا الأجبعي رئيس دير القديس مارون بكفرحي إلى ابن سيفا، فقبض عليه وأهانه وسامه ما هو فوق طاقته فترك الدير فخرب إلى أن جدد بناءه البطريرك يوسف اسطفان كما سيجئ. وفي سنة ١٦٣٨م لما قدم السلطان مراد إلى حلب أنعم على الموارنة وبطريركهم ببراءة أثنى فيها على ولائهم للدولة العلية وشدّة تعلّقهم بالأريكة السلطانية.

وفي التاسع والعشرين من تموز سنة ١٦٤٤م أنشبت المنية أظفارها بالبطريرك جرجس عميرة بعد أن استمر على الكرسي البطريركي عشر سنين وسبعة أشهر. ودُفن بقنوبين في جانب كنيسة القديسة مارينا، وله كتاب هندسة الأبنية اقترحه عليه الأمير فخر الدين المعني.

قال دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان في ترجمة فرنسيس كالوب

دي شاستول الفرنسي الذي نسك بلبنان وسيأتي ذكره. إنّ بعض الموارنة سألوا فرنسيس الناسك المذكور أن يصير بطريركاً عليهم بعد وفاة البطريرك جرجس عميرة فأبى كل الاباء وأشار عليهم أن ينتخبوا بطريركاً الياس مطران اهدن الذي كان مرشده الروحي، وأشار عليه أن يقبل البطريركية، فانتخبوه، وبعد ستة أشهر مات الناسك المذكور في ١٥ أيار سنة ١٦٤٤م كما يظهر من الكتابة المنقوشة على ضريحه. على أنّ هذه الرواية غير صحيحة ويخالفها كل ما ورد في تواريخ ملّتنا المجمعة على أنّ البطريرك يوسف العاقوري خلف البطريرك جرجس عميره دون متوسط بينهما. ولذلك قال لكويان بعد ايراده الرواية المذكورة فليتبصّر اللبيب كيف تتفق هذه الرواية مع ما رواه الدويهي أنّ جرجس عميره خلفه البطريرك يوسف العاقوري ابن المطران بطرس العاقوري المعروف بابن حليب في ١٥ آب من سنة ١٦٤٤م، ومع ما رواه السمعاني في المجلد الأول من المكتبة الشرقية صفحة ٥٥٢ حيث قال مات جرجس عميره في ٢٩ تموز سنة ١٦٤٤م وفي هذا اليوم نفسه توفي البابا أوربانوس الثامن. وقال في الصفحة التالية إنّ يوسف العاقوري خلف جرجس عميره في ١٥ آب سنة ١٦٤٤م فليرَ القارئ أي القولين أولى بالاتباع. انتهى كلام لكويان. فنحن نرى أنّ رواية دي لاروك هذه غير صحيحة ولا سيما أنه لا ريب في أنّ الناسك المذكور توفي في ١٥ أيار سنة ١٦٤٤م والبطريرك جرجس عميره توفي بعده في ٢٩ تموز سنة ١٦٤٤م. انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي وعن المشرق المسيحي للكويان وعن المكتبة الشرقية للسمعاني.

عد ١٠٢١

البطريرك يوسف العاقوري

هو ابن المطران بطرس بن حليب ابن الخوري سابا العاقوري. وكان المطران بطرس متزوجاً قبل ارتقائه إلى الدرجات المقدّسة ثم توفيت امرأته فرقاه البطريرك يوسف الرزي سنة ١٦٠١م في عشرين من تشرين الثاني إلى الأسقفية خلفاً لموسى أسقف العاقورة. وتوفي المطران بطرس سنة ١٦٠٦م في العبادية بالمتن ودُفن ببيروت كما مرّ. وكان له من الأولاد يوسف هذا الذي تزوج أيضاً قبل ارتقائه إلى الدرجات المقدّسة. ونعلم أنه كانت له بنت تزوجت بدمشق كما سيأتي. ثم

ارتقى يوسف إلى درجة الكهنوت، ثم رقاه البطريرك يوحنا مخلوف إلى أسقفية صيدا سنة ١٦٣٦م، فأقام في الأسقفية ثماني عشرة سنة دائباً على فلاحة كرم الرب متفانياً في الأعمال الخيرية والمبرات. وفي سنة ١٦٤٣م اشترى من آل حبيش أرضاً في حراش بنى فيها كنيسة وديراً للراهبات كما سيأتي.

ولما توفي البطريرك جرجس عميره في ٢٩ تموز سنة ١٦٤٤م اجتمع الأساقفة والأعيان في ١٥ آب من السنة المذكورة فانتخبوه بطريركاً. ويظهر أنه أرسل في هذه السنة المطران اسحق الشدراوي مطران طرابلس يستمد له درع الرئاسة من الحبر الروماني فأعاقه مرض أو غيره عن الوصول إلى روما، وهذا بيّن من الفاتحة التي علّقها القس عبد المسيح الحدثي الآتي ذكره على كتاب الشحيمة (الفرض) المطبوع بروما حيث يذكر وفاة البطريرك جرجس عميره سنة ١٦٤٤م وانتخاب المطران يوسف العاقوري بطريركاً في ١٥ آب عيد انتقال العذراء من السنة المذكورة. ويقول ما خلاصته: «إنّ البطريرك الجديد استشار أساقفته وأعيان طائفته في ارسال المطران اسحق الشدراوي عملاً بعادة طائفتنا إلى روما ليؤدي الطاعة نيابةً عنه للبابا اينوشنسيوس العاشر وما صار في ذلك نصيب (أما لأنّ المطران المذكور تعذر عن السفر حينئذٍ أو مرض في الطريق لأنه توجه بعداً إلى روما سنة ١٦٤٧م كما يظهر من هذه الفاتحة أيضاً). فلما جئت أنا الحقير (القس عبد المسيح بن الياس بن الطويل من قرية الحدث تلميذ مدرسة الموارنة بروما وخوري أقاربي بعين ابل) أقبل اقدام سيّدنا البطريرك أمرني أن أتوجه إلى روما نيابةً عنه وأطلب التثبيت له وأقضي بعض حاجات الطائفة، وطلبت منه رفيقاً فرفقني بالشدياق مرقس راهب من رهبان مار شليطا. فوصلنا إلى روما في ٢ من تموز سنة ١٦٤٥م فتقبلنا الحبر الروماني بالاعزاز وأنعم على البطريرك بدرع الرئاسة والتثبيت وأمر بطبع الشحيم مختصراً (وهو كتاب الفرض الاسبوعي المعروف بالشحيمة) وطبع غرامطيق سيّدنا البطريرك يوسف الذي أرسله معنا وأخذنا بطبع ذلك بعنايته، ولكن وجدنا في الشحيمة بعض أغلاط فأصلحناها نحن وحضرة سيّدنا المطران اسحق لأنه لحقنا عند آخر طبع صلوة الصبح يوم السبت. وأضفنا إلى ذلك ما يحتاجه الكاهن في ممارسة خدمته إلّا رتبة الصلاة على العرسان فلم نجد لها نسخة بروما. وتمّ ذلك في ٣٠ من شهر آذار سنة ١٦٤٧م». ونظن أنّ هذه الشحيمة هي المعروفة باليوسفية نسبةً إلى البطريرك يوسف هذا.

وأما الغرامطيق الذي ألّفه هذا البطريرك فقد كمل طبعه بروما بمطبعة مجمع نشر الايمان سنة ١٦٤٥م . ولهذا البطريرك أشعار كثيرة بلغة العامة أكثرها في الموارنة والملكية . وقد ذكررنا فقرة منها في تاريخ القرن السابع عند ذكر وقعة أميون بين الموارنة ومريق ومرقيان قائدي عسكر يوستنيانوس الأخرم . وبعد فراغه من أخبار هذه الوقعة ، أخذ يفنّد بعض أغلاط الملكية ويندد بهم لعدم اتباعهم الحساب الذي أصلحه البابا غريغوريوس الثالث عشر . وأول من اتبعه في المشرق البطريرك يوسف الرزي وطائفته المارونية سنة ١٦٠٦م كما مر .

وقد رقي هذا البطريرك في بداية رئاسته إلى الأسقفية المطران يوسف بن عميمة الكرمسدي والمطران ميخائيل بن سعادة الحصروني سفير سالفه إلى الحبر الروماني وجعلهما معاونين له في شؤون الكرسي البطريركي . وعزا إليه بياجيوس ترسي في كتابه الموسوم بسورية المقدّسة صفحة ٥٣ مقالة شعرية في رئاسة الحبر الروماني . وتوفي في ٢٣ من شهر تشرين الثاني (كذا في نسخة لكويان وفي النسخة التي بيدنا في ٣ منه) سنة ١٦٤٨م فلم يبقَ في البطريركية إلّا ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، ودُفن بقرية العاقورة في كنيسة القديس بطرس المنقورة في الصخر . وقال الدويهي في حقه: كان شجاعاً ورعاً محباً للعلماء غيوراً في أمور الدين راغباً في انشاء الكنائس . وقاسى مشقات كبرى من جراء أعمال صهره زوج بنته المدعو قرقماز لأنه جحد الايمان في دمشق فناصبه الموارنة بدمشق فتحملوا بسببه خسائر جمّة ، واضطروا إلى المهاجرة والتشتت . انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي والمشرق المسيحي للكويان ، والمجلد الأول من المكتبة الشرقية للسمعاني صفحة ٥٥٣ وعقد هذا البطريرك مجمعاً طائفياً بدير حراش سنلخص ما كان فيه في آخر هذا الملحق .

عد ١٠٢٢

البطريركيان يوحنا الصفراوي وجرجس السبعلي

أما يوحنا الصفراوي فروى الدويهي أنه كان من بيت البواب من قرية الصفرا في فتوح كسروان . ولم نعلم حتى الآن أين تعلّم ولا متى صير كاهناً . ويظهر أنّ البطريرك جرجس عميره رقاه إلى الأسقفية سنة ١٦٣٦م. وفي اليوم التاسع بعد

دفن البطريرك يوسف العاقوري اجتمع الأساقفة والأعيان بدير قنوبين سنة ١٦٤٨م في أواخر تشرين الثاني وأوائل كانون الأول واختاروه بطريركاً وأقاموه موضعه، وأرسل إلى روما الخوري ميخائيل بن صابونه الحصروني فثبته البابا اينوشنسيوس العاشر سنة ١٦٤٩م. وفي أيام هذا البطريرك أصدر لويس الرابع عشر ملك فرنسة براءة جدّد فيها الحماية لبطريرك الموارنة وأساقفته واكليروسه وشعبه. وهذه ترجمة البراءة المذكورة عن الفرنسية.

«لويس بنعمة الله ملك فرنسة ونافرّا»

سلامٌ لكل مطلع على خطنا هذا، فليكن معلوماً عند كل واقف على براءتنا هذه أننا بعد استشارة الملكة النائبة عنا في الملك السيدة والدتنا المحترمة قد أخذنا ووضعنا ونأخذ ونضع تحت حمايتنا الخاصة السيد الكلي الاحترام بطريرك الموارنة وجميع أساقفته واكليروسه وعامة شعبه الساكنين خاصةً بلبنان. ونوّد أن يشعروا بمفاعيل حمايتنا ومساعدتنا ولذلك نرغب إلى السيد دي لاهيونتلي أحد أعضاء مجلس الشورى في مملكتنا، وسفيرنا إلى المشرق وإلى جميع من يخلفونه في مقامه أن يمدوهم بعنايتهم بهم اجمالاً وأفراداً ويبذلوا لهم الحماية لدى أعتاب صديقنا الأكمل السلطان الأعظم، وفي أي محل آخر كان لدي الحاجة إلى الحماية كيلا تجري عليهم معاملة سيئة وغير مشروعة، بل يتيسر لهم قضاء أعمالهم والتصرف بمقتضيات مراتبهم الروحية بتمام الحرية، ونأمر قناصل الأمة الفرنسية ونواب قناصلها المنصوبين في فرض المشرق وغيرها من الأماكن المشرّع بها العلم الفرنسي الآن، وفي ما يأتي من الزمان أن يساعدوا بكل وسعهم البطريرك المشار إليه وجميع الموارنة سكان جبل لبنان، وأن يسيروا في المراكب الفرنسية أو غيرها كل ماروني أراد السفر إلى بلاد النصارى، اما لدرس العلوم واما لغير ذلك، ولا يكلفوهم إلّا ما يمكنهم دفعه، ويعاملوهم بالمحبة والرقة. ونسأل السادة العظام عمال الحضرة العلية السلطانية ومستخدميها أن يبذلوا رعايتهم ومساعدتهم لحضرة رئيس أساقفة طرابلس وجميع الاكليروس والشعب الماروني، ونعدهم من قبلنا أننا نصنع هذا الصنيع إلى كل رجل من أمتهم يوصون عمالنا به.

أعطي في سن جهان بمدينة لاي في ٢٨ نيسان سنة ١٦٤٩م وهي السادسة لملكنا » .

والبطريرك يوحنا هذا هو الذي رقي إلى درجة الكهنوت ثم الأسقفية على السريان اندراوس أخيجان بعد أن كان جحد اليعقوبية على يد البطريرك يوسف العاقوري . ودرس العلوم بمدرسة طائفتنا في روما كما مرّ في ترجمته وفي الثالث والعشرين من كانون الأول سنة ١٦٥٦م انتقل البطريرك يوحنا إلى راحة الأبرار الأبدية لينال ثواب جهاده ومبراته ، وكان انتقاله بدير قنوبين ، ودُفن هناك . وقد وصفه الدويهي بأنه كان طاهراً قنوعاً رضي الأخلاق بعيداً عن الكدر والمكر تربّى منذ حداثته بالتقوى والنسك وحاز على أعلى مراتب الورع والاتضاع ، وكان مدمناً على الصلوات وتلاوة المسبحة وغيرها من النوافل زيادةً على صلوات الفرض ، كثير الصوم والتقشف في مدة كهنوته ولا سيما في مدة أسقفيته التي كانت اثنتي عشرة سنة ، وفي مدة بطريركيته التي كانت ثماني سنين ونيف .

أما البطريرك جرجس السبعلي فقال فيه الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٧م إنه كان ابن الحاج رزق الله من سبعل بزاوية طرابلس (وهي الآن قرية حقيرة) وكان البطريرك الصفراوي قد رقاه إلى الأسقفية في ٢٥ من تموز سنة ١٦٥٦م ليكون معاوناً له في تدبير شؤون البطريركية . ولما توفي هذا البطريرك في ٢٣ من كانون الأول من السنة المذكورة اجتمع الأساقفة والأعيان في اليوم التاسع بعد وفاته أي في أول كانون الثاني سنة ١٦٥٧م فانتخبوه بطريركاً ، وأرسل الأب يوحنا الكرملي الذي كان قاطناً بدير القديس اليشاع في جانب بشري إلى روما وأصحبه بعرائض اداء الطاعة واستمداد التثبيت من الحبر الروماني البابا اسكندر السابع فاتفق أن مات الأب المذكور لدن بلوغه إلى روما فاضطر البطريرك أن يجدد الالتماس ، وتأخر تثبيته إلى سنة ١٦٥٩م . وقال في حقه دي لاروك في كتاب رحلته المذكور (صفحة ١٣١) إنه كان ضليعاً باللغات الشرقية ومبرزاً في معرفة الشرائع والقوانين البيعية ، وفي أيام هذا البطريرك قدم من فرنسة أربعة رجال قاصدين العزلة عن العالم للتجرد لخدمة الله في محابس جبل لبنان فاختار بعضهم السكنى بدير مار اسيا بكفر صارون ، وبعضهم بدير مار ابون بأرض الحدث ، وبعضهم بدير القديس انطونيوس في جوار قنوبين . فأمر البطريرك بمرمة الأديار المذكورة واصلاحها للسكن ، وأن يعطوا الزاد من دير الكرسي البطريركي . وفي ١٢ من شهر نيسان

سنة ١٦٧٠م كانت وفاة البطريرك جرجس بدير مار شليطا مقبس بكسروان ودُفن هناك وضريحه ظاهر إلى الآن . وقال الدويهي في حقه إنه كان شجاعاً كريم الأخلاق ، صبوراً تحمّل كثيراً من جور الحكام في تلك الأيام ومن داء السلّ الذي بُلي به واستمر على الكرسي البطريركي ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر. انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي والمشرق المسيحي للكويان .

عد ١٠٢٣

العلّامة البطريرك اسطفانوس الدويهي

نعتمد في ترجمة هذا العلّامة على ما كتبه عن نفسه في رسالة أنفذها إلى القس بطرس مبارك أحد تلاميذ مدرسة الموارنة بروما ، فهذا أرسل كتاباً للبطريرك يسأله به أن يلخص له ترجمته ليثبتها في مقدمة كتاب كان يريد طبعه ، فأجابه البطريرك برسالته المذكورة التي وُجدت في خزانة أوراق الكرسي البطريركي . وإليك نص هذه الرسالة بحروفها:

« البركة والنعمة وحلول الروح القدس تكون حالة على ولدنا القس بطرس المكرم الخ . أشرت لنا حتى نكتب لك عن سيرتنا لتقتطف منه الذي يحسن برأيك وتجعله في مدخل إلكتاب على جاري العادة بين الافرنج في طبع الكتب . يا ولدنا نحن نقرّ أنّا أخطأ الناس وأرذلهم بالنسبة إلى النعمة التي تفضل بها الله علينا ، لكن لأجل خاطرك نذكر لك إننا من طائفة الدويهية المشهورة بين جماعتنا (الموارنة) في التقوى والعلم وسياسة الشعب ، قد خرج منها في الجيلين الماضيين ثمانية مطارين وبطركين وكان مولدنا سنة ܬܪܠ (سنة ١٦٣٠م) في ٢ شهر آب نهار تذكار ما اسطفانوس ، وسمينا على اسمه ومنذ الصبا سلمونا والدينا إلى القراءة السريانية . وفي سنة ܬܪܡܐ (١٦٤١م) أرسلنا المرحوم البطريرك جرجس بن عميره التي أمه كانت من الطائفة (الدويهية) إلى روما بصحبة القس سمعان (التولاوي) ويوسف فتيان (الحصروني). وفي مقامنا في المدرسة سعينا في اقامة المجمع (جمعية أو أخوية) باسم السيدة الطاهرة وكانت قبلنا انقطعت المجادلات (أي المباحث العامة الحافلة) فعملنا جهداً كليًا عند معلمي المدارس وعند الجنرال

حتى جددنا العادة التي انقطعت ، وعملنا مجادلة الفلسفة على اسم الكردينال كابون ، وتمام علم اللاهوت على اسم المرحوم البطرك حنا الصفراوي . وسنة ١٦٥٥م كانت عودتنا إلى البلاد وكرم علينا مجمع انتشار الايمان أن نكون من جملة المرسلين وفي ترددنا في البلاد اعتنينا على علم الأولاد وعلى الوعظ وتهذيب الشعب بدرجة الكهنوت . وعندما طلبوا جماعتنا (الموارنة) الحلبية من المرحوم بطريرك جرجس (السبعلي) أن نكرز عليهم ثبتنا عندهم نكرز عليهم ونعلّم أولادهم ونتعاطى في أمورهم مدة ست سنين وعندما في سنة ١٦٦٨م توجهنا من عندهم إلى زيارة المواضع المقدّسة في العودة مسكنا البطريرك المرحوم وقدمنا إلى درجة المطرانية على أسقفية قبرص فزرناهم وتعبنا فيهم جهدنا . وفي السنة الثانية عندما انتقل البطريرك جرجس ابن الحاج رزق الله إلى رحمة خالقه ألزمونا رؤساء الكهنة ورؤساء الشعب في درجة البطركية . وفي كل هذه المدة احتملنا مشقات واضطهاد لا يوصف من جور العصاة . حتى أننا طفرنا إلى بلاد كسروان وإلى بلاد الشوف ، ولأجل هذه الديورة والكنائس والنصارى التزمنا نرجع لأجل حفظهم، وإلّا كانوا شرّدوا ولله الحمد قائمين بحملتنا وفي عمار الكرسي والطائفة . وفي كل هذه المدة تعبنا تعباً بليغاً حتى جمعنا غالب رتبها كما هو (هنا كلمة غير مقروءة) .

١ ܟܬܒܐ ܕܫܪܛܘܢܘܬܐ (كتاب الشرطونية وأظن أنّ المراد جمعه هذا الكتاب وترتيبه) ٢ ܕܕܝܪܐ (قبل هذه الكلمة كلمة مخزوقة فكأنها نظام أو قانون الرهبان) ٣ ܕܪܫܡ ܥܕܬܐ ܘܡܐܢܝܗ̇ (رسم البيعة وأثاثها) ٤ ܟܬܒܐ ܕܨܠܘ̈ܬܐ كتاب الصلوات) وبعثناه إلى روما . ٥ كتاب النوافير (وهو غير كتاب منارة الأقداس الذي عدّد به النوافير بل كتاب برأسه عدد فيه النوافير وعني بترجمة مؤلفيها وذكر صورة كلام التقديس في كل منها، وضمّ إليه نافور رسم الكأس . وهذا الكتاب كان في دير مار شليطا مقبس فنُقل حديثاً إلى مكتبة البطريركية) ٦ ܐܪ̈ܙܐ ܕܥܕܬܐ (أسرار البيعة) ٧ ܕܥܐܕܥܐܕܐ (أعياد) كل السنة (وهو كتاب جمع فيه رتب الموارنة على مدار السنة بالسريانية عدد صفحاته ٣٧٩ كرتبة تبريك الماء يوم عيد الغطاس ، ورتبة أحد الشعانين وغيرها . وهذا الكتاب الآن في مكتبة البطريركية منقولاً إليها من مكتبة مار شليطا) ٨ سجلات الباباوية ومكاتيب البطاركة وأرباب الدولة وحجج وقوفات الدير ومن غير (وما عدا) الكتب البيعية

التي جمعناه . وذكرنا إننا عاملون متعبين على كتاب الجنازة وغيره ، ثم إننا شرحنا عن كتاب الشرطونية . وفي كتاب آخر عن تكريس البيعة وأوانيها . وفي كتاب آخر عن تفسير القداس والمنائر ، وأيضاً في قصص الآباء أصحاب النوافير المقبولة وأيضاً عن سلسلة بطاركة الملّة المارونية ، وأيضاً على أصل الملّة المارونية ودوام اتحادها مع الكنيسة الرومانية وهي التي عندك . وأيضاً في التواريخ من بدء الهجرة إلى وقتنا هذا بل الذي تعبنا عليه بزيادة من قدوم الفرنج إلى هذه البلاد . وأيضاً جمعنا رؤوس الأبيات السريانية وفككناها على موجب وزن الشعر ونعمل متعبين بسبب مدرسة الموارنة بروما ونفعها ونشر تلاميذها . ومن غير تعبنا مع طائفتنا ما تأخرنا أيضاً عن نفع الطوائف التي بجيرتنا لأنّ المرحوم القنصل بيكت ، كان بعث عشر مكاتيب للمرحوم البطريرك حنا من صفرا حتى يرسم القس اندراوس أخيخان فما تنازل معه حتى دخلت أنا بينهم وأزحت عن بال البطرك الصعوبات التي كانت تمانعه . وبعد أن ارتسم مطراناً صار أنه طفر (فرّ) إلى جبل لبنان لأجل خاطر القنصل وسيطه إلى الرجوع ، ورحت أنا بنفسي معه وكنت أساعده في المقدرة وفي كتابة الكرز الذي كنت أعطيه . وكذلك طفر لعندنا القس اسحق (السرياني) وأنا بطريرك مسكته عندنا سنتين ورتبته ورسمته أيضاً ، وعندما طفر بعده إلى عندنا بطرس بطريرك السريان (نظنه اغناطيوس بطرس الذي خلف أخيخان في البطريركية على السريان الذي توفي في السجن بأدنه بمكيدة بطريرك اليعاقبة) ثبت عندنا مدة من الزمان بكل اعزاز واكرام ، ثم بعد المذكورين التجا إلينا الخوري نعمة والقس سبيمان السريان من جور بطريركهم الضال ، وكذلك مطران الأرمن على مرعش عندما التجا إلينا قبلناه بكل كرامة وأمرنا جماعتنا بحلب ليقبلوا جميع المرتدين من اليعاقبة والأرمن والنساطرة وغيرهم ويتلمذونهم ويقضون مصالحهم . حُرر في أول شهر أيار سنة ١٧٠١ ربانية » . وقد طبع المعلم رشيد الشرتوني من تآليف الدويهي شرح الشرطونية والتكريسات ، وشرح المنائر العشر وسلسلة بطاركة الموارنة مع اضافات . وأخذ من كتابه في أصل الموارنة ودوام اتحادهم بالكنيسة الرومانية . ومن التاريخ كتابه المعروف بتاريخ الطائفة المارونية وطبعه سنة ١٨٩٠م .

إنّ البطريرك سمعان عواد الطيب الذكر قد وضع ترجمة العلامة الدويهي آخذاً عنه وعن ثقاة من معاصريه . وهذه الترجمة أثبتها المعلم رشيد الشرتوني في فاتحة

تاريخ الموارنة للدويهي الذي طبعه ببيروت سنة ١٨٩٠م فنقتطف منها ما يلزم لتتمة الترجمة. وبيانها أنّ والد الدويهي يسمى مخايل واسم أمه مريم وهي من آل الدويهي أيضاً، وأرسله إلى روما عمه المطران الياس الدويهي على يد البطريرك جرجس عميره. وقد قال عن نفسه أنه كان يقضي وقت التنزه وهو في المدرسة في القراءة والدرس، وكثيراً ما كان يقوم عن فراشه ليلاً فيصلّي ويدرس على نور المصباح الساعتين والثلاث حتى أصيب ببصره، فكان يطلب إلى رفقائه أن يقرأوا على مسمعه الدروس اليومية، ثم شفي بشفاعة العذراء. وكان استاذه في اللاهوت الأب سبرسا اليسوعي. يقول مرات علّمت في بلاد كثيرة ولم أرَ مثل اسطفان علماً وعملاً. وشهد عارفوه أنهم لم يكونوا يجدون عليه خطيئة توجب الحلّ. وألّف بعد انجاز دروسه كتاباً ضخماً باللاتينية في الفردوس الأرضي. وبعد رجوعه إلى وطنه رُقّي إلى درجة الكهنوت وأنشأ مدرسة في اهدن وأخذ يعلّم الأولاد ويعظ الشعب إلى أن أرسله البطريرك جرجس السبعلي إلى حلب واعظاً ومرسلاً. واهتدى على يده كثير من الملكية والنساطرة واليعاقبة. وصنّف في تلك الأثناء مؤلفاً في الوعظ والارشاد في مجلدين. وقد جرى انتخابه بطريركاً سنة ١٦٧٠م بغير مشورة الشيخ أبي نوفل الخازن، فاستاء فأتى البطريرك إلى داره بكسروان فأجلّ الشيخ قدره واستغفره عما فرط منه. وأرسل إلى روما القس يوسف شمعون الحصروني (الذي صار بعداً أسقفاً) في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٦٧٠م فثبته البابا اكليمنضوس العاشر (في ٨ آب سنة ١٦٧٢م).

وبعد بطريركيته أخذ يطوف جميع الأبرشيات ويختار كهنة من ذوي العلم والتقوى ويفحص الكتب البيعية ويصلح ما أوقعه النساخ أو أصحاب الأغراض من الخطأ فيها. وكان معتنياً برد العوائد القديمة، ورتب الطقوس. وذكر له البطريرك سمعان عواد بعض الكتب التي ذكرها هو في ترجمة نفسه وما قرظه به العلماء من طائفته كمرهج بن نيرون الباني والمطران يوسف شمعون الحصروني والبطريرك يعقوب عواد. ومن غير طائفته نخص بالذكر منهم الكردينال نرلى في كتابه في مشاهير المدرسة المارونية بروما. ولما علم البطريرك كيرليس الحلبي بطريرك الروم الانطاكي أنّ الخبز والخمر لا يستحيلان إلى جسد المسيح ودمه بقوّة كلام التقديس وحده بل بدعوة الروح القدس أيضاً. فاعترضه ورد زعمه بنصوص الكتاب والمجامع والآباء. ولما اطلع بطريرك الروم على حججه أحب أن يجادله

وحضر لجداله ومعه أربعة مطارين، وكان الجدال بحضرة أمير الشوف في دير القمر. فأفحم الدويهي بطريرك الروم وأساقفته حتى أوجب عليهم الأمير والحاضرون أن يذعنوا لتعليم الدويهي. وكان هذا سبباً لاعتناقهم الدين الكاثوليكي، وقد قاومه بعض أساقفته لأنه تشدد عليهم بعمل واجباتهم فأرسل لهم رسالة يؤنبهم بها ويهددهم فخجلوا وتسارعوا إليه يستغفرونه عما فرط منهم. وهمّ أن يتنازل عن البطريركية فمنعه أبناء الطائفة. وكان شديد الغيرة على مدرسة الطائفة في روما وعلى نشاط تلامذتها وتقدمهم بالتقوى والعلم. وله رسالتان إليهم (مثبتتان في ترجمته المعلّقة على تاريخ الموارنة) يتبيّن منهما كم كان له من العناية بهم والهيام في نجاح هذه المدرسة. وقد أنبأنا صاحب ترجمته بآيات كثيرة صنعها الله على يده في حياته وبعد وفاته.

وقد أهانه قبل وفاته الشيخ عيسى حماده إذ جاء مع بعض أقاربه إلى قنوبين طالبين منه مبلغاً من المال، فكتب إلى الشيخ حصن الخازن عما جرى له فجهز رجالاً من كسروان مع أخيه الشيخ ضرغام (هو الذي صير بعداً بطريركاً) إلى قنوبين، ولما علم بذلك الشيخ عيسى أتى متواقعاً متذللاً أمام البطريرك ليغفر له ويعدل عن السفر إلى كسروان، وأراد المشايخ الخوازنة أن يبطشوا به فنهاهم البطريرك عن ذلك وسار معهم إلى كسروان فالتقاه الأهلون بالتجلّة والاحتفاء وأقام بدير مار شليطا مقبس نحواً من أربعة أشهر، ثم وردت له رسائل من والي طرابلس على يد الخواجه طربيه ترجمان قنصلية فرنسة أن يعود إلى كرسيه آمناً فعاد في ١٩ من نيسان سنة ١٧٠٤م يوم السبت وفي صباح الأحد أقام قداساً حافلاً ومنح غفراناً كاملاً لجميع الحاضرين. وفي غد الاثنين ودعه من كانوا قد رافقوه من كسروان فشيّعهم إلى باب الدير وأراد أن يرجع إلى غرفته فتعذر عليه أن يخطو فحمله شماسه إلى فراشه، وعلم أن قد دنا أجله وأنّ الله استجاب طلبته أن لا يميته خارجاً عن كرسيه، وأخذته حمى شديدة لم تمنعه عن التسبيح لله ومباركة شعبه وتناول الأسرار المقدّسة إلى أن توفاه الله ونقله إلى راحة الأبرار صحبة القديسين الملافنة باسيليوس واثناسيوس وفم الذهب نهار السبت في الساعة الثالثة من النهار في ٣ من أيار سنة ١٧٠٤م وعمره أربع وسبعون سنة.

وقد حفظ لنا دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان رسالة أنفذها لويس الرابع عشر ملك فرنسة إلى هذا البطريرك هذه ترجمتها:

«أيها البطريرك اسطفانوس بطرس الانطاكي»

أيها السيد الأجلّ، قد رفع إليّ الخوري الياس كاتب سركم الرسالة التي كتبتموها إليّ في ٢٠ من آذار سنة ١٧٠٠م وعلمت منها متأسفاً المحن التي يقاسيها الكاثوليكيون أبناء ملّتكم المارونية في جبل لبنان وشدة الضنك الذي تقاسونه لوقاية شخصكم من الاهانات التي ينزلها البعض بكم. ولما كنت مستعداً أن أبذل دائماً كل ما بوسعي من العناية بتأييد الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني في كل مكان ولا سيما في أرجاء بطريركيتكم حيث تعاظمت المحن، قد سلمت إلى كاتب سركم رسالة جددت بها الأمر الذي أصدرته قبلاً إلى سفيري بالقسطنطينية أن يصرف عنايته واهتمامه لينال من الباب العثماني كل ما يمكن من الأمور العائدة بالنفع للدين الكاثوليكي في بلاد الموارنة ليجعلكم تشعرون بمفاعيل حمايتنا واجلالنا لكم خاصةً. وأسأله تعالى أيها السيد الأجلّ أن يحفظكم بحراسته المقدّسة. كُتب في مارلي في ١٠ آب سنة ١٧٠١م التوقيع لويس. وفي أسفل الصحيفة كولبر».

الفصل الثالث

أساقفة الموارنة في القرن السابع عشر

عد ١٠٢٤

الأساقفة الذين رقاهم البطريركان يوسف الرزي ويوحنا مخلوف

قال الدويهي إنّ البطريرك يوسف الرزي رقى ابن أخيه سركيس الرزي إلى أسقفية دمشق سنة ١٦٠٠م وكان حبيساً بدير قزحيا. وكان قد درس العلوم في

روما وأقام بعد تسقفه بالمحبسة المذكورة أيضاً. هذا ما جاء في نسخة تاريخ الدويهي التي بيدنا، وفي النسخة التي أخذ عنها رشيد الشرتوني في طبعه تاريخ الموارنة. لكن الدويهي نفسه قال في الفصل ١٨ من رد التهم أنّ البطريرك يوسف الرزي أرسل أخاه الأسقف سركيس سنة ١٦٠٧م سفيراً إلى البابا بولس الخامس ومعه القس الياس ابن الحاج يوحنا والقس جرجس بن مارون من اهدن، فلا يظن الأسقف سركيس هذا أخا البطريرك هو غير سركيس ابن أخيه بل هما واحد. وفي رواية الدويهي في تاريخه خطأ من النساخ لأنّ البابا بولس الخامس ذكره في رسالته إلى أساقفة الموارنة وشعبهم في ٢٨ من تشرين الثاني سنة ١٦٠٨م داعياً اياه أخا البطريرك الذي كان قد توفي، ويعزيهم لفقده. وأمر البابا حينئذٍ أن يبقى الأسقف سركيس في روما للعناية بطبع الكتب وحاجات الطائفة. واستمر بروما إلى سنة ١٦٣٨م التي توفي بها. والذي علمناه مما باشره بروما في هذه المدة هو طبع كتاب الشحيم بعد أن عهد البابا بولس الخامس بفحصه إلى الكردينال بطرس الدبردنديوس محامي الموارنة وقتئذ. والكردينال روبرتوس بلرمينوس الشهير والكردينال أوكتافيوس بنديوس والأب بطرس المطوشي الماروني اليسوعي. ولما توفي الكردينالان الأولان في أثناء هذا الفحص تعيّن بدلهما الكردينال روبرتوس أو بلدينوس والكردينال اسكندر أوسينوس. وبعد أن أجاز هؤلاء طبعه سنة ١٦٢١م شرع الأسقف سركيس بطبعه تحت مناظرته فنجز طبعه في أيام البابا أوربانوس سنة ١٦٢٥م كما هو بيّن من رسالة الكردينال أوكتافيوس بنديوس محامي الموارنة إلى البطريرك يوحنا مخلوف المعلقة على طبعة الشحيم المذكورة. ثم إنه صحح بمدة اقامته بروما نسخة الأسفار المقدّسة العربية معارضاً لها بنسخ كثيرة أخذت من المشرق، وترجمها إلى اللاتينية برفقة غيره من العلماء كما يتبيّن من المقدّمة التي علقها عليها. وطُبعت نسخته هذه سنة ١٦٧١م بعد وفاته مع النسخة اللاتينية العامية ومنها نسخ كثيرة في المشرق، بل كانت هي النسخة التي تتداولها أيدي العامة قبل طبع النسخة اليسوعية ببيروت. وذكر بعضهم أنّ المطران سركيس كان له يد أيضاً مع جبرائيل الصهيوني والخوري يوحنا الحصروني في تهذيب الترجمتين السريانية والعربية اللتين طُبعتا في البوليكوتا الباريسية، ولا يبعد ذلك عن الصحة لأنّ البوليكوتا شرع في طبعها سنة ١٦٢٨م وهو توفي سنة ١٦٣٨م.

وذكر لكويان في جملة الأساقفة الموارنة وقال: أثبت توريانوس أنّ رودريكوس

اليسوعي الذي بعثه البابا بيوس الرابع إلى الموارنة عارض القوانين العربية اتي ترجمها إلى اللاتينية مع سركيس هذا أسقف دمشق الماروني . وأسهب الكلام على علمه وفقاهته . وقال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٨ « وفيها في شهر حزيران توفي بروما الحبيس سركيس بن الرزي مطران دمشق وله من العمر ست وستون سنة ، وكان قد اقتبس العلوم بروما وعاش ناسكاً بمحبسة قزحيا مدة وعني في روما بطبع الشحيم ووقف متروكاته على مساعدة الطائفة وكان محبوباً من رؤساء الكنيسة الرومانية .

٢ - المطران بطرس العاقوري ذكره الدويهي وعرفه بأنه ابن الخوري سابا العاقوري من بيت حليب ، وإنّ البطريرك يوسف الرزي رقاه إلى أسقفية العاقورة في ٢٠ من تشرين الثاني بعد وفاة موسى أسقفها . وكان المطران بطرس هذا متزوجاً قبل ارتقائه إلى الدرجات المقدّسة ، ومن أولاده البطريرك يوسف العاقوري وتوفي بالعبادية (من المتن) ونُقلت جثته إلى بيروت ودُفن في كنيسة مار جرجس فيها . وكان شديد الغيرة كثير العبادة وصنّف مدائح كثيرة .

٣ - المطران يوحنا الحصروني ابن الشدياق حاتم الحوشبي رقاه البطريرك يوسف الرزي إلى الأسقفية سنة ١٦٠٣م وجعله معاوناً له في تدبير شؤون دير قنوبين . وكان قد درس العلوم بروما ودخل رهبانية القديس عبد الأحد وترجم جزءاً من كتب القديس توما الأكويني إلى العربية . ثم أرسله البطريرك المذكور سفيراً إلى الحبر الروماني ، وعاد من روما إلى لبنان سنة ١٦٠٦م وأصحبه البابا بولس الخامس بجواب أثنى فيه على الموارنة ، وأرسل للبطريرك حللاً كهنوتية وغيرها من الهدايا ، وحينئذٍ أمر البطريرك باتباع الحساب الذي أدخله البابا غريغوريوس الثالث وعيد الموارنة في طرابلس وجبة بشري وجبيل والبترون عيد الرسل مع الافرنج قبل طوائف المشرق بعشرة أيام . ثم تطرّق استعمال هذا الحساب إلى دمشق وحلب وسائر المدن والقرى إلّا جزيرة قبرص ، وتركوا التاريخ بسني اسكندر وأخذوا يؤرخون بسني الميلاد . ولما حضّ هذا الأسقف على اتباع هذا الحساب في حلب ناصبه رؤساء الطوائف الشرقية ودفعوا للحكومة مبلغاً من المال لاهلاكه ، فاحتج بالمحكمة مثبتاً صحة هذا الحساب وأفحم معانديه وتوفي بروما سنة ١٦٣٢م ودُفن في دير القديس بطرس حيث صلب . وهو غير الأسقف يوحنا ابن قورياقوس الحصروني المعروف من بيت حندوق الآتي ذكره .

٤ - وممن رقّاهم البطريرك يوسف الرزي إلى الأسقفية الأسقف يوحنا مخلوف الذي صير بعداً بطريركاً، والأسقف جرجس بن عميره الذي صير بطريركاً أيضاً، ورقى أيضاً أساقفة آخرين في تاريخ القرن السادس عشر.

وأما الأساقفة الذين رقاهم البطريرك يوحنا مخلوف فنعرف منهم يوحنا الشدراوي وقد ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٠٩م قائلاً إنّ هذا البطريرك رقّى فيها إلى الأسقفية الخوري يوحنا الشدراوي. وقد ذكره المطران اسحق الشدراوي في مقدمة غرامطيقه، وقال إنه عم أبيه وإنه كتب إليه رسائل عديدة في هذا التأليف فأفادته، وكانت له بمنزلة مشكاة فأنارته. وفي سنة ١٦١٠م رقي الأسقف يوسف بن بشارة من بيت السوق وهو ابن أخي الأسقف اقليموس الأهدني المار ذكره. وفي سنة ١٦١٤م رقي جرجس بن مارون الأهدني إلى أسقفية الأفقسية بقبرص وهو الذي كان قد أرسله إلى روما يطلب التثبيت وأحضره له. وروى الدويهي أيضاً أنه في ٢٢ من تشرين الأول سنة ١٦١٩م توفي الأسقف يوسف بن يوحنا ابن القس تادروس السمراني وله في الرهبانية بدير قزحيا خمس وخمسون سنة. وذكر في تاريخ سنة ١٦٢٢م توفي الأسقف يونان بن جلوان السمراني (نسبةً إلى سمار جبيل) الذي استحبس بدير قزحيا، ونظن أنّ هذين هما الحبيس يونان وأخوه القس يوسف اللذان روى الدويهي في تاريخ سنة ١٥٧٦م أنّ المطران داود رئيس دير قزحيا رقاهما إلى الأسقفية خلافاً لقوانين الكنيسة.

فمنعهما البطريرك عن مباشرة حقوق الأسقفية فخضعا، فرضيَ عنهما وردهما إلى دير قزحيا فأكملا حياتهما مستنسكين.

الأسقف يوحنا بن قورياقوس الحصروني من بيت صندوق فهذا درس العلوم في مدرسة الموارنة بروما ورقي إلى درجة الكهنوت. وفي ١٦٢٥م أرسله البطريرك يوحنا مخلوف لتهنئة البابا أوربانوس الثامن بارتقائه إلى الحبرية العظمى فرحب البابا به وأرسل إلى البطريرك رسالة نفيسة يثني بها على الموارنة لثباتهم في الايمان الكاثوليكي، وأهدى إليه تاجاً ثميناً وكتباً وحللاً بيعية. ويوحنا هذا عاون القس جبرائيل الصهيوني الأهدني على ضبط الترجمتين السريانية والعربية المثبتتين في البوليكلوتا (الأسفار المقدّسة بعدة لغات) الباريسية التي عني بطبعها ميخائيل لي جاي. ويظهر أنه بقي في أوروبا لأنّ البوليكلوتا المذكورة شرع في طبعها سنة

١٦٢٨م. وقد ذكر كثيرون معاونته عليها ومنهم والتن في المقدمات على البوليكلوتا اللوندية، وبعد عودته إلى لبنان رقاه البطريرك يوحنا مخلوف إلى الأسقفية مكافأة لأتعابه . وأقام بدير مار جرجس بقرقاشا لكنه لم يستمر في الأسقفية إلّا أربعة أشهر وتوفي في أحد الشعانين .

الأسقف يوحنا من بيت قزوح رقاه البطريرك يوحنا في ٢٠ تشرين سنة ١٦٢٥م على دير القديس اليشاع ببشري وعلى دير الأحمر. ذكره الدويهي في تاريخ هذه السنة ونظنّه من بشري .

الأسقف سركيس السمراني ذكر الدويهي وفاته في تموز سنة ١٦٢٦م وقال إنه كان قد استحبس بدير قزحيا وكان ورعاً راغباً في العلوم ونسخ الكتب فرقى البطريرك يوحنا مخلوف مكانه ابن أخيه الأسقف بولس والأسقف يوسف العاقوري من بيت حليب على صيدا وهو الذي صير بعداً بطريركاً ، والأسقف يوسف البلوزاوي على بيروت . وروى في تاريخ سنة ١٦٣٧م أنّ الأسقف بولس المذكور إذ كان ساكناً في دير قزحيا شكاه القس حنا ابن البري من غوسطا لاختلافهما على الماء إلى الأمير عساف بن يوسف باشا سيفا فدعا الأمير الأسقف إلى جبيل وأجرى عليه أنواعاً من العذاب حتى فقئت عينه ولم يتركه إلى أن دفع أربعة آلاف قرش .

الأسقف اسحق الشدراوي، ذكر السمعاني ترجمته في المجلد الأول من المكتبة الشرقية صفحة ٥٥٢ فقال ما ملخصه؛ دخل مدرسة الموارنة بروما سنة ١٦٠٣ فأقام فيها إلى سنة ١٦١٨م وبرع من خلال هذه المدة في اقتباس اللغات اللاتينية والسريانية والعربية والعلوم السامية، فرقاه جرجس عميرة مطران اهدن وقتئذٍ إلى الدرجات الصغار سنة ١٦١٩م. وفي السنة التالية رقاه إلى درجة الكهنوت وجعله رئيس كهنة ببيروت. وكان قد تزوج قبل ارتقائه إلى هذه الدرجة على عادة الشرقيين ثم ماتت امرأته. وفي ٢٥ آذار سنة ١٦٢٩م رقاه البطريرك يوحنا مخلوف إلى الأسقفية على طرابلس كما اخبر عن نفسه في فاتحة المقالة اللاهوتية المثبتة في كتاب بمكتبة نشر الايمان . وله كتاب سرياني في نحو اللغة السريانية (غرامطيق) طبعه بروما في مدرسة الموارنة سنة ١٦٣٦م، وقصيدتان على أحرف الهجاء الواحدة في مدح البابا اوربانوس الثامن ، والثانية في مدح يوحنا مخلوف بطريرك الموارنة مثبتتان في كتاب بمكتبة مدرسة نشر الايمان . وله بالعربية مباحث لاهوتية بطريقة

السؤال والجواب على عمل الرب في ستة أيام الخلق وفي الفردوس الأرضي والخطيئة الأصلية والموت ويمبوس الآباء والفردوس وجهنم والمطهر وقيامة الموتى والدينونة الأخيرة، وهي في الكتاب المذكور في مكتبة مدرسة نشر الايمان . وله أيضاً ترجمة رسائل اليا بطريرك الكلدان إلى الحبر الروماني ، وترجمة أعمال المجمع الذي عقده بآمد سنة ١٦١٧م من السريانية إلى اللاتينية كما مرّ. وقد أرسله وهو أسقف البطريرك يوسف العاقوري إلى البابا اينوشنسيوس العاشر ليستمد له منه التثبيت فتعذّر سفره ، فأرسل البطريرك الخوري عبد المسيح ابن الطويل الحدثي عوضه ومرقس راهب دير مار شليطا مقبس ، ثم لحقهما المطران اسحق وكانا يطبعان الشحيمة فأصلح معهما ما كان باقياً من طبعهما كما شرح الخوري عبد المسيح المذكور في المقدمة على الشحيمة المذكورة . وروى دي لاروك أنّ الكردينال فريدريك بوروماوس استدعاه إلى مديولان لينظّم مكتبته الشهيرة في هذه المدينة . وتوفي المطران اسحق سنة ١٦٦٣م في مدينة جبيل ودُفن في كنيسة مار يعقوب التي في سهل جبيل . ومن التقليد أنّ المطران المذكور هو جد آل طربيه من طرابلس وجبة بشري . وكان أحدهم ترجماناً لقنصل فرنسة منذ أيام البطريرك الدويهي . وكان منهم بعده تراجمة كثيرون حتى أيامنا هذه . وذكر الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٨م وفاة المطران عبدالله الهدناني بدير قنوبين بعد أن كان له في الرئاسة ست وثلاثون سنة ، وكان حازماً واشترى عقاراً كثيراً لدير قنوبين ولم يكن ذكر ترقيته إلى الأسقفية .

عد ١٠٢٥
أساقفة الموارنة إلى أيام الدويهي

في سنة ١٦٣٨م رقى البطريرك جرجس عميرة المطران الياس بن يوحنا من عائلة الصراصرة من اهدن ذكره الدويهي في تاريخ السنة المذكورة ، وقال في تاريخ سنة ١٦٥١م إنّه فتح سوق القلعة الشرقي بقرية زغرتا، وأضافه إلى الكنيسة وبيّضه وكرّسه لكثرة المترددين إلى الكنيسة . وروى في تاريخ سنة ١٦٥٩م أنه توفي في هذه السنة وأنه كان ورعاً غيوراً وتربى بدير قزحيا ، وسكن في القدس نحو عشرين سنة ، واشترى فيها دار الازي بأمر البطريرك ، ودخل إلى روما صحبة الأسقف جرجس بن مارون وخدم رئاسة الكهنوت عشرين سنة بمزيد التقوى .

الأسقف يوسف بن عميمة الكرمسدي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٤م فقال إنّ البطريرك يوسف العاقوري بعد ارتقائه إلى سدة البطريركية في هذه السنة رقى يوسف الكرمسدي إلى أسقفية دمشق، وكان معاوناً للبطريرك. وذكر في تاريخ سنة ١٦٥٣م أنّ هذا الأسقف توفي فيها لرحمة الله.

الأسقف ميخائيل بن سعادة الحصروني ذكر الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٤م أنّ البطريرك يوسف العاقوري رقاه إلى أسقفية طرابلس مع الأسقف يوسف الكرمسدي، وكانت ترقيتهما في دير حراش ليكونا معاونين له. وذكر الدويهي وفاته في تاريخ سنة ١٦٦٩م حيث قال في ١٣ من شباط كانت وفاة الأسقف ميخائيل بن سعادة الحصروني في مدينة طرابلس، وبموجب وصيّته دُفن في مغارة القديسة مارينا بقنوبين. وكان قد اقتبس العلوم في مدرسة الموارنة بروما وخدم الأسقفية ست وعشرين سنة بكل طهارة.

الأسقف جرجس البشعلاني ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٨م فقال في ٢٤ من شباط من السنة المذكورة رقى البطريرك يوسف العاقوري القس جرجس بن حبقوق البشعلاني إلى الأسقفية على العاقورة وأخذ السكنى بدير قنوبين.

الأسقف يوسف البلوزاوي ذكر الدويهي وفاته في تاريخ سنة ١٦٥٠م قائلاً فيها توفي الأسقف يوسف بن ناتان البلوزاوي ولم يكن قد ذكر سنة ترقيته ولا من رقاه.

الأسقف يعقوب الرامي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٣م فقال فيها توفي الأسقف يوسف الكرمسدي (المار ذكره)، وفي يوم عيد انتقال العذراء رقّى البطريرك يوحنا الصفراوي عوضه الأسقف يعقوب الرامي على دمشق.

الأسقف يوسف الحصاراتي ذكر الدويهي ترقية البطريرك يوحنا الصفراوي له إلى الأسقفية في يوم عيد انتقال العذراء سنة ١٦٥٣م مع الأسقف يعقوب الرامي الآنف الذكر على جبيل. وكان رئيساً لدير حوقا، واستمر نائباً على البطريرك المذكور في رئاسة هذا الدير. قال لكويان في أساقفة الموارنة، وقال دي لاروك في كتاب رحلته صفحة ٢٨٤ إنّ البطريرك اسطفانوس الدويهي كتب منشوراً في ٥ تشرين الأول سنة ١٦٩٩م (وهو المنشور الذي ذكرناه توصية بيوسف أخي الأمير بولس) ووقّع عليه يوسف الحصاراتي مطران جبيل بدير حوقا، وربما كان يوسف

هذا غير يوسف الذي نكتب ترجمته لأنّ للدويهي رسالة أخرى في ١٢ حزيران سنة ١٦٧٣م، وفيها توقيع يوسف الحصاراتي. فالفرق الذي هو ست وعشرون سنة يجعلنا نظنّ أنّ يوسف الذي وقّع على الرسالة سنة ١٦٩٩م هو غير يوسف الذي وقّع على الرسالة سنة ١٦٧٣م.

الأسقف جرجس من بيت شوك من قرية عرجس، ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٥م وقال البطريرك يوحنا الصفراوي رقاه إلى الأسقفية وجعله معاوناً له في تدبير مهام الكرسي البطريركي.

الأسقف ابراهيم السمراني ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٥م أيضاً وقال إنّ البطريرك أقامه بدير قزحيا، ثم ذكر وفاته وهو في هذا الدير في تاريخ سنة ١٦٧٧م وترقية ابنه القس يوحنا أسقفاً على البترون، وسلّم إليه تدبير دير قزحيا، وسوف نذكره في محلّه.

الأسقف جرجس ابن الحاج من سبعل وهو الذي انتخب من بعد بطريركاً. ذكر الدويهي ارتقاءه على الأسقفية في تاريخ سنة ١٦٥٦م وجعله معاوناً للبطريرك في قنوبين.

الأسقف سركيس الجمري من اهدن، ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٨م فقال فيها رجع القس سركيس الجمري من فرنسة إلى بلاده وكان له في الكهنوت ثلاث وعشرون سنة، فطلب الشيخ أبو نوفل الخازن ترقيته إلى أسقفية دمشق، ثم ذكر وفاته في تاريخ سنة ١٦٦٨م وقال فيها كانت وفاة الأسقف سركيس بن الجمري بمدينة مرسيليا في أواخر أيار.

الأسقف جبرائيل البلوزاوي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٦٣م قائلاً فيها كانت ترقية المطران جبرائيل بن يوحنا من بلوزا على مدينة حلب خلفاً للأسقف يوسف البلوزاوي. وقد ذكرنا ارتقاءه إلى الأسقفية سنة ١٦٥٠م. وذكر الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧٣م أنّ المطران جبرائيل هذا أنشأ ديراً جديداً بأرض طاميش في قاطع بيت شباب على اسم العذراء وهو دير طاميش المشهور.

المطران اسطفانوس الدويهي هو العلامة الدويهي ذكر ترقيه إلى الأسقفية في تاريخ سنة ١٦٦٨م فقال توجهنا لزيارة القدس الشريف، وبعد أن تباركنا بتلك المواضع المقدسة ومعنا والدتنا وأخونا الحاج موسى رجعنا بالسلامة لتقبيل أيدي

السيد البطريرك جرجس (السبعلي) بَدير قنوبين، فرفعنا إلى درجة المطرانية على الأفقسية بقبرص في ٨ تموز وأمرنا أن نخرج لزيارة الرعية في ايالة طرابلس وجزيرة قبرص، ولئلا نكون بطالين أشغلنا أنفسنا في سياسة الشعب وفي جمع هذه الأخبار لافادة نفوسنا ولنطلع على معرفة أحوال بلاد نحن فيها ساكنون.

الأسقف يوحنا التولاوي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٦٩م فقال في ٢٣ شباط كانت وفاة الأسقف ميخائيل بن سعاده الحصروني (الذي مرّ ذكره) ورقي الأسقف يوحنا التولاوي على صيدا، وذكر وفاته في تاريخ سنة ١٦٨٠م قائلاً فيها في ٢١ من نيسان توفي الأسقف يوحنا التولاوي ودُفن في قرية بعبدات.

عد ١٠٢٦
أساقفة الموارنة الذين رقاهم البطريرك الدويهي

الأسقف لوقا القبرصي القرباصي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧١م قائلاً إنه رقاه إلى الأسقفية على الافقسية بقبرص، وأخذ السكنى في الجزيرة. وذكر في سجله المحفوظ بخزينة أوراق الكرسي البطريركية أنه رقاه في ١ كانون الأول سنة ١٦٧٢م.

الأسقف بطرس بن مخلوف من غوسطا ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧٤م فقال إنه رقاه في ٥ من تموز من السنة المذكورة على كرسي الأفقسية بقبرص (يظهر أنّ الأسقف لوقا المار ذكره توفي حينئذٍ) بحضرة سفير فرنسة الذي توجه تلك السنة إلى القدس ثم سار إلى لبنان وزار البطريرك فرقى الأسقف المذكور بحضرته وذكره في سجله المذكور أيضاً.

الأسقف يوسف الحصروني ذكره في تاريخ سنة ١٦٧٥م قائلاً وفيها قدمنا كاتبنا القس يوسف الحصروني إلى رئاسة الكهنوت على طرابلس، وكان ذلك في دير مار شليطا مقبس، وكتب في سجله أنه رقاه في ١٤ تموز من السنة المذكورة وعرفه بأنه الخوري يوسف شمعون الايبودياكن الحصروني وتوفي في ١١ كانون سنة ١٦٩٥م، وقد حضر إلى المتين سنة ١٦٨٥م، ورقّى في ٢٦ تشرين اول إلى درجتي المرتل والقاري الياس بن أبي عون وجرجس بن أبي سليمان ويوسف بن

أبي رزق وهاشم بن أبي هاشم وموسى بن أبي ناكوزة كما دوّن بخطه على كتاب الشحيم في كنيسة مار جرجس بقرية المتين المذكورة.

الأسقف يوحنا بن جلوان ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧٧م قائلاً فيها في ١٨ أيار انتقل إلى رحمة ربه الأسقف ابراهيم بدير قزحيا وقد مرّ ذكره. وفي نهار تاسعه رقينا ولده القس يوحنا أسقفاً على البترون وتسلّم تدبير الدير المذكور وتوفي سنة ١٦٩١م.

الأسقف بطرس الاهدني ذكره الدويهي أيضاً في تاريخ سنة ١٦٨٠ قائلاً في ٢١ نيسان توفي الأسقف يوحنا التولاوي ودُفن بيعبدات كما مرّ. ورقينا مكانه على صيدا القس بطرس ابن القس ابراهيم الاهدني كاتبنا وقلدناه مصالح الكرسي. وذكر في تاريخ سنة ١٦٨٣م أنّه توفي في ٢٦ من أيار منها، وهو زائر في الشمال فنُقلت جثته من البهلولية إلى ضهر صفرا وله من العمر اثنتان وخمسون سنة.

الأسقف يوسف بن مبارك ذكره الدويهي أيضاً في تاريخ سنة ١٦٨٣م وقال إنّه كان من رهبان دير مار سركيس ريفون، ولما توفي الأسقف بطرس الاهدني رقاه بدله على صيدا في ٦ حزيران من السنة المذكورة. وهذا الأسقف توفي في ٨ ايلول سنة ١٧١٣ في ريفون بعد أن دبر البطريركية ثلاث سنين عند توقيف البطريرك يعقوب عواد كما سوف يجيء.

الأسقف جرجس الاهدني لم يذكره الدويهي في نسخة تاريخه التي بيدنا، وجاء ذكره في سجله ويظهر منه أنه رقاه في ٢٧ آب سنة ١٦٩٠م على اهدن وإنه ابن سركيس عبيد الاهدني ويسمى بنيامين والكاروز وإنه دخل الرهبنة اليسوعية وتوفي بروما. وسيأتي ذكره.

الأسقف يوسف الشامي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٩١م وقال إنه رقاه في ٢٧ كانون الثاني إلى أسقفية بيروت وتوفي سنة ١٧١٣م.

الأسقف يوحنا حبقوق من بشعلي ذكره الدويهي أيضاً في تاريخ سنة ١٦٩١م قائلاً: وفيها كانت وفاة المطران يوحنا بن جلوان السمراني رئيس دير قزحيا ورقينا عوضه الخوري حنا بن حبقوق من قرية بشعله في ٨ من أيلول على دير قزحيا، وهذا الأسقف سلم الدير المذكور إلى الرهبان اللبنانيين سنة ١٧٠٨م وتوفي سنة ١٧١٨م.

الأسقف ميخائيل الغزيري ذكر الدويهي وفاته في ٦ من تشرين الثاني سنة ١٦٩٧م، وقال أنه كان مطران دمشق، ودُفن بدير طاميش. ولم يذكر ترقيته إلى الأسقفية في تاريخه ولا في سجله فكأنه رقاه أحد أسلافه.

الأسقف جبرائيل الدويهي رقاه الدويهي على صرفند في ٢٨ كانون الثاني سنة ١٦٩٣م وترى اسمه في جملة أسماء الاساقفة الذين كانوا في المجمع اللبناني، ولم يشهده بنفسه ولكن ناب عنه القس بطرس عطايا وتوفي سنة ١٧٣٩م.

الأسقف يوحنا محاسب الغوسطاوي رقاه الدويهي على عرقا ودير مار شليطا في ٧ ايلول سنة ١٦٩٨ وتوفي بالدير المذكور سنة ١٧١٢م.

الأسقف يعقوب عواد الحصروني رقاه الدويهي على طرابلس في ٦ تموز سنة ١٦٩٨م وهو الذي صير بطريركاً بعده وسيأتي ذكره.

الأسقف خير الله اسطفان الغسطاوي رقاه الدويهي في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٧٠٣م أسقفاً على العاقورة ودُعي جرجس، وتوفي في عين ورقة سنة ١٧٣٣م وهؤلاء الأساقفة الأربعة لا ذكر لهم في نسخة تاريخ الدويهي التي بيدنا فأسماؤهم مأخوذة عن سجله. انتهى.

الفصل الرابع

المشاهير من علماء الموارنة وفضلائهم في القرن السابع عشر

عد ١٠٢٧

بطرس المطوشي القبرصي ونصرالله شلق العاقوري

أما بطرس المطوشي نسبةً إلى قرية مطوش في قبرص فهو أحد تلاميذ مدرسة

الموارنة بروما ، أرسله إليها البطريرك سركيس الرزي سنة ١٥٨٤م مع تسعة تلاميذ آخرين منهم جرجس عميرة الذي صار بعداً بطريركاً ، وسركيس الرزي أخي البطريرك الذي صار أسقفاً على دمشق ، وموسى العنيسي من العاقورة الذي صار مطراناً على قبرص . وبعد أن أنجز بطرس المذكور بمدرسة روما علومه انضوى إلى جمعية الآباء اليسوعيين فكان من فضلائهم وعلمائهم ، وقد أرسله البابا بولس الخامس إلى ايليا بطريرك الكلدان مع سفيره آدم رئيس شمامسة كرسيه ، وصحبته الأب مارينوس اليسوعي أيضاً ليقبل الكلدان بحضورهم رجوعهم إلى الايمان الكاثوليكي ، وقد انفذ البابا المذكور معهما رسالة إلى بطريركنا يوحنا مخلوف مؤرخة في ٢٥ آب سنة ١٦١٤م بها يرغب إليه أن يرشد بطرس المطوشي ويوحنا مارينوس إلى ما يتصرفان به مع بطريرك الكلدان في أمر رجوعهم فذهبا إلى آمد ، وجمع البطريرك أساقفته بحضرتهما وجحدوا ضلال نسطور كما تقدّم في الكلام على هذا البطريرك . وفي جواب البطريرك إلى الحبر الروماني بولس الخامس أطيب الثناء على الموارنة الذين تعبوا معه في هذه المهمة وترجموا رسائله وأعمال مجمعهم من السريانية إلى اللاتينية .

وقد ذكر دي لاروك بطرس المطوشي وقال في حقه إنه من جمعية اليسوعيين ولاهوتي مبرز وله غرامطيق سرياني لاتيني ومقالة في اللاهوت الأدبي هي في مكتبة مدرسة الموارنة بروما . وكان الأب المطوشي في جملة من عيّنهم الكرسي الرسولي لفحص كتاب الفرض الكبير (الشحيم) مع الكردينال بلرمينوس وغيره من العلماء لطبع هذا الكتاب كما مرّ .

وأما نصر الله بن شلق فأصله من العاقورة وقد درس العلوم بمدرسة الموارنة بروما فنبغ فيها ورقي إلى درجة الكهنوت ، وأقام بأوروبا إلى حين ، وله مؤلف في الكنيسة وترجمة سفر أيوب من السريانية إلى اللاتينية ومقالات أخرى . وقد أحرز ثروة وافرة فأوصى عند وفاته أن تُنشأ بها مدرسة لأبناء طائفتنا في مدينة رافانا من أعمال ايطاليا . وأقام القس جبرائيل بن عواد الحصروني منفذاً لوصيته فأنشأ المدرسة كما عهد إليه على أنها لم تلبث طويلاً . فكان تأسيسها سنة ١٦٣٩م ثم أقفلت سنة ١٦٦٤م ونُقل تلاميذها إلى مدرسة الموارنة بروما . وكانت وفاة الخوري نصر الله سنة ١٦٣٥م .

عد ١٠٢٨

القس جبرائيل الصهيوني الاهدني

وُلد باهدن نحو سنة ١٥٧٧م من بيت الصهيوني أحد فروع أسرة كرم الشهيرة، وتلقّى العلوم بمدرسة الموارنة بروما، ونبغ وحاز قصبات السبق ونال مرتبة الملفان في اللاهوت، ورقي إلى درجة القسوس في روما، وأُقيم أستاذاً للغتين. العربية والسريانية في مدرسة السابانيسا (الحكمة) الشهيرة بروما، وحاز من الشهرة ما جعل لويس الثالث عشر ملك فرنسة يدعوه سنة ١٦١٤م ليكون معلماً في المدرسة الملكية بباريس، ثم شرفه بلقب ترجمان ملكي. ولمّا همّ الأب ميخائيل لي جاي أن ينشر البوليكلوتا (الأسفار المقدّسة بعدة لغات) الباريسية وكل إليه تعريب النسخة العربية وضبطها وتنقيح النسخة السريانية ومعارضتها بنسخ عديدة، ثم ترجمة العربية والسريانية إلى اللاتينية، وعهد معه هذه المهمة إلى ابراهيم الحاقلي الماروني الشهير والخوري يوحنا الحصروني الذي صير فيما بعد أسقفاً، وقد قدمنا ذكره وأنبأنا فالريانوس دي فلا فيني معلم العبرانية في مدرسة باريس في رسائل نشرها لانتقاد طبعة لي جاي أنّ العلامة الصهيوني كان قد أعدّ مقالة مسهبة في الترجمة العربية، ولا نعلم ما الذي منعه عن اشهارها، وقد فرغ لي جاي من طبعته هذه سنة ١٦٤٥م.

على أنّ والتن العلامة الانكليزي الذي عني بطبع البوليكلوتا في لوندرة سنة ١٦٥٧م قد انتفع كثيراً بأتعاب الصهيوني ورفاقه الموارنة المذكورين. وهذا ما قاله والتن في مقدماته على طبعته المذكورة في حق الصهيوني «إنّ هذا الرجل العظيم بذل تعباً شاقاً وكثير الفائدة لكل من يرغبون في أن يتضلعوا باللغات الشرقية والأسفار المقدّسة. ومن لم يقرّ له بالفضل كان غامطاً الاحسان، فنحن نعترف بفضله ونرى أنه يلزم الجميع أن يؤدوه شكراً لا ينقضي». وله أيضاً ترجمة كتاب الزبور من العربية إلى اللاتينية طبعه بروما سنة ١٦١٤م. وكتاب في نحو اللغة العربية طُبع بباريس سنة ١٦١٦م. وترجمة جغرافية أبي عبد الله محمد الادريسي من العربية إلى اللاتينية طُبعت بباريس سنة ١٦١٩م ومقالة في بعض مدن الشرق ودين أهلها وعاداتهم وخصالهم عاونه على بعض هذه التآليف الخوري يوحنا

الحصروني المار ذكره، وطبعه بباريس سنة ١٦٢٥م بالعربية واللاتينة. وفي المكتبة الماديشية نسخة من هذا الكتاب مخطوطة بيد الصهيوني نفسه سنة ١٦١٢م كما يظهر من الحاشية المعلّقة على آخرها، قد ذكرها المطران اسطفانوس عواد السمعاني في فهرست الكتب الشرقية في هذه المكتبة. وروى أكثر ما رويناه من ترجمة الصهيوني هنا وقال إنه توفي بباريس سنة ١٦٤٨م وكذا ذكر وفاته دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان. انتهى.

عد ١٠٢٩
العلّامة ابراهيم الحاقلي

وُلد هذا العلامة ونشأ بقرية حاقل من عمل جبيل بلبنان وتلقّى العلوم بمدرسة الموارنة بروما فنبغ وفاق أقرانه وعلّم العربية والسريانية أولاً بروما، وقد عهد إليه الأب لي جاي في طبع البوليكلوتا الباريسية بما عهد به إلى الصهيوني والحصروني المار ذكرهما. ومن مؤلفاته ترجمة كتاب ابن الراهب المصري القبطي في التاريخ الشرقي والحاقه بترجمته مقالات مسهبة في تاريخ العرب وأنسابهم، وقد طبعه بباريس سنة ١٦٥١ ومنها ترجمته قصيدة عبد يشوع الصوباوي المشهورة في المؤلفين البيعيين إلى اللاتينية وشرحه لها وحواشيه عليها، طبعت بروما سنة ١٦٥٣م وقد شرحها العلامة السمعاني بعده في المجلد الثالث من المكتبة الشرقية، واستدرك على الحاقلي قوله في محال كثيرة. وقد شرح السمعاني أيضاً كتاب ابن الراهب المذكور وانتقد على الحاقلي في عدة مواضع. وللحاقلي أيضاً كتاب في نحو اللغة السريانية طُبع بروما سنة ١٦٢٨م وترجمة الكتاب الخامس والسادس والسابع من تأليف ابولونيوس في الهندسة من العربية إلى اللاتينية اقترح عليه هذه الترجمة فردينوس الثاني دوق توسكانا. وله أيضاً مختصر في الفلسفة الشرقية طُبع بباريس سنة ١٦٤١م وترجمة قوانين القديس انطونيوس الكبير ومواعظه وأجوبته من العربية إلى اللاتينية وطبع هذه الترجمة بباريس سنة ١٦٤٦م. وله ترجمة ديوان الحيوان للسيوطي إلى اللاتينية.

وللحاقلي أيضاً كتاب الانتصار لافتيشيوس أي سعيد بن بطريق، ذلك أنّ

السلداني ترجم كتاب سعيد هذا إلى اللاتينية، وادّعى في مقدمات ترجمته أنه أثبت في كلامه على المراتب البيعية أنّ درجة القسوس والأساقفة واحدة، وهذا من مزاعم لوتار وكلوين والسلداني من مشايعيهما، فردّ الحاقلي زعم السلداني منتصراً لسعيد البطريرك الاسكندري بكتاب انطوى على مئتين واثنتين وأربعين صفحة مفنداً أدلّة السلداني ومبيّناً بشهادة الكتاب والتقليد الثابت في الكنيسة منذ نشأتها أنّ درجة الأساقفة غير درجة القسوس، وهي تفوقها مقاماً وسلطة بموجب الوضع الألهي، وإنّ كلام سعيد لا يؤخذ منه ما توهّمه السلداني. وألحق بهذا الكتاب جزءاً آخر اشتمل على نحو من خمس مئة صفحة تكلّم فيه على أصل كلمة بابا ورياسته مضاداً فيه السلداني المذكور. وممّا قاله في اسم البابا نقلاً عن مؤلفين نصارى ومسلمين أنّ هذا الاسم اصطلح عليه أولاً بطاركة الاسكندرية واستشهد في جملة شهوده أبا بكر العباسي: «في القسم الثاني من مقالته ضد النصارى» حيث قال: « فأنّ القسوس والعامة لما سمعوا أساقفتهم يسمون البطريرك أباً قالوا في نفوسهم: إذا كنّا نحن نسمي الأسقف أباً والأسقف يسمي البطريرك أباً فيجب علينا أن نسمي البطريرك بابا أي الأب أي الجد إذ كان أباً لأبينا. ثم لما سمعوا الأساقفة والبطاركة يسمون صاحب رومية أباً قالوا في أنفسهم إذا كنا نحن نسمي البطريرك أباً والبطريرك يسمي صاحب رومية أباً فيجب علينا نحن أن نسمي صاحب رومية بابا، فعرف صاحب رومية بهذا الاسم دون غيره إلى الآن عند أهل النصرانية جميعاً». والأظهر أنّ هذا الاسم أُخذ عن السريانية ܐܒܐ ܐܒܐ أي أبو الأب وهو الجد على أنّ اختصاص الأحبار الرومانيين به لم يكن بأمر بل كان من باب التغلّب والاستحسان. وللحاقلي في آخر هذا المؤلّف ردّ على هوتنجارس في كلامه في تاريخ العرب.

وللحاقلي أيضاً ترجمة قوانين المجمع النيقوي المعروفة بالقوانين العربية لأنها أخذت عن كتب عربية، فالحاقلي عارض هذه القوانين على ست نسخ عربية منها، وترجمها إلى اللاتينية وأشهرها مطبوعة. فمن هذه القوانين باليونانية واللاتينية عشرون قانوناً، لكن الشرقيين يعزون إلى المجمع المذكور أربعة وثمانين قانوناً وتتداولها أيدي الشرقيين أي الملكية والموارنة والقبط واليعاقبة والأحباش والنساطرة، ومنها ثلاثة وسبعون قانوناً ترجمها ماروتا أسقف تكرنيت في أواخر القرن الرابع من اليونانية إلى السريانية كما روى عبد يشوع الصوباوي في مختصر القوانين،

وأضاف إليها بعض المؤلفين العرب (لا نعلم من هم) أحد عشر قانوناً فصارت أربعة وثمانين قانوناً. وقد دافع الحاقلي عن هذه القوانين في كتيّب أشهره وهو مثبت في مجموعة المجامع للاباي (مجلد ١١). وذكر مرهج بن نيرون الباني الماروني في كتابه افوبليا (سلاح) الايمان وأثبتها الأب كونزالس اليسوعي في كتابه عصمة الأحبار الرومانيين، ولكن نبذها غيرهم من العلماء ولم يعتدوا نسبتها إلى المجمع النيقوي صحيحة.

وقد توفي الحاقلي بروما في ١٥ تموز سنة ١٦٦٤م، ونقلت كتبه إلى المكتبة الواتيكانية بعد وفاته وذكرها السمعاني في فهرست الكتب الذي علّقه على المجلد الأول من المكتبة الشرقية وعددها أربعة وستون كتاباً.

عد ١٠٣٠
مرهج بن نيرون الباني

أما مرهج فوُلد ببان احدى قرى جبة بشري ويسميه الغربيون فاوسطوس ترجمة كلمة مرهج. وروى دي لاروك أنّ خاله ابراهيم الحاقلي المار ذكره أخذه إلى روما وتلقى العلوم في مدرسة الموارنة بها، وحاز قصبات السبق وأقامه الكرسي الرسولي استاذاً للّغة السريانية في مدرسة السابيانسا (الحكمة) الكلية في روما خلفاً لخاله ابراهيم الحاقلي. ثم صار قانونياً في كنيسة القديس اوسطاكيوس هناك ولم يشغله ذلك عن الانصباب على التأليف والتصنيف وتنقيح كتب طائفته البيعية والعناية بطبعها. ومن تآليفه كتابه في أصل الموارنة ودينهم واسمهم وهو مشهور واستشهدنا به مرات في خلال تاريخنا هذا. وقد طبع بروما سنة ١٦٧٩م وله كتاب آخر واسمه بافوبليا (أي سلاح) الايمان الكاثوليكي، وقد استشهدنا به أيضاً مرات وقد طُبع بروما سنة ١٦٩٤م جمع به من كتب السريان والكلدان القديمة البينات الراهنة على صحة الايمان الكاثوليكي خلافاً للبروتستانت، وقد عني بتنقيح الأناجيل وسائر أسفار العهد الجديد، وطُبعت بمناظرته بالسريانية والعربية بأحرف كرشونية بروما سنة ١٧٠٣م، وأضاف إليها مقدمة كثيرة الفائدة دالة على فقاهته وطول باعه، وعاونه على تصحيح هذه الطبعة القس يوسف الباني الماروني مدرّس اللغتين

السريانية والعربية في مدرسة نشر الايمان المقدسّ. وقد أُخذت الطبعة السريانية عن نسخة كانت في مدرسة الموارنة بروما مرسلة من بطريركهم إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر (لم يذكر مزهج في مقدماته اسم البطريرك مرسل هذه النسخة، ويلزم أن يكون ميخائيل الرزي أو أخوه سركيس الرزي فهما كانا في أيام البابا المذكور) وهي الترجمة السريانية المعروفة بالبسيطة التي استعملتها طائفتنا من أقدم الأيام. وأما العربية فكان الأب ميخائيل المطوشي قد أتى بها من جزيرة قبرص، وكانت أكثر تهذيباً وضبطاً من سائر النسخ التي عورضت بها، وهي لا تطابق السريانية المطبوعة معها كل المطابقة كما لاحظت ذلك، ولكنها لا تختلف عنها حتى يصح القول أنّ هذه العربية ترجمت عن اليونانية ولا مرية في أنها عن السريانية، وتقرب من النسخة التي هذبها المطران سركيس الرزي وطُبعت مع اللاتينية العامية سنة ١٦٧١م بروما، وتختلف كثيراً عن العربية المطبوعة في البوليكلوتا كما تأكدت بمعارضتي هذه النسخ لدن وجودي في روما. وعن طبعة الأب مرهج هذه أخذ المطران جرمانوس فرحات النسخة التي عرّبها والمستعملة الآن في طائفتنا، ولدى كتابتي تفسير الانجيل زدتها مطابقة للسريانية وأوعزت إلى الأب يوسف العلم لما كان رئيس دير الكريم للمرسلين، فصنع كذلك في كتابه تفسير رسائل القديس بولس الرسول وباقي الرسل.

وروى دي لاروك (في المجلد الثاني من رحلته إلى سورية ولبنان صفحة ١٢٩) إنه كان بينه وبين مرهج مكاتبة وأثنى على رسائله وأنه كتب إليه في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٧٠١م أنه كان مشتغلاً بطبع العهد الجديد بالسريانية والعربية وقد أنجز طبعه فيما بعد. وإنه توفي سنة ١٧١١م وعمره نحو ثمانين سنة مشهوراً بتقواه ومهارته بالعلوم الشرقية وأنه يرغب في أن يكون كاهناً اتضاعاً بل كان شماساً وقانونياً في كنيسة ... (ترك اسم الكنيسة بياضاً ونعلم أنها كنيسة القديس اوسطاكيوس روما كما مرّ)، ونرى مرهج في عنوانات كتبه لم يصف نفسه بكاهن أو قس. ولكن رأينا الدويهي يقول في تاريخ سنة ١٦٥٦م: «دخل إليه (أي إلى البطريرك يوحنا الصفراوي) القس مرهج بن نيرون فوجده ملقى على الأرض والنور ينبعث من وجهه» ولا نعلم أصاحب الترجمة أراد أم غيره يسمى باسمه فبين سنة ١٦٥٦م التي كان فيها ذلك وسنة ١٧١١م التي توفي صاحب الترجمة فيها خمس وخمسون سنة أبقي مرهج كل هذه المدة كاهناً ولا

عجب إذا كان عاش ثمانين سنة وكان ارتقاؤه إلى الكهنوت وعمره خمس وعشرون سنة . انتهى .

عد ١٠٣١
مشاهير آخرون بالغيرة والنسك

إنّ من اشتهروا بالغيرة والنسك لجديرون بالذكر كالعلماء فهم أصحاب الفلسفة الروحية الحقة ، ومن هؤلاء من الموارنة في القرن السابع عشر انطونيوس الصهيوني الاهدني، والذي نعلمه من أمره أنه تلقى العلوم في مدرسة الموارنة بروما كما روى المطران اسطفانوس عواد السمعاني (في كتاب فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية صفحة ٥١) ثم اتخذ الطريقة الرهبانية ورقي إلى درجة الكهنوت بل صار رئيس كهنة اوبرديوط لأنّ المطران اسطفانوس وصفه بكلمة رئيس كهنة في ترجمة كلامه الذي وضعه على الكتاب الآتي ذكره وهو كتاب الأناجيل ورسائل بولس الرسول وباقي أسفار العهد الجديد حتى رؤيا يوحنا . وقد نسخه بالعربية والأحرف الكرشونية نسبةً إلى رجل اسمه كرشون من الجزيرة ، كان أول من كتب العربية بهذه الأحرف السريانية فأخذ النصارى يكتبون الأسفار المقدّسة بهذه الطريقة ليخفوا أسرار دينهم عن المسلمين العرب ، هذا ما ذهب إليه الصهيوني ومرهج الباني والمطران اسطفانوس عواد في كتابه المذكور. وكان هذا الكتاب في جملة الكتب التي أخذت عنها طبعة أسفار العهد الجديد التي عني بها مرهج الباني المذكور سنة ١٧٠٣م. وكان انطونيوس الصهيوني نسخه قبل تسعين سنة بأمر البابا بولس الخامس ويوحنا مخلوف بطريرك الموارنة عن كتب كانت بمدرسة الموارنة كما هو بيّن من الذيل الذي علّقه انطونيوس المذكور على آخر هذا الكتاب وهو: « في سنة ١٦١١م في السادس والعشرين من حزيران كان النجاز من نسخ هذا الكتاب في أيام آبائنا بولس الخامس الحبر الروماني الكلي الطوبى والبار يوحنا (مخلوف) الاهدني البطريرك الانطاكي الذي كرسيه بلبنان وتمتد سلطته الروحية إلى سورية كلها والامصار القاصية ، وهو مشتمل أسفار العهد الجديد أي الأناجيل . . . بيد الحقير انطونيوس بن اوفيمياني (كذا) الصهيوني رئيس الكهنة ، والراهب من اهدن بجبل لبنان السرياني الماروبي الذي كتب بأمر الرؤساء فصول الأناجيل الأربعة

وسائر أسفار العهد الجديد بحسب تقسيمها وعدادها في النسخة العامية الرومانية آخذاً اياها عن ثلاث نسخ كانت في مدرسة الموارنة بروما. وقد دوّن هذا المجلد السيد الشريف يوحنا راتموندوس» المشهور بمعرفة اللغات الشرقية.

وقد نسخ انطونيوس الصهيوني القسم الأول من فلسفة السريان المشتمل على أربعة كتب وهي كتاب الايساغوجي لبرفيريوس وثلاثة كتب من تآليف أرسطو الفلسفية. وهذه الكتب ترجمها حنين بن اسحق السرياني الطبيب من اليونانية إلى السريانية، والكتاب الذي نسخه الصهيوني هو في المكتبة الماديشية في عدد ١٧٦ وصفحاته ٣٥٠ صفحة. ونسخ أيضاً القسم الثاني من فلسفة السريان وهو يشتمل على تسع مقالات فلسفية لأرسطو وهو لحنين بن اسحق أيضاً، ونسخه الصهيوني في عدد ١٧٧ من المكتبة المذكورة وعدد صفحاته ٢٠٨. وله أيضاً نسخ القسم الثالث من فلسفة السريان لحنين المذكور أيضاً وهو في عدد ١٧٨ من المكتبة المذكورة منطوياً عى ٢٠٠ صفحة. وله أيضاً نسخ القسم الرابع من هذه الفلسفة لحنين في الفصاحة والشعر عدده في المكتبة المذكورة ١٧٩ وصفحاته ٣٩٥. وهذه الكتب الأربعة بالسريانية. وفي هذه المكتبة أيضاً الكتاب ٢٧٤ مقالة في الحساب والجبر بالعربية لأبي عبد الله أحمد شهاب الدين بن أبي جعفر (الذي كان في أواخر القرن الرابع عشر)، ومقالة في الخطوط الهندسية لأحمد بن علي. والمقالتان بخط انطونيوس الصهيوني. وهذا الكتاب يشتمل على ٢٤١ صفحة. فهذا ما علمناه من ترجمة هذا العالِم العامل.

وقد ذكر الدويهي في تاريخه عدة من أصحاب الفضل والنسك، فمنهم القس يعقوب الدويهي رئيس دير مار يعقوب باهدن، وقال إنه كان ورعاً فاضلاً عني ببناء الدير المذكور وبتعليم الأولاد، وتوفي سنة ١٦١٦م. ومنهم الخوري ميخائيل الاهدني الذي أخذ طريقة الحبسا بمحبسة مار ميخائيل في وادي قزحيا التي بناها أولاً القس بركة، ثم خلفه فيها القس موسى من اليمونة، وبعده القس يعقوب من بلاد البترون ثم القس ميخائيل ثم القس يوحنا، ثم القس ميخائيل، ثم القس جبرائيل ثم الخوري ميخائيل المذكور، وجميع هؤلاء من اهدن. وتوفي الخوري ميخائيل سنة ١٦١٧م وخلت المحبسة بعده من الحبسا.

ومنهم القس يوحنا ابن القس يوسف محاسب من غوسطا الذي اهتم سنة ١٦٢٨م بتجديد بناء دير مار شليطا مقبس بكسروان وهو أول الأديار المجددة في

كسروان، وكان أخوه القس سركيس مترهباً بدير قزحيا فانتقل إلى مار شليطا المذكور. وتوفي القس يوحنا سنة ١٦٤٠م وقام بالرئاسة بعده أو في حياته ابن أخيه الخوري سركيس. وسيأتي ذكره عند الكلام على هذا الدير.

ومنهم القس يوسف اين القس اصاف عن عرامون الذي بنى كنيسة مار عبدا هرهريا في فتح كسروان، ثم كنيسة السيدة هناك. ولبس الاسكيم الرهباني هو واخوته اندراوس وانطونيوس ويوحنا وأختهم رفقا وسيأتي ذكرهم.

من هؤلاء خاصة مؤسسو الرهبنة الحلبية اللبنانية وهم جبرائيل حوا وعبد الله بن عبد الأحد قرألي ويوسف بن البتن، فهؤلاء ألهمهم الله أن ينشئوا رهبانية قانونية عامة فخرجوا من حلب سوية سنة ١٦٩٣م وساروا توا إلى أورشليم لزيارة الأماكن المقدّسة والتبرّك بها. ثم امتثلوا أمام السيد البطريرك اسطفانوس الدويهي في أول شباط سنة ١٦٩٤م وكاشفوه بعزمهم على اقامة رهبانية تستسير بقانون واحد ويرأسها رئيس عام واحد، ويكون لكل دير من أديارها رئيس خاضع لسلطان الرئيس العام ويرتبط رهبانهم بنذور الطاعة والعفة والفقر الاختياري والاتضاع على اسم القديس انطونيوس أبي النساك، فسُرّ البطريرك بعزمهم وشكر لمسعاهم ولبّى دعوتهم وأبقاهم عنده. وفي اليوم العاشر من تشرين الثاني سنة ١٦٩٥م ألبسهم الزي الرهباني في دير قنوبين على سبيل التجربة قبل ابرازهم النذور، وسلّم إليهم دير القديسة مورا حذاء اهدن ليصلحوا بناءه ويقيموا به. ولحق بهم في آخر سنة ١٦٩٥م جبرائيل فرحات، وكان من عصبتهم بل زعيمهم. وجعلوا أحدهم جرائيل حوا رئيساً عليهم وشرعوا في انشاء هذه الرهبانية ودعوا إليها باشتهار قداستهم وفضائلهم، فأمّهم كثيرون للترهّب معهم. ورقى البطريرك رئيسهم إلى درجة القسوس وأخذوا يجمعون لهم قانوناً من وصايا القديس انطونيوس وتلامذته، وأخذوا سنة ١٦٩٦م دير اليشاع النبي حذاء بشري وسكنه بعضهم ورأسوا عليه عبد الله قرألي بعد أن رقي إلى درجة القسوس. وعندما عقدوا مجمعهم العام سنة ١٦٩٩م انتخبوا القس عبدالله هذا رئيساً عاماً بدلاً من القس جبرائيل حوا، وثبّت البطريرك اسطفانوس الدويهي قانون رهبانيتهم سنة ١٧٠٠م وسنعود في تاريخ القرن الثامن عشر على ذكر هؤلاء الأفاضل.

وقد نسك في لبنان في هذا القرن الحبيس فرنسيس كالوب دي شاستويل الفرنسي، وذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٢م حين قدم إلى لبنان، وفي سنة

١٦٤٣م حيث توفاه الله لرحمته. وروى دي لاروك ترجمته مطوّلة في المجلد الثاني من رحلته إلى سورية ولبنان من صفحة ١٥٢ إلى صفحة ٢٦٠ فنلخّص ترجمته عنه بايجاز. فقد وُلد باكس من فرنسة في ١٩ آب سنة ١٥٨٨م وظهرت عليه امارات التقوى منذ حداثته، ودرس من جملة علومه اللغة العبرانية وأتقنها وعلّق ملاحظات على النسخة السامرية من التوراة، وأرسلت هذه النسخة وملاحظاته إلى جبرائيل الصهيوني الماروني لتعلّق في البوليكلوتا الباريسية المتقدّم ذكرها. وكان هائماً بمطالعة الأسفار المقدّسة، علّامة بتفسيرها، فقصد أن يعتزل بفلسطين بعيداً عن الناس ناسكاً متكاملاً بعلم الأسفار المقدّسة. واتفق أنّ سفير فرنسة بالآستانة كان مسافراً إليها فسافرا معاً من مرسيليا في ٢٠ تموز سنة ١٦٣١م فأقام فرنسيس مدة في الآستانة مجانباً الناس. ومع ذلك ظهر فضله وعلمه وعرف اليهود بمهارته بلغتهم العبرانية وتضلعه بمعرفة الأسفار المقدّسة فأكثروا من التردد إليه والاعجاب به، وأهدى أحدهم وكان أعلمهم إلى الايمان القويم وأرسله إلى فرنسة موصياً أخاه به. ولما عرف فضله وعظم اجلال الناس له من كل طبقة وملة فتعمد الخروج من الآستانة فسافر منها في ٢٠ تموز سنة ١٦٣٢م وبلغ إلى صيدا وعزم أن يتنسك بلبنان فسار إلى بيروت ومنها إلى لبنان فبلغ إلى حصرون في ١٥ ايلول تلك السنة، ولبس زي الموارنة وسار من حصرون إلى اهدن ليستشير بأمره أسقف هذا البلد الذي كان حينئذٍ جرجس عميرة، فقبله بالترحاب وأمسكه عنده أربعين يوماً، وكان يودّ لو بقي دائماً عنده، لكنّه أيقن أنّ الله يدعوه للانفراد عن العالم. وكان البطريرك والأساقفة حتى الأمير فخر الدين قد أرسلوا يترحبون به، فمضى يزورهم مبتدئاً بالأمير فخر الدين ثم البطريرك والأساقفة وقابله الجميع بالاجلال والاحتفاء ولا سيما البطريرك يوحنا مخلوف الذي أمسكه عنده أياماً، وكاشفه فرنسيس بعزمه على الانفراد عن العالم للتوبة والنسك وسأله أن يقبله في عداد أبنائه، فعجب البطريرك به ووطّد عزمه وباركه فانصرف من عنده يزور الأرز، وعاد إلى اهدن التي فضّل الاقامة بها ليتعلّم اللغة السريانية ليطالع الأسفار المقدّسة بها، وكان باهدن حينئذٍ كاهن فاضل من رهبان قزحيا اسمه القس الياس اعتزل عن الناس في محل قريب من اهدن، فآثر فرنسيس السكنى بالقرب إليه في دير مار يعقوب المنقور بالصخر وعزم أن لا يخرج إلّا لضرورة قصوى. وعاش هناك عيشاً قشفاً صارماً صارفاً أوقاته بالتأمل والصلوة والمطالعات الروحية مانعاً نفسه من أكل اللحم وشرب الخمر مكثراً الصوم إلى الساعة الرابعة بعد الظهر مقتنعاً يوم الأربعاء والجمعة

والسبت من كل الصوم بالخبز والماء لا غير، ينام قليلاً (إذا اضطر إلى الراحة) على فراش خشن. ولما كانت الحملة على فخر الدين كما مرّ وفرّ سكان القرى اضطرّ فرنسيس أن يفرّ أيضاً مع القس الياس المذكور وأن يختبيا في المغاور والكهوف ويعانيا مشاق الجوع والعطش. ولما استكن عاصف القلق في البلاد عاد إلى نسكه وتقشفاته، وقصده بعض التجار الافرنج وأرادوا أن يدفعوا له مالاً يستعين به على معاشه فلم يقبل شيئاً. وكانت مطالعاته لأسفار العهد القديم بالعبرانية ولأسفار العهد الجديد باليونانية والسريانية التي تعلمها. ولما صير القس الياس مطراناً على اهدن (هو الذي ذكرناه في جملة الأساقفة وقلنا أنه من عائلة الصراصرة) وسكن في دير مار سركيس اهدن أسكنه معه واستمر عاكفاً على اماتاته وصلواته ثم انتقل المطران من اهدن فلم يشأ الحبيس أن يبرح مخدعه في الدير إلى أن أتى الأب شالستينوس رئيس الكرمليين في لبنان فأقنعه أن يترك هذا الدير ويأتي فيسكن معه في دير مار اليشاع، فأتى ولكن لم يشأ أن يغيّر شيئاً من عيشته النسكية وصلواته وتأملاته حتى كان الرهبان يتعجبون كيف يمكن شخصاً ربي بالتنعم أن يعيش مثل هذه العيشة الخشنة. ومرض أخيراً فتحمل أوجاعه بالصبر الجميل والهشاشة والتسليم لمشيئة الله والاشتياق إلى ملاقاة ربه الذي نقله إلى الحيوة الخالدة مع النساك المجاهدين في ١٥ أيار سنة ١٦٤٤م ليلة عيد العنصرة، ودُفن بدير مار اليشاع المذكور. وذكر دي لاروك أنّ الله صنع بواسطته آيات كثيرة في حياته وبعد وفاته.

والذي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٤م أنّه استحبس أولاً بدير السيدة بحوقا ثم بدير مار يعقوب الأحباش، ثم بدير مار سركيس على رأس النهر في رئاسة الأسقف الياس. ولما سكن هذا الأسقف في اهدن انتقل الحبيس إلى دير مار اليشاع في بشري وانتقل إلى الراحة التي لا زوال لها. وكان عبرة صالحة لأهل البلاد وبلغ أسمى المراتب بالورع والصوم والسهر وتلاوة الكتب وفي قمع جسده وتجرّده عن العالم وتعلّقه بالإلهيات حتى صدر منه معجزات وسبق فأنبأ بمزمعات. انتهى.

الفصل الخامس

الأديار والكنائس التي أُنشئت للموارنة في هذا القرن

عد ١٠٣٢
الأديـــار

من الأديار التي جدّدها أو أنشأها الموارنة في هذا القرن دير مار شليطا مقبس بكسروان ، والظاهر من عبارة الدويهي أنّ هذا الدير لم يكن حينئذٍ أول انشائه لأنه قال بتاريخ سنة ١٦٢٨م: «اهتم القس يوحنا ابن القس يوسف المدعو المحاسب من قرية غوسطا بتجديد بناء دير مار شليطا في أرض مقبس ببلاد كسروان وصار أول الأديار التي أنشئت في تلك البلاد» .

وكان أخوه القس سركيس مترهباً بدير قزحيا فانتقل إليه . وقال في تاريخ سنة ١٦٧٢م عندما سقطت كنيسة دير ما شليطا بمقبس جدّدها الخوري سركيس على يد البنّا القس جرجس الأميوني الماروني، وفي جانبها من جهة الشمال بنينا (يتكلم الدويهي عن نفسه) داراً لسكنى البطاركة إذا توجهوا إلى تلك الناحية. وفي المشرق نقلاً عن رسالة كتبها الخوري يعقوب عواد الذي صير بعداً بطريركاً أنّ جد بيت المحاسب المسمى باسيل من ميناء طرابلس رحل مع أولاده إلى ساحل علما ثم إلى غوسطا ، وإنّ أحد أولاد باسيل هذا المسمى سركيس ارتقى إلى درجة الكهنوت وكان خبيراً بالحساب فلقّب محاسب ، ومن نسله الخوري يوسف وولده الخوري يوحنا الذي جدّد بناء هذا الدير. وقد أنبأنا صاحب الرسالة المذكورة أنّه كان في المحل الذي بنى الدير فيه كنيسة قديمة اشتراها الخوري يوسف المذكور مع الأرض الكائنة فيها من أبي يوسف المقير من غوسطا سنة ١٦١٥م، ولا يعلم في

أي وقت بُنيت الكنيسة القديمة على اسم القديس شليطا، وأما بناء الدير فقد نُقش تاريخه على عتبة باب الكنيسة الغربي هكذا: «بسم الآب والابن وروح القدس إله واحد كمل عمار هذا الدير المبارك مار شليطا في أيام سيدنا البطريرك حنا (مخلوف) الانطاكي في تاريخ سنة ألف وستماية وثمانية وعشرين مسيحية بيد المعلّم نقولا الشامي. وكان المعتني الخوري المحاسب والخوري عطيا والخوري فرح والقرايا القريبة غوسطا ودرعون وبطحا وعجلتون وعشقوت». وتوفي القس يوحنا في ٢١ تموز سنة ١٦٤٠م وترك رئاسة الدير لابن أخيه الخوري سركيس، وكان القس حنا مزوجاً قبل أن يصير كاهناً وله ولد اسمه الشدياق الياس بنى كنيسة القديس سمعان العمودي في قرية غوسطا كما في احدى نسخ تاريخ الدويهي لسنة ١٦٤٥م، حيث يقول اعتنى الشدياق ايلياس ابن القس حنا الحاسب مع أهل غوسطا وجددوا كنيسة مار سمعان. وكان دير مار شليطا لسكنى الرهبان والراهبات كما كان في بعض الأديار قبل رسم المجمع اللبناني بالفصل بين الرهبان والراهبات. وكان بجانبه مسكن للبطاركة (قبل أن يزيده الديهي). وممن سكنه منهم البطريرك جرجس السبعلي، وتوفي فيه بالطاعون فلم يُدفن في الكنيسة بل خارجها ومدفنه قائم حتّى الآن نُقش عليه تاريخ وفاته. وقد زاد البرديوط سركيس الرقوم هذا الدير أملاكاً وشهرة.

وأقام الدويهي فيه مدة فأنشأ فيه مكتبة فجعل الرهبان ينسخون كتباً، وجمع غيرها وبقي إلى الآن قسم منها وقسم اغتالته أيدي الضياع. وتوفي سركيس البرديوط رئيس هذا الدير سنة ١٦٨١م وترك الرئاسة لابن أخيه القس يوحنا، وكان في هذا الدير الأسقف يوحنا محاسب رقاه الدويهي إلى أسقفية عرقا سنة ١٦٩٨م وأقام في هذا الدير وتوفي به سنة ١٧١٢م كما مرّ في الكلام على الأساقفة.

ومن هذه الأديار دير حراش ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٣م فقال اشترى الأسقف يوسف العاقوري (هو الذي صار فيما بعد بطريركاً) من الشيخ يوسف أبي حبيش أرض مار يوحنا حراش بخراج درعون بناحية كسروان، وأنشأ كنيسة جميلة على اسم السيدة العذراء وديراً جعله لسكنى الراهبات المتنسكات وبلغ عددهنّ إلى نحو ثلاثين راهبة، ورأس عليهنّ رفقة ابنة القس يوحنا المحاسب». وبعد وفاة هذه الرئيسة خلفتها في الرئاسة على هذا الدير ابنة أختها مريم، وكتب

البطريرك الدويهي إلى القس يوحنا رئيس دير مار شليطا وإليها رسالة لفصل خلاف كان بينهما تراها في «المشرق» (صفحة ٣٠٢ من السنة الخامسة). وفي سنة ١٦٤٤م عقد البطريرك يوسف العاقوري مع أساقفته مجمعاً في هذا الدير لاصلاح بعض العوائد البيعية. وسنأتي على ذكر هذا المجمع.

ومنها دير مار سركيس وباخوس في ريفون، وأول من أنشأه القس سليمان مبارك من غوسطا. وكان هذا الكاهن مزوجاً وله سبعة بنين، فبعد وفاة امرأته رغب هو وبنوه الاعتزال عن العالم في أحد الأديار فأتوا أولاً دير مار شليطا حيث أقاموا بعض سنين منضوين إلى رهبان هذا الدير، ثم انفصلوا عنهم وأتوا إلى ريفون سنة ١٦٥٥م فأنشأوا الدير القديم على خربة معبد كانت هناك، وقضوا حياتهم فيه مثابرين على النسك والعمل بما يعود عليه بالنفع إلى أن توفي القس سليمان سنة ١٧١٣م كما يظهر من الخط المنقوش على ضريحه في الدير المذكور. ومن أبنائه المطران يوسف مبارك الذي انتخب بطريركاً بعد تنزيل البطريرك يعقوب عواد سنة ١٧١٠م، ثم حكم الكرسي الرسولي بارجاع البطريرك يعقوب وأبطل انتخاب المطران يوسف إلى البطريركية.

ومنها دير مار عبدا هرهريا وقد ذكر الدويهي انشاءه فقال في تاريخ سنة ١٦٥٥م: «فيها اهتم القس يوسف ابن القس اصاف من قرية عرامون وبنى كنيسة مار عبدا هرهريا في طرف فتوح جبيل ثم كنيسة السيدة قبواً، ولبس الاسكيم الرهباني هو واخوته اندراوس وانطونيوس ويوحنا ثم أختهم رفقا ثم أبوهم وأمهم بعد أن تاركا حقوق الزواج بينهما برضاهما، وإذن مطران الأبرشية، وانقطعا عن العالم ووقفا كل ما يملكانه للدير راغبين في الفقر، وفي أن يكونوا جميعاً طائعين للقس يوسف إلى نهاية حياة كل منهم، وصاروا عبرة صالحة للناس باتخاذ الطريقة الرهبانية وبالسيرة الصالحة والعبادة والورع إلى نهاية عمرهم.

ومنها دير مار الياس النبي في غزير، بنى هناك الشيخ طربيه بن حبيش كنيسة على اسم ايليا النبي في أسفل غزير، ووقف لها بعض العقار، ثم بنى حذاء الكنيسة بعض مساكن فصارت ديراً، وكان ذلك نحو سنة ١٦٦٥م. وقال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٨٣م رام المشائخ الحبيشية أن يبيعوا للرهبان الكبوشيين كنيسة مار الياس التي بنوها في أسفل غزير فمنعناهم عن ذلك، ولكن سمحنا لهم

بأن يقيموا بها خمساً وعشرين سنة . وفي سنة ١٦٧٠م جدّد القس يوسف اصاف المذكور آنفاً بناء دير سيدة الحقلة ، وقيل إنّ هذا الدير ودير مار عبدا هرهريا كانا مشتركين فحصل نزاع بين الخدام على حراثة الأملاك أفضى إلى فصل أحدهما عن الآخر برأي بطريرك الطائفة وأساقفتها . وفي سنة ١٦٧٣م أنشأ المطران جبرائيل البلوزاوي دير السيدة في طاميش في جنوبي نهر الكلب ذكره الدويهي في تاريخ هذه السنة ، ويظهر من خط كان منقوشاً على عتبة باب الدير القديمة أنّ الشيخ أبا نوفل الخازن وأولاده اعتنوا ببنائه وتعب به القس عطاالله وتلميذه من غزير .

وفي سنة ١٦٨٢م أنشأ الشيخ سلهب الحاقلاني دير السيدة بلويزه في خراج زوق مصبح وجعله لسكنى الرهبان العباد ثم ترهّب فيه ولده القس اغناطيوس . وتسلّم الدير ثم تسلّمه الرهبان الحلبيون اللبنانيون سنة ١٧٠٧م وخصّ عند القسمة الرهبان الحلبيين .

وفي سنة ١٦٩٠م بنى القس خيرالله اسطفان دير عين ورقة في المحل المسمى المشرع ، ثم هطلت أمطار غزيرة فخربت ما بنى ، فجدد البناء في المحل الذي فيه الآن مدرسة عين ورقة الشهيرة ، وهذا الكاهن ارتقى فيما بعد إلى الأسقفية ودُعي جرجس . وفي سنة ١٦٩٦م جدّد الخوري جرجس صفير وأخوه ناضر بناء دير القديس مارون في الرومية بجانب القليعات بكسروان الذي صار فيما بعد مدرسة كما سيجئ .

وفي سنة ١٦٩٠م جدّد البطريرك اسطفانوس الدويهي بناء دير مار سركيس اهدن فإنه قال في خط عُثر عليه في بعض نسخ تاريخه ما ملخصه: «أنّ بناء دير مار سركيس كان على قناطر، ولما تزعزعت رممها ابن عمنا المطران بولس يمين ، ولما سكن في الدير ابن أخينا الخوري ميخائيل ردم قناطره ثم تداعى عماره فلم يسكنه أحد مدة ، فدُثر فوضعنا يدنا عليه وأزلنا القناطر كلها وأقمنا حائطاً متيناً في الوسط وعمرنا قبوين في الداخل أمام كل كنيسة قبو ، وبنينا فوقهما قلالي وأقمنا الحائط الغربي من الأرض فصاعداً . وكان البناؤون أربعة من رشميا والمتكلم عليهم القس جرجس الأميوني الماروني من قرية أميون بالكورة» فهذا القس كان من الملكية فصار كاثوليكياً مارونياً . وكذلك ذكر الدويهي في الخط المذكور أنه في سنة ١٦٩١م جدّد بناء دير القديسة مورا في اهدن بعد أن خرب ، فإنّ أبا ميخائيل

انطونيوس من أصنون ترهّب فعمرنا له هذا الدير ثم أعطى الدويهي هذا الدير للرهبان الحلبيين عند تأسيسهم الرهبانية فزادوا في بنائه.

عد ١٠٣٣
ما نعرفه من كنائس الموارنة التي بُنيت في هذا القرن

كنيسة السيدة في قرية بشعلة قال فيها الدويهي في تاريخ سنة ١٦٢٦م فيها القس يوسف ابن القس حبيب من قرية بشعلة نقض بناء كنيسة السيدة وعقدها قبواً.

وقال في تاريخ سنة ١٦٣٢م فيها القس يوحنا بن الشمالي أنشأ بقرية درعون ببلاد كسروان كنيسة القديس انطونيوس قبواً، وأخوه القس فرح بنى كنيسة السيدة. وكان الأخوان ورعين ولهما اليد الطولى في نسخ الكتب البيعية. وفيها نقض الشيخ أبو عماد بن الجميل كنيسة القديس عبدا في بكفيا وعقدها قبواً بثلاثة أسواق بمساعدة أهل بكفيا على يد البنّاء يوحنا الشامي. وكذلك القس بشارة من بيت الخراط اهتم بتوسيع كنيسة الملائكة بقرية بكفيا أيضاً.

وقال في تاريخ سنة ١٦٣٢م: «اهتم البطريرك يوحنا مخلوف فجدد كنيسة القديسة مورا بقرية كفر زينا» بقيت هذه الكنيسة على ما كانت عليه إلى أيامنا. ومن بعض سنين نقض أهل القرية البناء القديم وبدلوه بالبناء الحالي، وقد مدّيتُهم ببعض الاسعاف لأنها كنيسة القرية التي ربيت فيها. وقال الدويهي في تايخ هذه السنة أيضاً إنّ أهل كفرحاتا بالزاوية جدّدوا كنيستهم على اسم القدس ماما، وكان هذا البطريرك منذ سنة ١٦٠٩م توجّه إلى مجدل معوش بالعرقوب الشمالي وأقام بها مدة، وبنى هناك كنيسة السيدة الباقية حتى الآن على هيئتها القديمة.

وقال في تاريخ سنة ١٦٣٦م: «وفيها انتهى بنيان كنيسة السيدة بالعربانية من قرى المتن وكرسها المطران يوسف بن حليب العاقوري مطران صيدا في السادس من تموز، وكان المهتم ببنيانها الشيخ عون المكارى وأبو عطاالله ابن القبرصي والحاج ميخائيل أبو نعمه. وقال في تاريخ سنة ١٦٣٨م إنّ كنيسة الموارنة بأياس كانت قد خربت وكنيستهم بحلب احترق سقفها مع الدرابزين، وقدم السلطان إلى حلب

فاستأذنوه في بنائهما فأذن به ، فجدد الموارنة جزوع كنيسة ايليا النبي بحلب ، وعمّر الأرمن كنيسة باياس لتكون مشتركة بين الملّتين المارونية والأرمنية .

وقال في تاريخ سنة ١٦٤١م إنّ كنيسة الموارنة بالكفريات بقبرص كانت قد رتعت بيد الروم لأنّ الروم أغروا الخوري جرجس خادمها وبعض أقربائه فاتبعوا مذهب الروم وأخذوا الكنيسة وصار حينئذٍ الخوري بطرس خادماً لكفريات . وكان ذا نفوذ وغيرة فاستفتى العلماء فأفتوا له أنّ الكنيسة لم تكن للخوري جرجس بل للموارنة ، فاستحصل خطاً شريفاً باعادتها إلى طائفته ، وفي هذه الأثناء بنى الشيخ أبو نوفل نادر الخازن كنيسة السيدة في عجلتون وعين جعلاً لكاهن يقدّس بها كل يوم .

وقال في تاريخ سنة ١٦٥٤م إنّ القس جرجس ابن القس رزق الله البجاني أنشأ بمساعدة أهل بيت شباب كنيسة القديس جرجس في بحردق بقاطع بيت شباب ، وقال في تاريخ سنة ١٦٧٣م إنّ الشيخ أبا فارس وأخاه الشيخ أبا ناضر ابنَي الحاج أبي منصور الاهدني كاتب الأمير أحمد بن معن نقضوا كنيسة السيدة في دير القمر وعقدوها قبواً . وقال في تاريخ سنة ١٦٨٥م عن نفسه جدّدنا كنيسة مار عبدا على نهر الكلب (الدير المعروف الآن بدير مار عبدا المشمر) بعد أن كانت قد خربت من زمان طويل ، وأنشأنا في جانبها داراً تابعة لدار ما شليطا بمقبس .

وفي سنة ١٦٨٩م تمّ بناركنيسة مار الياس بغوسطا أنشأها الشيخ أبو قانصوه فياض الخازن بجانب الدار التي بناها لنفسه بالقرية المذكورة .

ذيل

المجمع الذي عقده البطريرك يوسف العاقوري

في دير حراش

عقد هذا المجمع البطريرك يوسف العاقوري في ٥ من كانون الأول سنة ١٦٤٤م في دير حراش ووُجدت نسخة منه في هذا الدير، ولكن سقط منها ورقة مشتملة على بعض الكلام في سرّي التوبة والأوخاريستيا، ومنه نسخة أخرى في دير الرهبان الموارنة بروما، وقد أخذنا ملخص قوانين هذ المجمع عن نسخة حراش إذ لم نعثر على غيرها، ونرى فيها بعض ما يخالف التهذيب المعمول به الآن منبئاً لنا بما كان في تلك الأيام. وإليك ملخّص قوانين هذا المجمع معربة عن النسخة المذكورة.

أولاً في المعمودية هي سرّ من أسرار الكنيسة السبعة ويلزم أن يكون التعميد في اليوم الثامن بعد المولد وإذا دعت ضرورة فبعد أربعين يوماً، ويكون غسل الطفل بعد تعميده حالاً. ٢ لا يؤخر التعميد لغيبة العرّاب أو لصنع حفلة أو تقدمة هدايا. ٣ لا يُسمح أن يكون العرّاب من الهراطقة. ٤ لا يرشم الطفل (أي لا يُعمد دون تلاوة الصلوات التي في رتبة التعميد) إلّا عند خطر الموت، وإذا لم يوجد حينئذٍ كاهن أو شماس فيحق لأي رجل أو امرأة كان أن يعمّد بحيث يتلو الكاهن الكلمات الجوهرية وهو يسكب الماء على الطفل وهي: «أنا أعمدك يا فلان أو يا فلانة بسم الآب والابن والروح القدس آمين» ومن عُمد كذلك لا يجوز اعادة صورة التعميد عليه بل تتلى عليه صلوات رتبة المعمودية ويُدهن بالميرون والزيت المقدّس ويُغسل للحال، وإن حصلت ريبة في صحة تعميده السابق فيُعمّد ثانيةً. بقول المعمّد: «إن كنتَ لست معمّداً فأنا أعمّدك يا فلان الخ». ٥ لا يُستعمل

في التعميد إلّا الماء الطبيعي صرفاً بارداً أم سخناً خلياً من العكر . ٦ يلزم الكهنة المعمدين أن يدونوا بسجل مخصوص اسم من عُمد واسم أبيه وأمه وعرابيه وزمان تعميده .

في التثبيت هو سر من أسرار الكنيسة السعة وخادمه هو الأسقف ويعطي هذا السر من كان عمره خمس سنين فصاعداً ويلزم تدوين أسماء المثبتين كأسماء المعمّدين .

في الاعتراف هو سرّ من أسرارالكنيسة السبعة وهنا الورقة الساقطة وهي تشتمل على القوانين المتعلقة بسر التوبة وسر الأوخاريستيا وبعض القوانين المتعلقة بسر الزيجة إلى القانون السادس منها .

القانون السادس زواج أخوين بأختين وقطريب لقطريبته (ربيب لربيبته) غير جائز إلّا باذن السيد البطريرك (هذا مباح الآن) . ٧ كل من تعدّى على خطيبة غيره أو استعان بحكام عالميين على ذلك أو رشاهم ومن يؤذن بهذا التعدي أو يأمر أو يرتضي به من أقربائها أو غيره فليكن ساقطاً بالحرم والكاهن الذي يكللهما فليكن محروماً (لطفت الأيام هذا القانون) . ٨ كل من طلب أو أخذ رشوة من أهل العروس وأقربائه ليكن محروماً . ٩ لا يذهب العريس عند العروس بل يلزم الاكليل في بيت العريس . ١٠ كل من تزوّج بابنة عمه أو بنت عمته أو بنت خاله أو بنت خالته أو بخالته أمرأة أبيه أو بامرأة عمه ومن أشبه كانت زيجته باطلة والبطريرك يوضح بطلانها . ١١ من تزوّج بامرأة وماتت فلا يحلّ له أن يتزوج ببنت عمها أو بنت خالتها . ١٢ إذا شذّ احد الزوجين عن دينه أو ثبت على المرأة الفسق أو جنّ أحدهما أو طرأ عليه مرض مهما كان فالزواج ثابت ولا طلاق إلّا بالممات . ١٣ يمنع عقد الزواج من اليوم الأول من كانون الأول إلى الغطاس ومن الأحد الأول في الصوم إلى الأحد الجديد ولا يحلّ الزواج إلّا من نهار الاثنين بعده وصاعداً . ١٤ المهر يكون برضى أهل العريس والعروس . ١٥ القرابة من جهة الميرون لا تمنع الزواج إلّا في الوجه الأول أعني بين القابل والمقبول وبين أبي المعمد وأمه وبين الذي يعمد . ١٦ يلزم أن يكون في المعمودية عرّاب وعرّابة . ١٧ لا تكن زيجة بين ابن العرابة والبنت التي قبلتها أمه (أي فليونتي لابني كما هي حرفية كلام المجمع وقد حصر المجمع اللبناني القرابة الروحية بين العرابين وبين

المعمود وأبويه ثم بين المعمّد والمعمَّد وأبويه لا سوى) . ١٨ المعمد أو الراشم لا يحل له أن يتزوج أم المعمّد أو المعمّدة . ١٩ المعمّد لا يحل له أن يتزوج بامرأة المعمّد أو الراشم . ٢٠ أبو المعمّد لا يحل له أن يتزوج بامرأة المعمّد . ٢١ المعمّد لا يحل له أن يتزوج بالبنت التي عمّدها . ومن تزوج خلافاً للقوانين المذكورة فُسخ عقد زواجه .

درجة الكهنوت القانون الأول الكهنوت سر من أسرار البيعة السبعة ، وكل من ضرب كاهناً أو شدياقاً أو راهباً أو أهانهم محروماً ولا يحلّه إلّا البطريرك . ٢ إذا قدّس كهنة جملة عن نفس ميت فالأولى أن يتشح كلّ منهم بأثواب التقديس ليفي الزامه بالقداس الذي أخذ حسنته (هذا القانون غير معمول به الآن ويكفي لباقي الكهنة أن يتشحوا بالمدرعة والبطراشيل أو البطرشيل وحدهُ . ٣ لا يجوز للكاهن أن يكون جابياً لمال الحكومة أو شيخاً لقرية أو يتقلّد فريضة من أحد ولا يجوز لأحد العامة أن يُكرهه على ذلك ومن خالف يؤدبه أسقفه . ٤ الرؤساء والكهنة يصير جنازهم وعليهم عدة التقديس كاملة ولا يكون دفنهم غير بالكتونة فقط . ٥ من تزوج بنتين واحدة بعدالأخرى أو تزوج بأرملة لا يصير كاهناً وكذلك من كان أعور أو مفلوجاً أو يقع في الهلّة أو ارتكب القتل عمداً . ٦ وكيل كرسي قنوبين يناط به تدبير أرزاقها دائماً وليس للبطريرك أن يعزله إلّا برأي المطارين . ٧ كل من صار مطراناً أو بطريركاً حرمت عليه المآكل المزفرة .

مسحة المرضى القانون الأول هي سر من أسرار البيعة ولا يُمسح المريض إلّا عند خطر الموت . ٢ لا يتقاعدن أحد من الكهنة عن مسحة المريض المشرف على الموت لأنها سر ضروري لحماية نفس الميت من محاربة الشيطان . ٣ كل من مات محروماً بغير اعتراف لا يحل لأحد من الكهنة أن يجنزه ويدفنه في مقبرة مكرّسة .

في الميراث القانون الأول الارث لا يكون إلّا بعد وفاء الدين وحسنة القداسات وباقي ما يلزم لدفن الميت . ٢ إذا مات رجل عن امرأة ووارث تعطى الامرأة أولاً نقدها والثمن من متروكاته أي ثلاثة قراريط من أربعة وعشرين قيراطاً .

قوانين أخرى غير ما تقدّم

القانون الأول كل كاهن افرنجي عرّف وناول جماعتنا الموارنة بغير أمر البطريرك يكون محروماً ، وكل ماروني اعترف وتناول عند الافرنج أو غيرهم يكون محروماً . ليس لأحد من الرهبان أن ينتقل من موضع إلى آخر دون اذن السيد البطريرك ، لا يتعدى أحد من الكهنة على رعية غيره في الأمور الروحية فليس له أن يعرف أحداً بغير اذن خوري الرعية إلّا في ساعات الموت لتعميد طفل أو حل مريض مشرف على الموت .

وصايا الكنيسة

القانون الأول لا يجوز لأحد تناول الأطعمة المزفرة يومي الأربعاء والجمعة إلّا ما وقع منها في عيد الميلاد إلى عيد الغطاس ومن القيامة إلى عيد الصعود . ٢ عيد التجلي وعيد الرسولين بطرس وبولس وعيد انتقال العذراء إذا وقعت يوم اربعاء أو يوم جمعة توكل فيها المآكل المزفرة . ٣ الصوم الكبير يصام إلى الساعة التاسعة كالعادة ويلزم سماع القداس إذا وُجد وإلّا فتلزم الصلاة . ٤ يبدأ في صوم الميلاد من اليوم الخامس من كانون الأول ويصام إلى الظهر وإذا وقع بدؤه يوم الأحد فيبتدى في الصوم يوم الاثنين . ٥ يبتدى بقطاعة الرسل في اليوم الخامس عشر من حزيران وفي قطاعة السيدة من أول يوم من شهر آب وإذا وقع بدؤها يوم الأحد لا يصام . ٦ على كل مسيحي أن يحضر القداس أيام الآحاد والأعياد المأمورة بطالتها ، ومن أهمل ذلك أخطأ خطأً مميتاً رجلاً كان أو امرأة .

وهذه هي الأعياد الواجبة بطالتها تشرين الأول في ٢٨ منه عيد القديس سمعان القانوني ويهوذا الرسول . تشرين الثاني في أول يوم منه عيد جميع القديسين وفي ٣٠ منه عيد القديس اندراوس الرسول . كانون الأول في الواحد

وعشرين منه عيد القديس توما الرسول وفي ٢٥ منه عيد ميلاد سيدنا يسوع المسيح وفي ٢٦ منه عيد السيدة والقديس اسطفانوس وفي ٢٧ منه عيد مار يوحنا الانجيلي. كانون الثاني في اليوم الأول منه عيد ختانة المسيح وفي السادس منه عيد الغطاس. شباط في الثاني منه عيد دخول المسيح للهيكل وفي التاسع منه عيد مار مارون البطريرك. آذار في ١٩ منه عيد مار يوسف خطيب مريم وفي الخامس والعشرين منه عيد بشارة العذراء. أيار في أوله عيد فيلبس ويعقوب الرسولين. حزيران في الرابع والعشرين منه عيد ميلاد يوحنا المعمدان وفي ٢٩ منه عيد القديسين بطرس وبولس. تموز في الخامس والعشرين منه عيد يعقوب بن زبدي الرسول. آب في السادس منه عيد التجلي وفي الخامس عشر عيد انتقال العذراء وفي الرابع والعشرين عيد برتلماوس الرسول. أيلول في الثامن منه عيد ميلاد العذراء وفي الرابع عشر عيد ارتفاع الصليب وفي الحادي والعشرين عيد متى الرسول وفي التاسع والعشرين عيد ميخائيل رئيس الملائكة.

وأما الأعياد المنتقلة فهي عيد القيامة وثانيه، وعيد الصعود، وعيد العنصرة وثانيه، وعيد الثالوث الأقدس في الأحد الذي بعد العنصرة، وعيد جسد المسيح وهو في الخميس الثاني بعد العنصرة، وعيد كنيسة المحل. هذه هي الأعياد اللازمة البطالة بها وحضور القداس وعلى الكهنة أن يشهروا في رعاياهم وجوب البطالة في هذه الأعياد ويجتهدوا في حفظ ذلك. انتهت أعمال هذا المجمع ولم نجد في نسخة حراش المذكورة اسم الأساقفة الذين وقّعوا عليه أو شهدوه بل قيل هناك أنه انتهى في اليوم الخامس من كانون الأول سنة ١٦٤٤م وعاد كل من المطارين إلى كرسيه والكهنة والرهبان إلى محلاتهم.

الباب الثامن عشر

تاريخ سورية في القرن الثامن عشر

القسم الأول

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأول

السلاطين العثمانيون العظام الذين تولوا سورية في هذا القرن وما كان في أيامهم

عد ١٠٣٤

السلطان الغازي أحمد خان الثالث

فرغنا من كلامنا على السلاطين في القرن السابع عشر بذكر انقضاء ولاية السلطان مصطفى خان الثاني، فخلفه السلطان الغازي أحمد الثالث وهو ابن السلطان محمد الرابع، وُلد ٣ رمضان سنة ١٠٨٤م هـ (٢٢ كانون الأول سنة ١٦٧٢م) وعند استوائه على سرير الخلافة والملك في شهر آب سنة ١٧٠٣م وزع أموالاً طائلة على الانكشارية فطمعوا وتمادوا في تحكمهم وطلبوا قتل المفتي فيض الله أفندي لمقاومته لهم في رغائبهم إليه، لكنه أضمر الفتك بهم لدى سنوح

الفرصة، ولم يلبث أن قتل منهم جماً غفيراً وعزل الصدر الأعظم تشانجي أحمد باشا الذي كان الانكشارية قد انتخبوه لهذا، المقام ونصب مكانه حسن باشا زوج أخته. ولكن حمله الانكشارية على عزله وكثر تبديل الوزراء ولم يلتفتوا إلى مساعي بطرس الأكبر قيصر روسيا إذ كان يدبر على اضعاف الدول المجاورة له وهي السويد وبولونيا والدولة العلية ليزيد في قوة مملكته. وعالن شارل الثاني عشر ملك السويد بالحرب وانتصر عليه أخيراً نصراً مبيناً في وقعة بلثافا سنة ١٧٠٩م حتى اضطر أن يفرّ من وجه الجيش الروسي ويلجأ إلى بلاد الدولة العلية ويغريها بمحاربة روسيا انتصاراً له ووقايةً لها من سطو قيصر الروس على أملاكها بعد اذلاله، فخاب مسعاه.

ولكن عهد السلطان بمنصب الصدارة العظمى إلى محمد باشا بلطه جي فعالن روسيا بالحرب، وقاد الجيش بنفسه وكان نحو مايتي ألف مقاتل. وبعد وقائع هائلة تمكن سنة ١٧١٠م من حصر القيصر وكاترينا معشوقته (كاترينا الملكة التي تزوج بها فيما بعد وخلفته بعد موته) فرشت كاترينا الصدر الأعظم بكل ماكان معها من الجواهر الكريمة والحلى الثمينة والمال فانقاد إلى مرغوبها وأوقف الحصار، واكتفى بتوقيع القيصر على عهدة فلكزن في ٢٥ تموز سنة ١٧١١م وتخلّى بمقتضى هذه العهدة عن مدينة ازوف، وتعهّد بأن لا يتدخل في شؤون بولونيا. ولو أخلص الوزير لنال من القيصر بهذه الفرصة ما هو أعظم من ذلك كثيراً، ولذلك كاد شارل الثاني عشر ملك السويد يتمزق غيظاً من عقد الصلح على هذه الشروط، وسعى لدى السلطان بعزل الوزير عن منصبه وابعاده إلى جزيرة لمنوس وولّي الصدارة بعده يوسف باشا، ولم يكن محباً للحرب فوقّع مع القيصر على معاهدة جديدة تقضي بهدنة مدة خمس وعشرين سنة تمتنع كلتا الدولتين عن الحرب فيها. ولم ينقضِ على هذه المعاهدة بعض أشهر إلّا استؤنفت الحرب لأنَّ بطرس الأكبر لم يقم باحدى الشرائط التي وُضعت في معاهدة فلكزن، وهي أن يخرب فرضة تجانرك الواقعة على بحر أزوف، فتدخلت انكلترا وهولاندة في المنع عن الحرب لأضرارها بتجارتهما. وبعد مخابرات طريلة عُقدت بين الدولة العلية وروسيا معاهدة في ١٨ تموز سنة ١٧١٣م وهي المعروفة بمعاهدة ادرنة وبموجبها تخلت روسيا عمّا لها من الأملاك على البحر الأسود. ولم يبقَ لها عليه فرضة أو ثغر، وبطل في مقابلة ذلك ما كانت تدفعه كل سنة لأمراء القرم كيلا يعتدوا على

قوافلها ، فيئس عندئذٍ شارل الثاني عشر ملك السويد من مساعدة الدولة له على روسيا ليعود إلى ملكه ، وترك بلاد الدولة بعد أن أقام فيها سنتين .

وتولّى في هذه الأثناء منصب الصدارة علي باشا داماد ، وكان ميالاً إلى الحرب هائماً بأن يرد على الدولة ما أخذ من أملاكها ، فأثار الحرب على جمهورية البندقية فاسترد منها المورة وما كان باقياً لها من المدن في كريت ، ولم يبقَ للبنادقة في بلاد اليونان إلّا جزيرة كورفو ، فاستنجد البنادقة بشارل الثالث عاهل النمسا فأسرع العاهل لانجادهم ، وطلب إلى السلطان أن يرد عليهم كل ما أخذه منهم وإلّا فيكون امتناعه عن الاجابة اعلاناً للحرب ، فأبى السلطان قبول ما اقترحه فتأججت نار الحرب وكان قائد جيش النمسا الأمير اوجان دي سافوا الشهير ، فانتصر على العثمانيين في ١٥ آب سنة ١٧١٦م وقتل الصدر الأعظم لاقتحامه ساحة القتال بنفسه مؤثراً الموت مجاهداً على الانهزام ، واستحوذ جيش النمسا على عدة مدن عثمانية ، ودخلوا بلغراد في ١٩ آب سنة ١٧١٧م عنوةً إلى أن أخذت الدولتان في المخابرات بالصلح وعقدت بينهما المعاهدة المعروفة بمعاهدة بشاروفتس ، ووقّع عليها في ٢١ تموز سنة ١٧١٨م. ومن شرائطها أن تأخذ النمسا بلغراد وقسماً كبيراً من الصرب ، وقسماً من بلاد الفلاخ وأن يبقى البنادقة محتلين ثغور دلماسيا . وإنها ترد المورة إلى الدولة العلية، وفي أثناء ذلك طلبت روسيا إلى الدولة العلية تنقيح المعاهدة السابقة معها بأن يبيح العثمانيون للروس التجارة ببلاد الدولة وأن يمرّوا بها إلى الحج في القدس وغيره من الأماكن المقدّسة دون تكليفهم إلى رسم جواز أو دفع شيء، فأجازت الدولة ذلك ووقّع على معاهدة به في ٩ تشرين الثاني سنة ١٧٢٠م وأضيف إلى هذه المعاهدة فقرة ذات أهمية كبرى وهي أنّ الدولتين تعهدتا بمنع نفوذ ملك بولونيا على أشراف مملكته ومقاومة جعل الملك ارثياً في أسرته ، فوضع بطرس الأكبر هذا الشرط أساساً لما ينويه من ايهان بولونيا والسويد والدولة العلية المجاورة له ليبني على ذلك دعائم هذا الملك الجباري الذي هو مؤسسه .

وأراد السلطان أحمد أن يعتاض عمّا خسره من ولاياتِه بأوروبا فانتهز فرصة اضطرابات كانت ببلاد العجم بسبب اكراه الشيخ حسين على التنازل عن الملك إلى محمد أمير أفغانستان . وكان حينئذٍ الصدر الأعظم ابراهيم باشا داماد فأسرع إلى احتلال ارمينيا وبلاد الكرج ، ولكن كان بطرس الأكبر قد سبقه فاحتلّ اقليم

طاغستان وجميع سواحل بحر الخزر الغربية . ورأى بطرس الأكبر أنه لا يتيسر له قهر العثمانيين فأوعز إلى سفير فرنسة بالآستانة أن يتوسط بينهما فوفق الدولتين على أن تمتلك كل منهما ما احتلته من البلاد، ووقعت الدولتان على معاهدة بذلك في ٢٤ حزيران سنة ١٧٢٤م، فلم يقبل الفرس ذلك، ونهضوا كرجل واحد لمحاربة الأجانب واخراجهم من مملكتهم، لكنهم لم يقووا على مقاومة العثمانيين الذين فتحوا سنة ١٧٢٥م عدة مدن وقلاع في همذان واريوان وتبريز، وساعد على ذلك انقسام الفرس والاختلاف بينهم، فإنّ الشاه أشرف قتل محمد أمير أفغانستان ونازع الشاه طهماسب ملك ساسان الشاه أشرف المذكور ثم اصطلحا سنة ١٧٢٧م على أن يملكا معاً. ثم توفي الشاه واستقلّ طهماسب بالملك فطلب من الدولة العلية أن ترد عليه كل ما أخذته من الفرس فلم تجبه إلى ما طلب، فأغار على بلادها فلم يشأ السلطان الحرب ورغب في الصلح فثار الانكشارية وهيجوا الأهلين، وطلب زعيم الثورة المسمى بترونا خليل أن يقتل السلطان الصدر الأعظم والمفتي وأمير الأسطول لجنوحهم إلى مسالمة العجم فتمنع السلطان عن الاجابة إلى طلبهم، لكنهم عالنوه أنّ لا بدّ من قتلهم شاء أم أبى، فاضطر إلى التسليم بقتل الوزير وأمير البحر دون المفتي فقُتلا وأُلقيت جثتاهما في البحر، وجرأهم تساهل السلطان لهم على مجاهرتهم له بالعصيان ونادوا بابن أخيه السلطان محمود خليفةً وأميراً للمؤمنين، فتنازل السلطان عن الملك دون معارضة سنة ١٧٣٠م وعاش معزولاً إلى سنة ١٧٣٦م . وفي أيامه دخل فن الطباعة في بلاده وأسست دار الطباعة في الآستانة بعد اصدار المفتي الفتوى بذلك مشترطاً عدم طبع القرآن الشريف خوفاً من تحريفه أو تصحيفه . انتهى مأخوذاً عن عدة مؤرخين .

عد ١٠٣٥

ما كان بسورية من الأحداث في أيام السلطان أحمد الثالث

قد مرّ في تاريخ القرن السابع أنه بعد انقراض ولاية المعنيين بوفاة الأمير أحمد معن دون عقب خلفه في الولاية على أعمال لبنان الجنوبية الأمير بشير شهاب سنة ١٦٩٧م وولاّه ارسلان باشا والي صيدا كل الأعمال من صفد إلى المعاملتين بكسروان، فجعل ابن أخيه الأمير منصور والياً بصفد، وقرر بني منكر المتاولة على

اقطاعهم باقليمَي الشومر والتفاح، وبني صعب المتاولة على اقطاعاتهم بلاد الشقيف ثم توجه الأمير إلى بلاد بشاره وصفد لجباية المال الميري فتوفي بصفد سنة ١٧٠٧م وقيل مسموماً فحُملت جثته من صفد إلى صيدا فدُفنت بها في مقبرة المعنيين. واجتمع أكابر البلاد وأعيانها وقرّ رأيهم على تولية الأمير حيدر بن الأمير موسى شهاب خلفاً له. وعرضوا الأمر لارسلان باشا والي صيدا وتوجهوا إلى حاصبيا فأجاب سؤلهم. فأتوا به إلى دير القمر وكان عمره احدى وعشرين سنة. ثم عزل ارسلان باشا عن ولاية صيدا فتولاها مكانه أخوه بشير باشا، فولّى المشايخ بني علي الصغير المتاولة على بلاد بشاره، فأخذوا يسطون على أطراف بلاد الأمير، وانضمّ إليهم بنو منكر وبنو صعب المذكورون، فنهض الأمير حيدر لكبتهم وردعهم، ولما بلغ إلى النبطية التقاه المتاولة فكانت وقعة دارت بها الدوائر على المتاولة وولّوا مدبرين وقُتل منهم خلقٌ كثير وتحصن بعضهم بالقرية، فأغارت عليهم فرسان الأمير فأهلكوهم عن آخرهم، وانجلى بنو الصغير من بلاد بشاره، فنصب الأمير الشيخ محمود أبا هرموش نائباً عنه بحكومتها، وكان ذلك سنة ١٧٠٨م فثقل ذلك على بشير باشا والي صيدا فأرسل يقوّي الأمراء بني علم الدين وغيرهم من اليمنية على الأمير حيدر الذي هو قيسي.

ففي سنة ١٧٠٩م عظم حزب اليمنية بالشوف وتظاهر الأمراء بنو علم الدين بالمضادة للأمير حيدر ومالأهم على ذلك الأمير يوسف ارسلان حاكم الشويفات، وكان محمود أبو هرموش الذي نصبه الأمير حيدر عاملاً ببلاد بشاره قد جار واعتسف فطلبه الأمير إليه فخاف ولجأ إلى بشير باشا ليحميه من غضب الأمير فنال له من السلطان لقب باشا، ولما رأى بشير باشا اشتداد ساعد اليمنية نصب الأمير يوسف علم الدين اليمني على ولاية الأمير حيدر شهاب وأرسله مصحوباً بعسكر، وبمحمود باشا أبي هرموش لطرد الأمير حيدر من دير القمر، فلما علم الأمير بذلك نهض من دير القمر إلى غزير ومعه بعض أعيان البلاد فأرسل الأمير يوسف علم الدين عسكراً يتعقب الأمير حيدر فكانت وقعة بغزير بين القيسيين واليمنيين، وتقهقر عسكر اليمنية إلى البحر على أنّ الأمير حيدر لم يثق بظفره في ما بعد على أعدائه فآثر الاختفاء على الحرب، وسار ببعض ذويه حتى الهرمل، فاختبأ هناك بمغارة تُعرف بمغارة عزرائيل. ولما تحقق اليمنية خروج عسكر القيسية من غزير دهموها سحراً فنهبوها وأحرقوها وقفلوا إلى دير القمر. وقال بعض الشعراء في ذلك:

نكب الحبيشيون أعظم نكبة   لما أغار عليهمِ الجمعُ الغفير
هذا جزا من زاد في طغيانهِ   فلأجل ذا أرختها ندمت غزير
سنة ١٧١١م.

وروى الأمير حيدر شهاب صاحب التاريخ هذه الحادثة بوجه آخر هو أنه لما تولى الأمراء اليمنية البلاد أرسلوا أربعين خيالاً يطالبون المشايخ آل خازن بالأموال الأميرية فحضر بعضهم إلى دير القمر ليسأل الأمير يوسف علم الدين رفع الخيالة عنهم، فأطلعهم محمود باشا أبو هرموش على كتاب من المشايخ الحبيشية يقولون فيه إنّ الخوازنة يعرفون مقرّ الأمير حيدر وهم يقدمون له الذخائر، فأنكر الخوازنة ذلك وقالوا ما ذلك إلّا مكيدة من بني حبيش علينا. وإذا أرادت الحكومة أن تحقق الواقع فلترسل الخيالة المذكورين إلى غزير، فإن قبلهم بنو حبيش كانوا صادقين بما كتبوا. فأمر الأمير يوسف بنقل الخيالة إلى غزير فمنعهم بنو حبيش وقتلوا منهم ثلاثة رجال وخمسة أفراس، فعرضوا ما كان معهم إلى الأمير يوسف فغضب وركب بعسكر لحرب غزير فانهزم الحبيشيون إلى نواحي طرابلس فأحرق غزير ونهبها.

أما محمود باشا أبو هرموش مدبر الأمير يوسف علم الدين فجار في البلاد بعد فرار الأمير حيدر شهاب وتزوج بنتاً من بنات الأمراء آل علم الدين، فزاد ذلك ثقلاً على القيسية وراسلوا الأمير حيدر أن يخرج من مخبئه ويعود إليهم، فأجابهم إلى ذلك، وسار من مغارة الهرمل وحلّ في قرية راس المتن عند المقدّم حسين اللمعي أحد محازبيه، وأنفذ الاعلام إلى القيسية بالشوف وغيرها، وقدّم إليه المقدّم مراد ابن المقدّم محمد والمقدّم عبدالله اللمعيان برجالهما، والشيخ سيد أحمد أبو علدرا والشيخ سرحال العماديان برجال الباروك والشيخ خازن الخازن وغيرهم. ولما بلغت هذه الأخبار إلى محمود أبي هرموش اعتراه الخوف فدعا اليمنية في الغرب والمتن والجرد، وكتب إلى بشير باشا والي صيدا وإلى نصوح باشا والي دمشق يستنجدهما، فنهض بشير باشا بعسكره إلى حرش بيروت ونصوح باشا بعسكره إلى قب الياس. ولما عرف محمود باشا بقدومهما كتب إلى بشير باشا أن يزحف بعسكره إلى بيت مري، وإلى نصوح باشا أن يقوم بعسكره إلى المغيثة فوق حمانا،

ونهض هو بعسكر البلاد إلى عين دارا وعزموا جميعاً أن يدهموا بيوم واحد الأمير حيدر، فاستشار الأمير حيدر أصحابه القيسيين فكان رأي المقدّم مراد اللمعي أن يقوم الأمير حيدر من وجه العساكر إلى كسروان فأنكر الباقون رأيه وصوبوا أن ينهضوا ليلاً إلى عين دارا فيدهموا محمود باشا وعسكره، وساروا للحال وقسموا عسكرهم ثلاثة أقسام فبلغوا عين داره غلساً ودخلها أولاً المقدّم عبدالله والمقدّم حسين اللمعيان، وتلظت نار الحرب فدخل عسكر الأمير حيدر عنوة إلى القرية ووثبت القيسية وأبدوا آيات البسالة، وهلك من الفريقين خلقٌ كثير ودارت الدوائر على اليمنية وقُتل المقدّم حسين اللمعي ابن الصواف صاحب المتن، وقُتل من الأمراء آل علم الدين ثلاثة وأسر أربعة وقبض على محمود باشا أبي هرموش، وضربت اليمنية أيدي الشتات، وما علم بشير باشا والي صيدا ونصوح باشا والي دمشق انخذال اليمنية واندعارهم عاد كلٌ إلى مقرّ ولايته،وبعد انقضاء القتال دخل رجل على المقدّم حسين اللمعي ولقبه بالمقدّم على عادته فانتضى سيفه وقتله قائلاً: أقتل ثلاثة أمراء وتناديني بالمقدّم، يريد أن يسمى أميراً.

ثم توجه الأمير حيدر من عين دارا إلى الباروك ومعه الأمراء اليمنية المأسورون فأمر بقطع رؤوسهم وهم الأمير يوسف والأمير منصور والأمير أحمد، وانقرضت بهم سلالة آل علم الدين، ثم أمر بقطع لسان محمود باشا أبي هرموش ولم يقتله حرمةً للدولة لأنه باشا. وسار من الباروك إلى دير القمر ظافراً فسمى المقدمين اللمعيين أمراء، وتزوج الأمير حيدر بينت الأمير حسين اللمعي وزوج ابنته للأمير عساف ابنه وأقطعه قاطع بيت شباب وبكفيا، ثم تزوج بأم الأمير مراد اللمعي وأقطعه نصف المتن وزوج أخته بالأمير عبدالله اللمعي وأحبه لما شاهده من بسالته يوم عين دارا، ثم أقطع الشيخ قبلان القاضي اقليم جزين، وعلي النكدي الناعمة وما يليها وسلخ عمل الغرب الأعلى عن ولاية الأمير يوسف ارسلان وسلمه إلى محمد تلحوق وأخيه بشير لأنّ الأمير يوسف المذكور أظهر ميله إلى اليمنية وأقطع الشيخ جنبلاط عبد الملك عمل الجرد ورفع مقام هؤلاء المشايخ وكتب لهم الأخ العزيز وخصّ بنفسه خمس قرى وهي بعقلين ونيحا وعين ماطور وبتلون وعين داره.

وفي سنة ١٧١٢م توفي الشيخ قبلان القاضي حاكم اقليم جزين هذا ما رواه صاحب كتاب «أخبار الأعيان»، وروى الأمير حيدر شهاب في تاريخه أنّ

وفاة الشيخ قبلان كانت سنة ١٧١٥م. واختلفت الرواية أيضاً في متروكات الشيخ قبلان، ففي تاريخ الأعيان أنه أوصى بكل ما له للأمير حيدر، وفي تاريخ الأمير حيدر أنه أوصى بنصف ماله للأمير حيدر وبالنصف الآخر للشيخ علي جنبلاط. ومهما يكن من هذا الخلاف فالأمير حيدر لم يأخذ مما تركه إلّا خمسة وعشرين ألف قرش وخصّ بنفسه من اقطاعه مرج بسره ومزرعة بحنين. وكان الشيخ علي جنبلاط متزوجاً بابنة الشيخ قبلان فقرّ رأي ذويه بعد وفاته على أن يخلفه في اقطاعه صهره الشيخ علي المذكور وأتوا به إلى الأمير حيدر فسلّمه اقليم جزين.

وفي سنة ١٧١٣م تأخر عند الأمير حيدر من المال الأميري عشرون ألف قرش فجمع أصحاب الاقطاعات وطالبهم بالمال فأجمع رأيهم على أن يسألوا عثمان باشا والي صيدا أن يمهلهم فطلب رهناً لامهالهم، فأرسل الأمير حيدر ابنه أحمد والأمير حسين اللمعي ولده حسناً والشيخ قبلان القاضي (أو الشيخ علي جنبلاط على رواية الأمير حيدر المذكورة) شرف الدين مزهر مقدّم حمانا والمشايخ اليزبكية ابن الشنيف ليكونوا رهائن عند عثمان باشا إلى أن يفي كل منهم ما عليه. وأما الأمير مراد اللمعي فتوجه بنفسه وكان له أصحاب من بني يارد ببيروت فدفعوا ما عليه من المال، وقيل بقي بعض من هؤلاء الرهائن عند عثمان باشا إلى أن عزل سنة ١٧١٥م من ايالة صيدا ونُقل إلى البصرة فأخذهم معه ثم عادوا إلى أهلهم. وفي سنة ١٧١٧م توفي الأمير عبدالله اللمعي زوج غضبية أخت الأمير حيدر الحاكم ولم يكن له ولد فأخذت أخت الأمير نصيبها من تركته بستان أبي كعكه بالبوشرية وجزيرة ابن معن عند منبع نهر بيروت.

وتوفي الأمير حيدر سنة ١٧٣٠م على ما في تاريخ الأمير حيدر شهاب. وفي أخبار الأعيان سنة ١٧٣٢م ونظن هذه الرواية أصح لأن الأمير حيدر ذكر أنه تولى سنة ١٧٠٧م وقال إنّ مدة ولايته ست وعشرون سنة فلصحة هذا القول الأخير يقتضي أن تكون وفاته سنة ١٧٣٢م كما في أخبار الأعيان. وكان الأمير حيدر عادلاً حليماً كريماً أحبه أهل البلاد وأرضى الدولة وتزوج بأربع نساء حسب السنّة وثلاث سراري ورُزق تسعة بنين وهم الأمير ملحم والأمير أحمد من أم والأمراء منصور ويونس وعلي ومعن وحسين من أم أخرى وهي أخت الأولى وكلتاهما من بنات عمه من حاصبيا، ثم الأمير عمر من أم الأمير مراد اللمعي، والأمير بشير من

بنت الأمير حسين اللمعي ، وفي أيامه ذلّ وانحط الحزب اليمني وارتفع شأن الحزب القيسي واستفحل أمرهم .

عد ١٠٣٦
السلطان الغازي محمود خان الأول

بعد انقضاء ولاية السلطان أحمد خان الأول رقي إلى منصة الملك السلطان محمود خان الأول ابن السلطان مصطفى الثاني ، وكان قد وُلد في ٣ آب سنة ١٦٩٦م وسلمت إليه مقاليد الخلافة والسلطنة في أوائل تشرين الأول سنة ١٧٣٠م وكان النفوذ حينئذٍ لبطرونا خليل زعيم الثائرين يولي من يشاء ويعزل من يشاء على حسب أهوائه ، حتى عيل صبر السلطان. واعتدى هذا الزعيم على بعض رؤساء الانكشارية فتألبوا للغدر به تخلصاً من شره فقتلوه ولم يقوَ محازبوه على الأخذ بثأره فعادت السكينة واستتب الأمن ورجعت جنود الدولة إلى الحرب مع العجم، وتغلبت الجيوش العثمانية في عدة مواقع على جنود الشاه طهماسب المار ذكره . حتى طلب الصلح فعقد بين الدولتين في ١٠ كانون الثاني سنة ١٧٣٢م على أن يترك العجم للدولة العلية كلما فتحته ما عدا تبريز واردهان وهمذان، فلم يقبل نادر خان أكبر ولاة العجم هذا الصلح وقلب المجنّ للشاه طهماسب وقصده بجيشه إلى أصفهان وخلعه وولّى مكانه ابنه عباساً القاصر ، وأقام نفسه وصيّاً عليه . وزحف إلى المدن العثمانية حتى حصر مدينة بغداد ، فأسرع الوزير طوبال (الأعرج) عثمان باشا لكبته ، فكانت عدة وقائع قتل باحداها عثمان باشا المذكور . وأخيراً عُقدت معاهدة صلح بين الدولتين في ٢٤ ايلول سنة ١٧٣٦م ومن شروطها أن تعيّن الدولة العلية نادر خان ملكاً على العجم وترد إليه ما أخذته منه، وأن تكون التخوم بين الدولتين كما تقررت في معاهدة سنة ١٦٣٩م في عهد الغازي مراد خان الرابع .

وبينماكانت الدولة تعاني هذه الحرب في بلاد العجم ، انتهزت روسيا هذه الفرصة فاتفقت مع النمسا على اذلال بولونيا أو قرض دولتها تبعاً لسياسة بطرس الأكبر . وتوفي اوغست الثاني ملك بولونيا سنة ١٧٣٣م فانتخب أعيان المملكة

ستانسلاس ملكاً عليهم ، فأعلنت روسيا والنمسا الحرب على بولونيا وسمت اوغست الثالث ابن اغوست الثاني ملكاً ولو لم ينتخبه الشعب ، فأعلنت فرنسة الحرب على النمسا انتصاراً للعدل ولبولونيا ، وسعت لدى الباب العالي لتحمل الدولة العلية على معاونة بولونيا في الدفاع حفظاً لهذا الحاجز الحصين بينها وبين روسيا ، فلم يلقَ معتمد فرنسة اذناً صاغية لدى وزراء الدولة ، ولذلك تغلبت روسيا على ستانسلاس واحتلت جنودها بولونيا . ولما شعرت النمسا بسعي فرنسة في الآستانة خافت عقد محالفة بين فرنسة والباب العالي فيحبط مسعاها مع روسيا في بولونيا ، وتسارعت إلى ارضاء فرنسة وأبرمت بينهما معاهدة في ڤيينا سنة ١٧٣٥م وأخذت التأهب للاشتراك مع روسيا في محاربة الدولة العلية ، وأوعزت إلى روسيا لتفتح الحرب فوجدت روسيا حجة لاعلان الحرب سنة ١٧٣٦م وأغارت جيوشها على بلاد القرم واحتلت الثغور التي على شاطئ البحر الأسود فكان ذلك داعياً للدولة إلى الصلح مع نادر خان شاه العجم على الشروط المذكورة المجحفة بحقوق الدولة .

ولحسن الطالع تقلّد منصب الصدارة حينئذٍ رجل حنكه الدهر واشتهر بالسياسة وسمو المدارك وهو الحاج محمد باشا ، فأشغل ذهنه السامي في ملافاة شؤون المملكة ، وحشد الجيوش واعداد المعدات الحربية حتى استطاع في وقت وجيز ايقاف الروس عن التقدّم في بلاد البغدان بل جعلهم يتقهقرون عنها ، وانتصرت في جهة أخرى الجيوش العثمانية على عسكر النمسا الذي كان قد أغار على بلاد البشناق والصرب والفلاخ وجلاهم عن الصرب فتقهقروا إلى ما وراء نهر الدانوب سنة ١٧٣٧م حتى طلبت النمسا الصلح بواسطة سفير فرنسة ، فعقد هذا الصلح في ٢٨ أيلول سنة ١٧٣٩م بين الدولة العلية والنمسا وروسيا ، ووقّعت هذه الدول على المعاهدة المعروفة بمعاهدة بلغراد ، ومن شرايطها أن تتخلّى النمسا للدولة العلية عن بلغراد وعمّا أعطى لها قبلاً من بلاد الصرب والفلاخ بمقتضى معاهدة بساروفتس المار ذكرها . وتعهدت روسيا بهدم قلاع ميناء أزوف ، وبعدم انشاء سفن حربية أو تجارية بالبحر الأسود أو بحر أزوف ، وبأن تردّ للدولة كلما فتحته من بلادها ، وانتهت هذه الحرب نهاية عادت بالشرف والفائدة على الدولة العليّة باستردادها أكثر ما فقدته بمعاهدة كرلوفتس . وبعد ذلك أقنع سفير فرنسة الباب العالي بعقد محالفة هجوم ودفاع بينه وبين السويد صداً لمطامع

روسيا إن اعتدت على احدى الدولتين، فعقدت هذه المحالفة سنة ١٧٤٠م ثم عقدت الدولة العلية مع فرنسة معاهدة في هذه السنة وهي عبارة عن تجديد المعاهدة التي كانت بين الدولتين سنة ١٦٧٣م مع زيادة في التسهيلات لفرنسة في تجارتها، وأرسل السلطان سفيراً من قبله اسمه محمد سعيد ليقدّم صورة المعاهدة للويس الخامس عشر ملك فرنسة مع هدايا نفيسة فاستقبله الملك بما يليق بمقام مرسله من الاجلال والاحتفاء وشيّعه كذلك، وأهدى معه إلى الدولة مركبين حربيين وبعض رماة المدفعية الفرنسيين ليعلموا المدفعية العثمانيين ويمرنوهم.

وفي ٢٠ من تشرين الأول سنة ١٧٤٠م توفي شارل السادس عاهل النمسا ولما لم يكن له من الأولاد إلّا ماري تراز أوصى لها بالملك، ولكنها لاقت كثيرين من نازعوها اياه كلٌّ منهم بسبب، وكانت فرنسة جملة من تدخلوا في هذه الحروب مع النمسا فأوعزت إلى سفيرها في الآستانة أن يطلب من الباب العالي أن يشترك معها في هذه الحرب على النمسا ويعرض عليه الاحتلال في المجر واسترجاع أملاكه فيها، وإنه بهذه الوسيلة يتقوى على روسيا ويوقفها عن التقدّم في بلاده، وإن لم يفعل ذلك تقدمت روسيا شيئاً فشيئاً في بلاده. فلم يُصغِ الوزراء لنصائح فرنسة هذه مع أنها نافعة حقيقة للدولة وإن حملت فرنسة عليها مصلحتها وأضاع رجال الدولة هذه الفرصة. وممّا يؤسف عليه تسليمهم ادارة شؤون بلاد الفلاخ والبغدان إلى بعض أغنياء الروم المقيمين بالآستانة بدلاً من أشراف البلاد الذين كان الباب العالي ينصبهم ولاة في هذه البلاد، فأولئك الأغنياء جاروا واستطالوا وأثقلوا الأهلين بالخراج والضرائب فمالوا إلى روسيا وباتوا يعتقدون أنها ستكون منقذتهم من هذا الجور.

وفي ١٣ كانون الأول سنة ١٧٥٤م خطفت المنية السلطان محمود خان الأول مأسوفاً عليه من جميع العثمانيين لاتصافه بالعدل والحلم وميله إلى المساواة بين رعاياه على اختلاف مذاهبهم، وفي أيامه اتسع نطاق أملاك الدولة ومحا بمعاهدة بلغراد ما لحق الدولة من العار والذلة في معاهدة كولوفتش، وكانت مدة عمره نحو ستين سنة ومدة سلطنته نحو خمس وعشرين سنة. انتهى.

عد ١٠٣٧
ما كان بسورية في أيام السلطان محمود الأول

في سنة ١٧٣٢م كان أسعد باشا العظم والياً في صيدا وتوفي الأمير حيدر شهاب حاكم جنوب لبنان ، فاجتمع أعيان البلاد وأرادوا أن يقيموا مكانه ابنَيه الأمير ملحماً والأمير أحمد فأبى الأمير ملحم أن يشارك أخاه في الحكم وسار إلى صيدا فطلب من أسعد باشا أن يوليه مكان أبيه، فخلع عليه وولاه ، فضمّ الأمير ملحم اخوته إليه وزوّج بنته للأمير فارس صاحب الشبانية اللمعي ، وبلغه أنّ بني علي الصغير أصحاب بلاد بشارة أظهروا الشماتة بموت والده وخضبوا ذيول خيولهم بالحناء سروراً ، فكتب إلى أسعد باشا يلتمس منه أن يوليه على بلاد بشاره فولّاه فنهض إليها ومال إليه سليمان الصعبي صاحب بلاد الشقيف فأمنه وأبقاه على ولايته ، ودهم بني علي الصغير المتاولة فالتقى بهم في قرية اسمها يارون فكسر جمعهم وشتته وأهلك منهم خلقاً كثيراً وقبض على مقدمهم نصار وفرّ اخوته. فتتبّع آثارهم إلى القنيطرة وقتل بعضاً ، ونهب تلك الديار وقفل عائداً إلى لبنان ومعه نصار المذكور معتقلاً . وبعد مدة حضر اخوته واستماحوا منه أن يطلق أخاهم وقدموا له فدية عنه فخلى سبيله وأعادهم إلى ولاية بلادهم من قبله فهاب الناس سطوته واعتزّ أهل ولايته .

إنّ اعتزاز أهل لبنان بسطوة الأمير ملحم واليهم حملهم على أن يسطوا على من جاورهم واعتدوا على أهل البقاع، فحنق سليمان باشا العظم والي دمشق فجمع عسكراً وسار بهم إلى البقاع قاصداً كبت اللبنانيين وردعهم عن سطوهم ، فرأى الأمير ملحم ما يكون من غوائل القتال فتداركه بأن استعطف الوالي واعتذر له عن أهل بلاده وتعهّد بأن يدفع له خمسين ألف قرش ، فارتضى الوالي بشرط أن يقدّم له الأمير رهناً إلى أن يتمّ دفع المبلغ المتفق عليه ، ووضع الأمير أخاه حسيناً رهناً وبقي عند الوزير إلى أن قبض المبلغ .

وفي سنة ١٧٣٤م انتقل أسعد باشا العظم من ايالة صيدا إلى ايالة دمشق وتولّى ايالة صيدا أخوه سعد الدين باشا الذي كان والياً بطرابلس، وتولّى سليمان باشا العظم طرابلس ، وعظمت سطوة بني العظم في سورية . وفي هذه السنة توفي الأمير عساف اللمعي وكان متزوجاً أخت الأمير ملحم ثم توفي أولادها بعد أبيهم

فعادت إلى دار أخيها الأمير ملحم وأخذت نصيبها من ارث زوجها وأولادها بساتين في نهر بيروت . وفي سنة ١٧٤١م ادعى أسعد باشا العظم والي دمشق على الأمير ملحم دعاوى لم تكن صحيحة ، وجهز عسكراً سار به إلى البقاع، وبلغ الأمير ذلك فحشد عسكراً والتقى الوزير إلى البقاع، ورأى الوزير أنّ عسكره لا طاقة له لقتال عسكر الأمير فقفل راجعاً إلى دمشق وتعقبه الأمير إلى قرب دمشق ثم عاد فأحرق بعض قرى البقاع .

وفي سنة ١٧٤٣م أظهر المتاولة أصحاب جبل عامل الخروج عن طاعة سعد الدين باشا العظم والي صيدا ، وامتنعوا عن اداء الأموال الأميرية وشرعوا يعيثون مفسدين في جوارهم. وسطوا على اقليم التفاح التابع ولاية الأمير ملحم فكتب الوزير المذكور إلى الأمير ملحم يستنهضه على قتالهم فلبى دعوته وسار من دير القمر بعسكر جرار حتى بلغ جسر الأولي عند صيدا . واستحوذ الرعب على المتاولة من قدوم الأمير إليهم فوجهوا رسلاً وهدايا إلى الوزير يلتمسون الصفح عمّا فرط منهم ، ويتعهدون بدفع ما بقي عندهم من المال ومالاً آخر ، فكتب إلى الأمير يخبره بما كان ويأمره بالعود إلى بلاده ، فأبى الأمير الامتثال وظلّ سائراً في عسكره إلى قرية انصار وفيها بنو منكر وبنو صعب ومحازبوهم ، فخرجوا لملتقاه في عسكرهم فهجمت عليهم رجال الأمير فاندفعوا من أمامهم مدحورين ، فتعقبهم اللبنانيون وقتلوا بعضهم وتحصّن الباقون في القرية، فهجم الأمير عليهم برجاله فظفر بهم وقتل منهم ألف وستمائة قتيل ، وقبض على أربعة من مشايخهم ونهب القرية وأحرقها وعاد إلى دير القمر ظافراً معتزاً، ومعه المشايخ الأربعة معتقلون، فألقاهم بالسجن وكتب إلى سعد الدين باشا والي صيدا يبشره بالظفر، فأجاب مظهراً رضاه ومثنياً عليه ، وأرسل له نفقات العسكر. ثم توسط بعد مدة الشيخ علي جنبلاط في أمر تخلية سبيلهم فأجابه الأمير إلى ذلك بشرط أن يدفعوا كل سنة ستة آلاف قرش وفرسين من الخيل الجياد .

وفي سنة ١٧٤٧م تولّى الأمير ملحم بلاد بعلبك وسيّر إليها أخويه الأمير أحمد والأمير منصوراً يديران شؤونها ، فأبطآ في اداء بعض مالها فكتب إليه الوزير يطلب المال وشدّد عليه الطلب وأغلظ له الخطاب ، وكان أسعد باشا يبغض الأمير ملحم لالتحامه مودة مع أخيه سعد الدين باشا العظم والي صيدا ، وكانت بين الأخوين نفرة، فوجس الأمير ودعا أعيان بلاده إلى اجتماع بالباروك للتشاور والاهتمام بجمع

المال الباقي للخزينة. وبلغ أسعد باشا هذا الاجتماع فوجّه رسولاً لطلب المال في الظاهر وأسرّ إليه أن يتجسس أعمال الأمير وما ينوي، ففطن الأمير لما بطن فأظهر للرسول البأس والشدّة وصرفه غير راضٍ، ولمّا بثّ لأسعد باشا بعد عوده ما رام عزم الوزير على أن يدهم الأمير على غفلة فسار مسرعاً بعسكر إلى صحراء بر الياس قاصداً قتال الأمير. وكان الأمير يقظاً فنهض عاجلاً من الباروك بجحفلٍ كبير وحلّ في المغيثة، فلما بلغ الوزير بر الياس مساءً وجد نيران الأمير تسطع على المغيثة، فعلم أنه يقظ حذور فعدل عمّا نواه من المداهمة وتلبث ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع زحف الأمير بجيشه إلى صحراء برّ الياس فكانت وقعة بين العسكرين تغلّب فيها العسكر اللبناني على العسكر الدمشقي وتتبّعه إلى الجديدة وأهلك منه خلقاً كثيراً. وعاد الأمير بعسكره إلى البقاع فنهب ما في قراه وأحرقها ووجّه فريقاً من عسكره إلى بلاد بعلبك فنهبها وأزاح واليها الأمير حيدر الحرفوش لأنه كان مع عسكر الوزير وولّى مكانه أخاه الأمير حسيناً لأنه كان معه. ولما عاد أسعد باشا من الحجّ بلغه ما فعله الأمير ببلاد بعلبك فاحتدم غيظاً وحنقاً وأخذ بجمع العساكر لقتال الأمير، ولكن لم يطل الوقت إلى أن نفذ الأمر السلطاني بضرب عنقه، وتولّى مكانه ابن عمه سليمان باشا العظم. وتوفي سعد الدين باشا العظم والي صيدا وتولّى مكانه عثمان باشا المعروف بالمحصل.

وكان الأمير ملحم قد تأخر عن دفع بعض المال بسبب الحرب المار ذكرها فطالبه به عثمان باشا مشدّداً عليه بنقده دون امهال، ثم شكاه إلى الباب العالي فصدر الأمر لوالي دمشق أن يساعد والي صيدا على ارغام الأمير على القيام بما عليه، فنهض عثمان باشا إلى جسر صيدا وأرسل فأحرق اقليم التفاح وقطع شجر الزيتون القريب من نهر صيدا، فزحف الأمير بعسكره إلى مزبود قاصداً القتال، ثم تصالحا وكفل عثمان باشا المال الباقي عند الأمير ورجع كلٌّ منهما إلى محلّه، ثم دفع الأمير ما كان عليه من المال.

وفي سنة ١٧٤٨م غضب سليمان باشا العظم والي دمشق على الانكشارية الذين فيها وأخرجهم من المدينة، ففرّ أحمد آغا قلتقجي رئيسهم وبعض جماعته إلى جبل لبنان ولاذوا بحمى الشيخ شاهين تلحوق، فقبلهم وتعصب معه أقاربه والمشايخ آل عبد الملك وأخذ الجماعة المذكورون يسطون على أبناء السبيل. وكتب سليمان باشا إلى الأمير ملحم أن يطردهم من بلاده فأمر الأمير المشايخ أن يطردوا

القلتقجي فأبوا رعايةً للزمام. فوجّه الأمير عسكراً فقاوموه فأحرق مساكنهم وقطع أشجارهم وطردهم ونزلاءهم من البلاد، فنزحوا إلى راشيا، ثم أرسل القلتقجي يلتمس العفو من سليمان باشا فأظهر له الصفح وأمره بالعود إلى دمشق آمناً، فاطمأن ورجع بجماعته، وما عتم الوزير أن قبض عليهم وقتلهم جميعاً، وأرسل المشايخ يسألون العفو من الأمير ملحم فطيّب خاطرهم وأمرهم بالعود إلى أوطانهم فشخصوا إليه فأكرمهم وعوّضهم مما أتلفه لهم.

وفي سنة ١٧٤٩م أرسل الأمير إلى الشيخ شاهين تلحوق أن يسطو على أطراف بيروت لأنّ ياسين بك حاكمها لم يكن يجلّ الأمير فلم يتمكن ياسين بك أن يدفع الشيخ شاهين عن تعدّيه المتواتر فشكاه إلى والي صيدا، فأرسل هذا الوالي يعرض ولايتها على الأمير ملحم فقبلها منضمة إلى ولايته، فتوطنها الأمراء الشهابيون وبقيت لهم الولاية عليها إلى أيام الجزار كما سيأتي. وفي سنة ١٧٥٠م اعتدى بعض من بني منكر المتاولة على اقليم جزين وقتلوا رجلين من أتباع الشيخ علي جنبلاط، فعظم ذلك على الأمير ملحم وحشد عسكراً سار به إلى قتال المتاولة وبلغ إلى جباع الحلاوة التي كان فيها بنو منكر، فواقعهم وظفر بهم وأهلك منهم ثلاثمائة رجل وفرّ الباقون إلى مزار هناك فتحصنوا به، فوجّه الأمير إليهم كتيبة يرأسها الأمير مراد اللمعي والشيخ ميلان الخازن فأهلكوا أولئك المتحصنين عن آخرهم.

وفي هذه الأثناء اعتدى الشيخ شاهين تلحوق في البقاع على بعض المارة في طريق دمشق، فوجّه سليمان باشا واليها نائبه بجماعة من جنوده فباغتوا الشيخ شاهين في قرية تعنائيل بالبقاع، فانهزم وقتل من أتباعه ثلاثة رجال، وبلغ الأمير ملحم ذلك فنهض برجاله إلى البقاع ودهم نائب والي دمشق فقتل من جماعته كثيرين وفرّ الباقون إلى دمشق. فحنق سليمان باشا على الأمير وأخذ يتأهب لقتاله وعرف مصطفى باشا القواص والي صيدا بهذا الخلاف فاهتم باصلاح ذات البين بين سليمان باشا والأمير ملحم، وشخص إلى البقاع وأرسل يلاطف سليمان باشا ويعرض عليه وسائل الصلح بينه وبين الأمير، على أنّ الأمير يدفع للباشا خمسة وسبعين ألف قرشاً تعهد الأمير بها وكفله مصطفى باشا والي صيدا، وارتهن عنده الأمير علياً أخا الأمير ملحم فبقي عنده خمسة أشهر إلى أن جمع الأمير المبلغ من البلاد ودفعه.

وفي سنة ١٧٥١م دعا الأمير ملحم مصطفى باشا والي صيدا إلى ضيافته فقدم

إلى دير القمر ومكث عند الأمير أياماً. وكان هذا الوالي مغرماً بالرمي بالبنادق وبارعاً فيه ولذلك لقّب بالقوّاص. ثم دعي من صيدا إلى الآستانة ونصب وزيراً للدفترياربة. وفي هذه السنة تخاصم رجل من دير القمر مع خادم للمشايخ النكدية وقتل الخادم، فقبض الأمير على القاتل وأودعه السجن لينظر بالدعوى عليه، ولم يكن القتل تصمماً، وعرضت أمه مبلغاً عظيماً من المال تفديه به فتردد الأمير بقتله. وشعر بذلك المشايخ النكدية فهجم بعضهم على السجن ليقتلوا القاتل فمنعهم من الوصول إلى السجن، لكنه اضطر أخيراً أن يقتله مرضاةً لهم وأكمن البغض لهم وعزم على الاقتصاص منهم متى سنحت الفرصة. وكان بين الشيخ خطار والشيخ كليب النكديين عداوة قدحت زند الخلاف بينهما ونهض أحدهما على الآخر فنفاهما الأمير من البلاد فسافرا إلى حاصبيا. وأحرق الأمير منازلهما بدير القمر وهدمها. ثم صالح الأمير اسماعيل والي حاصبيا بينهما وسأل الأمير العفو عنهما فرضي عنهما ورجعا إلى المناصف، ثم توفي الشيخ خطار وطيّب الأمير قلب الشيخ كليب ورجعه إلى دير القمر وعمّر منزله.

وفي سنة ١٧٥٤م دخلت شوكة صبير في يد الأمير ملحم فلم يكترث بها، ودخل الحمام وتطيّب فورمت يده ورماً عظيماً وخبثت القرحة حتى أعجزت الأطباء عن مداواتها، ونحل جسمه واشتغل بنفسه عن مهام تدبير البلاد فطمع أعيانها به وائتمروا عليه مع أخويه الأمير أحمد والأمير منصور فترك لهما مقاليد الولاية مكرها، فتسلماها وسار هو بعياله إلى بيروت وتوطنها متنزهاً عن الاحكام ومنقطعاً إلى درس الفقه ومعاشرة العلماء المسلمين، وبقي فيها إلى سنة ١٧٦١م حين داهمه مرض الموت فدعا الشيخ سعد الخوري صالح وأقامه وصيّاً على أولاده لأنهم كانوا صغاراً وهم ستة أمراء محمد ويوسف وقاسم وسيد أحمد وأفندي وحيدر وتوفي ببيروت ودُفن في جامع الأمير منقذ التنوخي وعمره ستون سنة. انتهى.

عد ١٠٣٨

السلطانان عثمان الثالث ومصطفى الثالث

أما السلطان عثمان خان الثالث فهو ابن السلطان مصطفى الثاني وُلد سنة ١١١٠هـ الموافقة لسنة ١٦٩٦م، وتسنم منصة الملك بعد وفاة محمود خان الرابع

سنة ١٧٥٤م، وسمّى في منصب الصدارة تشانجي علي باشا بدلاً من محمد سعيد باشا المار ذكره،فأساء المسعى معتمداً على رضى السلطان عنه، وأهاج الرعية. وكان من عادة هذا السلطان أن يخرج متنكراً للوقوف على حقيقة أعمال أعوانه وأحوال رعيته، فعلم بنفسه بمظالم وزيره ومطامعه فأمر بقتله ووضع رأسه في صحن من فضة على باب السراي عبرة لغيره، وعيّن مكانه مصطفى باشا سنة ١٧٥٥م ثم عزله سنة ١٧٥٦م وأقام مكانه راغب باشا الشهير. وكان من فحول الرجال المتقلبين بالمناصب والمحنكين بالسياسة إلّا أنّ الله لم يفسح بأجل هذا السلطان فتوفي في ١٦ صفر سنة ١١٧١هـ (٣٠ تشرين الأول سنة ١٧٥٧م) ولم يكن في أيامه أحداث تذكر فكانت مدة ملكه ثلاث سنين وأحد عشر شهراً وعمره ستون سنة.

وخلفه السلطان الغازي مصطفى خان الثالث وهو ابن السلطان أحمد الثالث وُلد سنت ١١٣٩ هـ وسنة ١٧٢٦ م. وكان ميالاً إلى الاصلاح راغباً في تقدم مملكته، وكان وزيره راغب باشا المار ذكره هائماً بذلك فبنى محلات للحجر على الواردات من الخارج في أيام الأوبئة، وأنشأ مكتبة عمومية أنفق عليها من ماله الخاص، وفكر في وسيلة غريبة لتسهيل النقل داخل المملكة لمنع الغلاء ورواج التجارة ذلك أن يصل بين دجله وبوغاز الآستانة بخليج عظيم يستعين عليه بمجاري بعض الأنهار والأودية ما أمكن، وربما كان أتمه لو أمهله المنون لأنه توفي في سنة ١٧٦٢م.

وبعد موت هذا الوزير انتشبت نار الحرب بين الدولة العليّة وروسيا، فإنّ اغوست الثالث ملك بولونيا توفي في تلك الأثناء فسعت كاترينا الثانية قيصرة الروس باقامة ستانسلاس بونيا توسكي ملكاً خلافاً لما تعهدت روسيا للدولة العلية أن لا تتدخل بشؤون بولونيا. وبحجة تأمين بولونيا ووقايتها من الحرب الأهلية احتلت جنود روسيا فرصوفيا بالاتفاق مع بروسيا، فأقام السلطان الحجة على هذا الاحتلال، فأجابته روسيا وبروسيا أنّ لا غرض لهما إلّا تأمين بولونيا، وإنه إذا أراد فليشترك معهما في ذلك، ولم يكن ذلك إلّا خدعة. ومات بطرس الثالث قيصر روسيا فخلفته كاترينا الثانية أدهى نساء عصرها وأقواهنّ، فزادت المسألة ارتباكاً وأهمية. واتفق أنّ بعض سكان الفلاخ النصارى انهزموا إلى أرض روسيا فطلب الباب العالي اخراجهم منها فكان الجواب مهيناً أسخط السلطان جداً فأوعز إلى كريم كراي خان القرم أن يوجد سبباً للحرب فحرش بعض القوزاق التابعين لروسيا أن يعتدوا على بعض المدن التابعة

للدولة فأغاروا على احدى المدن العثمانية وقتلوا بعضاً من سكانها، فأعلنت الدولة الحرب على روسيا، وأغار كيرم كراي على اقليم سربيا الجديدة الذي كانت روسيا قد تعهدت للدولة بتركه دون استعمار ليكون فاصلاً بين أملاك الدولتين، فعمرته روسيا فخرب كريم كراي بعض مستعمرات الروس وأخذ بعض الأسرى منهم، وسار الوزير الأعظم محمد أمين باشا بجيش للدفاع عن أملاك الدولة في الفلاخ والبغدان فلم ينجح لسوء تدبيره، فأمر السلطان بقتله سنة ١٧٩٦م ونصب مكانه في الصدارة وقيادة الجيش مولد واني باشا فكان أكثر خبرة بأمور الحرب. ولكن بينما كان جيشه يعبر على جسر من سفن نهراً كان الجيش الروسي على ضفته الأخرى فاض النهر فأقلب السفن وغرق من كان عليها، وقتل الروس من عبروا إليهم عن آخرهم فاحتلّ الروس ايالتي الفلاخ والبغدان.

وكانت روسيا في هذه الأثناء تبذل الجهد باثارة رعايا الدولة عليها، فهيّجت سكان المورة على العصيان وأخرجت بعض سفنها من بحر البلطيك فدارت حول أوروبا الغربية وبلغت بلاد اليونان فاستحوذت على بلاد كوردن لتجرىء اليونان على خلع الطاعة، فسارعت الدولة على اطفاء الفتنة وخرجت مراكب الروس من كوردن قاصدة جزيرة ساقس فالتقت بالاسطول العثماني في المضيق الذي بين الجزيرة وساحل آسيا الصغرى فتلظت نار القتال ساعات وكان النصر للأسطول العثماني الذي عاد بعد الظفر إلى ميناء جشمه، وتبعته سفينتان روسيتان ظنّ العثمانيون أنهما هاربتان من الأعداء وقاصدتان الانضمام إلى أسطولهم فلم يعترضوا لدخولهما في المرفأ، فألقتا للحال ناراً على المراكب العثمانية فاشتعل البارود الذي فيها وأحرق المراكب وغرقها في ٦ تموز سنة ١٧٧٠م.

وعزم الأميرال الروسي أن يهاجم الآستانة بمراكبه فلم يوافقه قائد الجيش البحري وآثر احتلال جزيرة لمنوس أولاً لتكون مركزاً لأعمالهم الحربية. وتمكن البارون دي توت المجري الذي دخل في خدمة الدولة أن يحصّن من خلال حصار لمنوس مضيق الدردانيل بما أمكن من السرعة حتى استحال على مراكب العدو العبور بهذا المضيق، وحوّل عدة مراكب تجارية إلى سفن حربية وجهزها بالمدافع والمدفعية بسرعة غريبة حتى تمكن حسن بك الذي أمّره على هذه المراكب أن يقاتل الأسطول الروسي على لمنوس ويبعده عنها، فسماه السلطان مكافأة له قبطان الأسطول العثماني، ورقاه إلى رتبة باشا. ولم ينجح الروس في طرابزون التي

حاولوا الاستيلاء عليها لكنهم احتلوا بلاد القرم وأعلنوا انفصالها عن الدولة واستقلالها تحت سيادة روسيا وحمايتها، وجعلوا شاهين كراي خاناً عليها خاضعاً للقيصرة كاترينا الثانية.

وفي سنة ١٧٧٢م تهادن الفريقان وأرسل كلّ منهما مفوضين للمخابرة بأمر الصلح وعقد مؤتمر لذلك بمدينة فوكشان بايالة البغدان، فعقد المجلس الأول في ٨ آب سنة ١٧٧٢م، واتفق الجميع على مدّ أجل الهدنة إلى ٢١ أيلول من السنة المذكورة، فاجتمع المؤتمر في ذلك النهار فطلب مفوضو روسيا الاعتراف باستقلال تتر القرم وبالحق لروسيا أن تسيّر مراكبها في البحر الأسود وسائر بحار الدولة العلية، فلم يقبل مفوضو السلطان هذه الشروط فمدّ أجل الهدنة إلى سبعة أشهر، واجتمع بعدها المؤتمر في بوخارست فطلب مفوضو كاترينا قيصرة الروس شروطاً أكثر اجحافاً بحقوق الباب العالي، وظهر أنّ الملكة قصدت بذلك مداومة الحرب فنبذ مفوضو السلطان هذه الشروط. وفي ٢٢ آذار سنة ١٧٧٣م صدرت الأوامر للجيش العثماني أن يستأنف القتال في أعمال الدانوب فقيّض الله النصر للجنود العثمانية وتقهقر الروسيون في عدة مدن هناك.

وكان الأسطول الروسي باقياً في البحر المتوسط وكان علي بك استبد بشؤون مصر وأصبح كأنه مستقل بها، فخابر الأسطول الروسي ليمده بالذخائر والأسلحة ليتم استقلاله، فارتاح الأميرال إلى ذلك رغبةً في اشغال الدولة بحروبٍ داخلية. وفتح علي بك بعض مدن سورية وعاونه على ذل ذلك ضاهر العمر والي عكا حينئذٍ. ونرجئ تفصيل أخبار هذه الحملة إلى ما سنذكره عن سورية وأخبار نهاية هذه الحرب إلى ما بعده. ونجتزئ الآن بالقول إنّ السلطان مصطفى الثالث عاجلته المنية في ٢١ كانون الثاني سنة ١٧٧٤م بعد أن استمر على سرير الخلافة ست عشرة سنة وأشهراً. انتهى.

عد ١٠٣٩

بعض ما كان بسورية في أيام السلطانين عثمان الثالث ومصطفى الثالث

في سنة ١٧٥٥م كان عبدالله باشا الشتجي والياً على دمشق وقد انعمت عليه الدولة بهذا المنصب لما كان بين الانكشارية والقباقول من العداوة، فحضر إلى هذه

المدينة ومعه ثلاثة عشر ألف رجل، فاجتمع أهالي دمشق إلى الميدان قاصدين منعه عن الدخول إلى المدينة، فدهمهم ليلاً وقتل منهم كثيرين، ودخل المدينة فخافه الناس. وقيل إنه كان يتنكر ليلاً ويطوف في شوارع المدينة فيقتل كل من وقعت له شبهة فيه، فأمن المدينة وردع الأوباش فيها.

وفي السنة المذكورة وقعت النفرة بين الأمير أحمد وأخيه الأمير منصور وبين ابن أخيهما الأمير قاسم ابن الأمير عمر، فنزح الأمير عمر إلى البقاع وقطع الطريق عمن يحضرون إلى بلادهما، فأرسل عماه يسترضيانه وأعطياه غزير، ولما رأى الأمير ملحم أنّ أخويه لم يحفظا ذمامه دعا الأمير قاسم وكاشفه بسره وأشار إليه أن يتوجه إلى الآستانة ويلتمس من الباب العالي الولاية على جبل الشوف، ويلتمس لنفسه الولاية على بلاد جبيل وأن تكون الولايتان اقطاعاً لهما ولذريتهما، وأصحبه بكتاب إلى مصطفى باشا القواص الذي كان قبلاً والياً على ايالة صيدا، وكان يحب الأمير ملحم وقد رقي إلى وزارة الدفتريارية. فسار الأمير قاسم سنة ١٧٥٨م إلى الآستانة، فرحّب به مصطفى باشا المذكور ووعده بقضاء حاجته، ولكن حال دون ذلك وفاة السلطان عثمان وخلافة السلطان مصطفى وعزل مصطفى باشا عن منصبه، لكنه عندما عزم أن يبارح الآستانة قدّم الأمير قاسم إلى علي باشا الحكيم الذي خلفه في الدفتريارية وأوصاه به، فأنزله عنده مكرماً، ثم أصحبه بكتاب إلى عبدالله باشا الشتجي والي دمشق أن يبقيه عنده إلى أن يصدر الأمر السلطاني بقضاء مأربه. فسار من الآستانة إلى دمشق فالتقاه عبدالله باشا مرحباً وعرض عليه ما يريد من الاقطاعات في ولاية دمشق، فلم يقبل احدها. ودنا وقت سفره إلى الحجّ فأمره أن يبقى بدمشق ورتّب له الاقامات الوافرة. ولما عاد عبدالله باشا سنة ١٧٥٩م من الحجّ لاقاه الأمير قاسم إلى المزاريب وقدّم له اثني عشر جواداً من جياد الخيل فتلقاه الوزير بالبشاشة والاعزاز، ولكن ورد في اليوم التالي خبر عزل علي باشا من الدفتريارية ورجع الأمير مع الوزير إلى دمشق. وبعد بضعة أيام عُزل عبدالله باشا أيضاً عن ايالة دمشق، فضاق صدر الأمير وعيل صبره فأتى إلى فالوغا ونزل على الأمير شديد مراد اللّمعي فكاتبه عماه في أمر الصلح فأجابهما إلى ذلك وعقد بينهما عهد وثيق على حفظ المودّة والمسالمة. فحضر من فالوغا إلى دير القمر فقابلهما وتوجّه إلى الحدث فتوطنها، ثم حضر إليه رسول من قبل الباب العالي مصحوباً بأمر إلى نعمان باشا والي صيدا وفرمان ليولي الأمير قاسماً على الشوف

وملحقاته . فأرسل الأمير إلى عميه وكتب إليهما أنه مقيم على العهد ويؤثر رضاهما على الولاية ، وطلب منهما سبعة آلاف قرش ليدفعها صلة لرسول السلطنة فلم يشأ عماه دفعها ، فنهض إلى صيدا ودفع الأمر إلى عثمان باشا واليها فخلع عليه خلعة الولاية على الشوف ودخل إلى بيروت فجأة واستولى عليها ، ففرّ عماه ولم يشأ أن يؤذيهما ، وجمعا أكابر الجبل وأعيانه فرفعوا عريضةً إلى والي صيدا أنهم لا يرضون أنّ الأمير قاسماً يحكم فيهم بل يلتمسون اعادة الولاية إلى الأميرين أحمد ومنصور ودفعوا له خمسين ألف قرشاً، فعزل الأمير قاسماً وسار الأمير قاسم إلى البقاع فكتب له عماه راغبين في الصلح معه فأجابهما إلى ذلك وأتى إلى عين داره ، وكانت من اقطاعه وبقي هناك . وفي سنة ١٧٦٢م زوّجه عمه الأمير منصور بابنته ليقربه إليه فولد له منها الأمير حسن والأمير بشير الكبير ثم ترك عين دارا وقطن بشامون ثم انتقل إلى بيروت ثم إلى غزير التي كانت اقطاعه وتوفي فيها .

وفي سنة ١٧٥٧م كانت في دمشق عدة وقائع بين الانكشارية والقباقول وكان دروز الجبل ينجدون الانكشارية ، واضطر عبدالله باشا الشتجي أن يجعل عسكره يباغت منازل الانكشارية وقتل من العسكر نحو عشرين رجلاً، ولكن اضطر الانكشارية أن يخرجوا من دمشق نحو ألف فارس .

وفي سنة ١٧٦٢م وقعت النفرة بين الأمير منصور وأخيه الأمير أحمد وتنازعا الولاية ، وكان أعيان ولايتهما انقسموا في أيام الأمير ملحم على حزبين أحدهما يُعرف باليزبكية والآخر بالجنبلاطية . وكان الأمير جانحاً إلى الشيخ عبد السلام العماد زعيم اليزبكية والأمير منصور يميل إلى الشيخ علي جنبلاط زعيم الجنبلاطية . وكان بين الزعيمين مناظرة فسار الأمير أحمد إلى دير القمر عازماً على أن يستبد بالولاية ، وتوجّه الأمير منصور إلى بيروت وكتب إلى محمد باشا العظم والي صيدا ليجعله منفرداً في الولاية ، فلبّى دعوته وسار بعسكر إلى حرش بيروت . ثم نهض الأمير منصور إلى دير القمر لقتال الأمير أحمد ففرّ إلى كفرنبرخ ودعا اليزبكية لقتال أخيه فلم يجيبوه إليه بل انقاد الشيخ عبد السلام العماد والشيخ شاهين تلحوق عميدا اليزبكية إلى الأمير منصور فاستقلّ بالولاية ، وكان مدبره الشيخ منصور اده . وقدّم الأمير إلى الوزير عشرة آلاف قرش فعاد إلى صيدا وبقي الأمير أحمد في كفر نبرخ ، وتوسط الشيخ علي جنبلاط والشيخ عبد السلام بأمر الصلح بين الأميرين فتصالحا على أن يسكن الأمير أحمد دير القمر غير متعرّض لولاية

أخيه ، وكان الأمير يوسف ابن الأمير ملحم أخيهما محازباً للأمير أحمد فضبط الأمير منصور أملاكه وأملاك اخوته . وكان الشيخ كليب والشيخ خطار النكديان في خدمته فهدم مساكنهما وانهزما إلى راشيا ، فسعى الشيخ علي جنبلاط بالصلح بين الأمير يوسف والأمير منصور فرضي الأمير منصور عن الأمير يوسف ابن أخيه وحضر لديه فالتقاه بالبشاشة لكنه ما برح ضابطاً أملاكه وأملاك اخوته ، وقام الأمير يوسف من دير القمر .

وكان الشيخ سعد الخوري وصيّاً ومدبراً لأولاد الأمير ملحم ، ولما علم أنّ الأمير منصور ما انفك ضابطاً أملاكهم ، أخذ يخابر أعيان البلاد في شأن الأمير يوسف واخوته ، ودرى بذلك الشيخ علي جنبلاط فناصح الأمير منصور أن يسلم أولاد الأمير ملحم أملاكهم فلم ينتصح ، فسئمت نفسه تصرّف الأمير وانحاز إلى نصرة الأمير يوسف بمساعدة الشيخ سعد الخوري وباتفاق مع الشيخ كليب النكدي . وطاف شيخ عقال الدروز مظهراً أنه يزور الخلوات لأمور دينية وكان يرشدهم سراً إلى ممالأة الأمير يوسف ، ثم توجّه إلى الأمير يوسف في بشامون وقصّ عليه ما عمل وما رأى ، فنهض الأمير يوسف قاصداً دمشق والتقاه الشيخ سعد الدين الخوري إلى قب الياس فسار إلى دمشق ، وكان واليها حينئذٍ عثمان باشا الكرجي ، وطلب مساعدته فكتب إلى ولده محمد باشا والي طرابلس أن يوليه بلاد جبيل ، فعاد الأمير يوسف وكتب إلى بعض محازبيه أن يلاقوه إلى جبيل فلاقاه أكثر مشايخ البلاد . ثم سار إلى محمد باشا والي طرابلس وكان وقتئذٍ في اللاذقية فولاه على بلاد جبيل والبترون . وأتى سنة ١٧٦٣م إلى جبيل واستقرّ فيها والياً .

فتقاطر إلى الأمير يوسف محازبوه من الشوف وغيرها وكثر أصحابه وأعوانه وارتفع شأنه بتدبير الشيخ سعد الخوري . وكان المشايخ آل حماده يتولّون بلاد جبيل والبترون فحاربهم الأمير وكسرهم في عدة وقعات حتى أضعفهم عن طلب الولاية ، وأحبه أهل هذه البلاد وعاونوه على رغائبه . وفي سنة ١٧٦٤م استنجده عثمان باشا والي دمشق لفتح قلعة سانور من صاحبها محمد الجرار فسار الأمير بجيش من لبنان فالتقى بالوزير وحاصروا القلعة فلم يفتحوها، قيل لتأخر رجال الأمير لأنهم قيسيون ، وأصحاب القلعة كذلك . ومع ذلك غمر الوزير الأمير باكرامه ورضاه ووجس الأمير منصور من الأمير يوسف لئلا يتصدر للولاية . ومع

ذلك أغراه عبد السلام العماد بالانتقام من الشيخ علي جنبلاط فطاوعه فعلم الشيخ علي بذلك فراسل الأمير يوسف وهيّجه على أخيه الأمير منصور، فنهض من دير القمر إلى مزرعة الشوف ولاقاه الشيخ علي ومحازبوه قائلين إنهم لا يريدون غيره والياً، وعُزل حينئذٍ محمد باشا والي صيدا الذي كان الأمير منصور يعتمد عليه فعدل عما كان قد عزم عليه من مضادة الشيخ علي جنبلاط، واضطر أن يلاطفه وأدخل بعض الأمراء في الصلح فخمدت نار الفتنة.

وفي سنة ١٧٦٦م قبض الأمير يوسف على جماعةٍ من الحمادية لتعدياتهم فالتجأوا إلى والي طرابلس فأمدّهم بعسكر وحضروا إلى بزيزا بكورة طرابلس، فسار الأمير يوسف إليهم وانتشب القتال بينهم في أميون فانكسر عسكر طرابلس وحضر جماعة منه في البرج الذي بأسفل القرية وقتل منهم عدة رجال ثم سلموا وانصرفوا إلى طرابلس ورجع الأمير إلى جبيل. وفي سنة ١٧٦٧م وُلد للأمير قاسم ولد سماه بشيراً وهو الأمير بشير المعروف بالكبير وبعد ثلاثة أشهر ونصف توفي. ونظم بعض الشعراء تاريخاً لوفاته وهو:

أيا قاسماً قد فقت فضلاً على الورى وسرتَ إلى مولاكَ حين مسيركا
ومن بالشهابيين قبلك قد رقى إلى درج العلياء أرّخ نظيركا

سنة ١١٨١ الموافق ١٧٦٧ م.

وفي سنة ١٧٧٠م توفي الأمير اسماعيل ابن الأمير يوسف ارسلان بلا عقب فأوصى بماله للأمراء آل شهاب، فاختلف الأمراء الموصى لهم في قسمة التركة ولا سيما الأمير علي أخو الأمير منصور وأخوه الأمير يونس والأمير سيد أحمد ابن الأمير ملحم، فأصلح بينهم الأمير منصور تاركاً نصيبه من الوصية وقسم بينهم فأخذ الأمير علي العقار الذي في وادي شحرور، والأمير يونس ما كان للموصى في برج البراجنة، والأمير سيد أحمد طاحون المخاضة وبعض العقار في نهر بيروت.

عد ١٠٤٠

خروج الأمير علي بك المصري والشيخ ظاهر العُمر في سورية

أثناء الحرب بين الدولة وروسيا أرسلت روسيا أسطولاً إلى البحر المتوسط كما مرّ . وأثارت بدسائسها ومساعداتها كثيرين من نواب السلطنة عليها ومن جملتهم هيّجت الأمير علي بك المصري، فحسنت له الأنقضاض على الدولة والعصيان عليها ، فحشد الجنود في مصر وأرسلها بقيادة محمد بك المكنى بأبي الذهب إلى الحجاز لاخراج الشريف من مكة . ولما وصل إلى جده ملكها بالأمان وولّى عليها حسن بك . ثم سار إلى مكة المكرمة وطرد الشريف منها وأقام غيره مكانه ورجع إلى مصر . فاشتهر الأمير علي بك بسطوته وصولته في كل مكان . وضربت السكة باسمه وخلع الوزير القائم على مصر من قبل الدولة وأقام عليها والياً من قبله . ولانشغال الدولة بمحاربة روسيا أغضت على جسارته وكان حينئذٍ والياً على عكا الشيخ ظاهر العُمر . وأصل هذه الأسرة من المدينة المنوّرة أتى زيدان جدّهم إلى صفد فولد عمر فتولّى على عكا في أيام الأمير بشير الأول الشهابي ، وعند وفاته خلفه ابنه ظاهر العُمر وجعله والي صيدا حاكماً على عكا محل أبيه ، وكان متفقاً مع المشايخ المتاولة حكام صور وبلاد بشاره ، ووقعت نفرة بين الشيخ ظاهر وعثمان باشا الصادق والي دمشق ، فحشد هذا الوالي عسكراً واستنجد الأمير منصور حاكم الشوف لقتال الشيخ ظاهر العمر ، ولما علم الشيخ ظاهر بذلك كتب إلى الأمير علي بك والي مصر وأرسل له هدايا وزيّن له الخروج على سورية ، وطلب أن يمده بالعساكر ، فسولت له نفسه امتلاك سورية بفرصة اشتغال الدولة بحرب روسيا ، فجهز ستة مناجق كبار وأمّر عليهم اسماعيل بك وأصحبهم بعشرة آلاف مقاتل من الغز والعرب والمغاربة وأمرهم أن يكونوا منقادين لطاعة ظاهر العُمر ، وأرسل الشيخ ظاهر أولاده فالتقوهم في يافا وحضروا بهم إلى عكا ، وقدّم لهم الشيخ ظاهر الذخائر . ولما علم عثمان باشا بذلك عدل عما كان بنفسه من الانتقام من الشيخ ظاهر وأخذ يتجهز للحجّ . وسار العسكر المصري يتقدمهم الشيخ ظاهر وأولاده إلى جهة المزاريب ، وفي نيّة الشيخ ظاهر أن يلتقي عثمان باشا هناك فيهلكه . فأبى اسماعيل بك أمير العسكر المصري أن يضرّ بالحجاج وعاد بعسكره إلى يافا ، فشكاه الشيخ ظاهر إلى الأمير علي بك بمصر فأخذ يجهّز عسكراً آخر

يرسله إلى سورية وأمّر عليه محمد بك المكنّى بأبي الذهب . وسنة ١٧٧٠م بلغ بعسكره إلى جهة الرملة فوجد اسماعيل بك هناك ووافى إليه الشيخ ظاهر وأولاده ومشايخ المتاولة فانضموا إلى عسكره فتألف جيش لا يقلّ عن ستين ألفاً ، ولما علم عثمان باشا بقدومهم لقتاله ارتاع ومع ذلك خرج بعسكره للقتال فلم يثبت رجاله إلّا قليلاً وانهزموا ، وخيّم أبو الذهب بجيشه حول المدينة قاصداً حصارها. وكان الأمير علي بك أصحب أبا الذهب برسالة طويلة أثبت الأمير حيدر شهاب صورتها في تاريخه فحواها الوعد والوعيد وتعداد مظالم عثمان باشا وأغراء القضاة والحكام وأصحاب المناصب بالمساعدة للجنود على كبته وردعه ، ولما نشرت هذه الرسالة على خاصة أهل دمشق وعامتهم خرجوا إلى محمد بك أبي الذهب مرحبين طائعين طالبين الأمان ، فأمنهم ودخل المدينة واستقرّ في دار الوزارة وأمر باطلاق المدافع على القلعة فطلب من بها الأمان وتسلّم القلعة أيضاً .

وكان الأمير منصور الشهابي يحب ظاهر العمر وبينهما علاقة ودّ ومصلحة . فاستمال الشيخ ظاهر أبا الذهب إلى الأمير وكتب له يطيّب قلبه ، ولما علم الأمير منصور بدخول أبي الذهب إلى دمشق ، أرسل إليه ثلاثة أفراس من جياد الخيل وكتب له كتاباً أثبت صورته أيضاً الأمير حيدر في تاريخه ، وأجابه أبو الذهب عليه أحسن جواب . وأما عثمان باشا فتوجه بعد انهزام عسكره إلى حمص وأرسل نائبه إلى الأمير يوسف شهاب يحثه على انجاده بالرجال ، وهو أقام يحشد الجنود من تلك الجهات حتى تألّب عنده خلقٌ كثير . ومن بعد دخول أبي الذهب إلى دمشق طفق اسماعيل بك المذكور يغيّر قلبه ويثني عزيمته ويخوّفه من عواقب الأمور بأنّ الدولة لا بدّ من أن يخلو بالها من الحرب فتلتفت إلى مصر بعين الانتقام ، ومن عصا السلطان فقد عصا الله . وما زال به حتى نهض أبو الذهب ليلاً بعساكره مفارقاً دمشق فعجب الناس كثيراً من هذا التغيير غير المنتظر ورجع الشيخ ظاهر العُمر ومشايخ المتاولة كلٌ إلى محله .

ولما بلغ عثمان باشا خبر رحيل أبي الذهب أسرع إلى دمشق وكان الأمير يوسف الشهابي قد جمع الرجال في البقاع وسار مجدّاً إلى دمشق فأكرمه عثمان باشا غاية الاكرام وخلع عليه ورجع إلى دير القمر وأقام بها، فمالت إليه أعيان البلاد ولهجت الألسن بالثناء عليه ، ووجس الأمير منصور من أنه لا بدّ أن يزاحمه في الولاية ، وزيّنت له الجبانة أن يخلع نفسه منها ويسلمها إلى الأمير يوسف ،

وكاشفه بذلك فتمنّع الأمير يوسف أولاً من ذلك مجاملةً واحتشاماً، وتخيّل الأمير منصور هذا خداعاً فأرسل الأمير اسماعيل أمير حاصبيا إلى الأمير يوسف يقنعه بقبول الولاية فاقتنع، فسار الأمير منصور من بيروت إلى الباروك والتقاه الأمير يوسف من دير القمر فتنازل الأمير منصور عن الولاية للأمير يوسف بحضرة أعيان البلاد، وكتب إلى عثمان باشا يخبره بذلك ويسأله أن يكتب إلى ابنه درويش باشا والي صيدا أن يوجه الخلع إلى الأمير يوسف، فكان ذلك جلّ ما يبتغي عثمان، باشا فأجابه إلى طلبه وأرسل درويش باشا الخلع إلى الأمير يوسف، فتولّى البلاد من ظاهر طرابلس إلى ظاهر صيدا، وتوطّن الأمير منصور بيروت إلى أن توفي.

ووصل محمد أبو الذهب إلى مصر فجأةً فتعجّب الأمير علي بك كل العجب إذ كان يعلم دخوله إلى دمشق وطرده عثمان باشا وسأله عن سبب عوده بغتة فجعل السبب تصلف الشيخ ظاهر وعشيرته عليه ونسبهم إلى الخيانة والمكر، فكتب الأمير علي بك إلى الشيخ ظاهر يعاتبه فأجابه منكراً ما عزاه إليه أبو الذهب وأرسل إليه ابنه الشيخ عثمان ليكون رهينة على صدق قوله واخلاصه، فتحقق علي بك خيانة أبي الذهب، ولم يلبث أبو الذهب حتى خرج إلى الصعيد وابتدأ يحشد الرجال، فجمع الأمير علي بك عسكراً وأمّر عليه اسماعيل بك المذكور وأرسله لقتال أبي الذهب في الصعيد. فاتفق اسماعيل بك وأبو الذهب على الأمير علي بك وعاد إلى القاهرة بالجيوش الغفيرة، فاضطرّ علي بك أن يفرّ من القاهرة إلى عكا عند الشيخ ظاهر العُمر، وجلس أبو الذهب على تخت القاهرة ونودي باسمه.

وكتب علي بك والشيخ ظاهر إلى الكونت ارلوف أمير الأسطول الروسي في البحر المتوسط أن ينجدهما فلبّى دعوتهما بارتياح، وكان في هذه الأثناء أنّ عثمان باشا والي دمشق أراد أن ينتقم من المتاولة والشيخ ظاهر العُمر لمعاونتهم العسكر المصري، فجمع عسكراً ضخماً سار به إلى بحيرة الحولة فحشد الشيخ ظاهر والمتاولة حشداً كبيراً وكبسوا ليلاً عثمان باشا فانذعرت عساكره وقتل منهم خلقٌ كثير، وغرق منهم جماعة في بحيرة الحولة، وفرّ عثمان باشا بنفر قليل وغنم المتاولة باسلابهم وكل ما كان في معسكرهم. وانهزم أيضاً درويش باشا والي صيدا ابن عثمان باشا مع أبيه إلى دمشق، ثم عاد إلى صيدا فعصا عليه مشايخ المتاولة وأرسلوا يتهددونه ليقوم من صيدا. وكتب عثمان باشا إلى الأمير يوسف أن يجمع رجال الجبل ويردع المتاولة، فنهض من دير القمر بجحفلٍ زهاء عشرين ألفاً

ولكن اعتصب عليه المتاولة والشيخ ظاهر العُمر وخانه بعض رجاله فلم ينجح بحملته عليهم، وعاد إلى لبنان بعسكره مكسوراً وخاف درويش باشا وفرّ من صيدا إلى دمشق.

ولما علم الشيخ ظاهر العمر ونزيله علي بك بقيام درويش باشا من صيدا سوّلت للشيخ ظاهر نفسه الخروج والعصيان فأرسل أحد خواصه يسمى أحمد آغا الدنكزلي فاستولى على صيدا وصار نائباً من قبله فيها. فكتب عثمان باشا والي دمشق إلى الباب العالي عمّا كان فصدر الأمر بقتال ظاهر العمر وعلي بك والمتاولة وردعهم عن عصيانهم. وتوفي في أثناء ذلك عثمان باشا والي دمشق وخلفه عثمان باشا المصري. وكتب إلى الأمير يوسف حاكم لبنان أن يجمع الرجال ليكونوا مع عسكر الدولة، وساروا جميعاً وكانوا نحو عشرين ألفاً، فأقاموا الحصار على صيدا سبعة أيام وإذا بالأسطول الروسي قد أشرف على المدينة وشرع باطلاق المدافع على العسكر العثماني ورجال لبنان فتنحوا إلى حارة صيدا. وكتب الشيخ ظاهر إلى الأمير يوسف أن يرجع بعسكره إلى جسر صيدا وهناك يكون الاتفاق بينهما، فأبى الأمير فسار الشيخ ظاهر بعسكره وفرسان الغزّ الذين أتوا مع علي بك وكانوا نحو عشرة آلاف، وانتشب القتال بينهم وبين عسكر الدولة والأمير وكان الظفر للشيخ ظاهر وعسكره، فانقلب عسكر الدولة راجعاً إلى دمشق ورجع الأمير يوسف برجاله إلى دير القمر.

وبعد أن رفع الأسطول الروسي الحصار عن صيدا سار إلى بيروت وشرع باطلاق القنابل على أبراجها فهرب الأمراء الشهابيون والأهلون من المدينة ودخلها الروسيون وانتهبوا كلما وجدوا وعادوا إلى مراكبهم. ولما بلغ الخبر إلى الأمير يوسف سار من دير القمر برجاله إلى حدث بيروت فأرسل أمير المراكب يطلب منه نفقة مراكبه ليتحوّل عن المدينة فأرسل له سبعة آلاف وخمس مئة قرش. ويروى خمسة وعشرين ألف قرش. فأخذها وعاد بمراكبه إلى عكا. كان كل ذلك سنة ١٧٧١م. وفي سنة ١٧٧٢م توجّه الأمير علي بك ومعه عساكر الشيخ ظاهر العمر قاصداً الديار المصرية ليسترد ولايته عليها، فالتقاه بجوار غزة محمد بك أبو الذهب والي مصر، حينئذٍ وانتشب القتال بين عسكر الفريقين فانكسر عسكر الأمير علي بك كسرة هائلة وجُرح هو في وجهه جرحاً بالغاً، وسقط على الأرض فانكب عليه أبو الذهب وقبّل يده وبكى عليه. وأقبلت عليه السناجق يقبّلون يده وحملوه

إلى مصر وأحضر له أبو الذهب الجراحين يداوون جرحه حتى أوشك أن يبرأ ثم دسوا له سماً في جرحه فمات وانقضى دوره.

وابتدأ دور أحمد الجزار وهذا الرجل كان بشناقي الأصل أتى إلى مصر في أيام ولاية الأمير علي بك المذكور وارتكب جرائم وأرادت الحكومة حبسه ففرّ إلى الأمير يوسف شهاب حاكم لبنان سنة ١٧٧٠م فأقام عنده أياماً ثم أرسله إلى بيروت ورتّب لها نفقةً من جمركها، ثم سار إلى دمشق فاستخدمه عثمان باشا واليها. ولما أرسل عثمان باشا المصري إلى الأمير يوسف الشهابي عسكراً ليضمّ إليه رجاله ويُخرجوا الدنكزلي من صيدا كما مرّ، كان الجزار في جملة عسكر الوالي. وبعد أن ضرب الأسطول الروسي بيروت ثم تحوّل عنها قدم الجزار مع نائب عثمان باشا إليها وأمر عثمان باشا الأمير يوسف أن يسلم الجزار بيروت ليحافظ عليها إذا طرقها الأسطول الروسي ثانيةً، فسلمه المدينة وبقي معه ثلاث مئة رجل من المغاربة. وشرع الجزار يرمّم أسوار بيروت المتهدمة ويهيئ معدات للحرب والحصار ويمنع أهل الجبل من الدخول إليها ولا يدع شيئاً يخرج منها، فتحقق الأمير يوسف أنه لا يريد العصيان عليه والخروج عن طاعته فجمع عسكراً حضر به من دير القمر إلى بعبدا فكتب إليه الجزار يطلب الاجتماع به بنفر قليل في ظاهر المدينة، فحضر الأمير إلى المصيطبه وخرج الجزار ببعض أصحابه إليه وأظهر الجزار التلطف والاتضاع للأمير وتبرأ من الخروج والعصيان والتمس أن يمهله الأمير يوسف أربعين يوماً فيقوم من المدينة ويسلمها إليه، فاغترّ الأمير بكلامه وأمهله، ولما انقضت الأربعون يوماً جاهر بالعصيان وأطلق للمغاربة الذين عنده أن يسطوا على أهل الجبل فجمع الأمير عسكراً ونهض به لحصار المدينة، وكتب إلى ظاهر العُمر والي عكا أن يوعز للأسطول الروسي بحصار المدينة واكراه الجزار على أن يسلمها إليه، فأجاب ظاهر العُمر إلى ما طلب الأمير فكان الأسطول بقبرص فسار بطلب الشيخ ظاهر إلى بيروت. واتفق الأمير يوسف وعمه الأمير منصور مع أمير الأسطول على أن يدفعا له ثلاثمائة ألف قرش على فتح المدينة وتسليمها، ورهنا عنده الأمير موسى منصور على هذا المبلغ، فشرع أمير الأسطول الحصار وأخرج فريقاً من عساكره إلى البرّ وأحاط المدينة برّاً وبحراً ودام الحصار أربعة أشهر. ولما تضايق الجزار كتب إلى ظاهر العمر أنه يسلم المدينة على يده بشرط أن يخرج منها هو وأصحابه دون ضرّ، فأجابه ظاهر العُمر إلى ما طلب وكاشف الأمير بذلك فرضيَه، وأرسل معتمداً

فأخرج منها الجزار وأصحابه وسلمها إلى الأمير يوسف. فجمع الأمير أسلحة أهلها وغرّمهم قسماً مما تعهد بدفعه لأمير الأسطول ونقده الباقي من ماله واستفكّ الأمير موسى. وأقلع الأسطول إلى قبرص فرجع الأمراء الشهابيون إلى بيروت وولّى الأمير عليها حاكماً من أهلها وعاد إلى دير القمر.

وفي السنة المذكورة أي سنة ١٧٧٢م راسل الشيخ ظاهر العُمر عثمان باشا المصري والي دمشق بأنه يرغب في رضى السلطان عنه والصفح عمّا فرط منه، فرفع عثمان باشا عريضة إلى الباب العالي بهذا الشأن وحسن لدى السلطان بالتكرم عليه بالعفو ..... وتأمينه في المستقبل. فكتب إلى عمال الدولة بسورية وخصّ الأمير يوسف شهاب بكتاب أثبته الأمير حيدر الشهابي في تاريخه فوصل هذا الكتاب للأمير وأجاب عليه جواباً حسناً رعايةً لخاطر الشيخ ظاهر العُمر، ولكنه كان يكره باطناً أن يكون ظاهر والياً على ايالة صيدا، ويكون الأمير خاضعاً له، ثم ورد له الفرمان السلطاني مع قبوجي من قبل الباب العالي، وقد أثبت الأمير حيدر صورة هذا الفرمان في تاريخه صفحة ٨٣٣ وكانت له الولاية على صيدا وعكا وحيفا ويافا والرملة ونابلس وصفد. وكان المتاولة جميعاً منقادين لأمره واطمأنّ خاطره واستفحل أمره.

وسنة ١٧٧٤م عرض محمد بك أبو الذهب إلى الباب العالي أنه حارب الأمير علي بك وقتله جزاءً لعصيانه، واستأذن بالحمل على الديار الشامية لتأديب الشيخ ظاهر العُمر شريك علي بك بعصيانه. فأذن الباب العالي بذلك فخرج من مصر كملك ومعه جيش كثيف نحو الستين ألفاً، ولما بلغ غزة ارتجت له البلاد وكان الشيخ ظاهر العُمر قد حصّن يافا وأقام بها الرجال والمدافع وجعل ابنه الشيخ كريماً حاكماً فأغلق أبوابها بوجه أبي الذهب فحاصره بها ستين يوماً ثم فتحها عنوة وأهلك من فيها ونهب أموالها، ولما بلغ ذلك الشيخ ظاهر أرسل يستنجد الأمير يوسف فكان في بيروت فجمع أعيان البلاد في الحرش ولم يصوبوا النجدة خوفاً من أبي الذهب. ولم يشأ الأمير أن يتخلّى عن الشيخ ظاهر فكتب كتاباً إلى أبي الذهب يستعطفه على الشيخ ظاهر وأرسل له هذا الكتاب معتذراً عن القيام معه، فردّ الشيخ ظاهر هذا الكتاب إلى الأمير وأقبل أبو الذهب على عكا وجاهر الأمير بطاعته، وطلب الشيخ ظاهر أن يواجه الأمير على جسر صيدا فاعتذر أيضاً عن المقابلة، فقام الشيخ ظاهر إلى صفد وسار منها بأولاده إلى عرب عنزة، وقدم

أحمد آغا الدنكزلي والي صيدا وعرض الطاعة لأبي الذهب فأمنه ثم عزله وحضر إليه الشيخ ناصيف النصار وقدّم له عشرين حصاناً فطيّب قلبه وأمره أن يبقى عنده إلى أن يحضر باقي مشايخ المتاولة ، ثم ملك أبو الذهب بلاد صفد ونكب دير ايليا النبي وقتل من وجد من رهبانه وهدمه فامتلأ بذلك كيل بغيه ، ولما كان ذات يوم جالساً في مظلته سقط مغشياً عليه ، وكان يصرخ ردوا عني هذا الشيخ المفترس . والناس لا يرون أحداً حوله ، ومات فشاع بين العامة أنّ ايليا النبي خنقه لهدمه ديره . فقال بعض الشعراء:

لما دنا كل المنى والهمّ عن قلبي ذهب
والسعد أقبل ظاهراً أرخت مات أبو الذهب

فحمل عسكره جثته وعادوا بها إلى مصر .

وبعد موت أبي الذهب رجع الشيخ ظاهر العمر إلى عكا وأرسلت الدولة العلية حسن باشا غازي بأسطول عثماني إلى سورية ، فوصل إلى يافا وكتب إلى الشيخ ظاهر أن يؤدي ما بقي عليه من الأموال السلطانية بحسب تعهده للدولة فيبقى على ولايته كما كان وإلّا عُزل . فجمع أولاده وأصحاب مشورته واستشارهم فقال بعضهم نترك عكا ونعتصم بالجبال، وبعضهم نحارب في عكا، وبعضهم نؤدي المال ونغنم الراحة . وقال أحمد الدنكزلي الذي كان والياً في صيدا مولاي إنّ سيف الدولة طويل وليس لمثلنا أن يحارب مثلها، فقال الشيخ ظاهر هذا هو الصواب وقد طعنت في السن ولم تبقَ لي طاقة على الحرب أو الفرار . وكان عند الشيخ ظاهر رجل اسمه ابراهيم الصباغ وكان قيّم بيته فقال له الشيخ أعدد لنا جانباً من المال نرضي به الدولة ، فقال ليس عندنا ما يقوم بالمطلوب ، وسواءٌ أرسلنا كثيراً أم قليلاً لا ترضى الدولة عنا . فقال الدنكزلي أعطني ماية ألف قرش وأنا أحملها إلى حسن باشا فأرضيه بها ، فقال ابراهيم ليس عند الشيخ إلّا رجال وسلاح فليفعل حسن باشا ما شاء . فاشمأزّ الدنكزلي وخرج إلى جماعته وكانوا على الأبراج فقال إنّ الشيخ يريد أن يلقي نفسه بالنار فاسلموا بأنفسكم وسدوا أفواه المدافع ولازموا الاقامة عليها حتى لا يطلق أحدها . ولما أبطأ الجواب قام حسن باشا بأسطوله إلى عكا وأمر محمد باشا العظم والي القدس أن يحضر بعسكره برّاً ،

وأرسل والياً إلى صيدا من قبله فتسلمها وأرسل الدنكزلي يخبره سراً بما كان ، فأمر الأسطول أن يرمي المدينة بالقلل ، وأرسل الشيخ ظاهر المغاربة ليطلقوا المدافع على المراكب فقال من في الأبراج إننا قوم مسلمون لا نحارب السلطان ، واعتصموا في الابراج لا يدعون أحداً يدخل إليها . فلما رأى الشيخ ظاهر ذلك جزع وفرّ من البلد . وبينما هو خارج من باب المدينة رماه أحد المغاربة برصاصة فأصابته في صدره فتجندل قتيلاً . فدخل حسن باشا إلى عكا وضبط خزائن الشيخ ظاهر فإذا هناك من الأموال والسلاح والتحف ما لا يمكن حصره . وأرسل حسن باشا كتاب الأمان إلى أولاد الشيخ ظاهر وطلبهم إليه فحضر أربعة منهم وهم عثمان وسعيد وأحمد وصالح ، فقبض عليهم وقتل أحدهم سعيداً لتطاوله في الكلام على الدولة وأرسل الثلاثة مع رأس أبيهم إلى الآستانة ، فأنعمت الدولة على أحدهم عثمان بالوزارة والولاية على جده وعلى أخيه أحمد بالولاية على مدينة في الروملي وأما ابراهيم الصباغ فقبض عليه حسن باشا وعذّبه حتى أقرّ بكل ما يعلم من ذخائره وذخائر مولاه ثم شنقه في أحد المراكب فسبحان الباقي .

عد ١٠٤١

أحداث أخرى بلبنان في هذه الأثناء

في سنة ١٧٧١م تجمّع المشايخ الحمادية ودهموا الأمير بشير حيدر نائب الأمير يوسف ببلاد جبيل وهو يومئذٍ في العاقورة ومعه شيخا بشري واهدن ، ودام القتال نهاراً كاملاً ، فظهر الأمير عليهم وقتل ثمانية رجال منهم وأبعدهم عن القرية وقتل من جماعته ثلاثة أنفار . ثم حضر رجال الجبة لنجدة الأمير بشير فخاف المتاولة وقاموا بعيالهم من جبة المنيطرة ووادي علمات في الكورة ولحقهم رجال جبة بشري . وبلغ الأمير يوسف ذلك فوجّه مدبره الشيخ سعد الخوري وأصحبه بعسكر مغاربة كانوا مع والي دمشق . ولما بلغ الشيخ سعد إلى جبيل بلغه أنّ المتاولة انهزموا إلى الكورة وأدركهم في دير بعشتار فأغار عليهم بمن اجتمع إليه من أهل تلك البلاد فظفر بهم واندعر من بقي منهم ، وظلّ يطردهم إلى القلمون ، وأهلك منهم نحوماية رجل وقبض على الشيخ علي أبي النصر ، ثم التمس الشيخ ميلاد الخازن اطلاقه فخلى سبيله . وكان الأمير يوسف سار بعسكر من بيروت فخيّم في نبع أفقا

فعاد الشيخ سعد إليه بعد قهره المتاولة فصرف الأمير يوسف المغاربة إلى بيروت وأقام ببلاد جبيل أياماً .

وفي سنة ١٧٧٢م جمع الأمير يوسف عسكراً من بلاده وسار به إلى الضنّية قاصداً قتال المشايخ آل رعد ولاتها لمحاماتهم عن المشايخ الحمادية وخيّم بعفصديق بالكورة فورد له كتاب من والي طرابلس يقول إنّ المشايخ آل رعد لجأوا إليه وأرسلوا كبيرهم يلتمسون منه تدخله في الصلح ، فأجابه الأمير إلى ما طلب وقام من عفصديق وأمر بحرقها لأنّ صاحبها الأمير أحمد الكردي كان يميل إلى الحمادية .

وكان الأمير يوسف قد التمس من عثمان باشا والي دمشق أن يولي أخاه الأمير سيد أحمد على البقاع فولاه ، وتوجه الأمير سيد أحمد فأقام بقلعة قب الياس وعمّر ما كان مهدماً منها ، وأتى إليها بآلات حربية وأخذ يسطو على مارة الطريق، ونهب قافلة لتجار دمشق كانت مارة في الطريق، فكتب عثمان باشا إلى الأمير يوسف أن يردع أخاه عن التعدي ويردّ ما سلبه من القافلة ، وكتب الأمير إلى أخيه فلم يجب فاعتذر الأمير للوزير عذراً لم يقبله . ففي سنة ١٧٧٣م قام الوزير بعسكره إلى البقاع وعرف الأمير يوسف فنهض بعسكره إلى المغيثة ثم انحدر لقتال الوزير ، وكانت بينهما وقعات لم يتم الظفر بها لأحدهما فكتب الأمير يوسف إلى الشيخ ظاهر العُمر والمتاولة يستنجدهم ، فوفد إليه الشيخ علي ابن ظاهر العُمر والشيخ ناصيف النصار كبير بني علي الصغير بجيش وافر ، وبلغ عثمان باشا قدومهم فداخله الهلع وقلق عسكره ففرّ هارباً إلى دمشق تاركاً المدافع والخيم والذخائر ، فزحف الأمير بعسكره إلى مخيم الوزير وأمر بنهبه وأقام أخاه الأمير سيد أحمد في قلعة قب الياس وسلمه المدافع التي تركها عثمان باشا ، وأثنى على الشيخين المذكورين لتلبية دعوته فانصرفا إلى محلهما وعاد الأمير يوسف إلى دير القمر .

وسوّلت بعد ذلك للأمير سيد أحمد نفسه أن يخرج على أخيه الأمير يوسف وكان عنده في القلعة الأمير فارس يونس واستمال إليه الأمير منصور صاحب راشيا والشيخ عبد السلام العماد زعيم اليزبكية والشيخ حسين تلحوق ، وكان الأمير يوسف قد صادرهما وضمّ إليه جميع النافرين من أخيه حتى اجتمع إليه حشد كبير

وأظهر العصيان على أخيه. وثقل على قرى الشيخ علي جنبلاط فحنق عليه الأمير يوسف وجمع عسكراً زحف به إليه وحصره في قلعة قب الياس سنة ١٧٧٤م فلم يتمكن من فتحها، وانفض عنه أكثر عسكره بدسيسة الشيخ عبد السلام العماد المذكور، فطلب عسكر مغاربة من عثمان باشا والي دمشق وضيّق على الأمير سيد أحمد مانعاً عنه الزاد والماء فاستجار الأمير سيد أحمد بالشيخ علي جنبلاط والشيخ كليب النكدي متعهداً أن يخرج من القلعة آمناً ويسلمها إلى أخيه، وسأل الشيخان الأمير يوسف أن يرضى بذلك فأجابهما إليه. وخرج الأمير سيد أحمد بأصحابه وماله من القلعة وسار إلى الحدث وتوطنها، فأمر الأمير يوسف بنقض هذه القلعة، فلم يتمكن الفعلة أن يهدموا إلّا قليلاً منها لمتانة بنائها، ثم سأل محمد باشا العظم الذي كان قد تولّى دمشق أن ينصبه حاكماً في البقاع بدلاً من أخيه فأجابه إلى ذلك على شرط أن يردّ على تجار دمشق ما سلبه أخوه من قافلتهم، فتعهد الأمير يوسف بذلك وأناب عنه أخاه الأمير قاسماً في ولاية البقاع وعاد إلى بيروت وأكره أخاه الأمير سيد أحمد على اداء قيمة ما سلبه من التجار وردّه عليهم واصطلح مع أخيه الأمير سيد أحمد ولكن بقي حاقداً على الأمير منصور صاحب راشيا لتعصبه لأخيه، فادّعى المشايخ النكدية عليه بألف قرش وضموا إليها رباها سنة فسنة فبلغ المطلوب منه سبعة آلاف وخمسمائة قرش. فوجّه عمه الأمير حسيناً يتقاضاها منه، فأقام عنده شهرين وتوفي. فادعى عليه أنه دسّ له سماً أماته به. وعظم الأمر فكتب الأمير منصور إلى الشيخ سعد الخوري أن يسترضي الأمير يوسف عنه، فرضي عنه بعد أن دفع الأمير منصور خمسة عشر ألف قرشاً.

وفي سنة ١٧٧٤م توفي الأمير منصور حيدر الشهابي الذي كان حاكماً وله أربعة أولاد الأمراء موسى ومراد وحمود وحيدر وعمره نحو ستين سنة ودُفن في جامع الأمير منذر التنوخي في بيروت، ونظم له السيد أحمد البربير تأبيناً وتاريخاً:

سقى هذا الضريحَ سحابُ فضلٍ ... وعمّ بالرضى من في ثراهُ
أميرٌ كان في الدنيا شهاباً ... ومنصوراً على قومٍ عصاهُ
فإن يكُ عن عيوني قد توارى ... فحسبي أنّ قلبي قد حواهُ
ولما سار للفردوس فوراً ... وقرّ به المهيمن واصطفاهُ

أتى تاريخه في بيت شعرٍ يودّ البدر لو يُعطى سناهُ
فمهمله ومعجمه وكلٌّ من الشطرين تاريخاً تراهُ
شهابٌ رحمة المولى عليه هوى للترب بدر من رباهُ

سنة ١١٨٧ هـ الموافق ١٧٧٤ م.

وفيها توفي أخوه الأمير بشير حيدر المعروف بالسمين بلا عقب.

عد ١٠٤٢
السلطان عبد الحميد خان الأول

بعد وفاة السلطان مصطفى خان الثالث سنة ١٧٧٤م رقي إلى منصة السلطنة والخلافة السلطان الغازي عبد الحميد خان الأول وهو ابن السلطان أحمد الثالث وأخو السلطان مصطفى الثالث سالفه. وُلد سنة ١١٣٧هـ الموافقة لسنة ١٧٢٤م. وقضى مدة سلطنة أخيه محجوراً في قصره كالعادة، وفي اليوم الثالث من خلافته توجّه بموكب حافل إلى جامع أبي أيوب لتقلّد السيف، ولم يوزع على الجنود الحلوان المعتاد لاستنزاف الحرب الروسية خزائن الدولة، وأقرّ الصدر الأعظم محسن زاده وأكثر عماله وأعوانه وقوادِ عسكره على مناصبهم السابقة، وكانت روسيا تستعد استعداداً هائلاً لتسترد ما أُخذ منها في أيام السلطان مصطفى الثالث وتأخذ ما أمكنها من أملاك الدولة، وقد زحفت جيوشها في شهر حزيران سنة ١٧٧٤م فاجتازت نهر الطونة قاصدة مدينة وارنا، فالتقت بعسكر عثماني أميره عبد الرزاق أفندي فهزمته وتقدمت نحو معسكر محسن زاده الصدر الأعظم، فطلب الصدر من أمير الجيوش الروسية المهادنة وتوقيف القتال، وأرسل إليه مندوبين للمخابرة في الصلح وشروطه التي كان الباب العالي قد رفض قبولها في مؤتمر بوخارست، فاجتمع المندوبان العثمانيان بسفير روسيا بمدينة قينارجه، وبعد مخابرات طويلة قرّ رأي الدولتين المتحاربتين على عقد معاهدة عُقدت في ٢١ تموز سنة ١٧٧٤م مشتملة على ثماني وعشرين مادّة أثبتها محمد فريد بك في كتابه تاريخ الدولة العلية صفحة ١٦١ نقلاً عن تاريخ جودت باشا. وأهم ما حوته

استقلال التتر في القرم وبساربيا وتوبان مع حفظ سيادة الدولة العلية عليهم بالأمور الدينية وتسليم جميع البلاد التي احتلتها روسيا إلى خان القرم، وردّ ما أخذ من أملاك الدولة بالفلاخ والبغدان وبلاد الكرج إليها، وأن يكون للمراكب الروسية حق السفر في البحر الأسود والبحر المتوسط، وأنّ أسطولها الموجود وقتئذٍ في البحر المتوسط كما مرّ يرجع إلى روسيا بعد مضي ثلاثة أشهر، وأن تنشيء روسيا كنيسة في بيرا بالآستانة وأن يكون لها حق الحماية لجميع المسيحيين الأرثوذكسيين رعايا الدولة العلية، وأن تدفع لها الدولة غرامة حربية أربعة ملايين روبل مقسطة إلى ثلاث سنين سنة ١٧٧٥م وسنة ١٧٧٦ وسنة ١٧٧٧، وأن تكون جميع المعاهدات السابقة لغواً لا يعمل بشيء منها، وأن يسمى عاهل روسيا بادشاه في جميع المكاتبات الرسمية.

ولم يؤتَ بذكر بولونيا بهذه المعاهدة مع أنها كانت سبباً لهذه الحرب لأنّ روسيا كانت قد قسمتها سنة ١٧٧٢م بالاتفاق مع النمسا وبروسيا، فأخذت كل دولة من الثلاث قسماً منها. وقد انتهت روسيا من هذه الحرب ظافرة غانمة مجحفة بحقوق الدولة العلية. وليتها وقفت عند هذا الحدّ فإنها أخذت تبثّ رجالها في بلاد القرم لايجاد المشاغب الداخلية فيها قاصدة ابتلاعها وضمّها إلى أملاكها، فظهر أنه لم يكن غرضها من الاتفاق مع الدولة العلية على استقلالها إلّا ليتيسر الاستحواذ عليها بعد خروجها عن ولاية السلطان، وآل القاؤها الدسائس بين أهليها إلى أنهم عزلوا أميرهم دولة كراي فخالفها فريق من أعيانهم. فادعت روسيا أنه يخشى من وقوع حرب داخلية فيلزم تدارك ذلك باحتلال جنودها بلاد القرم، فاحتلها سبعون ألفاً منهم كانوا مقاتلين على التخوم لهذه الغاية، ففازت بما كانت تتمنى وهو وضع يدها على سواحل البحر الأسود الشمالية، فسخط السلطان وأراد أن يعالن روسيا بالحرب لنقضها معاهدة الصلح، لكنه عدل عن ذلك لأنّ فرنسة كشفت له عن وفاق أبرم بين عاهل النمسا وعاهلة الروس كاترينا الثانية على انشاء دولة مستقلة مؤلفة من الفلاخ والبغدان وبسارابيا لتكون حاجزة بينهما وبين الدولة العلية، ويكون ملكها من الروم، وعلى أن تأخذ روسيا بعض جزائر الروم وغيرها وتأخذ النمسا الصرب والبشناق والهرسك من أملاك الدولة، ودلماسيا من أملاك البندقية وتعيضها منها بجزيرتي كريت وقبرص، وتعطى أجزاء أخرى من المملكة العثمانية لمن اعترض من دول

أوروبا، وأنه اذا أتيح النصر لروسيا والنمسا حتى تدخل جيوشهما الآستانة فيجعلونها مستقلة كما كانت في أيام ملوك الروم. ويعيّن الغراندوق قسطنطين ملكاً عليها بشرط أن لا يبقى له حق في مملكة الروس لئلا تكون روسيا وقسطنطينية في قبضة ملك واحد. فلما علم السلطان ذلك آثر أتباع مشورة فرنسة على الحرب، واعترف بضمّ القرم إلى أملاك روسيا، وهي اهتمت بتحصين سباستوبل، وأنشأت عمارة بحرية من الطراز الأول في البحر المتوسط، وأرسلت جواسيسها إلى بلاد اليونان وولايتي الفلاخ والبغدان لتهييج النصارى على الدولة. وأدخلت القيصرة كاترينا ملك الكرج تحت حمايتها مقدمة لفتح بلاده.

وفي سنة ١٧٨٧م زارت القيصرة كاترينا بلاد القرم بأبّهة عظيمة واحتفال متناهٍ، وأقام لها قائد جيشها في هذه البلاد أقواس نصر كتب عليها طريق البيزنطية (أي الأستانة). وقابلت في زيارتها عاهل النمسا فشعر السلطان بسوء النوايا على مملكته فأرسل بلاغاً إلى سفير روسيا بالآستانة طلب به أن يسلم إليه حاكم الفلاخ الذي كان عصا الدولة والتجأ إلى روسيا، وأن ترفع هذه الدولة حمايتها عن بلاد الكرج لأنها تحت سيادة الدولة، وأن تعزل بعض قناصلها المهيجين لرعايا الدولة عليها، وأن تقبل قناصل الدولة في فرض البحر الأسود، وأن يكون للدولة الحق أن تفتش مراكب روسيا التجارية التي تمر ببوغاز الآستانة لئلا تكون ناقلة سلاحاً أو ذخائر حربية. ولما رفض سفير روسيا بأمر دولته هذا البلاغ أعلن الباب العالي الحرب على روسيا، وسجن سفيرها في الآستانة وأمرت القيصرة كاترينا قائد جيشها أن يستولي على مدينة بندر ومدينة أوزى بالفلاخ، فاستحوذ عليهما في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٧٨٨م. وأعلن عاهل النمسا الحرب على الدولة مساعدةً لروسيا. وزحفت عساكره على مدينة بلغراد، ولكن دفعه الجيش العثماني عنها. وفي هذه الأثناء نشبت المنية أظفارها بالسلطان عبد الحميد الأول فتوفي في ١٢ رجب سنة١٢٠٣ هـ. ٧ نيسان سنة ١٧٨٩ م. بالغاً من العمر ٦٦ سنة ومدة ملكه نحو خمس عشرة سنة. انتهى.

عد ١٠٤٣

ما نعلمه من أخبار سورية في أيام السلطان عبد الحميد الأول

في سنة ١٧٧٦م لما كان الجزار معروفاً من الدولة سمي والياً على صيدا ولا نعلم بأية وسيلة . وبلغ الأمير يوسف قدومه إلى صيدا فوجس لما بينهما من العداوة إذ حصره الأمير ببيروت . ومع ذلك كتب إليه كتاباً يهنئه بولايته ، وأرسل له هدايا وخيلاً . فأجابه الجزار متلطفاً شاكراً . وبثّ الأمير سراً لحسن باشا المكلّف باصلاح شؤون سورية ما يخشاه من قبل الجزار، فأجابه كن آمناً فإذا رجعت إلى الآستانة عزلته . وكان الأمير قد تعهد لحسن باشا بأن يدفع له ماية ألف قرش باقية من المال الأميري عن السنين السالفة ، فاستنهضه حينئذٍ لادائها . واستشار الأمير أصحاب مشورته فارتأوا أن يضع الأمير يده على ريع العقارات التي تخصّ الحكومة وهي بيد أقربائه ، ويدفع الحاصل من هذا الريع للدولة، فصوّب رأيهم وفعل فشقّ ذلك على الأمراء ونهضوا إلى البقاع ثائرين عليه وسلبوا ما لبعض أهالي لبنان هناك، فحشد الأمير رجالاً سار بهم إلى قب الياس لردعهم ، ففرّوا إلى اقليم البلان ومنه لجهات الحولة ، فتوسط الأمير اسماعيل حاكم حاصبيا استرضاء الأمير عنهم فرضي ورجعوا إلى محلاتهم إلّا أخواه الأمير سيد أحمد والأمير أفندي فإنهما جعلا يحزبان عليه واستمالا إليهما الشيخ ناصيف النصار كبير المتاولة، فاضطر الأمير أن يسترضيهما ويردّ لهما اقطاعهما . ثم جمع المال الذي تعهد به ودفعه إلى حسن باشا وسلمه الوزير صكّ براءة ، ووجّه له الخلعة على جبل الشوف وتوابعه، وعلى بيروت والبقاع، وكتب له عهداً أن ليس لوالي صيدا عليه إلّا قبض المال الأميري . وسافر حسن باشا قاصداً الآستانة فأظهر الجزار ما كان ينويه على الأمير يوسف فنهض بعسكر من صيدا إلى بيروت فاستولى عليها وضبط ما فيها من الأملاك للأمراء الشهابيين، وشدّد على الأمير يوسف بطلب الأموال الأميرية عن السنين الثلاث الماضية ، فكتب الأمير إلى حسن باشا مستغيثاً به فأدركه الرسول في قبرص ، فرجع ببعض السفن إلى بيروت مسرعاً فأخرج الجزار منها زاجراً له ، وطيّب قلب الأمير واعداً أن يسعى بعزل الجزار عن ايالة صيدا حتى وصل إلى الآستانة ، ورجع الجزار بحراً إلى صيدا ، وعاد عسكره براً وكان ستمائة فارس من اللّاوند (جوقة من العسكر) فأكمن لهم النكدية ومعهم نحو مايتي رجل في أرض السعديات بقرب

الدامور. ولما أقبلوا أغار النكدية عليهم فاندفع عسكر الجزار إليهم وقتلوا كثيرين، ومنهم الشيخ أبو فاعور النكدي، وقبضوا على ولده الشيخ محمود وعلى الشيخ واكد بن الشيخ كليب. وسقط أخوه الشيخ بشير مجروحاً بين القتلى، وغنم عسكر الجزار ثياب هؤلاء الرجال وسلاحهم وما كان معهم، وظلّوا سائرين إلى صيدا فأخبروا الجزار بما كان، وقدموا له الشيخين الممسوكين فأمر بحبسهما، وبعد قليل مرّ لبنانيون بالسعديات فرأوا الشيخ بشيراً صريعاً بين القتلى وفيه رمق فحملوه إلى أهله في دير القمر.

وكتب الأمير يوسف إلى الجزار يعتذر له بأن ما كان بعسكره لم يكن بعلمه ويلتمس اطلاق الشيخين المحبوسين وجعل له فدية على ذلك ماية ألف قرش، فأجابه الجزار إلى ذلك وأرسل أربعماية فارس إلى دير القمر لاقتضاء المال الذي تعهد الأمير به. فاضطرب الأمير لذلك وخشي أنّ المراد اغتياله، فأقنع رئيس الفرسان أن يصرفهم إلى صيدا خشية وقوع الأسباب، وأن يبقى هو لدى الأمير ففعل، ووزع الأمير المابة ألف قرش على البلاد فأبى الأمراء اللمعيون دفع ما نابهم منها، فطلب الأمير من قائد عسكر الجزار أن يتوجه إلى بيروت ويرغم الأمراء المذكورين على دفع ما عليهم، فتوجّه والتمس من الجزار ارسال العسكر وخرج به القائد على المتن اقطاع اللمعيين فأحرق المكلّس والدكوانة والجديدة وقتل جماعةً ثم دهم الشويفات فصدّه رجالها فانهزم راجعاً إلى بيروت، ثم سار إلى صيدا ثم خرج منها بجميع العسكر إلى البقاع وضبط جميع ما للبنانيين هناك من الغلات بحجة اقتضاء المابة ألف قرش، فاتفق حينئذٍ الأمير يوسف مع الأمراء اللمعيين وجمع عسكراً زحف به إلى المغيثة، وكان بين الفريقين وقعات كان النصر فيها لعساكر الجزار، وقُتل من جيش الأمير الشيخ سعيد أحمد العماد، والشيخ ظاهر عبد الملك، وزين الدين مقدّم حمانا، وجماعة غيرهم. ورجع عسكر الجزار إلى صيدا.

وفي سنة ١٧٧٧م تنازع الأمير منصور وأخوه الأمير محمد على ولاية راشيا فاستغاث الأمير محمد بالأمير يوسف فأرسل معه عسكره لازاحة الأمير منصور عن الولاية، ففرّ إلى دمشق لائذاً بمحمد باشا العظم واليها ودفع الأمير محمد خمسة وعشرين ألف قرشاً للوزير وسأله اهلاك أخيه الأمير منصور، فأمر الوزير بالقبض عليه ونفيه إلى قلعة حسيا، ثم أرسل فقتله هناك، فخاف ابناه الأميران موسى

وأسعد من عمهما ولجآ إلى الأمير يوسف فطيّب قلبهما وأصلحهما مع عمهما ورجعا إلى موطنهما، فغدر بهما عمهما الأمير محمد فقتل الأمير موسى وفقأ عيني الأمير أسعد. هذا ما جاء في أخبار الأعيان. ولكن جاء في تاريخ الأمير حيدر أنّ الأمير منصور سار إلى الجزار وسأله أن يعيده إلى ولايته فقبض عليه ونفاه إلى جزيرة أرواد ومات هناك وأرى الرواية الأولى أصحّ.

وكانت في هذه الأثناء وقعات بين عسكر أحمد باشا الجزار والشيخ علي بن ظاهر العُمر في نابلس قُتل فيها ابناه الحسن والحسين، وضاقت البلاد على الشيخ علي ففرّ وسار إلى نيحا بالشوف وراسل الأمير يوسف أن يقبله في بلاده وهو يكفيه مؤونة القتال للجزار، فخاف الأمير من قبوله واهاجة الجزار عليه، فعاد الشيخ علي إلى نابلس، وكان الجزار قد سعى لدى الدولة بمحمد باشا العظم والي دمشق واتهمه بدسائس جرت بينه وبين ظاهر العُمر، فانحرف خاطر الدولة عنه. وكان علي آغا القيصري قد طرده الجزار من عسكره فخدم محمد باشا العظم فأمره مخدومه أن يراسل الشيخ بأنه يريد أن يتجنّد عنده لقتال الجزار فقبله الشيخ علي لأنه كان يعلم عداوته للجزار، وأقسم له على الاخلاص في خدمته فاغتر الشيخ علي به وقربه إليه مع جماعة تنتمي إليه. وتحيّن علي آغا وقتاً مناسباً فاغتال الشيخ علي وقطع رأسه وجاء به إلى محمد باشا فأرسله إلى الآستانة لرفع الشبهة التي أوقعها الجزار عليه، فنال به عفو الدولة واكرامها له. وزال مجد بيت ظاهر العُمر بعد قتل ابنه الشيخ علي، واستحوذ الجزار على بلادهم وجمع منها أموالاً وفرض عليها ضرائب، ولم يكن في ذلك العصر أفرس من الشيخ علي ولا أشجع ولا أكرم. قال الأمير حيدر صاحب هذا التاريخ رأيت بنت الشيخ علي الظاهر وأخته تسألان الناس صدقة وهو لم يكن يشاء أن يزوج بناته لئلا يقال أنّ فلاناً يأمر وينهي ابنة الشيخ علي الظاهر. فالعياذ بالله من تقلبات الدهر.

وكان حينئذٍ أيضاً أنّ يوسف باشا والي طرابلس أرسل نائبه عثمان بك الشديد فكبس الأمير حيدر أخا الأمير يوسف باهدن وحاصره يومين فتسارع الرجال من جبة بشري وبلاد جبيل والمشايخ بنو رعد من الضنية فدفعوا عسكر طرابلس وانقلب راجعاً إلى أميون، وبلغ ذلك الأمير يوسف فنجد أخاه بعسكر وزحف على عسكر طرابلس بأميون فظهر عليه وقتل منه جماعةً وانهزم الباقون إلى طرابلس، وعاد الأمير حيدر إلى اهدن.

وفي سنة ١٧٧٨م وما بعدها كانت مغالبات على ولاية لبنان بين الأمير يوسف وأخويه الأمير سيد أحمد والأمير أفندي، والجزار يتلاعب بالفريقين كيلا يتفقا عليه، فكانت أولاً نفرة بين الأمير يوسف والمشايخ النكدية مدعين أنّ الأمير متقاعد عن تخليص والديهما من سجن الجزار، ولاذوا بأخويه الأميرين سيد أحمد وأفندي، وضوى إليهم الجنبلاطية طالبين خلع الأمير من الولاية فأظهر الأمير أنه يؤثر العزلة فقام من دير القمر إلى غزير، وتمكن أحد خدام المشايخ النكدية اسمه حنا بيدر أن ينقذ الشيخين النكديين من السجن بفك قيودهما وانزالهما من كوّة في القلعة، وحضر معهما إلى دير القمر. وفي هذه الأثناء قتل المشايخ بنو علوان ابن عمهم الشيخ ظاهر لميله إلى المشايخ العمادية، فعاد الأمير من غزير إلى الباروك ليقتصّ منهم، ففرّوا إلى عكا واستمدوا الجزار ووعدوه بأن يملكوه البلاد، فأرسل معهم عسكراً فالتقاهم الشيخ كليب النكدي برجاله فأرجعهم إلى صيدا بعد أن قتل منهم جماعةً. ثم خرج عسكر الجزار إلى اقليم الخروب والتقاهم الشيخ بشير بن كليب النكدي برجاله فظهر العسكر عليهم وقتل منهم خلقاً، ولكن لم يطمع العسكر والمشايخ بنو علوان أن يدخلوا البلاد فانكفأوا إلى صيدا. وتوفي حينئذٍ الشيخ علي جنبلاط مجاوزاً الثمانين من العمر، وحضر الأمير يوسف مأتمه، وبعد دفنه جمع أعيان البلاد في الباروك وخلع نفسه أمامهم من ولاية جبل الشوف وسلّمها إلى أخويه الأميرين سيد أحمد وأفندي، وأقطعاه اقطاعات في كسروان وأسقطا عنه مالها الأميري وكتب إلى الجزار يخبره بذلك. وعاد إلى غزير فوجّه الجزار خلعة الولاية لأخويه وأقاما بدير القمر.

ولم يطل الوقت حتى تجددت النفرة بين الأمير يوسف وأخويه بسبب أنّ الأمير شديد اللمعي قتل دهقان (خولي) بعض أملاك الأمير يوسف، وتقاعد الأميران عن اجراء الدعوى مجراها، فكتب إلى محمد باشا العظم أن يوليه البقاع فأجابه إلى ذلك، وسار إلى البقاع قاصداً التنكيل بالأمراء اللمعيين، فوافاه الأمير اسماعيل وأخوه الأمير بشير من حاصبيا فوضع يده على أملاك الأمراء اللمعيين في البقاع وأرسل إليه أخواه يطالبانه بمال اقطاعه فطرد من أرسلاهم فجمع رجالاً في بعبدا لارهابه فجمع محازبيه واستنجد أصحابه المراعبة ولاة عكار وبني الرعد ولاة الضنية فجزع أخواه واستغاثا بالجزار، فأرسل عسكراً وحضر هو بنفسه من صيدا إلى بيروت. فتوجه الأمير سيد أحمد مع عسكر الجزار إلى جبيل لمحاصرة أخيه الأمير

حيدر الذي كان والياً في جبيل من قبل الأمير يوسف وتوجّه الأمير أفندي برجال البلاد إلى الزوق فقام الأمير يوسف إلى بسكنتا ومنها إلى بعقلين، وأرسل يعد الجزار بماية ألف قرش ليعزل أخويه، ورأى الجزار الأمير يوسف أكثر جرأة وشجاعة فرضي بردّ الولاية إلى الأمير يوسف، وكتب إلى قائد عسكره أن يرجع بالعسكر من جبيل إلى صيدا وأرسل الخلع إلى الأمير يوسف، فدخل دير القمر باحتفال عظيم وحضر إليه مناصب البلاد مهنئين. وفرّ الأمير سيد أحمد والأمير أفندي إلى المتن إلى أن توسط أمرهما بعض أكابر البلاد فرضي الأمير يوسف عنهما وأقاما عنده في دير القمر بصفة مستشارين.

وفي سنة ١٧٨٢م رضي الأمير عن الشيخ كليب النكدي بوساطة الشيخ سعد الخوري، وأذن له بأن يعود إلى لبنان بعد أن كان فرّ من وجه الأمير يوسف إلى الشيخ ناصيف النصار، فساء الأمير سيد أحمد والأمير أفندي عوده دون مشورتهما، واتفق أنّ الأمير أحدث حينئذٍ مالاً على التوت سموه البزريّة، فأثار أخواه الجنبلاطية عليه وجمعوا حشداً حضروا إلى قرب دير القمر قاصدين أن يطردوا الأمير يوسف ويقتلوا مدبره سعد الخوري ، فأرسل الأمير يعدهم بابطال الضريبة المذكورة فأنفض الحشد ولكن استمر الأميران والجنبلاطية على عزمهم وكاشفوا النكدية بالتحالف معهم على عزمهم فوافقوهم، لكن بقي أحدهم الشيخ كليب محازباً للأمير يوسف سراً ويبثّ إليه ما يسرونه. ففي سنة ١٧٨٣م اجتمعوا في دار الأمير أفندي ليلاً قاصدين أن يمضوا إلى كنيسة التلة بدير القمر ليقسموا على ما صمّموا عليه من طرد الأمير وقتل مدبره، وعرف الأمير فأكمن لهم المغاربة في طريقهم، فقبضوا على الأمير أفندي وتمكن الأمير سيد أحمد من الفرار. ولما أتى المغاربة بالأمير أفندي إلى أخيه الأمير يوسف حملته سورة غضبٍ فقتل أخاه بيده، وأما الأمير سيد أحمد فانهزم في دار الشيخ حسن جنبلاط بالمختارة وهذا دفع مالاً إلى الشيخ عبد السلام العماد فانضوى إليهم واتفقوا على خلع الأمير يوسف من الولاية وتسليمها إلى الأمير سيد أحمد، فخاف الأمير يوسف وفرّ إلى عكا بأربعمائة نفر لائذاً بالجزار، فأحسن ملتقاه وعظّم مثواه ووعده الأمير بثلاث مائة ألف قرشاً، فأرسل معه عسكراً ضخماً فنهض الأمير يوسف بالعسكر إلى صيدا، وكان الأمير سيد أحمد شخص إلى دير القمر حين علم قيام أخيه منها واستكتب أعيان البلاد إلى الجزار إنهم لا يرضون غيره

حاكماً، وأكثروا التشكي من الأمير يوسف. وقام الأمير يوسف بعسكر الجزار إلى اقليم الخروب فالتقاه التلاحقة الملكية (آل عبد الملك) وأخواه الأميران قاسم وحسن، وحشد الأمير سيد أحمد عسكراً وأرسله مع ابن أخيه الأمير قعدان والتقى الجيشان بعانوت ودارت رحى الحرب فانكسر عسكر الأمير قعدان وهو نجا منهزماً، وقُتل من عسكره جماعة وأُسر كثيرون خلى الأمير يوسف سبيلهم. وارتاع الأمير سيد أحمد فنهض ومعه الشيخ قاسم جنبلاط إلى صليما عند الأمير اسماعيل اللمعي وفرّ باقي الجنبلاطيين إلى حاصبيا، فضبط الأمير يوسف أملاكهم وهدم مساكنهم وكتب إلى خاله الأمير اسماعيل والي حاصبيا أن يأخذ مالهم ويرسلهم إليه، فضبط مالهم وأرسلهم إليه وخلى سبيلهم لأنهم نزلاؤه. وأما الأمير سيد أحمد فتوجّه من المتن إلى قب الياس والتجأ إلى محمد باشا العظم والي دمشق، والتمس منه ولاية وادي التيم والبقاع فأجابه إلى ذلك، وأصحبه بعسكر وأتى إليه الجنبلاطية فقوي جأشه وتولّى وادي التيم رغماً عن الأمير محمد واليها. وعزم على المسير إلى حاصبيا فكتب صاحبها الأمير اسماعيل إلى محمد باشا العظم أن يصرفه عنها فأجابه إلى ذلك. فترك الأمير سيد أحمد الأمير موسى في وادي التيم مكانه وأتى إلى قب الياس مع الجنبلاطية، فنهض الأمير يوسف بعسكر الجزار ورجاله إلى المغيثة، وكانت الحرب ين الفريقين ثلاثة أيام متتالية ودارت الدوائر على الأمير سيد أحمد والجنبلاطية، فانهزموا جميعاً إلى الزبداني، وبقي المغاربة من عسكر والي دمشق في قلعة قب الياس، وحصرهم الأمير فكتب والي دمشق إلى الجزار واتفقا على هدم القلعة، فلم يُهدم إلّا اليسير منها لمتانة بنائها، وعاد الأمير يوسف إلى دير القمر وأخذ يصادر محازبي أخيه الأمير سيد أحمد. وقام الأمير سيد أحمد والجنبلاطية من الزبداني إلى حاصبيا وحلّوا نزلاء على الأمير اسماعيل خال الأمير يوسف فتدخل بالصلح بين ابن أخته والجنبلاطية فرضي الأمير يوسف عنهم بشرط أن يدفعوا مائة وخمسين ألف غرشاً فدفعوها وعادوا إلى وطنهم. وطلب الأمير سيد أحمد من الأمير يوسف أن يرفع الضبط عن أملاكه فأجابه إلى ذلك وأمره أن يسكن بالشويفات فأطاعه.

وكان في هذه الأثناء أنّ أحمد باشا الجزار أراد أن يستحوذ على بلاد بشاره كما استحوذ على صفد. وكان في هذه البلاد بنو علي الصغير ورئيسهم الشيخ ناصيف النصار وبنو منكر وبنو صعب وكلهم متاولة. وكانت قبلاً وقعات بينهم

وبين عسكر الجزار فهذه المرة جهز لهم عسكراً كثيفاً زحف إليهم فالتقاه المتاولة بمقدمتهم ناصيف النصار زعيمهم واصطلت نار الوغى بين الفريقين فأصيب الشيخ ناصيف المذكور برصاصة في رأسه جندلته فانهزم المتاولة ودخل عسكر الجزار بلاد بشاره وامتلكوا قلاعها ، والذين سلموا من الحرب هربوا مع أولاد الشيخ ناصيف النصار إلى بلاد عكار عند محمد بك الأسعد .

وفي سنة ١٧٨٥م هاجت الفتنة بين الأمير يوسف وخاله الأمير اسماعيل والي حاصبيا وسببها أنّ الجزار عزل الأمير اسماعيل عن ولاية مرج عيون وحوّلها إلى عهدة الأمير ، فأرسل الشيخ بشيراً النكدي نائباً عنه في حكومتها ، وشخص الأمير اسماعيل إلى دير القمر طالباً من ابن أخته ترك هذا الاقطاع ، فلم يجده نفعاً تذلّله والحاحه ومضى بخفي حنين ، فأشار عليه الشيخ قاسم جنبلاط أن يدفع إلى الجزار ثلاث ماية قرشاً على ولاية لبنان ومرج عيون وهو يكفلها ، وكتب إلى الجزار فطيّب قلبه واستدعاه واعداً له بالولاية بحيث يكون معه شريكاً فيها أحد الأمراء اللبنانيين ، فكتب الشيخ قاسم إلى الأمير سيد أحمد ليكون شريكاً للأمير اسماعيل فلم يتردد في القبول . وكتب إلى الجزار فأبقى الرسل في عكا وخاطب الأمير يوسف يخيّره بين الدفع أو العزل ، فجمع مناصب البلاد واستشارهم فصوبوا الدفع إلّا الشيخ قاسم جنبلاط فإنه غيّر رأيهم ، وكتبوا للجزار أنهم لا يريدون ضريبة على بلادهم . فحنق الجزار وحضر لديه الأمير سيد أحمد إلى عكا فخلع عليه وعلى الأمير اسماعيل، وسيّر معهما عسكراً وأرسل الأمير يوسف مع مدبره سعد الخوري وبعض أقاربه إلى جزين ، فكانت بين العسكرين وقعات كان النصر فيها لعسكر الأمير يوسف . واستدعى الأمير المشايخ المتاولة المار ذكرهم من عكار ، وأطلق لهم السطو على عمال الجزار في بلاد بشاره ، وزيّن الشيخ قاسم جنبلاط لعسكر الأمير أنّ عسكر الجزار عجز عن الحرب ، وإنّ ارضاء الجزار بالمال أولى . فعادوا إلى دير القمر وعاد عسكر الجزار بأكثر قوة ومعه الأمير سيد أحمد والأمير اسماعيل ، وظهرت خيانة الحزب الجنبلاطي فقام الأمير يوسف إلى المتن ثم إلى بسكنتا ، ودخل الأميران سيد أحمد واسماعيل إلى دير القمر وحضر لديهما أعيان البلاد وسلموا الأمر إليهما .

فراسل بعض المشايخ الأمير يوسف بأن يرضى ولاية بلاد جبيل من قبل خاله الأمير اسماعيل فأبى ونهض إلى جرد كسروان ثم إلى جرد بلاد جبيل فأتبعه

الأمير اسماعيل إلى نبع الحديد، وقام الأمير سيد أحمد بالفرسان إلى البترون فانصرف الأمير يوسف إلى عكار وكتب إلى الجزار يلتمس صفو خاطره، فجعل الجزار ميخائيل السكروج أحد المقربين إليه يكتب إلى الشيخ سعد الخوري أن يعود بمولاه طيب الخاطر وأنّ الجزار سيردّه إلى ولايته، فعاد للحال من عكّار وأدرك الأمير سيد أحمد أنّ ذلك لا بدّ أن يكون بدسيسة من الجزار فرجع من البترون إلى جبيل، ومرّ الأمير يوسف بجانبه فلم يجسر أن يعترض به وبلغ الأمير يوسف إلى بيروت والجزار بها وأخذه معه في السفينة إلى عكا، وكتب الأمير اسماعيل والأمير سيد أحمد إلى الجزار يتعهدان له بدفع خمسمائة ألف قرشاً ان أهلك الأمير يوسف، وأرسل هذا الكتاب مع الشيخ محمد القاضي. أما الأمير يوسف فتعهد للجزار بألف ألف قرشاً ينقده اياها في مدة ثلاثة أشهر فخلع عليه وأصحبه بالعساكر الوافرة العدد وأبقى عنده الشيخ سعد رهناً على المبلغ المذكور، فنهض الأمير يوسف بالعساكر من عكا وسار سيراً حثيثاً حتى دخل دير القمر باكراً على حين غفلة، فقتل خمسة من خدام الأمير اسماعيل، وفرّ الأمير سيد أحمد إلى المتن وقبض على الأمير اسماعيل وعلى نحو خمس مئة نفر من رجاله وألقاهم في السجن، وهرب الشيخ محمد القاضي إلى كفرحمل مستجيراً بالشيخ كليب النكدي فأرسل الأمير من أحضروه إلى السجن ثم عاقبه شديد العقاب وسمل عينيه وقطع لسانه وأطلقه، وصادر الجنبلاطية بأموال وافرة وفرّ الأمير سيد أحمد إلى حوران.

وسنة ١٧٨٦م توفي الأمير اسماعيل في سجنه، وعاد الأمير سيد أحمد إلى صليما نزيلاً على زوجة الأمير يوسف أخيه، فأمنه أخوه وأمره بالاقامة بيحمدون وأطلق له أملاكه لكنه قبض عليه سنة ١٧٨٧م وأمر أن يسملوا عينيه ثم أرسله إلى عبيه. وفي هذه الأثناء توجهت ولاية دمشق إلى الجزار فشخص إليها ومعه الشيخ سعد الخوري، وأمر الأمير يوسف أن يقبض على المشايخ أولاد علي الصغير في مشغرة ويرسلهم إلى نائبه سليم باشا بعكا فقبض عليهم وأرسلهم وكان الأمير هو الذي دعاهم من عكار بعد فرارهم إليها بأثر قتل ناصيف النصار كما مرّ. فلم يحمد نكث الأمير بعهده لهم وأمر الجزار بقتلهم وسار بالحج، وأقام الشيخ سعد بقلعة دمشق مكرماً فمرض، ولما عاد الجزار من الحجّ شكا له من مرضه فأطلقه وبعث به بهودج إلى داره، وتوفي في جبيل في ٥ آذار. ونظم المعلم

الياس اده رثاءً له وفقرة التاريخ فيه هي « فلا ريب بعد السعد لا شيء فاخر » سنة ١٧٨٦م. ولم يبقَ الجزار على ولاية دمشق إلّا سنة وشكا المسلمون بدمشق جوره فأمر الباب العالي أن يعود إلى عكا فعاد إليها . وفي سنة ١٧٨٧م أرسل الأمير يوسف إلى دمشق فأمن الأمير بشير نجم أخي الأمير اسماعيل فأتى إلى دير القمر منخدعاً بالأمان، ولما دخل الأمير أجهز عليه وقتله وقبض على مدبره عبد الله مالك وألقاه بالسجن لظهور خيانة عليه وأخذ منه اثني عشر ألف قرش ثم قتله .

وفي سنة ١٧٨٨م ثارت الفتنة بين الجزار والأمير يوسف فكان باقياً للجزار مابة وخمسون ألف قرشاً من المبلغ الذي تعهد الأمير بدفعه . ولما أبطأ باداثه أرسل الجزار سليم باشا إلى خان حاصبيا ومعه عسكر وولّى الأمير علياً ابن الأمير اسماعيل المذكور على حاصبيا استعداداً لقتال الأمير، واتفق حينئذٍ أنّ مماليك الجزار الذين كان قد رقاهم إلى المناصب ومنهم سليم باشا المذكور قد ثاروا عليه وخلعوا الطاعة له وساروا فحاصروه بعكا وكتبوا إلى الأمير يوسف يطلبون نجدته ومحالفته، فشدّد عزيمتهم وارتاح إلى مناصرتهم ، لكن الجزار دهم الثائرين عليه وشتت شملهم ، وفرّ سليمان باشا أحدهم مستجيراً بالأمير يوسف وعاد الجزار طالباً الانتقام من الأمير يوسف ، فأرسل مابة فارس إلى الأمير علي والي حاصبيا وأمره أن يقوم بهم وبرجاله ويرفع يد الأمير يوسف عن البقاع. وأرسل عسكراً إلى جباع الشوف فأرسل الأمير يوسف الأمير بشير قاسم (هو الأمير بشير المعروف بالكبير) ومعه الشيخ قاسم جنبلاط للمحاماة على حدود الشوف ، وكتب إلى سليم باشا والهاربين معه إلى حمص أن يحضروا إلى البقاع ، وجهّز عسكراً لمعاضدتهم وسيّره مع سليمان باشا المذكور، وهؤلاء كسروا الأمير علياً وعسكر الجزار بالبقاع وأثخنوا فيهم ، وانهزم الأمير علي إلى الجزار فأرجعه بألفي مقاتل عاد بهم إلى البقاع وكان عسكر الأمير يوسف تفرّق فانتصر الأمير علي بعسكر الجزار وعاد رجال الأمير يوسف إلى دير القمر مخذولين .

وكذلك كان مع الأمير بشير قاسم في جباع فإنّ عسكر الجزار ظهر عليه وعلى رجاله وكان الجنبلاطية ينفرون الناس من الأمير يوسف ويشيعون عنه .اخبار الوهن فعول على التنزل عن الولاية ونقل عياله إلى المتن وجمع اكابر البلاد وابدى

لهم عجزه عن الولاية والمشاحنة بينه وبين الجزار واطلق لهم ان يختاروا والياً من ارادوا فاختاروا الامير بشير قاسم عمر لأنه كان فتى نبيلاً والجزار يميل اليه كل الميل وبينه وبين الجنبلطية موادة فاحضره الامير يوسف واشار عليه ان يتوجه إلى عكا ويأخذ خلعة الولاية قيل أنه لما قال له الامير سر ابني إلى عكا وتولَّ مكاني اجابه اخاف ان انزل ابنك فأعود ابن الجزار فاستقبل الجزار الامير بشيراً بالترحاب وقلده الولاية على جبل الشوف وكسروان واصحبه بألف عسكري وأمره بطرد الامير يوسف من البلاد.

اما الامير يوسف فقام اولاً إلى عاليه ثم إلى حمانا ثم إلى المتين وارسل الامير بشير يخبره بأمر الجزار له فقام إلى جرد كسروان ثم إلى العاقورة ثم لحفد وقام الامير بشير اولاً إلى بوارش ثم إلى وطا الجوز ثم العاقورة وعرض اعداء الامير يوسف إلى الجزار ان الامير بشير متفق معه فطلب الامير بشير منه عسكراً فارسله اليه وجمع الامير يوسف المشائخ الحمادية ومشايخ جبة بشري وارسلهم مع رجاله إلى الميحان ليمنعوا الامير بشير وعسكر الجزار عن العبور فانتصر عسكر الامير يوسف على عسكر الجزار واركنوا إلى الفرار فجرد الامير بشير سيفه وهجم برجاله على عسكر الامير يوسف فانهزموا من امامه مدحورين فقتل من عسكر الامير يوسف الشيخ يوسف بولس شيخ اهدن وخلق كثير وقتل من عسكر الامير بشير الشيخ أبو دعبيس جنبلاط وفرَّ الامير يوسف بمن بقي معه إلى اهدن وسار الامير بشير إلى لحفد وارسل الجزار الف فارس على طريق البحر إلى البترون نجدة للامير بشير فارسل والي طرابلس يحذر الامير يوسف ان يقوم من اهدن لئلا يدهمه العسكر فيها ففرَّ بجماعته إلى بلاد بعلبك فارسل اليه الامير جهجاه الحرفوش ان يتحول عن بلاده والا فيقاتله فقال فارس الشدياق أحد أعوان الأمير للرسول ارجع إلى مولاك وقل له من أنت حتى تمنع الأمير يوسف من المرور وضربه بدبوس قائلاً بلّغ أميرك أنّ الأمير يوسف يأمرك أن تقوم من بلاد بعلبك أو يفاجئك برجاله فلما بلغ هذا الجواب إلى الأمير جهجاه فرّ هارباً.

وكان الأمير أسعد والي حاصبيا قد كتب إلى ابراهيم باشا والي دمشق أن يؤذن للأمير يوسف بالاقامة في بلاده آمناً فأذن له، فقام الأمير يوسف من طاريا إلى الزبداني ثم انتقل إلى قرية منين، أما الأمير بشير فرجع من لحفد إلى دير

القمر، وبقي الأمير يوسف بمنين أربعة أشهر، ولما عاد ابراهيم باشا من الحجّ سنة ١٧٨٩م كتب إلى درويش حسن باشا والي طرابلس أن يولي الأمير يوسف بلاد جبيل فولاّه عليها، وبلغ الأمير بشير ذلك فكتب إلى الجزار فأرسل له عسكراً إلى حرش بيروت وأمره أن يقوم به إلى بلاد جبيل ويطرد الأمير يوسف، فسيّر الأمير بشير أخاه الأمير حسناً بذلك العسكر ففرّ الأمير يوسف إلى كرك بعلبك، واختبأ مدبره الشيخ غندور في احدى قرى الضنية ورجع الأمير حسن بالعسكر، أما الأمير يوسف فصرف من معه إلى أوطانهم وأقام فارس الشدياق بدلاً من الشيخ غندور، وأرسله ليكون وكيلاً عنه في دمشق وسار بمن بقي معه إلى حوران. ونرجئ ما بقي من أخبار الأمير يوسف والأمير بشير إلى ما يأتي رعايةً لمساق تاريخنا.

عد ١٠٤٤
السلطان الغازي سليم خان الثالث

هو ابن السلطان مصطفى خان الثالث وُلد سنة ١١٧٥ هـ سنة ١٧٦٢ م. وارتقى إلى منصّة الملك بعد وفاة السلطان الغازي عبد الحميد الأول في ٢٢ رجب سنة ١٢٠٣ هـ الموافق ٧ نيسان سنة ١٧٨٩ م. وكان جو السياسة مكفهراً ورحى الحرب دائرة بين جيوش روسيا والنمسا من جهة وبين الجيوش العثمانية من الجهّة الأخرى، فبذل جهده في تقوية الجيش العثماني وامداده بالذخائر والعدد، وكان اليأس قد استحوذ على هذا الجيش وغادر كثير من الجنود مراكزهم وانضمّ الجيشان الروسي والنمسوي أحدهما إلى الآخر في الأعمال الحربية، فاستظهرا على العثمانيين في ٢٢ أيلول سنة ١٧٨٩م، فاستحوذ الروس على مدينة بندر الحصينة واحتلوا معظم بلاد الفلاخ والبغدان وبسارابيا، ودخل النمسويون بلغراد وفتحوا بلاد الصرب، ولولا وفاة عاهل النمسا يوسف الثاني في ٢٠ شباط سنة ١٧٩٠م لفقدت الدولة أكثر أملاكها بأوروبا. وخلف العاهل المذكور أخوه ليوبولد الثاني فأشغلته الثورة الكبرى التي قدح زندها في فرنسة عن التوغل في الحرب مع الدولة العلية، فعقدت أولاً معاهدة صلح بين النمسا والدولة العلية وقّع عليها وأبرمت في ٤ آب سنة ١٧٩١م، وبمقتضاها ردّ على الدولة بلاد الصرب ومدينة بلغراد، وأكثر

ما أخذته منها النمسا في هذه الحرب، واستمرت روسيا تحارب الدولة إلى أن توسطت انكلترا وبروسيا وهولاندا الصلح بينهما، ووقّع على معاهدته في ٩ كانون الثاني سنة ١٧٩٢م، وبمقتضاها تملكت روسيا بلاد القرم وقسماً من بساربيا وغيرها. وبعد ابرام الصلح مع الدولتين النمسا والروسيا أخذت الدولة في اصلاح شؤونها الداخلية فنصب السلطان كوجك حسين باشا أميراً لبحرية الدولة ومراكبها، فأنشأ عدة مراكب حربية على مثال المراكب الفرنسية والانكليزية وأحضر مهندسين مهرة من أوروبا لصبّ المدافع في الطوبخانة العثمانية، وأصلح المدرسة الحربية ومدرسة الطوبخية، وصرف جهده في اصلاح الثغور وانشاء القلاع أو تحصينها ووضع نظاماً للجنود المشاة وأدخل غير ذلك من النظام العسكري المعمول به بأوروبا مقدمة للاستغناء عن الانكشارية الذين أصبحوا آفة للدولة. وقد كانت الدولة في أشدّ الحاجة إلى الاصلاحات، وكان ولاة الاقاليم يطمعون بالاستقلال والاستبداد ولا سيما في مصر.

وفي سنة ١٧٩٨م سار نابوليون بونابرت الأول إلى مصر من قبل الجمهورية الفرنسية لفتحها دون معالنة الدولة بالحرب، فجهّز في طولون جيشاً مؤلفاً من ستة وثلاثين ألف مقاتل، وكثيراً من المراكب والسفن لنقل الجنود والذخائر وعدد الحرب، وأردف بجيشه نحو مائة وعشرين عالِماً بارعين في علوم وفنون مختلفة لاستقصاء أحوال مصر وآثارها. وفي ١٩ من شهر أيار سنة ١٧٩٨م سار نابوليون بهذا الجيش دون أن يعلم وجهة سيره فبلغ في ٢٠ حزيران إلى جزيرة مالطة فاحتلها بعد أن دافع من كان فيها من جمعية فرسان يوحنا الأورشليمي شديد الدفاع. وفي ٢ تموز من السنة المذكورة رست مراكبه أمام الاسكندرية وأنزل جنوده على مقربة منها، ثم دخلها عنوةً وترك فيها القائد كليبر وسار إلى القاهرة فاعترض له مراد بك بشرذمةٍ من المماليك فهزمه وواصل سيره إلى مدينة انبابة قبالة القاهرة، فكانت الوقعة المعروفة بوقعة الأهرام بينه وبين ابراهيم بك ومراد بك في ٢١ تموز سنة ١٧٩٨م وأبدى المماليك آيات الشجاعة بالدفاع، إلّا أنهم لم يقووا على مدافع الفرنسيين، فدخل بونابرت وجنوده القاهرة، وأعلن أنه حليف السلطان ولم يأتِ لفتح مصر بل لتوطيد سلطته فيها ومحاربة المماليك الذين عصوا أوامره. وأرسل أحد قادة عسكره إلى الصعيد متتبعاً آثار مراد بك وأرسل فرقة أخرى من جنوده إلى مدينة القصير على البحر الأحمر فأصبح القطر المصري من البحر

المتوسط إلى أقصى الصعيد في قبضة يده وأقام المجلس للبحث عما يجعل احتلاله مصر نافعاً .

ولما علمت انكلترا بأخذ بونابرت مالطة واحتلاله مصر بالجيش الفرنسي أمرت مراكبها التي كانت محاصرة مدينة قادس باسبانيا بأمرة الأميرال نلسن أن يتعقب المراكب الفرنسية ويضربها فوجدها في أبي قير ، فكانت وقعة هائلة بين مراكب فرنسة وانكلترا انجلت عن تدمير المراكب الفرنسية ، وكانت الدولة العلية قد أخذت في الاستعداد لمحاربة فرنسة واخراج جيشها من مصر ، وعرضت عليها انكلترا مساعدتها على اخراج الفرنسيس من مصر واجسة من قطع طريقها إلى الهند ، وعرضت عليها روسيا أيضاً معاضدتها وامدادها بمراكبها فأبرمت معاهدة بين الدول الثلاث ، وأشهر الباب العالي الحرب على فرنسة في ٢ ايلول سنة ١٧٩٨م وسار الأسطول العثماني والأسطول الروسي نحو مصر ، وأخذ الباب العالي في حشد الجيوش في دمشق وردوس لتزحف إلى مصر ، وكانت المراكب الانكليزية باقية في البحر المتوسط وقطعت مع الأسطولين العثماني والروسي خط الاتصال بين فرنسة وجيشها الذي احتلّ مصر .

ولما رأى بونابرت اجتماع الجيوش ومراكب الدول المذكورة لمحاربته أراد أن يباغت الدولة بأخذ سورية أيضاً قبل أن تكمل استعدادات الدولة فيها ، فنهض من مصر بثلاثة عشر ألف مقاتل إلى سورية بطريق العريش فاحتلّ هذا البلد في أوائل سنة ١٧٩٩م ثم أخذ غزة ثم الرملة ثم يافا ثم بلغ إلى عكا وأقام الحصار عليها براً . وكانت عساكر الجزار تقاوم الجيش الفرنسي من داخل المدينة ، والأسطول الانكليزي بأمرة الأميرال سميث يرشقهم بالقلل النارية ، وحاول الجيش الفرنساوي أن يلغم تحت المدينة فينسفها ، فلم يتيسر له اكمال اللغم وحضر المتاولة من بلاد بشاره إلى معسكر الفرنسيس فولاّهم بونابرت على هذه البلاد كما كانوا قبلاً ، وحضر الشيخ صالح ابن الشيخ ظاهر العُمر فولاّه على صفد وقد تصرّف الأمير بشير قاسم والي لبنان في هذه الأحداث تصرّف رجل حكيم رصين فقد كتب له الجزار ليمده بالرجال ليدفع الفرنسيس عن عكا فاعتذر اعتذاراً مقبولاً عن انجاده له بالرجال ، وكتب إليه القائد بونابرت فلم يجبه ثم أرسل له رسالة يعاتبه فيها لعدم اجابته فوقعت الرسالة بيد بعض خصومه فقدموها للجزار فكانت مساعدة له على تبرئة ساحته أمامه .

وبينما كان بونابرت يحاصر عكا بلغه أنّ الجيش العثماني المجتمع في دمشق قادم للدفاع عن عكا فأرسل فرقةً من جيشه بأمرة القائد كليبر فالتقت هذه الفرقة بالجيش العثماني عند جبل طابور، فأحاطها احاطة السوار بالمعاصم فأبدى رجالها آيات البسالة وثبتوا في القتال مع قلّتهم وكثرة أعدائهم حتى طار الخبر إلى بونابرت فأسرع لنجدتهم وانقاذهم بثلاثة آلاف مقاتل فقشع بصولته الأعداء عن فرقته وشتت شملهم وعاد بفرقته إلى عكا ظافراً غانماً.

ورأى بونابرت أنه يتعذر عليه فتح عكا لمقاومة مراكب الدول الثلاث له وتوارد عساكر الدولة عليها ولا سيما ثقل وطأة الطاعون في عسكره فصوّب الرحيل عنها فعاد بمن بقي من جيشه إلى القاهرة ودخلها في ٢١ أيار سنة ١٧٩٩م، ثم وصل إلى مصر الجيش العثماني الذي كان قد تألّب في رودس وحلّ في أبي قير واعتصم، فهبّ بونابرت من القاهرة لمناوأتهم وأصلى عليهم نار الحرب فتغلّب عليهم وقتل منهم خلقاً كثيراً وانهزم إلى المراكب من بقي منهم حياً. وأسر مصطفى باشا قائدهم وكثيراً من جنوده، وكان ذلك في ٢٥ تموز سنة ١٧٩٩م.

وفي ٢٤ آب من السنة المذكورة بلغه أنّ أحوال الجمهورية مضطربة فانسلّ خفيةً ومعه بعض قوّاد جيشه وسافر بهم متنكراً، ولم يشعر بهم الانكليز مع شديد مراقبتهم وانتشار مراكبهم في البحر المتوسط، فظهر بغتةً في باريس في أواخر سنة ١٧٩٩م وترك قيادة الجيش المحتل في مصر لكليبر، وكان هذا الجيش قد هلك نصفه بالحروب والوباء وخط الاتصال بينه وبين فرنسة مقطوع ولا أمل له بنجدة أو امداد. ومراكب الدول المتحدة ضد فرنسة تملأ البحر، والباب العالي يحشد الجنود في مصر وغيرها لاهلاك هذا العدد اليسير من الجنود، وهم في أسوأ حال. فيئس كليبر من الثبات في هذا الموقف فاتفق مع يوسف باشا الصدر الأعظم الذي كان قد حضر إلى العريش والأميرال سميث الانكليزي في ٢٤ كانون الثاني سنة ١٨٠٠م في العريش على أن ينسحب العسكر الفرنسي بسلاحه راجعاً إلى فرنسة على مراكب الانكليز، ولكن لما أخذ الفرنسيون في الجلاء عن بعض القلاع أرسل الأميرال الانكليزي يبلغ كليبر أنّ دولته لا تجيز الاتفاق السابق عقده إلّا أن يلقي العسكر الفرنسي سلاحه بيد الانكليز، فاستشاط كليبر وهبّ لمحاربة العسكر العثماني الذي كان أتى إلى مصر مع الصدر الأعظم لاستلامها من

يد الفرنسيين فكان عديده يربو أضعافاً على عدد الفرنسيين. فتقابل الجيشان عند المطرية في ٢٤ آذار سنة ١٨٠٠م، وبعد قتال عنيف انتصر كليبر وعاد بعسكره ظافراً إلى القاهرة، فوجد أنّ ابراهيم بك أحد الأمراء المصريين قد استحوذ عليها في غيبته، فأضرم النار عليها وخرب قسماً كبيراً منها. فاستمرت الحرب في شوارعها عشرة أيام على ما رواه الجبرتي في تاريخه المسمى: «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، وآخر الأمر أنّ كليبر انتصر على كل من ناوأه، وأمن القاهرة واستفحلت صولته وسطوته في القطر المصري. وبينما كان يفكر في تمكين موقف جنوده بمصر وتثبيت سلطته فيها، دخل عليه صعلوك حلبي اسمه سليمان وهو يتنزه ببستان وطعنه بمدية فكانت القاضية، وهرب فوجدوه في بستانٍ قريب من البستان الذي وقع القتل فيه. وبعد المحاكمة قتلوه هو ورفاقه الثلاثة. ورثاه نقولا الترك كاتب تاريخ هذه الحملة وفقرة التاريخ في هذا الرثاء «والسائب الصعلوك أرخ غادري سنة ١٢١٥هـ سنة ١٨٠٠م».

وبعد مقتل كليبر أقام العسكر الفرنسي الجنرال منو موضعه وأيقن العثمانيون والانكليز النصر على الجيش الفرنسي لموت كليبر وسفر بونابرت، وأنزلوا بأبي قير ثلاثين ألف مقاتل فسار الجنرال منو لقتالهم فهزموه في ٢١ آذار سنة ١٨٠١م وسار إلى الاسكندرية فتحصّن بها، وسار العسكر العثماني الانكليزي إلى القاهرة فحاصروا من بقي فيها من الفرنسيين. ورأى قائدهم بليار أنّ لا مناص له من التسليم فخابر القائدين العثماني والانكليزي بأمر التسليم فوافقاه على الشروط التي كانت أبرمت في الاتفاق مع كليبر. والجلى الفرنسيس عن مصر في شهر تموز سنة ١٨٠١م بسلاحهم وعددهم ومالهم بقي القائد منو محصوراً في الاسكندرية إلى أن سلّم في ٢ أيلول سنة ١٨٠١م بعد وقعة كانت له مع الجيش العثماني والانكليزي هلك فيها خلقٌ كثير من الفريقين. وبمقتضى الشروط المار ذكرها خرجوا من الاسكندرية بسلاحهم وعددهم وحملتهم جميعاً المراكب الانكليزية إلى فرنسة. وانتهت هذه الغزوة ورجعت مصر إلى سلطانها الشرعي وسوف ترى باقي أخبار السلطان سليم الثالث في أول تاريخ القرن التاسع عشر.

عدد ١٠٤٥

ما نعرفه من تاريخ سورية في أيام السلطان سليم الثالث إلى سنة ١٨٠٠

فرغنا من كلامنا في تاريخ سورية في عدد ١٠٤٢ بذكر طرد الأمير بشير قاسم الأمير يوسف من لبنان وفرار هذا إلى حوران. ففي سنة ١٧٨٩م كتب الأمير يوسف إلى الجزار يستعطفه إليه ويستأذنه بالحضور إلى عكا، فأذنه فنهض الأمير من حوران بجماعته ومعه أخوه الأمير حيدر توّاً إلى عكا، ودخل على الجزار وفي عنقه منديل الخضوع فأمنه الجزار وأكرمه وعيّن له جعلاً، وأقام عنده في عكا خمسة أشهر. وكان في خلال السنة المذكورة أنّ الأمير قاسم الحرفوش سأل الأمير بشير أن يساعده في خلع ابن عمه الأمير جهجاه من الولاية ونصبه هو فيها فأجابه الأمير إلى ذلك وأرسل له عسكراً إلى زحله، فساروا وقام الأمير قاسم الحرفوش بالعسكر إلى تمنين، والتقاه ابن عمه برجاله إلى أرض أبلح وانتشب بينهم القتال فانتصر الأمير جهجاه وقبض على الأمير شديد اللمعي ثم أطلقه، وردّ له جواده وسلاحه. ورجع عسكر لبنان إلى زحلة مدحوراً فجرّد الأمير بشير عسكراً وأرسل معه أخاه الأمير حسناً ففرّ الأمير جهجاه من بعلبك إلى رأس بعلبك، فاتبع العسكر أثره فرجع من طريق آخر إلى بعلبك ونهبها وانهزم إلى يبرود. هذا ما جاء في أخبار الأعيان والذي في تاريخ الأمير حيدر أنّ الأمير قاسم لما هاجم الأمير جهجاه في بعلبك أصابته رصاصة فقُتل.

وفي سنة ١٧٩٠م أنعم الجزار على الأمير يوسف بخلع الولاية على لبنان بعد أن تعهد له بدفع ستمائة ألف قرش ورهن عنده على هذا المبلغ ولده الأمير حسيناً ومدبره الشيخ غندور سعد الخوري، واتخذ فارس الشدياق مدبراً عوض الشيخ غندور. فقام الأمير بشير من دير القمر إلى نيحا ثم سار إلى عكا وتعهد إلى الجزار بدفع زيادة على المبلغ الذي تعهد به الأمير يوسف فأنعم عليه بخلعة الولاية. وكان الأمير يوسف باقياً في عكا فأمر أن يُلقى بالسجن ومعه عشرة من خدمه من بني الدحداح وسمعان البيطار وفارس الشدياق وأن تؤخذ عمائم غير هؤلاء ممن كانوا مع الأمير يوسف وسلاحهم ويخلى سبيلهم. وأمر الأمير بشير أن يسرع إلى دير القمر ويأخذ معه الأمير حسيناً ابن الأمير يوسف، ولما وصل

إلى دير القمر قبض على كل من وجده من محازبي الأمير يوسف وأودعهم السجن ووجّه جباةً يجمعون المال من كل أعمال البلاد. وتوفي حينئذٍ الأمير محمد اللمعي فاجتمع الأمراء أقاربه ووجوه المتن في مأتمه، فائتمروا على الأمير بشير وتحالفوا على طرده من البلاد واختاروا مكانه الأمير حيدر ملحم وابن أخيه الأمير قعدان. وبثوا إلى مناصب البلاد ما عزموا عليه، وطردوا جباة الأموال المنفذين من الأمير بشير، فجمع الأمير بشير رجاله وسار بهم إلى عين دارا، وأرسل الأمير حيدر أحمد بخمسين نفر إلى كفر سلوان (بالمتن) وأمره أن يحرق منازل بني حاطوم الدروز لتسببهم بتلك الثورة، فثار أهل القرية وامتد الصوت بالمتن وقاتلوا الأمير وحاصروه في القرية ثم دخلوها وسلبوا جماعته، وقتل من المتنية خمسة أنفار ومن رجال الأمير ثلاثة وانكفّ راجعاً إلى عين دارا. ثم اجتمع المتنية في حمانا وسار الأمير حيدر ملحم إلى اعبيه واتفق مع ابن أخيه الأمير قعدان وانضوى إليهما بعض المشايخ النكدية والعمادية. وخاف الأمير بشير أن يسبقه الأميران إلى دير القمر فأسرع إليها وأرسل الجزار ألفاً من الأرناؤوط إلى حرش بيروت فخاف الأمير حيدر ملحم فقام إلى العبادية واتفق مع المتنيين، وأرسل الأمير بشير الأمير حيدر أحمد ومعه رجال لمساعدة عسكر الجزار على الأمراء اللمعيين والمتنيين وكانت بينهم وقعات فانهزم المتنيون وقُتل منهم خلقٌ كثير.

وكتب الأمير بشير إلى الجزار يخبره بما كان وينسب هذه الثورة إلى دسائس الأمير يوسف. ولما قرأ الجزار رسالة الأمير بشير غضب غضباً شديداً وكان في طريق الحجّ، فكتب إلى نائبه في عكا أن يشنق الأمير يوسف ومدبره غندور الخوري دون مراجعة، ثم خمد غضبه وندم على صدور أمره فكتب إلى نائبه ثانيةً أن لا يشنقهما، وبلغ الأمر الثاني قبل أن يُشنقا فأخفاه النائب باشارة ابن السكروج لأنه كان عدوّاً للشيخ غندور، فأخذهما إلى المشنقة فشنق الأمير يوسف وأما الشيخ غندور فمات خوفاً، وقيل مشنوقاً وكان عمر الأمير يوسف حينئذٍ أربعين سنة، وحكم البلاد سبعاً وعشرين سنة منها تسع سنين ببلاد جبيل بادارة مدبره الشيخ سعد الخوري، وثماني عشرة سنة في دير القمر. وقد كتب الأمير يوسف رسالة إلى البابا بيوس السادس أثبتها رشيد الشرتوني في الطبعة الثانية من كتابه في سلسلة بطاركة الموارنة. فالأمير في هذه الرسالة يحقق للحبر الروماني أنّ التهم

الموجّهة على البطريرك يوسف اسطفان لا صحة لها ولا حقيقة وإنه خاضع مطيع لأمر الكرسي الرسولي. وإنّ أعيان الملّة أقدموا عليه بالرجاء ليتوسط لدى قداسته رجوع البطريرك إلى مقامه البطريركي إذ ليس في الملّة من يقوم مقامه. وقدّم رسالته هذه كما قيل فيها مع القس يوسف التيان (الذي صار بعداً بطريركاً) بصفة موفد من قبله وقبل الشيخ سعد الخوري والملّة. وتاريخ هذه الرسالة في ١٥ آذار سنة ١١٩٨ هـ الموافقة لسنة ١٧٨٣ م. ويظهر أنّ البابا بيوس السادس كان قد كتب إلى الأمير يوسف بهذا الشأن لأنه يقول في رسالته المذكورة: «إنه في حين ورود مرسومكم لنا منذ كم سنة مشيناهم «أي الموارنة» على منطوق أوامركم حرفاً بحرف، وهذا أمر سهل لدينا وبواسطة عزيزنا الشيخ سعد الخوري وحسن تدبيره ورغبته في طاعتكم، تمّ كل شيء كما ترغبون سعادتكم».

إنّ قتل الأمير يوسف والشيخ غندور لم يخمد جذوة الثورة التي ابتدأت في المتن على الأمير بشير، وعند رجوع الجزار من الحج تأسّف على قتل الأمير يوسف وأمر بقتل ابن السكروج، واستحوذ على ماله لأنه تسبب بقتله. والتمس الأمير بشير منه اطلاق المسجونين من جماعة الأمير يوسف وكفلهم بخمسين ألف قرشاً وأطلقهم. وكتب الجزار إلى والي دمشق أن يجهز عسكراً لمساعدة الأمير بشير، وأرسل الأمير أسعد والي حاصبيا بعسكر إلى البقاع، ووجّه الأمير بشير أخاه الأمير حسناً لينضمّ إلى الأمير أسعد وعسكر دمشق ويقاتلوا الأمراء اللمعيين وأهل المتن من جهة البقاع، وأمر الجزار الأرناؤوط الذين كانوا في حرش بيروت أن يحضروا إلى صيدا ليتوجهوا صحبة الأمير بشير الذي كان قد حضر إليها ومعه المشايخ الجنبلاطية ، ولما بلغ المشايخ النكدية مسير الأرناؤوط إلى صيدا ساروا برجالهم وأكمنوا في السعديات بالقرب من نهر الدامور، فانتشبت الحرب بين الفريقين ، فظهر النكدية على الأرناؤوط وقتلوا منهم نحو مائتي رجل، وبلغ ذلك الجزار فكتب إلى قائدي عسكريه في صيدا والبقاع أن ينهضا بالعساكر إلى المتن للانتقام من أهلها العصاة، وسار الأمير بشير بعسكر صيدا وأظهر العصيان حينئذٍ أهل الغرب والشحار والجرد وأهل دير القمر أيضاً، ولما علموا بقدوم الأمير من صيدا مع عسكر الجزار أكمنوا في قرب صحراء الشويفات فنشبت نار الحرب بين الفريقين هناك فانذحر أهل البلاد وقُتل منهم نحو عشرين رجلاً، وظلّ الأمير بشير سائراً بالعسكر إلى حرش بيروت، وكانت بعد ذلك أي في سنة ١٧٩٠م وسنة ١٧٩١م

سلسلة حروب متصلة في جهات ساحل بيروت والبقاع وحاصبيا واقليم الخروب والشوف تزيد عدد الأيام التي كانت فيها. وكان الأمير حيدر ملحم والأمير قعدان في خلال هذه المدة قد أقاما في دير القمر حاكمين في البلاد خلافاً لأمر الجزار. ومن أراد زيادة التفصيل في هذه الوقائع فليطالع كتاب أخبار الأعيان للمرحوم طنوس الشدياق وتاريخ المرحوم الأمير حيدر شهاب.

وكانت النهاية أن الجزار لما رأى أنّ عساكره لا تستطيع أن تكره أهل لبنان على طاعة أوامره كتب إلى قائد هذه العساكر وإلى الأمير بشير أن يرجعا بالعساكر إلى عكا، فنهض الأمير ومعه أخوه الأمير حسن والشيخ قاسم جنبلاط والعساكر إلى عكا، فأمر الجزار بوضع الشيخ قاسم في محرس مكرماً، وبأن يتوجّه الأمير بشير إلى صيدا، وأخوه إلى بيروت يقيمان بهما بعيالهما، وعيّن لهم نفقات كافية. ولما تحقق الأميران جلاء عساكر الجزار عن البلاد صرفا أهل البلاد كلاً إلى محله ولكن بطرَ أهل البلاد وتمردوا وجعل بعضهم يتطاولون على أبناء السبيل، وثقل بعض المتنيين على أهل الساحل وبيروت، وقتلوا منهم رجلاً مسلماً فأقفل المسلمون أبواب المدينة على كل من كان فيها من الجبل وقتلوا منهم ستين رجلاً. فاجتمع حينئذٍ أعيان البلاد ورفعوا عريضةً إلى الجزار التمسوا بها الصفح عمّا مضى وأن يولي عليهم الأمير حيدر والأمير قعدان وتعهدوا بأداء الأموال الأميرية على عادتها مع زيادة أربعة آلاف كيس منجمة على ست سنين، فأجابهم الجزار أن يرسلوا إليه مفوضين فأرسلا إليه ثلاثة من الأعيان. ولما مثلوا بحضرته قال لهم قد كففت الحرب شفقة على الرعايا وقد انفقت على العساكر نفقات وافرة فإن دفعها الأميران أرسلت لهما خلع الولاية، فأخبروا الأميرين عن ذلك فرضياه، واتفقا معه على خمسين ألف قرش. فأمرهما أن يحضرا لديه ومعهما تقادم الخيل المعتادة، وصكّ تعهد بالأربعة آلاف كيساً، فأرسلا له الصكّ وأربعة من الخيل الجياد وعشرين ألف قرشاً من الخمسين ألفاً، فأرسل إليهما الخلع وأمر بحجز الأمير بشير في صيدا، وأخيه الأمير حسن في بيروت ورفع الحجز عن ايصال الأقوات إلى الجبل ثم سار إلى الحجّ.

أما الأميران فجمعا الأموال الأميرية وأرسلاها إلى قائمقام دمشق بحسب أمر الجزار والتمسا من والي طرابلس ولاية بلاد جبيل فأرسل إليهما خلع الولاية عليها، وسارا إلى جبيل وجمعا مالها وزادا عليه نصف مال ونحو قرشين على كل رجل

ليدفعا تتمة الخمسين ألف قرشاً للجزار، وحاسبا وكيل الأمير بشير، وأخذا منه ما قبضه من الأموال الأميرية ثم شنقاه، والتمسا من الجزار بعد عوده من الحج ولاية حاصبيا للأمير قاسم شهاب وولاية راشيا للأمير محمد وتعهدا له بدفع المال المرتب عليهما فأرسل خلع الولاية للأميرين قاسم ومحمد.

وفي سنة ١٧٩٢م التمس جرجس باز أبو شاكر من دير القمر ابن أخت الشيخ سعد الخوري من الأمير حيدر والأمير قعدان أن يؤجرا أولاد الأمير يوسف وهم: الأمراء حسين وسعد الدين وسليم بلاد جبيل، لأنّ جرجس باز كان مدبراً لهم فأجراهم اياها بستين ألف قرشاً كل سنة. فتوجه الأمراء إلى جبيل ومعهم مدبرهم المذكور وأرسل يطلب لهم خلع الولاية من والي طرابلس فأرسلها إليهم. وكان هذا المدبر حاذقاً كريماً خبيراً بأساليب السياسة، فأخذ يستميل أعيان البلاد إلى هؤلاء الأمراء فمالوا إليهم وأحبوا مدبرهم حتى استهانوا بالأميرين الواليين وآثروهم عليهما حتى أمسى الأمير حيدر والأمير قعدان عاجزين عن تدبير شؤون البلاد وتحصيل الأموال الأميرية، فأشار عليهما الشيخ بشير النكدي والشيخ عبدالله القاضي أن يسلما الولاية إلى أولاد الأمير يوسف خشية أن ترد إلى الأمير بشير قاسم عدوّهما. فأرسل الأميران سنة ١٧٩٣م سرّاً إلى جرجس باز أن يلتمس من الجزار الولاية على الشوف وتوابعه لمواليه أبناء الأمير يوسف. فأرسل أخاه عبد الأحد إلى الجزار بمائة ألف قرشاً فأكرم الجزار بخلع الولاية على الأمراء المذكورين وأبقى عنده عبد الأحد رهناً على باقي الأموال. فقام الأمراء من جبيل إلى الحدث والتقاهم الأمير حيدر والأمير قعدان إلى هناك فتوشحوا بخلع الولاية وساروا جميعاً إلى دير القمر.

وكان أولاد الأمير يوسف متفقين مع الأمير حيدر والأمير قعدان، ولما أظهر الأميران منصور وفارس اللمعيان والشيخ قاسم جنبلاط العصيان توجّه الأمير قعدان وجرجس باز بعسكر الجزار إليهم فأبدوا الطاعة، وكذلك كان لما دهم الشيخان حسن وبشير قاسم جنبلاط ابن عمهما الشيخ أبا قاسم وأخاه الشيخ أحمد وقتلاهما. وكان هؤلاء يخشون من عود الأمير بشير إلى الولاية ولذلك كانوا يكتبون إلى الجزار أنّ كل هذه الأحداث نتيجة دسائس الأمير بشير وأخيه الأمير حسن وانهما ما داما بصيدا وبيروت يتعذر جمع الأموال الأميرية. فطلبهما الجزار إلى عكا وأمر أن يقيما بالناصرة وسار إلى الحج. ولما حان وقت رجوعه التقاه

الأمير بشير وأخوه الأمير حسن إلى صحراء المزاريب ، وكان كثيرون من أعيان البلاد قد التمسوا من الجزار اعادة الأمير بشير إلى الولاية فأنعم عليه بها وصحبه بعسكر إلى صيدا .

وأرسل الأمير بشير إلى الشوف أخاه الأمير حسناً والشيخ بشير جنبلاط ومعهما المنلا اسماعيل بألف فارس وحلوا بالمختارة، فجمع الأمير قعدان وجرجس باز نحو ألف رجل فدهموهم هناك ليلاً فتقوّى عليهم المنلا اسماعيل وهزمهم إلى برج بعقلين . وكان الأمير بشير قد قام بعسكر من صيدا إلى عانوت فلما بلغه ذلك نهض إلى السمقانية ففرّ الأمير قعدان والأمير حسين ابن الأمير يوسف من بعقلين إلى اعبيه ومعهما جرجس باز ومنها ساروا بمحازبيهم إلى جبيل . وسار الأمير بشير إلى عاليه وأمر بنهب أكثر قرى الغرب الأعلى ، ثم انتقل إلى حرش بيروت وأرسل رجالاً للقبض على بعض المذنبين، فاجتمع أهل المتن وطردوا أولئك الرجال ودعوا أولاد الأمير يوسف ليحضروا إلى المتن، فقام الأمير بشير لكبتهم وبلغ إلى خان الكحالة فالتقاه بعض المتنيين وأطلقوا الرصاص على عسكره فهجم عليهم فانهزموا ، وتبعهم إلى العبادية فنهبها وقتل جماعةً ، ثم قام إلى رأس المتن وحضر الأمير حسين ابن الأمير يوسف برجال بلاد جبيل وكسروان والقاطع إلى بعبدات ، لكنه رأى المتنية على حالة الفشل فرجع وأنفض عقد المتنية فرحلوا من وجه العسكر ، وقدم الأمراء اللمعيون طائعين ، وحضر الأمير قعدان والأمير حيدر والشيخ بشير النكدي إلى المتين وأرسلوا إلى الشيخ بشير أن يتوسط أمرهم مع الأمير فأجابهم إلى ذلك . وحضر لديه الأمير قعدان فطيّب قلبه وأطلق له التصرف بأرزاقه فرجع إلى عبيه، وأرسل الأمير حيدر يطلب الصفح فعامله كذلك . وأخذ يفحص في دور الأمراء والأديار عن ودائع أولاد الأمير يوسف والنكدية ، فضبط ما وجده وغرّم النكدية بخمسين ألف قرشاً ثم طيّب خاطرهم . وتوفي في هذه الأثناء الشيخ قاسم جنبلاط بعكا .

وفي سنة ١٧٩٤م كتب سر عسكر الجزار إليه أنّ الأمير بشير جمع من البلاد اموالاً لا تحصى ولم يجرِ على العسكر أرزاقهم فكان الجواب أن يقبض حالاً على الأمير بشير وأخيه الأمير حسن والشيخ بشير جنبلاط ويحضرهم إلى عكا . فاعتقلهم وسار بهم بحراً إليها ، وكتب الجزار إلى أولاد الأمير يوسف أن يحضروا لديه ليوليهم ، فحضر الأمير حسين والأمير سعد الدين من جبيل إلى ساحل

بيروت، فأرسل لهم خلع الولاية. فسار الأمير حسين إلى دير القمر ومعه مدبره جرجس باز، وسار الأمير سعد الدين إلى جبيل ومعه فرنسيس باز أخو جرجس المذكور. وأخذ الأمير حسين ينتقم من محازبي الأمير بشير فاتفق الشيخ حسن جنبلاط والمشايخ العمادية ودعوا إليهم الأمير عباس أسعد وقاموا به وبرجالهم إلى بعقلين قاصدين أن يدهموا الأمير حسيناً، فجمع هو أقاربه وبعض الأعيان إلى دير القمر وكتبوا إلى الجزار أنّ هذه الثورة من دسائس الأمير بشير فأمر بسجن الأمير بشير وأخيه الأمير حسن مغللين، وأنفذ المنلا اسماعيل بعسكره إلى الشوف فأنفضت تلك العصبة واختفى الشيخ حسن جنبلاط وفرّ العمادية إلى حوران وحضر الأمير عباس لدى الأمير حسين فطيّب قلبه، ثم رجع العمادية من حوران ودفعوا للأمير حسين خمسة آلاف قرشاً فأمنهم.

وفي سنة ١٧٩٥م عاد الجزار من الحجّ فرفعت إليه شكاوى كثيرة من ظلم أولاد الأمير يوسف وجرجس باز، فأمر باطلاق الأمير بشير وأخيه الأمير حسن وتعهدا له بثمانماية ألف قرشاً مقسطة على ست عشرة سنة، ورهن عنده الأمير حسن ابنه الأمير ابراهيم، والأمير بشير ولديه وزوجته، والشيخ بشير زوجته. فخلع على الأمير بشير خلعة الولاية وأصحبه بعسكرٍ فقام الأمير وأخوه والشيخ بشير جنبلاط ومدبر الأمير الشيخ سلوم الدحداح إلى لبنان. ففرّ الأمير حسين ومحازبوه إلى جبيل، ثم دعا الأمراء اللمعيون الأمير حسيناً والأمير سعد الدين إلى المتن ليطردا الأمير بشيراً فنهضا بأصحابهما إلى البقاع ونزلا بجديتا، فقام الأمير بالعسكر إلى الباروك، وأرسل الأمير حيدر أحمد (صاحب التاريخ) إلى قلعة قب الياس فأقبل عليه الأمير حسين يوسف بألف رجل فقاتلهم الأمير حيدر وهزمهم. وقام الأمير بشير إلى المغيثة بعسكر الجزار ففرّ أولاد الأمير يوسف من جديتا إلى جهات البترون، وقام الأمير بعسكره إلى كسروان ونزل بوطا الجوز فتقدّم إليه المشايخ الدحادحة وكانوا مع الأمير يوسف فطيّب قلبهم وجعلهم كتبة عنده وعند أخيه، ثم نزل بعسكره إلى جسر المعاملتين وأرسل أخاه الأمير حسناً والأمير حيدر أحمد والشيخ بشير جنبلاط يدهمون الأميرين حسيناً وسعد الدين في البترون ففرّا منها مذعورين إلى طرابلس، فنهب العسكر البترون وسار الأمير حسن أخو الأمير بعسكر الجزار إلى زغرتا قاصداً حصار طرابلس، وأرسل الأمير بشير يخبر الجزار بما كان فأمره أن يرجع إلى دير القمر ويبقى أخاه مع العسكر في جبيل، فلما بلغ

الأميرين عودهما خرجا من طرابلس ونزلا براسكيفا فعاد الأمير حسن إلى البترون لقتالهما فانهزما إلى عكار.

وضبط الأمير بشير أملاك أولاد الأمير يوسف وهدم مساكن النكدية، وضبط أملاكهم، وجمع الأموال وأرسلها إلى الجزار فأطلق له زوجته وابنه الأمير خليل وزوجة أخيه الأمير حسن، ثم أنعم خليل باشا والي طرابلس على الأمير سليم ابن الأمير يوسف بولاية بلاد جبيل، وأرسل معه عسكراً إلى البترون وصحبه محمد المرعب والشيخ عباس رعد برجال الضنية حتى صار عسكره نحو ستة آلاف رجلاً. وبلغ الأمير بشير قدومهم إلى البترون فأرسل إلى أخيه الأمير حسن إلى جبيل الأمير حيدر أحمد والشيخ بشير جنبلاط والمشايخ العمادية برجالهم، وزحف عسكر الأمير سليم سنة ١٧٩٦م من البترون إلى أرض عمشيت فنهض الأمير حسن برجال البلاد وعسكر الجزار ونشب القتال بينهم فانكسر عسكر الأمير سليم وقُتل منهم ستون رجلاً وانهزموا إلى طرابلس.

فرجع الأمير حسن إلى جبيل وكتب الأمير بشير إلى خليل باشا يلتمس أن لا يقبل أولاد الأمير يوسف عنده فلم يجبه إلى ذلك، بل جهز عسكراً آخر. وكان الأمير بشير قد كتب إلى الجزار يخبره بما كان ويستمده فأرسل عسكراً إلى جبيل بحراً، فنهض بهم الأمير حسن لقتال عسكر طرابلس فانهزموا دون قتال إلى عكار. ثم كتب عبد الله باشا العظم والي دمشق إلى ابنه خليل باشا والي طرابلس أن يوجّه أولاد الأمير يوسف إلى البقاع فيرسل إليهم المنلا اسماعيل بعسكر، فسار أولاد الأمير يوسف إلى زحله، وأرسل الأمير بشير الأمير حيدر أحمد وبشير جنبلاط وعسكر الجزار الذي كان بجبيل إلى المغيثة، وقدم المنلا اسماعيل إلى مندرة عند قب الياس بعسكره فلاقاهم الأمير حيدر بعسكر فتسعرت نار الحرب، فانهزم المنلا اسماعيل وقُتل من عسكره خلقٌ كثير. فلما رأى ذلك أولاد الأمير يوسف فرّوا من زحلة إلى بعلبك ثم إلى دمشق. ورجع عسكر الأمير بشير إلى دير القمر وصرف عسكر الجزار إلى عكا.

وفي هذه السنة كان مقتل المشايخ النكدية فإنهم كانوا يخالفون الأمير بشيراً ويضادون آل جنبلاط وعماد في كل ما مرّ من تقلبات، فاتفق الشيخ بشير جنبلاط والمشايخ العمادية برضى الأمير بشير على قتلهم، فطلبوا إلى سراي دير القمر بحيلة

أن يخلع عليهم الأمير خلعة الرضى ، فأتى الشيخ بشير واخوته المشايخ واكد وسيد أحمد وقاسم ومراد ، ولما دخلوا القاعة قتلوهم جميعاً وأرسلوا إلى بيوتهم باعبيه فهرب أولادهم ونهبوا بيوتهم، ثم قبضوا على أولادهم الفارين فسجنوهم ، ثم قتلوا العمادية بالسجن ، وبقي من عائلة كليب ثلاثة أولاد صغار والشيخ سلمان وأولاده ووفق الأمير بعد ذلك بين آل جنبلاط وآل عماد .

وفي سنة ١٧٩٧م أمر عبد الله باشا والي دمشق أولاد الأمير يوسف أن يقيموا في حماه ريثما يرجع من الحجّ ، وأجرى عليهم النفقات ، فورد إليهم أمر من الجزار أن يحضروا إليه آمنين فحضروا مع مدبرهم جرجس باز فترحّب الجزار بهم، وعلم بذلك الأمير بشير فاضطرب وكتب إلى الجزار يكاشفه ، فأجابه كن طيّب القلب . فجمع الأمير المال مع زيادة عليه وفرض على كل رجل ثلاثة قروش عدا الاكليرس وعقال الدروز ، وسمّى هذه الضريبة شاشية ، وأرسل ذلك إلى الجزار طلباً لرضاه . لكنه في سنة ١٧٩٨م ولّى أولاد الأمير يوسف مكانه لاتهامه بالاتفاق مع الفرنسيين ، ولكن لمّا بلغ الجزار وصول بونابرت إلى الاسكندرية أوقف أولاد الأمير يوسف عن المسير إلى لبنان .

وفي سنة ١٧٩٩م قدم بونابرت بالجيش الفرنسي فحاصر عكا فاستنجد الجزار بالأمير فاعتذر إليه بأنّ أهل البلاد بلغهم أنه ولّى أولاد الأمير يوسف فما عادوا يطيعونه . وكتب بونابرت إلى الأمير بشير فلم يجبه ثم كتب إليه كتاباً آخر يعاتبه به لعدم جوابه ، فوقع هذا الكتاب بيد الجزار فرضي عن الأمير بشير كما مرّ . ولما ارتحل بونابرت عن عكا خاف الأمير والنصارى من الجزار، وكان الأميرال سميث رئيس الأسطول الانكليزي قد كتب إلى الأمير بشير كتاباً ودياً عند مقاومته جيش فرنسة المحاصر عكا، فأجابه الأمير جواباً لطيفاً صحبة رسول حكيم . فأرسل الأميرال له مع رسوله هدية نفيسة ، وكان ابن أخته جريحاً فأرسله إلى الأمير ليقيم عنده إلى أن يبرأ جرحه ، فأكرمه الأمير غاية الاكرام. ثم حضر الأميرال إلى بيروت فأرسل الأمير يلتمس منه أن يزوره ، واتفقا أن تكون الزيارة بعين عنوب ، وبالغ الأمير بالحفاوة به الاحتفال له ، وجرت بينهما عهود وصداقة وتعهّد الأميرال بكفّ الجزار عن مضرّة الأمير ، ولكن لما أقلع الأسطول الانكليزي من عكا أنفذ الجزار عسكره إلى صيدا عازماً على تنصيب أولاد الأمير يوسف بالولاية . وفي

أثناء ذلك قدم الصدر الأعظم بالجيوش العثمانية إلى حلب ، فرفع الأمير بشير إليه عريضة وأرسل له خيلاً جياداً صحبة حسون مراد الدرزي ويوحنا الدحداح ، فقدما له الهدية وسألاه صفو خاطره على الأمير وردع الجزار عن مظالمه فصرفهما راضيين . ولما وصل إلى حماه أرسل له الأمير ماية ألف قرشاً خدمةً . ثم دخل دمشق فكتب إلى الأمير يطيّب قلبه ويأمره أن يرسل ألف غرارة قمحاً وشعيراً فبادر إلى جمعها وأرسلها فأنعم عليه الصدر الأعظم بخلع الولاية على لبنان ووادي التيم وبلاد بعلبك والبقاع وبلاد المتاولة واعداً اياه أن يبقى والياً بأمر الدولة وليس لوزراء صيدا ودمشق تسلط عليه ، بل يورد المال إلى الخزينة كما كان في أيّام أمراء المعنيين، وأرسل إليه المهردار مصحوباً بالخلع ليستورد أموال هذه الولايات .

وكان يؤمل أن تسود الراحة ويضمحلّ القلق فلم يكن كذلك، لأنّ اليزبكية اتفقوا مع الأمير قاسم والي حاصبيا وأرسلوا يسألون الجزار عسكراً لمقاومة الأمير بشير ، فأجابهم إلى ذلك ووجّه عسكراً إلى خان حاصبيا فنهضوا به إلى البقاع ، فأرسل الأمير الشيخ بشير جنبلاط برجاله فحلّ في صغبين فالتقاه اليزبكية واضطرمت نار الحرب من الصباح إلى المساء فقُتل من الفريقين جماعة وافرة ، فأرسل الأمير بشير إلى عبد الله باشا والي دمشق يسأله أن يمده بعسكر ، فأمر المنلا اسماعيل أن ينجد الأمير لأنه صار معدوداً من رجال الدولة فنهض بألف فارس إلى البقاع وبعث إلى رؤساء عسكر الجزار أن ينكفوا عن مقاومة الأمير بشير فانقادوا لأمره وعادوا إلى حاصبيا . وهو وسار إلى حاصبيا فهرب الأمير قاسم واليزبكية إلى عكا .

فاحتدم الجزار ولم يلتفت إلى أمر الصدر الأعظم وخلع على الأميرين حسين وسعد الدين ابني الأمير يوسف خلعة الولاية على لبنان ، وأبقى أخاهما الأمير قاسماً رهناً عنده . وأصحبهما بستة آلاف فارس وأربعة آلاف راجل . فسار الأمير حسين بالفرسان إلى البقاع ومعه مدبره جرجس باز والأمير سعد الدين بالمشاة إلى اقليم الخروب ومعه مدبره عبد الأحد باز والعمادية والنكدية . ولما بلغ ذلك الأمير بشير بعث الأمير حيدر أحمد إلى غريفه ومعه الشيخ حسن جنبلاط . وبعث مهردار الصدر الأعظم إلى دمشق يخبر عبد الله باشا بما أقدم عليه الجزار، وتوجّه هو أي الأمير بشير إلى عين بال وأرسل يطلب رجال البلاد فقلّ من لبّى دعوته . وكتب إلى المنلا اسماعيل أن يأتي لنجدته فسار إلى الزبداني ثم إلى حماه . وقدم النكدية

إلى دير القمر فقام الأمير بشير من عين بال إلى المختارة وأرسل عياله إلى المتن، ونهض الأمير سعد الدين بالعساكر إلى مزرعة الشوف فقدم إليه بعض الأعيان مستسلمين إليه وانفضّ الأمراء اللمعيون عن الأمير بشير وقلّ محالفوه، فقام ليلاً من المختارة إلى البقاع فوصل الأمير حسين بعسكر المشاة إلى جب جنين فنهض الأمير بشير إلى حمانا ودعا أمراء المتن فلم يلبوا، وكتب إليهم الأمير حسين أن يطردوا الأمير بشير من عندهم وإلّا فيفاجئهم بعسكره، فنهض الأمير بشير إلى بلاد جبيل وليس معه من الشوف سوى بني جنبلاط ونحو خمسماية رجل، والأمير حيدر ملحم والأمير أحمد والأمير حسن علي من أقاربه ودخل الأمير سعد الدين إلى دير القمر.

وقد وصل إلى الأمير بشير حينئذٍ رسالة من الأميرال سميث أثبتها الأمير حيدر في تاريخه فحواها أنه ساءه كثيراً عزل الجزار له، وأنه ماضٍ إلى الصدر الأعظم بغزة ليلتمس منه توطيده بالولاية، وأنه ترك له مركباً في ثغر بيروت ليستخدمه في حاجاته. وورد أمر من عبد الله باشا العظم والي دمشق إلى أهل لبنان أثبته الأمير حيدر أيضاً يؤنبهم به على عصيانهم الأمير بشير المنصّب من الصدر الأعظم ويهددهم ويحذرهم من المخالفة له. فأرسل الأمير هذا الأمر إلى أهل البلاد عالماً أنهم غير قادرين على مقاومة الجزار ما داموا على هذه الخيانة والانقسام. ثم توجّه من بلاد جبيل إلى الكورة، ثم إلى راسكيفا، وأما الأمير حسين ابن الأمير يوسف فسار من قب الياس إلى حمانا وأثقل كاهل أهل المتن بجباية المال والضرائب ونفقة العساكر حتى ندموا على طردهم الأمير بشير. ثم سار إلى كسروان ونهب أكثر قراها، ثم إلى البترون، ولما بلغ قدومه الأمير بشير قام من راسكفيا إلى سبعل، فنهض الأمير حسين إلى أميون ففرّ الأمير بشير ليلاً إلى الهرمل وأقام ابنه الأمير خليل عند علي بك الأسعد بعكار، ثم سار الأمير إلى بعلبك قاصداً أن يقيم بحوران، فورد عليه كتاب من الأميرال سميث يطلب حضوره إلى غزة لمقابلة الصدر الأعظم، وأرسل له مركباً إلى طرابلس يسافر به، فعاد في طريق عكار إلى المنية قرب طرابلس، والتقاه قنصل الانكليز وسار في ذلك المركب ومعه مدبره الشيخ سلوم الدحداح وعشرون رجلاً من خدمه.

ولما بلغ الأمير إلى حيث الأسطول الانكليزي استقبله الأميرال باحتفاء عظيم، وأطلق المدافع تجلةً له، وصحبه في مسيره إلى الصدر الأعظم الذي كان قد اعدّ

خيماً لنزول الأمير، وقابله بالبشاشة والترحاب وطيّب قلبه وعرض عليه أن يصحبه بعشرة آلاف جندي لقتال الجزار. فامتنع الأمير من ذلك، فوعده الصدر أنه متى انتهى من تدبير شؤون مصر يسير بجميع جيشه إلى سورية فيضرب الجزار. واستأذن الأمير الصدر الأعظم بأن يسافر في الأسطول الانكليزي ،فأذن له فسار الأمير مع الأميرال إلى قبرص وأقام معه هناك ثمانية عشر يوماً، ثم سافر معه إلى مصر أيضاً ليتلقى أمر الصدر الأعظم قبل رجوعه إلى لبنان، فاتفق حدوث أنواء أخّرت وصولهم إلى اسكندرية مدة طويلة. ولما بلغوا إليها علموا أن الفرنسيين الذين كانوا بالقاهرة قد حاربوا الصدر الأعظم وكسروا عسكره وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ورجع الصدر الأعظم إلى يافا بمن بقي من عسكره، ولما تحقق الأمير بشير ذلك طلب من الأميرال أن يردّه إلى طرابلس فردّه إليها ونزل عند مصبّ نهر البارد.

وكان أخوه الأمير حسن والشيخ بشير جنبلاط في الحصن عند علي بك الأسعد فالتقياه، ومن الغد عادوا جميعاً إلى الحصن. وكان الأمير حسين والأمير سعد الدين ابنا الأمير يوسف قد عجزا عن ايراد المال المطلوب للجزار فأنفذ ألف فارس من الدالاتية إلى البقاع لجباية المطلوب، وأرسل جرجس باز أخاه عبد الأحد إلى عكا ومعه عشرون ألف قرشاً ليسكّن بها غضب الجزار، فلم يسكن وألحّ على الأميرين باداء المطلوب كاملاً، وطلب ثلاثمائة غرارة قمح وألف رأس غنم وثلاث مئة رأس بقر وثلاثماية قنطار بارود. فأرسل الأميران محصلين لجمعها، فهاج أهل البلاد وطرد المتنيون المحصلين. فكتب الأمير حسين إلى الجزار يشكوهم، فأرسل ثلاثماية نفر من الأرناؤوط فاستعدوا لقتالهم، وأجمعوا على اعادة الأمير بشير إلى الولاية ووافقهم أكثر أعيان البلاد، فأرسلوا ثلاثمائة رجل إلى الحصن عند الأمير بشير يستدعونه إليهم، فقام معهم عائداً إلى لبنان، ولما وصل إلى كسروان نشر اعلاناً لأهل البلاد يخبرهم بقدومه فاضطرب الأميران وأسرع جرجس باز مدبرهما إلى الجزار يخبره بذلك ويلتمس منه عسكراً فجهز ألفي مقاتل من الأرناؤوط ووعده بارسال عسكر من الفرسان. أما الأمير بشير فقام إلى حمانا فالتقاه الجميع ببهجة وسرور وقدم إليه المناصب إلّا العمادية، واتّحد معه أكثر الأمراء اللمعيين، فنهض بحشدٍ كبير إلى الباروك ثم إلى كفرنبرخ، وقدم جرجس باز بالأرناؤوط إلى دير القمر، ونهض الأمير بشير إلى بعقلين وأصلح بين أصحابه وأصحاب أولاد الأمير يوسف حتى قلّ من بقي صديقاً لهم. فأقنع بعضهم جرجس باز أن يصرف

الأرناؤوط من دير القمر فينعقد الصلح على أن يتولّى الأميران ابنا الأمير يوسف بلاد جبيل، ويتولّى الأمير بشير باقي البلاد، فارتضى بذلك، وقام الأمير حسين بعسكر الجزار إلى ساحل بيروت ودخل الأمير بشير إلى دير القمر.

وأرسل الأمير بشير أخاه حسناً برجال الغرب إلى الشويفات لملاقاة الأمير حسين وجرجس باز لعقد الصلح، لكن جرجس باز بدا له أن يعدل عن الصلح فبقي سائراً بالعسكر إلى حرش بيروت والتمس من الجزار تعزيز عسكره بعسكر آخر. ولما عرف الأمير بشير بنكثه عهد الصلح ، ترك الشيخ بشير جنبلاط بدير القمر ونهض إلى الشويفات وجمع ألف رجل من الغربين والشحار وسار بهم إلى عاريا، وأردف الجزار عسكره بأربعة آلاف مقاتل وزحفوا إلى ساحل بيروت فأحرقوا قراه وحاصروا الشويفات، لكن ردوا عنها. وبعد وقعات كان في آخرها النصر للأمير بشير فأذعن جرجس باز وكاشف الأمير بشير بالعود إلى عقد الصلح بشروطه السابقة، أي أن يتولّى أبناء الأمير يوسف بلاد جبيل والأمير بشير باقي البلاد فرضي الأمير بذلك ووطّده بوثيقة مقسوم عليها، واحتال جرجس باز على الجزار فاسترجع عسكره وعُقد الصلح وانطلقوا جميعاً إلى دير القمر، ولما علم الجزار ما كان تمزّق غيظاً وأقام عسكره في حصون ولايته، وخضع الجميع للأمير بشير وكان ذلك سنة ١٨٠٠م.

وقد أوقفنا القلم عن تدوين تكملة أخبار هذه الحوادث إلى تاريخ القرن التاسع عشر رعايةً لمساق تاريخنا. ولا غرو أن يملّ القارئ من مطالعة أخبار هذه الحوادث، فما رأيك في من يتأمل ما كان أسوأ حال هذه البلاد في تلك الأيام السيئة أمام هذا الداهية الدهماء التي هو الجزار. وقد صحّ ما قاله فيه الشاعر

جزار لكن للفضائل جازر   شرّ البريّة أن تفكر لو عمل

الفصل الثاني

بعض المشاهير في القرن الثامن عشر

عد ١٠٤٦

المشاهير السوريون في هذا القرن

وضع العالِم الفاضل السيد محمد خليل أفندي المرادي المفتي بدمشق كتاباً في أعيان القرن الثاني عشر للهجرة، سماه: «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر». وأسهب وأجاد في تراجم مئاتٍ منهم، فأخذنا عنه ذكر بعضهم وأشهرهم بما أمكن من الايجاز، وزدنا على ذلك ترجمات بعض مَنْ لم يذكرهم نقلاً عن كتب غيره من العلماء منسقين تراجمهم بحسب سني وفاتهم.

١

عبد الجليل المواهبي

هو ابن أبي المواهب بن عبد الباقي الحنبلي وُلد بدمشق سنة ١٠٧٩ هـ (سنة ١٦٦٨م.) ونشأ بها في كنف والده، واشتغل بالعلم عليه وعلى غيره من المشايخ، وأخذ عنهم النحو والتصريف والمعاني والبيان والفقه والحديث، وبرع في المعقولات والمنقولات، وجلس للتدريس بالجامع الأموي وعكف عليه الطلبة للاستفادة. وله من التآليف نظم الشافية لابن الحاجب في التصريف وشرحها شرحاً حافلاً. وله تشطير بديع على ألفية ابن مالك. وله أرجوزة في العروض، وغير ذلك من الرسائل. وكان ينظم الشعر الباهر ومنه قوله مشطراً الأبيات المنسوبة إلى جعفر الصادق.

عتبت على الدنيا وقلت إلى متى ... تسيئين صنعاً مع ذوي الشرف الجلي
افاقدة الانصاف حتى عليهم ... تجورين بالهم الذي ليس ينجلي
فكلّ شريفٍ من سلالة هاشمٍ ... بسيء حظٍ في مذاهبه ابتلي
ومع كونه في غاية العزّ والعلا ... يكون عليه الرزق غير مسهل
فقال نعم يا ابن البتول لأنني ... خسيسة قدر عن علاكم بمعزلِ
وأما إساءاتي فذلك أنني ... حقدت عليكم حين طلقني علي

وله :

إذا ملك لم يكن ذاهبه ... فدعه فدولته ذاهبه
فجد للفقير بما يبتغي ... وأفضل ما لك كن واهبه
وفي الله عن كل شيء غنى ... فكن راغباً فيه أو راهبه

وكانت وفاته سنة ١١١٩هـ (سنة ١٧٠٧ م).

٢

السيد ابراهيم بن حمزة

هو ابن محمد بن كمال الدين بن محمد بن حمزة الحراني الأصل الدمش المولد والنشأة. وُلد بدمشق سنة ١٠٥٤هـ (سنة ١٦٤٤ م) وبها نشأ في كن والده واشتغل بالعلم عليه وعلى شقيقه عبد الرحمن وغيرهما من العلماء الاعلا وسافر إلى مصر متولياً نقابة الأشراف فيها سنة ١٠٩٣هـ (سنة ١٦٨٢م) وأ عن علمائها، وتولّى بدمشق نيابة محكمة الباب الكبرى والقسمة العسك والنقابة مرّات، وكان صدراً من صدور دمشق، وكان من الاعلام المحد والعلماء الجهابذة في كثير من العلوم والفنون، وله مؤلفات منها «أسب الحديث» مؤلف حافل لخّص فيه مصنف أبي البقاء العكبري، وزاد عليه زياد

حسنة ومنها حاشية على شرح الألفية لابن الناظم لم تكمل. وقرّظه الأمين المحبي في كتابه النفحة. ومما قاله في حقه له في الأدب بسطة وباع وشعر متجمل برونق وانطباع. وتوفي سنة ١١١٩هـ (سنة ١٧٠٧م) وبنو حمزة في دمشق رؤساء ساداتهم إلى اليوم.

٣

محمد الكفيري

هو ابن زين الدين عمر بن عبد القادر ابن العلامة شمس الدين الكفيري الحنفي الدمشقي. وُلد بدمشق سنة ١٠٤٣هـ (سنة ١٦٣٣م) واشتغل بالعلم على كثيرين من العلماء الاعلام وأحرز قصبات السبق، وألّف وصنّف. فمن تآليفه شرحه على البخاري في ستة مجلدات وحاشية على الاشباه والنظائر في الفقه الحنفي، وكان شيخه الحائك قد شرع في تأليفها ولم يكملها، فبعد وفاته أتمّها هو. وله شرح على الأجرومية سماه: «الدرّة البهية على مقدمة الأجرومية» واعراب لألفاظها سماه «الأنوار المضية في اعراب ألفاظ الأجرومية». وكان قبل ذلك قد نظمها في أبيات تزيد على مئتي بيت وسبعين بيتاً، وسماها: «غرر النجوم في نظم ألفاظ ابن أجروم». وله أيضاً مقدمة في القراءة سماها بغية المستفيد في أحكام التجويد. وله: «العرف الندي في تخميس لامية ابن الوردي». وله غير ذلك من المقالات والرسائل وكثير من الشعر منه قوله:

يا من بحتده ارتقى ومؤملاً عدم الشقا
قد غرّه طول البقا عمّر فؤادك بالتقى
واحذر بأنك تلتهي

لا تركننّ لجاحدِ نِعَمَ الإلٰهِ معاندِ
والزم طريقة هاجدِ واعمل لوجهِ واحدِ
يكفيك كلّ الأوجهِ

وله:

ثلاث من تكن يا خلّ فيهِ فمغرورٌ وأجدر بالملامِ
فأولها اليقين بكون أمرٍ وليس له وجودٌ في الأنامِ
وثانيها المطامع في مرادٍ إليه وصوله صعب المرامِ
وثالثها الركون إلى جليسٍ بلا عهدٍ يراهُ ولا ذمامِ
فحد عنها لكي ترقى مقاماً وتحظى بالتحية والسلامِ

فهذا تضمين قول بعضهم ثلاث من يكن فيه كان مغروراً من صدّق بما لا يكون وطمع في ما لا يناله، وركن إلى من لا يثق به. وكانت وفاته سنة ١١٣٠هـ (سنة ١٧١٧م).

٤

أبو السعود الكواكبي

هو أحمد بن محمد بن حسين المشهور كأسلافه بالكواكبي. وُلد بحلب سنة ١٠٩٠هـ (سنة ١٦٧٩م) وبها نشأ، وأخذ العلوم عن فحول علمائها. وكان والده أجلّهم فأخذ عنه التفسير والمعقولات وتولّى الافتاء بحلب بعد والده. واستمرّ مفتياً إلى أن توفي. ومما ألّفه في عنفوان شبابه رسالة آداب البحث منظومة، وشرحها شرحاً مفيداً، ونظّم رسالة سماها الوضع، وباشر بشرحها، ولازم التدريس وتصدّى للافادة. وأخذ عنه أفاضل حلب وغيرهم جماعة كثيرون. وكان له شعر رقيق حتى قال المرادي في حقه إنه فاق أهل عصره. وتوفي سنة ١١٣٧هـ (سنة ١٧٢٤م).

٥

الشيخ عبد الغني النابلسي

هو ابن اسماعيل بن عبد الغني بن اسماعيل بن أحمد المعروف كأسلافه بالنابلسي الحنفي الدمشقي العالِم العلامة الحجة الفهّامة . وُلد بدمشق سنة ١٠٥٠هـ (سنة ١٦٤٠م) وأشغله والده بطلب العلم ، لكن توفي والده وعمره اثنتا عشرة سنة فعكف هو على اقتباسه عن أكبر علماء دمشق في عصره . وكان استاذ الأساتذة وجهبذ الجهابذة ولم يبلغ العشرين من عمره إلّا واشتهر بعلمه وتأليفه ونظمه ، فنظم بديعية في مدح النبي فاستبعد بعض أن تكون من نظمه ، فاقترحوا عليه أن يشرحها فشرحها في مدة شهر شرحاً لطيفاً في مجلد . ثم نظم بديعية أخرى التزم فيها ذكر الأنواع ، وسمى كتابه «نفحات الأزهار على نسمات الأسحار في مدح النبي المختار» . وطبع هذا الكتاب في دمشق سنة ١٢٩٩هـ وفيه القصيدتان المذكورتان احداهما خمس مائة بيت وبيت ، والثانية على الهامش وفي كل بيت منها اسم النوع من البديع . ثم شرع في القاء الدروس بالجامع الأموي وغيره ، وارتحل إلى دار الخلافة ثم إلى زيارة القدس والخليل . ثم مضى إلى البقاع وجبل لبنان ، ثم إلى مصر ومنها إلى الحجاز فألّف في كل من هذه الأسفار رحلة . وله من التصانيف غير ذلك : «التحرير الحاوي بشرح تفسير البيضاوي» في ثلاثة مجلدات ، وشرع في الرابع . و «بواطن القرآن ومواطن العرفان» كله منظوم على قافية التاء نحو خمسة آلاف بيت . و «كنز الحق المبين في أحاديث سيد المرسلين» و «الحديقة الندية في شرح الطريقة المحمدية» و «جواهر النصوص في حلّ كلمات الفصوص» للشيخ محيي الدين ابن عربي . و «كشف السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض» و «زهر الحديقة في ترجمة رجال الطريقة» ، و «خمرة الحان ورنّة الألحان» ، شرح رسالة الشيخ ارسلان . و «تحريك الأقليد في فتح باب التوحيد» و «لمعان البرق النجدي» شرح تجليات محمود أفندي الرومي ، و «المعارف العينية الجيلية» و «اطلاق القيود في شرح مرآة الوجود» ، و «الظل الممدود في معنى وحدة الوجود» ، و «رائحة الجنة في شرح اضاءة الدجنة» ، و «فتح المعيد المبدي في شرح منظومة سعدي أفندي» ، و «دفع الاختلافات من كلام القاضي والكشاف» ،

و «ايضاح المقصود من معنى وحدة الوجود»، و «القلائد الفرائد في موائد الفوائد» في فقه الحنفية على ترتيب أبواب الفقه و «حلية الذهب الأبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز»، و «الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية»، و «الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز»، و «ايضاح الدلالات في سماع الآلات»، و «التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية»، و «نسمات الأسحار في مدح النبي المختار» وهي البديعية. إلى غير ذلك مما ملأ به الخالدي أربع صفحات وأكثر هذه العناوين أسماء رسائل أو مقالات أو أجوبة.

والذي نعرفه مطبوعاً من كتبه «ايضاح الدلالات في سماع الآلات»، طُبع في دمشق سنة ١٣٠٢هـ وطُبع على الحجر مع كتاب المقايسات لأبي حيان ودون ذكر محل الطبع وسنته، وكتاب «ديوان الحقائق ومجموع الرقائق في صريح المواجيد الإلهية والتجليات الربانية والفتوحات الأقدسية» وهو الباب الأول من ديوان الدواوين وريحان الرياحين في تجليات الحق المبين طبعة الحقائق ببولاق سنة ١٢٧٠هـ وبالقاهرة سنة ١٣٠٦هـ وهي أشعار صوفية. وكتاب «علم الملاحة في علم الفلاحة» طُبع بدمشق سنة ١٢٩٩ ولا يخلو من فائدة في اصطلاحات الفلاحة والزراعة وطبع كتابه «نفحات الأزهار في نسمات الأسحار» بدمشق سنة ١٢٩٩هـ في ٥٠٤ صفحة، وكتاب «ديوان أشعاره» طُبع ببولاق سنة ١٨٥٧م وتوفي سنة ١١٤٣هـ (سنة ١٧٣٠م).

٦

أحمد الغزي

هو ابن عبد الكريم بن سعودي بن نجم الدين الشافعي الغزي الأصل الدمشقي مفتي الشافعية بدمشق وابن مفتيها، وُلد سنة ١٠٧٨هـ (سنة ١٦٦٧م) واشتغل بطلب العلم فنبغ فيه وحاز قصبات السبق وصنّف شرحاً على «المنحة النجمية في شرح اللمحة البدرية». وهذا كتاب في علم العربية مختصر في النحو للشيخ أبي حيان الأندلسي المتوفي سنة ٧٤٥هـ وعليه شرح لجمال الدين بن هشام النحوي، واختصره نظماً زين الدين بن الوردي، وله شروح أخرى. ولأحمد الغزي أيضاً شرح على نظم «نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر» وهو كتاب في علوم

الحديث للحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ، وعليه شروح لكثير من العلماء ، وقد نظمه كثيرون منهم فيظهر أنّ جدّ الغزي الرضي في جملتهم فشرح المترجم نظم جدّه كما اختصر كتاب جدّه محدث دمشق الشيخ محمد نجم الدين الغزي المسمى: «اتقان ما يحسن في الأحاديث الواردة على الألسن». وسمى مختصره «الحد الحثيث في بيان ما ليس بحديث». واختصر السيرة النبوية للشيخ العلامة علي الحلبي وله غير ذلك . وتولّى افتاء السادة الشافعية بعد وفاة والده . وكان بدمشق له القول والكلمة النافذة ويحترمه أعيانها إلى أن كانت وفاته سنة ١١٤٣هـ (سنة ١٧٣٠م) ورثاه الشيخ سعيد السماني بقصيدة مطلعها:

قضاء الله من للخلق أوجد بنا يمضي تواني المرء أوجد

٧

أحمد العكي

هو ابن بكر بن أحمد بن محمد مفتي عكا وعالِمها ومحيي ربوعها ومعالمها ، وُلد في سنة ١٠٩٥هـ (سنة ١٦٨٣م) وله تآليف كثيرة منها فتاويه المشهورة المسماة باسمه . وله حاشية على تنوير البصائر في الفقه وشرح منظومة ابن الشحنة في الفرائض . وله مختصر السيرة الحلبية ، وحاشية على نزهة النظار في علم الغبار في الحساب وهو اسم لعلامات تدلّ على الأعداد . وله شرح على ملتقى الأبحر في الفقه . وله بعض أشعار رائقة وكانت وفاته سنة ١١٤٧هـ (سنة ١٧٣٤م) .

٨

عبد الله الطرابلسي

هو ابن عمر بن محمد المعروف بالأفيوني الحنفي الطرابلسي نزيل دمشق أحد الأفاضل الجيدين ، وُلد بطرابلس الشام وبها نشأ ، وارتحل مع والده إلى مصر وقدم

ولده هذا إلى دمشق واستوطنها ، وله من التآليف شرح على البردة سماه: «الفيوضات المحمدية على الكواكب الدرية»، و«العقود الدرية في رحلة الديار المصرية»، ثم «الزهر البسام في فضائل الشام»، ثم «الزهرة الندية والعقبة العطرية»، ثم «مختصر الاشاعة في أشراط الساعة»، ثمّ «رنّة المثاني في حكم الاقتباس القرآني»، ثم «فيض السرّ المداوي في بهجة الشيخ أحمد النجلاوي»، ثم «المنحة القدسية في الرحلة القدسية». وقد أسهب وأجاد الشيخ سعيد السمان في وصفه. وقال المرادي قد اطلعت على ديوانه فاستحسنته. وذكر كثيراً من شعره ولكن قلّ ما ذكره له غير الغزل والتصابي ومن شعره:

لضرب السيف أو خوض المنايا وطعن السمهري على الصميم
وأكل السمّ من كبد الأفاعي وقبض الجمر في يوم سموم
وايم الله ذاك يهون عندي ولا أحتاج يوماً للئيم

وكانت وفاته سنة ١١٥٤ (سنة ١٧٤١).

٩

عبد المعطي الخليلي

هو ابن محيي الدين الشافعي الخليلي الأصل والوطن والقدسي المأوى والسكن. رحل لطلب العلم من الخليل إلى الجامع الأزهر بالقاهرة فجدّ ودأب على تحصيل العلوم التفسيرية والحديثية والفقهية، وتضلّع خاصةً في مذهب الامام الشافعي، وتولّى افتاء الشافعية في القدس أكثر من خمس وعشرين سنة. وله فتاوى حسنة مجموعة في مجلد، وله رسائل كلها منتخبة منها رسالة في موسى الكليم. وكانت وفاته سنة ١١٥٤هـ (سنة ١٧٤١م).

١٠

خليل الفتال

هو ابن محمد بن ابراهيم بن منصور المعروف بالفتال الدمشقي الحنفي، وُلد

بدمشق سنة ١١١٧هـ (سنة ١٧٠٥م) واشتغل في العلوم على جماعة منهم الشيخ عبد الله البصراوي الدمشقي. قرأ عليه الطب ودرس بالجامع الأموي، وكان كثير الأسفار فذهب إلى الآستانة ثلاث مرات، وزار مصر وبلاد الروم وحجّ إلى مكة وتولّى قضاء عكا على التابيد، وله من التأليف حاشية بالفقه على شرح التنوير للشيخ محمد علاء الدين الحصفكي مفتي الشام. قلت التنوير هو التأليف الموسوم بتنوير الأبصار وجامع البحار في الفروع للشيخ شمس الدين محمد الغزي المتوفي سنة ١٠٠٤م وفي جملة شارحيه الشيخ العلامة محمد علاء الدين المذكور، فلصاحب الترجمة حاشية على هذا الشرح، وله أيضاً كتاب رحلة كتبه بعد سفره إلى بلاد الروم. قال المرادي أخبرت أنّ له شرحاً على لامية ابن الوردي الشهيرة. وكان ينظم الشعر، وذكر بعض أشعاره فاقتصرت مما ذكره على تخميسه بيتّي السلطان سليم خان المكتوبين على المقياس بمصر

إن ساعدتك الأماني واستفدت غنىً ... فكن حديثاً إذا طال المدى حسنا

ولا تباهي بملك من مشيد بنا ... الملك لله من يظفر بنيل منى

يردده قهراً ويضمن بعده الدركا

إن كنت ذا رتبةٍ في الأفق نازلةٍ ... أو ثروةٍ لاجتنا العليا سابغةٍ

فلا تقل لي شيء ضمن منزلةٍ ... لو كان لي أو لغيري قدر انملةٍ

فوق البسيطة كان الأمر مشتركا

وتوفي في سنة ١١٨٦هـ (سنة ١٧٧٢م).

١١

مصطفى البكري

هو ابن كمال الدين بن علي بن كمال الدين الحنفي الدمشقي البكري، وُلد بدمشق سنة ١٠٩٩هـ (سنة ١٦٨٧م) وتوفي والده كمال الدين وعمره ستة

أشهر، فنشأ يتيماً في حجر ابن عمه أحمد بن كمال الدين، وقرأ العلوم على مشاهير المشايخ وتوجّه من دمشق إلى زيارة بيت المقدس مرات وطاف في كثير من البلاد كحلب وبغداد ومصر، وحجّ إلى مكة المكرّمة ثلاثاً. وألّف مؤلفات نافعة منها: «الكشف الأنسي والفتح القدسي» في العبادات وشرحه بثلاثة شروح، ومنها شرحه قصيدة المنفرجة لأبي عبد الله النحوي، وشرحه قصيدة الامام أبي حامد الغزالي التي مطلعها:

الشدّة أودت بالمهج   يا رب فعجّل بالفرج

وله اثنتا عشرة مقامة واثنتا عشر رحلة وسبعة دواوين شعرية وألفية في التصوّف، وتسع أراجيز في علوم الطريقة، وشروح على صلوات كثيرة. وله كتاب سماه «الفرق المؤذن بالطرب في الفرق بين العجم والعرب». إلى غير ذلك حتى قال المرادي بلغت مؤلفاته مائتين وعشرين مؤلفاً بين مجلد وكراستين وأقل وأكثر وكلها وُضع لها أسماء. وله نظم كثير وقصائد خارجة عن دواوينه. ومما أثبته من شعره:

ما هبّ من نحوكم نسيم صبا   إلّا وقلب الفتى إليه صبا
ولا سرى حادٍ لأرضكم   إلّا وأذكى بمهجتي لهبا
ولا شدا مطرب بقربكم   إلّا يراني وجداً بكم اربا
ولا دنوتم لناظري زمناً   إلّا ونادى المشوق واطربا
ولا تذكرتُ عشيةً سلفت   بالخيف إلّا وصحت واحربا
ولا تحدثت عن وصولكم   إلّا وأجريت أدمعي سحبا

وقالوا إنّ هذا على منهاج الصوفية، يراد بالمشوق إليه الذات القدسية، وكانت وفاة البكري في سنة ١١٦٢هـ (سنة ١٧٤٨م).

١٢

محمد الغزي

هو ابن عبد الرحمن بن زين العابدين الغزي أصلاً والدمشقي مولداً الشافعي مذهباً، وُلد بدمشق سنة ١٠١٦ هـ (سنة ١٦٨٤ م) وقرأ العلوم على كثير من العلماء الاعلام، وكان مفتي الشافعية بدمشق، ودرس العلوم في المدرسة العمرية بصالحية دمشق، وتولّى تدريس الحديث في الجامع الأموي. وكان ضليعاً بالتاريخ وألّف تاريخاً سماه ديوان الاسلام جمع فيه ترجم العلماء المشاهير والملوك وغيرهم، وكان شهيراً بالتاريخ والأدب وحفظ الأنساب والأصول وتراجم السلف، وله شعر باهر وفضل ظاهر. ومن شعره:

إذا نصحتَ قليل العقل نلت بذا ... عداوةً منه لا تخفى مساويها

فالحمق داءٌ قبيحٌ لا دواء له ... قد قال فيه من الأشعار راويها

لكل داءٍ دواءٌ يستطبُّ بهِ ... إلّا الحماقة أعيت من يداويها

وكانت وفاته سنة ١١٦٧ هـ (سنة ١٧٥٣م).

١٣

حامد العمادي

هو ابن علي بن عبد الرحيم بن عماد الدين الحنفي الدمشقي المعروف كأسلافه بالعمادي مفتي الحنفية بدمشق وابن مفتيها، وُلد بها سنة ١١٠٣هـ (سنة ١٦٩١م) واشتغل بطلب العلم على جماعة من العلماء، فبرع وساد وألقى الدروس أولاً بالجامع الأموي، ثم تولّى التدريس في السليمانية بالميدان الأخضر، واستفتح تدريسه بخطب أنشأها ثم جمعها، فكانت مجلداً كبيراً. وله مؤلفات

منها «شرح الايضاح» في مجلد كبير. قلت الايضاح أظنه الايضاح في النحو لأبي القاسم عبد الرحمن الزجاجي. والايضاح في المعاني والبيان لجلال الدين القزويني المعروف بخطيب دمشق. وللعمادي أيضاً فتاويه المعروفة بهِ في مجلدَين كبيرَين، والحواشي التي جمعها على دلائل الخيرات، وهذا الكتاب في ذكر الصلاة للشيخ أبي عبد الله محمد الجزولي (عن كشف الظنون) وله رسائل كثيرة منها: «الدرّ المستطاب في موافقات سيدنا عمر بن الخطاب»، ومنها «الحوقلة في الزلزلة»، ومنها «الاتحاف لشرح خطبة الكشاف» و«تشنيف الأسماع في افادة لو للامتناع»، ومنها «القول الأقوى في تعريف الدعوى» و«اختلاف آراء المحققين في رجوع الناظر على المستحقين»، وله كثير غير ذلك منه ديوان شعر ومكاتبات. ومن شعره:

ولا تبغِ إلّا الأوج أرفع منزلٍ   وإن ملت نحو الدون أنك سافلُ
فما المرء إلّا حيث يجعل نفسه   وإني لها فوق المساكين جاعلُ

وقال في فوارة

كأن فوارة قامت لناظرها   ذوائب لفتاةٍ نظمت غررا
قد أطربتها الغواني وهي ناشدةٌ   من شدة الرقص في أطرافها دررا

وكانت وفاته سنة ١١٧١ هـ (سنة ١٧٥٧ م)

١٤

سعيد السمان

هو ابن محمد بن أحمد السمّان الشافعي الدمشقي، وُلد بدمشق سنة ١١١٨هـ (سنة ١٧٠٦م) واشتغل بطلب العلوم على كثيرين من الشيوخ في أيامه فنبغ ومهر وساد واشتهر وامتدح الأعيان والرؤساء والوزراء بدمشق وغيرها بقصائد بليغة بديعة. وألّف كتاباً في من امتدح فتح الله بن محمد الدفتري الدمشقي وسماه: «الروض النافح في ما ورد على الفتح من المدائح». وأراد تأليف كتاب

يترجم بِهِ شعراء عصره . وارتحل إلى البلاد لجمع آثارهم وقصد أن يجعله كالنفحة للأمين المجبي، والريحان للشهاب الخفاجي، والسلافة لابن معصوم الملكي فلم يتم له ذلك ، وبقي كتابه في المسودات وانتثر وتبدد، وعاقته المنية عن نشر هذا الكتاب النفيس. ولكن له رسائل أدبية وديوان شعر سماه «منائح الأفكار في مدائح الأخيار». وروي أنه نظم «المغني في النحو» وألّف حاشية على الكامل للمبرد .
ومن شعره:

في الصبر

إذا رمتك الليالي وهي مظلمةٌ　　بحادث واستطالت شوكة الزمنِ
فاصبر فكم في مطاوي جنحها فرجٌ　　إن لم يجئ وقتها المحتوم لم يكنِ

وله في المداراة:

يا صاحب الحزم والرأي الصحيح ومن　　يصغى لكل كمالٍ في الورى ويعي
قالوا المداراة نصف العقل قلت لهم　　إنّ المداراة كل العقل فاستمعِ

وكانت وفاته في سنة ١١٧٢هـ (سنة ١٧٥٨م).

١٥

محمد السفاريني

هو أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني الحنبلي ، وُلد بقرية سفارين من قرى نابلس سنة ١١١٤هـ (سنة ١٧٠٢م) ثم رحل إلى دمشق طلباً للعلم ، فأخذه عن الشيخ عبد الغني النابلسي وغيره ، وحصل في زمن قليل ما لم يحصله غيره في زمن كثير. ثم عاد إلى نابلس واشتهر بالفضل والذكاء ، وألّف تآليف كثيرة منها شرح ثلاثيات مسند الامام أحمد في مجلد ضخم ، ويراد بالثلاثيات ما اتصل بالرسول من الحديث بثلاثة رواة . وتنحصر الثلاثيات في صحيح البخاري في اثنين وعشرين حديثاً . ومن مؤلفات السفاريني أيضاً شرح نونية الصرصري سماها «معارج الأنوار في سيرة النبي المختار» في مجلدين . و «تحبير الوفا في سيرة

المصطفى»، و«غذا الألباب في شرح منظومات الآداب»، و«البحور الزاخرة في علوم الآخرة»، و«كشف اللثام في عمدة الأحكام»، و«الجواب المحرر في الكشف عن حال الخضر والاسكندر» و«القول العلي في شرح أثر أمير المؤمنين علي»، و«قرع السياط في قمع أهل اللواط»، و«المنح الغرامية في شرح منظومة ابن فرح اللامية»، و«الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية»، وشرحها المسمى الآثار الأثرية بشرح منظومتنا المسماة بالدرة المضية، ورسالة في بيان الثلاث والسبعين فرقة إلى غير ذلك. وله من الشعر في المراسلات والغزليات والوعظيات والمرثيات شيء كثير. وكان له الباع الطويل في التاريخ وحفظ وقائع الملوك والأمراء والعلماء والأدباء.

ومن شعره:

الصبر عيل من القلا والنفس أمست في بلا

والجفن جفّ من البكا والقلب في الشجوى غلا

وشكا اللسان فقال في شكواه لا حول ولا

وكانت وفاته سنة ١١٨٨ هـ (سنة ١٧٧٤ م).

١٦

حسن البخشي

هو ابن عبد الله بن محمد البخشي الحلبي، وُلد بحلب سنة ١١١١ هـ (سنة ١٦٩٩ م) وقرأ على والده العلامة الفقه والنحو والحديث والتصوّف، وقرأ على غيره من العلماء منهم الشيخ سليمان النحوي الحلبي الشهير، وألّف رحلة ذكر فيها من اجتمع بهم من الأفاضل في أسفاره وتردّد على القسطنطينية مراراً، وقرأ على علمائها وألّف وأجاد ونظم. ومن تآليفه «بهجة الأخبار في شرح حلية المختار»، و«النور الحلبي في النسب الشريف النبوي»، ورسالة في رجال الشمائل وشرح على الشمائل، وله تأليف في العقائد سماه «تحرير المقال في خلق الأفعال»، وله ديوان

حافل وشرح مفيد في قصيدته المسماة بعقود الآداب، وسمى شرحه «تنقيح الألباب في حلّ عقود الآداب»، وكان يتعاطى القضاء والنيابة بحلب وغيرها. وله شعر رائق، وكانت وفاته سنة ١١٩٠هـ (سنة ١٧٧٦م).

١٧

أحمد شاكر الحموي

هو ابن عمر بن عثمان المعروف بالشاكر الحموي نزيل دمشق الحنفي الصوفي وُلد بحماة سنة ١١٢١هـ (سنة ١٧٠٩م)، وقرأ العلوم والفنون على بعض المشايخ وطاف في شبابه البلاد حلب وبغداد والموصل وطرابلس والحجاز حتى الهند والعجم على قوله. وكل بلدة حلّ فيها امتدح أعيانها ورؤساءها إلى أن أقام بدمشق وامتدح أعيانها وكبراءها، واشتهر فضله وأدبه لكنه تعاطى عمل الكيمياء وأنفق عليه ماله، وانخدع به جماعة فصرفوا أموالهم معه، فكان هذا سبب فقره حتى أدّاه إلى أن صار ينقل الحكايات في بعض بيوت القهوة، وأوقعه في أمراض قال المرادي كنت أزوره وكان يحدثني بوقائعه، ويتحفني بنوادره. وقد طلبت منه ديوان أشعاره وهو ثلاثة مجلدات وسماه «حانة العشاق وريحانة الأشواق»، فدفع إليّ مجلدة بعد أخرى وعندي نسخة منه كتبتها عن الأصل وصححتها عليه وهو سبعة أبواب في نظام كلام الحقيقة ومدائح الرسول والآل والأصحاب والغراميات والخمريات ومدائح الأعيان والأحاجي والمعميات والالغاز ثم القوما والمردوف. ومن شعره مخمساً قصيدة الفتح النحاس:

برقٌ أهاج سحاب الدمع لائحهُ   والقلب يرعد والأحشا تكافحهُ
والصبّ مذ بان في الذكرى فوادحهُ   تذكّر السفح فانهلت سوافحهُ
وليس يخفاك ما تخفي جوانحهُ
حال المشوق جليٌّ غير منكتم   والوجد يظهره ناراً على علم

فلا تلم إن هام دمعي بمنسجم صدع الهوى يا عذولي غير ملتئم

يدريه بالبان من أشجاه صادحةُ

وكانت وفاته سنة ١١٩١هـ (سنة ١٧٧٩م).

١٨

عبد الله اليوسفي الحلبي

هو ابن يوسف بن عبد الله المعروف باليوسفي الحلبي الشاعر البارع، وُلد بحلب وقرأ على والده مدة حياته، وبعد وفاته على المشاهير من علماء حلب. وكان أوحد الشهبا في النظم والتاريخ والابتكارات في فنون الأدب. وله بديعية التزم بها تسمية أنواع البديع، واخترع فيها أربعة أنواع ثم شرحها شرحاً جيداً. وله من المدائح والتواريخ والأحاجي والمعميات وغيرها شيء كثير. وكانت بينه وبين علماء عصره مطارحات ومساجلات كثيرة. وكان يتعاطى بيع البن في حانوته، فاشتهر بالبني وعرض له صمم قبل وفاته بثلاث سنوات فأصابه من ذلك كدر عظيم فنذر أن يستغيث بالنبي بألف بيت راجياً الشفا فلم يتمها. وكان قد زار دمشق، وجرى بينه وبين علمائها من المطارحات ما يملي بطون الصفحات. وله قصائدفي مدح الشيخ علي المرادي والد محمد خليل المرادي الذي نأخذ عن كتابه هذه التراجم. ومن شعره في مديح دمشق والشيخ المذكور:

أيا جلقاً لا زلتِ باسمة الثغرِ بصيب أفراحٍ تدوم مدى الدهرِ

وما انفكَّ مغناكِ يلوح مسرةً ودوحة علياكِ مضمخة العطرِ

تسامت بقاع اليمن منكِ بسادةٍ لهم شرف يسمو على الأنجم الزهرِ

ولا سيما منهم همامٌ مكرمٌ مجيدٌ علي الشان مرتفع القدرِ

أما هو في عليا دمشق هلالها وكوكبها السامي على الكوكب الدري

ومن شعره:

سكرتُ بعيني من أحب فلم أزل مدى الدهر نشواناً وعقليَ ذاهلُ
سلوا مدمناً للخمر إن كان صادقاً تكون في الصهباء تلك الفعائلُ

وكانت وفاته سنة ١١٩٤هـ (سنة ١٧٨٠م).

١٩

محمد خليل المرادي

هو ابن السيد علي المرادي مفتي دمشق الشهير ابن السيد محمد بن السيد مراد ابن السيد علي المعروف بالمرادي الحنفي البخاري الأصل. صاحب التأليف الذي وسمه «بسلك الدرر في أعيان القرن الثاني» عشر الذي لخصنا عنه كل ما مرّ من التراجم. قال في حقه صاحب الكتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع أنه نبذ من تأليفه المذكور كل ما هو مملّ وأورد فيه المفيد الملذّ، ولا غنى عنه في معرفة سير المشاهير من أهل القرن الثاني عشر. ونحن نصادق على هذا الكلام وقد طُبع كلامه المذكور ببولاق سنة ١٣٠١هـ وكانت وفاة هذا المؤلف العلامة سنة ١٣٠٦هـ (سنة ١٧٩١ م).

عد ١٠٤٧
من عاصر هؤلاء من المشاهير غير السوريين

١

السيد عبد الله الحدادي اليمني

هو ابن علوى بن أحمد المهاجر بن عيسى وأوصل المرادي نسبه إلى علي بن أبي طالب، وُلد سنة ١٠٤٤هـ (سنة ١٦٣٤م) بتريم من اليمن سكن السادة الحسينيين وأرّخ بعضهم مولده بقوله: «وُلد بتريم امامٌ كريم» وعكف على تحصيل العلوم على بعض أكابر العلماء، ولكن كفّ بصره وهو صغير فمنحه الله حفظاً يسحر الألباب وفهماً يأتي بالعجب العجاب، فألّف مؤلفات كثيرة منها رسالة «المعاونة والموازرة للراغبين في طريق الآخرة»، و«اتحاف السائل بأجوبة المسائل» وهو جواب على أسئلة سأله عنها الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله باعباد. وختمه بخاتمة تتضمّن شرح أبيات الشيخ عبد الله بن أبي بكير العيد روس التي أولها: «هبت نسيم المواصلة بلا اتصالٍ ولا انفصال». وله كتاب «الجامع» جمع به المكاتبات والوصايا والكلام المنظوم والكلام والمنثور، وله ديوان كبير الحجم. ومن شعره قصيدة تائية حذا فيها حذو ابن الفارض في تائيته أولها:

بعثت لجيران العقيق تحيتي وأودعتها ريح الصباحين هبتِ
سحيراً وقد مرتّ عليَّ فحركت فؤادي كتحريك الغصون الرطيبةِ
وأهدت لروحي نفحةً عنبريةً من الحي فاشتاقت لقرب الأحبةِ

وله أيضاً من المؤلفات كتاب النصائح الدينية والوصايا الايمانية ورسالة المزيد ورسالة المذاكرة وفتاوى والفصول العلمية. وكانت وفاته سنة ١١٣٢هـ (سنة ١٧١٩م).

٢

علي العمري

هو ابن مراد العمري الموصلي الشافعي بذل جهده في تحصيل العلوم حتى حاز قسماً كبيراً منها ، وله تآليف لطيفة منها شرح كتاب الآثار للامام محمد ، وشرح الفقه الأكبر للامام الأعظم وله على كل فنّ تعليقات . وكان مجلسه غاصاً بالعلماء والفضلاء يستغنى به عن القراءة والدرس وكان له الحظ الأوفر من الثروة والغنى ، وتولّى افتاء بغداد مدة سنين ، والقضاء والافتاء بالموصل . وله شعر حسن منه في وصف الروض:

رقصت بلابلها على أغصانها ... طرباً ببهجةِ وردها المترأسِ
فالياسمين معانقاً أوراقها ... قد قلدته خمائلاً من سندسِ
والاقحوان الثغر منه باسمٌ ... وكذلك الغضّ العيون النرجسِ
يختال في قطب الزبرجد مائلاً ... والرأس فيهِ مائلٌ بتنكسِ

إلى أن قال:

فاشرب معتقة الزمان شمولة ... تذر الهموم صحيفة المتلمسِ
واسطو على خطب الزمان بيأسها ... إنّ المدام أنيسة المستأنسِ

وكانت وفاته سنة ١١٤٧ هـ (سنة ١٧١٤ م).

٣

خليل المصري

هو المكنّى بأبي الفتح الفيومي الشافعي المصري نزيل حمص، وُلد بالفيوم من الصعيد وارتحل إلى مصر واقتبس العلوم في الجامع الأزهر فكان عالماً فاضلاً محققاً ذكي الفهم فصيح اللسان، وكان مغرماً بشرب القهوة والتدخين وله يد طائلة في العلوم والتأليف. فمن تأليفه رسالة نظم في التصوّف سماها «دوام الراحات في اتخاذ الخلوات». مطلعها:

يقول راجي من بهِ التكميل المحيوي عبده خليلُ

وله مؤلف في الرد على الاسماعيلية سماه السطوة العدلية بالفرقة الاسماعيلية نحو أربعمائة بيت وصفها الخالدي بأنها عجيبة. وله أيضاً بمؤلف في العروض أجاد فيه كثيراً. وكتاب في الحديث اقتضبه من العهود الكبرى للشعراني، ومن الاذكار النووية. وله قصائد كثيرة يطول تعدادها. وقدم إلى دمشق وأخذ عن بعض علمائها. ثم سار إلى حمص وأقام بها مدة سنين. وكانت وفاته بحماة في نيف سنة ١١٦٠هـ (فوق سنة ١٧٤٧م).

٤

محمد ابن الطيب

هو ابن محمد بن محمد بن موسى الفاسي المالكي الشهير بابن الطيب نزيل المدينة المنوّرة. وُلد بفاس سنة ١١١٠هـ (سنة ١٦٩٨م) ونشأ بها، وأخذ العلوم عن والده محمد وغيره فبرع حتى صار اماماً لأهل اللغة العربية وتضلّع في كثير غيرها من العلوم. ونزل بالمدينة المنوّرة ورحل إلى بلاد الروم ماراً بالشام. ورجع

بطريق مصر وأخذ عنه كثيرون، وحصل بينه وبين علماء هذه الديار مباحثات علمية. وله تآليف حسنة منها حاشية على القاموس وشرح نظم فصيح تعلب في مجلدين وشرح كفاية المتحفظ (في اللغة نظم للقاضي شهاب الدين أبو عبد الله محمد الخوبي المتوفي سنة ٦٩٣ عن كشف الظنون) وحاشية على الاقتراح (في أصول النحو وجدله لجلال الدين السيوطي) وشرح كافية ابن مالك، وشرح شواهد الكشاف للزمخشري وحاشية على المطول (وهو شرح سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح) إلى غير ذلك من المصنفات التي قال المرادي أنها تنوف عن خمسين مصنفاً. وله شعر حسن ومنه في مدح الأسفار والاغتراب:

سافر إلى نيل المعزّة إنّ في السفر الظفر

واعلم بأنّ المكث في ألـ أوطان يدعو للضجر

أو ما رأيت الما بطول المكث يعلوه الوضر

والبدر لو لزم الاقا مة في محل ما بدر

والدرّ لو أبقوه في قعر البحار لما افتخر

والتبر ترب في المعا دن وهو أفخر مدّخر

والعود معدودٌ لدى الـ غابات من جنس الشجر

والباتر المغمود لو لم يخرجوه لما بتر

فادأب على الترحال في الـ ألأحوال أجمعها تسر

واغرب بشرقٍ واشرقنَ في الغرب إن تك ذا نظر

لا تؤثرنَ بدواً ولا حضراً وكن مع ما حضر

فالبدو عزٌّ واللطا فة والظرافة في الحضر

فإذا بدوت فكل عزٍّ باذخ فيكَ استقرّ

وإذا حضرتَ فكل ظر في ظرفه لك مستقرّ

لا تبكِ الفاً لا ولا داراً ولا رسماً دثر

فالناس ألفك كلهم والأرض أجمعها مقر

فمتى وجدت العزّ والـ عيش الهنيّ أقم تسرّ
ومتى رأيتَ الضدّ والضدّ الخفيّ فدع وذر
واجعل بضاعتك التقى مع من أسرّ ومن جهر
فإذا اتقيت الله فز تَ بكل كنزٍ مدّخر

وكانت وفاته في المدينة سنة ١١٧٠هـ (سنة ١٧٥٦م).

٥

عبدالله السويدي

هو ابن الحسين بن مرعي بن ناصر الدين البغدادي الشافعي المعروف بالسويدي، وُلد ببغداد سنة ١١٠٤هـ (سنة ١٦٩٢م) وتوفي والده وعمره ست سنين فكفله عمه لأمه الشيخ أحمد سويد، فعُرف بالسويدي. وعلمه العلوم فنبغ وتصدّر للتدريس وانتفع به الطلبة علماً وعملاً. وسار من بغداد إلى الموصل ومنها إلى حلب ثم إلى دمشق واقرأ في حلب دروساً عامة وخاصة. وأخذ عنه بها خلق كثيرون. واقرأ بدمشق أيضاً وأقبل عليه الطلبة. واقرأ في المدينة المنوّرة أيضاً ثم عاد إلى بغداد وألّف المؤلفات النافعة منها شرح «دلائل الخيرات» للشيخ أبي عبدالله الجزولي، وسمى شرحه «أنفع الوسائل في شرح الدلائل» وحاشية على المغني (أي مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري) جعلها محاكمة بين شارحيه كالدماميني والشمني وابن الملا والماتن. وألّف متناً في الاستعارات جمع فيه فأوعى وسمى تأليفه «الجمانات» وشرحه شرحاً حافلاً. وله مقامة مشهورة ضمّنها الأمثال السائرة وقرظه عليها أعيان العلماء. وله ديوان شعر. ولما رحل إلى مكة ألّف رحلة سماها «النفحة المسكية في الرحلة المكية» إلى غير ذلك. ومن شعره قوله لصاحب له أهدى إليه ثلاث هدايا في يوم واحد وكان له صديق اسمه عطية:

يا فاضلاً لا يجارى في البحث بين البرية
وسيداً ذا أيادٍ بالشكر مني حرية
غمرتني بالعطايا وكان حسبي عطية

وتوفي سنة ١١٧٤هـ (سنة ١٧٦٠م).

٦

يوسف الحنفي

هو ابن سالم بن أحمد الشافعي القاهري الشهير بالحنفي، درس العلوم في الجامع الأزهري فبرع وفضل وسما قدره ونبل، ولما توفي الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الجامع الأزهر، صار أخوه محمد الحنفي مكانه، وكان يوسف مدرساً عنه، وألّف مؤلفات دقيقة وتحريرات أنيقة منها الحاشية الحافلة على شرح الألفية للأشموني، وحاشية على شرح الخزرجية لشيخ الاسلام زكريا، وشرحان على شرح آداب البحث للمنلا حنفي، وشرح على شرح العصام للاستعارات، وشرح التحرير في الفقه. وله رسالة في علم الآداب وشرحها ونظم البحور المهملة في العروض وشرحها، وله ديوان شعر مشهور إلى غير ذلك. ومن شعره تخميساً:

حسبتُ الدهر لي خلا مطيعا فراع حشاشتي روعاً شنيعا
بصحبٍ خلتهم حصناً منيعا وأخوان تخذتهم دروعا

فكانوها ولكن للأعادي

رأيت لهم عهوداً صادقاتٍ وأحوالاً لودّي مظهراتٍ
ظننتهم قسيساً مانعاتٍ وخلتهم سهاماً صائباتٍ

فكانوها ولكن في فؤادي

فكم ظهرت لنا منهم عيوبٌ ولا لأعـيني فـجـرٌ كـذوبُ
وكـم حلفـوا يميناً أن يتـوبوا وقالوا قد صفت منّا قلوبُ
قـد صـدقـوا ولـكـن مـن ودادي

وكانت وفاته سنة ١١٧٦ هـ (سنة ١٧٦٢ م).

٧

محمد التونسي

هو أبو عبد الله بن علي التونسي له حاشية على شرح ألفية ابن مالك المعروف بمنهج السالك على ألفية ابن مالك لعلي بن محمد الأشموني. وسمّى التونسي حاشيته «زواهر الكواكب» وطُبعت في تونس سنة ١٢٩٣ هـ وله أيضاً كتاب «كنوز الصحة» جمع فيه كنزاً من المعلومات الطبية في حفظ الصحة، وطُبع ببولاق سنة ١٢٨٠هـ وتوفي محمد التونسي سنة ١١٩٩هـ (سنة ١٧٨٤م) عن اكتفا القنوع صفحة ٣٠٤.

٨

عبد الرحمن العيدروس

هو ابن مصطفى اليمني له ديوان سماه تنميق الأسفار في ما جرى له مع اخوان الأدب في بعض الأسفار، طُبع بالقاهرة سنة ١٣٠٤هـ. وله ديوان آخر في ما جرى عليه وله بمصر، طُبع مع الديوان الآخر. وفي آخر هذه الطبعة ذيل ذكر

فيه ما كتب من المراسلات بعد عوده من مصر إلى بلاد الحرمين. وله ديوان ثالث سمّاه «ترويح البال وتهييج البلبال» طُبع ببولاق سنة ١٢٨٣هـ. وتوفي العيدروس بمصر سنة ١١٩٢هـ (سنة ١٧٧٨م) عن اكتفا القنوع صفحة ٣٩٦.

٩

عمر البغدادي

هو ابن عبد الجليل بن محمد جميل بن عبد المحسن الحنفي البغدادي القادري نزيل دمشق، وُلد ببغداد سنة ١١٥٥هـ (سنة ١٧٤٢م) ونشأ في كنف والده الذي كان فقيهاً مشهوراً وقرأ عليه وعلى غيره من العلماء، وقصد دمشق فاستوطنها وتزوج فيها. وقرأ عليه كثيرون وألّف تآليف وافرة منها شرحه كتاب القدوري في الفقه وحاشية على المغني (أي مغنى اللبيب لابن هشام) في النحو، وحاشية على القصيدة النونية في علم الكلام للخيالي، وحاشية على حاشية العلاّمة علي بن سلطان محمد القارئ المكي المسماة بالجمالين أو الجلالين (وهو كتاب في تفسير القرآن لجلال الدين السيوطي ولجلال آخر مرّ ذكر هذا الكتاب) وسمى عمر حاشيته: «الكمالين في شرح الجلالين»، ولكن توفي قبل أن يكملها. وله حاشية على رسالة وحدة الوجود للمولى الجامي، ورسالة في الاعلام بالتكبير، ورسالة في الأضحية وأخرى في معنى لا إله إلّا الله، وحاشية في الاستعارات جعلها محاكمة بين العصام والملوي، ورسالة في مسألتين لغويتين وقعتا في القاموس الأول في قولهم السرور توقيع جائز، والثانية في بيان أنّ العشر في ظمأ الابل هو اليوم التاسع أو الثامن، إلى غير ذلك من الرسائل والحواشي والتعليقات. وجرى في تأليفه مجرى التحقيق والتدقيق وانتفع به طلبة كثيرون. وحصل اقبال عليه تام من الوزراء والقضاة والحكام، واشتهر كثيراً حتى عُدّ فرد العصر. ولكن فاجأته المنية في شبابه قبل أن يكتهل، فمات في دمشق سنة ١١٩٤هـ (سنة ١٧٨٠م) ورثاه تليمذه عبد الحليم بن أحمد اللوجي بقصيدة مطلعها:

ما خلت أنّ عقود الشمل تنتثر   وأنّ صدع فؤادي ليس ينجبرُ

وختامها:

سقتك من صيب الرضوان وادقة ينهلُّ شوبوبها والعفو ينهمرُ
ما قال داعي الرضا في ما يؤرخه دار النعيم لعمرى قد حوى عمرُ

١٠

عطية الله الاجهوري

هو ابن عطية البرهاني القادري الشافعي الشهير بالاجهوري، برع في العلوم وتصدّر بالجامع الأزهر لاقراء الدروس، وأقبل عليه الطلبة حتى قيل إنّ الذين يحضرون دروسه نحو خمس مئة طالب، وله مؤلفات نافعة منها «شرح مختصر السنوسي في المنطق»، وحاشيته شرح منظومة في أصول الحديث وهي المعروفة بـ «المنظومة البيقونية» في مصطلح الحديث شرحها أولاً محمد الزرقاني المتوفي سنة ١١٢٢هـ (سنة ١٧١٠م) ثم علّق الاجهوري حاشيته على الشرح طُبعت بالقاهرة سنة ١٣٠٥هـ ثم أعيد طبعها بها سنة ١٣١٠هـ وكانت وفاته سنة ١١٩٤هـ (سنة ١٧٨٠م).

١١

محمد الكردي

هو ابن سليمان الكردي المدني الشافعي، وُلد بدمشق سنة ١١٢٧هـ (سنة ١٧١٥م) وحُمل إلى المدينة وهو ابن سنة ونشأ بها وأخذ عن أفاضلها وألّف مؤلفات نافعة منها شرح فرائض التحفة (أظنها الكتاب المعروف بتحفة الرائض في الفرائض ولم يذكر صاحب كشف الظنون اسم مؤلفه، أو هي التحفة القدسية

منظومة في الفرائض للشهاب أحمد بن الهاشم المتوفي سنة ٨٨٧ هـ). وله حاشيتان على شرح الحضرمية لابن حجر الهيثمي كبرى وصغرى، ثم اختصرها فكان المختصر حاشية ثالثة. وله «عقود الدرر في بيان مصطلحات ابن حجر» وحاشية على «شرح الغاية للخطيب»، و«الفوائد المدنية في من يفتي بقوله من الشافعي»، و«فتح الفتاح بالخير في معرفة شروط الحجّ عن الغير»، وشرح «منظومة الناسخ والمنسوخ وزهر الربا» في بيان أحكام الربا، وفتاوى في مجلدين ضخمين وغير ذلك. وكانت وفاته سنة ١١٩٤هـ (سنة ١٧٨٠م).

١٢

محمد مرتضى

هو من زبيله مدينة في اليمن وينسب إلى الحسينة وهو حنفي المذهب وصاحب «تاج العروس من درر القاموس»، ولم يقتصر صاحبه على شرح قاموس الفيروزابادي بل زاده كثيراً من معلوماته وأصلح بهِ كثيراً. وقد طُبع طبعة كاملة بالقاهرة في عشرة أجزاء سنة ١٣٠٦هـ وفي صدره مقدمة مطوّلة تكلّم فيها أولاً عن اللغة مبيّناً الحقيقة والمجاز والاضداد والمترادف والمعرّب والمولد وذكر ثانياً مراتب اللغويين وأئمة اللّغة في البصريين والكوفيين ثم بين أول من صنّف في اللغة، ووضع ترجمة الفيروزابادي وشرح مقدمته. وتوفي محمد المرتضى سنة ١٢٠٦هـ (سنة ١٧٩٣م) عن اكتفاء القنوع.

١٣

محمد الصبان

هو محمد ابن علي الصبان المعروف بأبي العرفان وهو من علماء مصر المشاهير، وله تآليف وشروح كثيرة منها شرحه لأرجوزة الأخضري في المنطق التي

سمّاها السلم المرونق وهي تبلغ نحو مئتي بيت يحفظها الطلبة في الجامع الأزهري وطُبعت ببولاق سنة ١٢٨٥هـ وبالقاهرة سنة ١٣١١هـ. وللصبان أيضاً أرجوزة في العروض وشرحها طبعاً بالقاهرة سنة ١٣٠٧هـ، وله حاشية على شرح الأشموني المشهور لألفية ابن مالك، والموسوم بمنهج السالك في ألفية ابن مالك. وللصبان أيضاً حاشية على هذا الشرح يعول عليها في التدريس بالجامع الأزهر، وقد طُبعت ببولاق سنة ١٢٨٠هـ وسنة ١٢٩٤هـ وبمصر سنة ١٣٠٥هـ. وله أيضاً تعليقات على المختصر للسعد التفتازاني ذلك أنّ أبا يعقوب يوسف السكاكي الخوارزمي وضع كتاباً سماه مفتاح العلوم وقسمه ثلاثة أقسام في التصريف والنحو والمعاني والبيان والبديع، فاختصر جلال الدين القزويني القسم الثالث منه في المعاني والبيان والبديع وسمى كتابه تلخيص المفتاح. ثم شرح التفتازاني تلخيص القزويني في كتاب سمّاه المطوّل، ثم اختصر المطوّل وسماه المختصر، فعلى هذا المختصر علّق الصبان حواشي كثيرة فجرد مصطفى البناني هذه التعليقات عن الهوامش وجعلها حاشية وسماها حاشية التجريد على مختصر التفتازاني، وطُبعت هذه الحاشية ببولاق سنة ١٢٨٥هـ. ثم شرح الصبان تجريد البناني وطبع شرحه ١٢٩٧هـ ويعول عليه في التدريس في الجامع الأزهر.

وللصبان أيضاً حاشية على شرح عصام الدين بن عرب شاه للسمرقندية وهذه رسالة في الاستعارات لأبي الليث نصر السمرقندي، فاشتهرت هذه الرسالة بالسمرقندية وشرحها عصام الدين المذكور فوضع الصبان حاشية على شرحه وطُبعت بالقاهرة سنة ١٢٩٩هـ وعلى هامشها شرح عصام الدين في حاشية أخرى لحفيده علي. وله أيضاً منظومة سماها «الكافية الشافية في علمي العروض والقافية»، وله عليها شرح طُبع بمصر سنة ١٢٨٨هـ وربما كانت هذه المنظومة هي الأرجوزة في العروض التي ذكرناها آنفاً، لكن صاحب «اكتفا القنوع» ذكر الأرجوزة وقال إنها طُبعت سنة ١٣٠٧هـ ثم ذكر هذه المنظومة وقال إنها طُبعت سنة ١٢٨٨هـ ويُحتمل أن تكون طُبعت مرتين. وكانت وفاة محمد الصبان سنة ١٢٠٦هـ (سنة ١٧٩١م).











